

سند وفاق المسلم - ٥

وَتَشَاتِقُ
الْحُرُوفُ الصَّالِحَةُ
مَنْقُذَةٌ

وَالْعَزْزُ الْمُبَغَّى
لِلْعَالَمِ الْأَسْلَامِيِّ

الدكتور

محمد ماهر حمادة

أستاذ في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مؤسسة الرسالة



وثائق الحروب الصليبية
والغزو المغولي
للعالم الاسلامي

سنة وثاني للهجرة - ٤

وَبَشَائِقُ

أحروب الصليبية ولغز المغولي

للعالم الإسلامي

٤٨٩ - ١٢٠٦ هـ - ١٠٩٦ - ١٤٠٤ م

الصفحة العظمى مكتبة الأسكندرية
رقم التصنيف
رقم التسجيل

« دراسة ونصوص »

الدكتور محمد زهر حنادة

أستاذ في جامعة محمد بن عبد الله الإسلامية

منشورات مؤسسة الرسالة

الطبعة الاولى

١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

الطبعة الثانية

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

منشورات مؤسسة الرسالة

بيروت شارع سورية - بناية صمدي وصالحه

هاتف : ٢٩٥٥٠١ - ٢٤١٦٩٢ - ٣١٩٠٣٩ ص. ب ٧٤٦٠

برقياً : بيوشران

حقوق الطبع محفوظة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اسْتِهْلَال

الحمد لله الذي خلق فسوئى ، والصلاة والسلام على خير من اهتدى
وهدى ، سيدنا محمد إمام المرسلين وأهل التقوى ، وعلى من تبع هديه بإحسان
إلى يوم العرض الأكبر . وبعد :

فيسرنا أن نقدم إلى القراء الأعزاء عامة والمختصين بالموضوع بشكل
خاص العدد الخامس من سلسلة وثائق الإسلام الموسوم بأمم « وثائق الحروب
الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي : دراسة ونصوص » وهو يكل
سابقاته ، وخطته كخطتها ، هدفنا أن نجتمع بين دفتيه أغلب الوثائق
العائدة لدينك العصريين المهمين من تاريخ الإسلام ، وذلك بعد أن أخذناها
من مختلف المظان ، ورتبناها وصنفناها حسب الموضوعات ، وقدمنا
لهذه الوثائق بفصل تمهيدي درسنا العصر كله ، كما بدا لنا من خلال
الوثائق . والله تعالى نسال أن يفيد من هذه الدراسة وهذا الجهد .
ويشكر المؤلف الله عز وجلت قدرته الذي أمدّه بالعمر والصحة
والنشاط اللازم لإنجاز هذا العمل ، ويرجوه جلّت قدرته أن يمدّه
بسبب من عنده حتى يتمكن من إكمال حلقات هذه السلسلة من وثائق
التاريخ الإسلامي حتى يصل بها إلى نهايتها المحتومة ، وهو المسؤول ،
وهو القادر على كل شيء .

كما وأن المؤلف يشكر كل من ساعده ويُساعِد في إخراج هذه
السلطة بشكل من الأشكال ، ويرجو الباحثين أن يمدوه بأرائهم وتوجيهاتهم
وانتقاداتهم على يستفيد منها في سبيل تصحيح منهجه وتلويح دراسته
وفي الختام نشكره تعالى على ما أنعم، ونسأله المزيد من فضله، وهو المسؤول
أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم ، وما ذلك على الله بعزيز .

٢١ ذو القعدة ١٣٩٧ هـ

٢ تشرين الثاني ١٩٧٧ م

المؤلف

محمد ماهر حمادة

فصل تمهيدى

المدخل إلى الوثائق - دراسة ونقد

تمر في حياة الأمم والشعوب أوقات حرجية ، وأزمات مستعصية يكونون فيها قاب قوسين أو أدنى من الهلاك ، ويشعرون وكأن القيامة توشيك أن يحل أجلها ، وتأخذ الأزمات بخناقهم حتى أنهم لا يستطيعون فكاًكاً من قبضتها . كما وأن أغلب الأمم والشعوب هاجها الأعداء والطامعون ، وبلغوا منها ، وفالوامنها إيلاماً وجرحاً ونقصاً وانتقاصاً . كما وأن أغلب الأمم والشعوب مرت ولا تزال تمر بأوقات سعيدة افتر فيها ثغر الحياة عن ابتسامة وضاءة أثارى معالم الطريق أمام هذه الشعوب وازدهرت أحوالها الاقتصادية والاجتماعية والنفسية والأخلاقية . وترقى في معارج التقدم والحضارة ، وتساهم أجل وأجل مساهمة في خدمة حضارتها الذاتية أولاً ، ومن ثم في بناء صرح الحضارة العالمية ، والشعوب الإسلامية لم تشد عن هذه القاعدة ، فقد تعاور عليها النقيضان : من بؤس ونعيم ، وخير وشر ، ورقعة وخفظة ، وساهمت في الحضارة العالمية مساهمة رفيعة ، وأفاضت على العالمين خيراً عميماً . ثم داهمتها المصائب والأوزار من كل حدب وصوب ، فتعميقتُها وانتقصتها ، وأعمل فيها أعداؤها معاول الهدم والتخريب بما جعلها تترنج تحت ثقل وطأة هذه الضربات ، وتضطر للتقهقر الحضاري ، وأن تعيش على هامش الحضارة العالمية فترة طويلة من الزمن ، وعلى الرغم من أن أغلب الأمم تعرضت

وتعرض للأعداء وهجومهم عليها ، إلا أن التاريخ لم يشاهد أمة من الأمم تكالب عليها الأعداء وهاجموها بمثل الشراسة والقسوة التي هاجم بها أعداء الأمة الإسلامية هذه الأمة . ذلك أن بلاد الاسلام شاهدت ما يمكن أن يكون أشرس هجوم حضاري تعرض له أمة من الأمم ، وذلك خلال أكثر من قرنين من الزمان ، وأعني بذلك الهجوم الصليبي الذي شنته أوروبا تحت اسم الصليب على غربي البلاد الإسلامية خلال قرنين من الزمان (الخامس والسادس الهجريين / الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين) ، وهجوم المغول على شرقي البلاد الإسلامية خلال أكثر من قرنين آخرين (السادس والسابع الهجريين / الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين) . ولقد كان الهدف من هذا الهجوم المزدوج اللغا على الاسلام كدين وكمحضارة ، واستئصال الدين الإسلامي من جذوره ومنابعه ، وتدمير الحضارة الإسلامية المزدهرة ، وتدمير بلاد المسلمين والقضاء على المسلمين كمجتمعات وكأفراد .

ولسوء الحظ فإن البؤر الحضارية بما تحويه من ثروات ، وبما تتمتع به من رخاء ، وبما تشع به من تفوق ، وبما يتخللها بعض الأحايين من تحلل أو ضعف تاجهم عن الإغراق في الحضارة ، تجذب لها جيرانها الممج الأقل تحضراً ، وتغريهم بالنفوذ إلى داخلها وتدميرها ، وكانت لسان حالهم يقول لهم : هللوا إلى حيث المدنية والحضارة والرخاء والنعمة ، وكان جميع هذه الأشياء نعم توجب أن يعاقبوا عليها أشد العقاب . وللهج وغير المتحضرين عقلية تحالف عقلية المتحضرين : فهم يشعرون بصغارهم الحضاري أمام تفوق الآخرين في هذا المضمار ، فينقمون عليهم هذا التفوق ، ويحاولون جهدهم النفوذ إلى هذا الكيان الحضاري وتدميره للانتقام لقصورهم في هذا المضمار ، ولتنظيف عقدة النقص

المستمعية هذه . وهذا يعلل ، إلى حد كبير ، محاولات البدو المتكررة النفوذ إلى الأماكن الأكثر تحضراً ومحاولاتهم تدميرها . وهذا ما حدث في بلاد الإسلام خلال حقبة من الدهر امتدت أكثر من ثلاثة قرون ، إذ هاجتها أقوام أقل تحضراً ، وحاولوا القضاء على شعوب تلك المنطقة وعلى حضاراتها ومعتقداتها ومنجزاتها ؛ ول سوء الحظ نجحوا في ذلك إلى حد ما ، وكان نجاح المغول في القسم الشرقي من الامبراطورية الإسلامية أكبر من نجاح الصليبيين في القسم الغربي ، على الرغم من أن هدف الهجومين واحد .

ولكن حدث أن المسلمين في غربي البلاد الإسلامية كانوا أكثر تماسكاً فتمكنوا من طرد الغزاة والحفاظ على ما تبقى من تراثهم الحضاري ، على حين عجز المسلمون في شرقي البلاد الإسلامية عن الوقوف بوجه المغول ، بسبب عنف الهجوم المغولي وقسوته وافتراق المسلمين وتخاذلهم ، وعدم وجود قيادة موحدة تضم شملهم . فأصبحت بلادهم خراباً يباباً وقتل وشرذ أهلها ، ودمرت معالم حضارتهم . ولم تعد الحياة إلى تلك المناطق إلا تدريجياً وبعد فترة طويلة نسبياً من الزمن ، ولما عادت الحياة ثانية إلى تلك الأصقاع كانت ضعيفة رخوة وفقدت تلك الحيوية والابداع السابقين اللذين أنتجا الحضارة الإسلامية . ولا يزال يوجد في شمالي بلاد الشام خرائب مدن كانت زاهرة قبل الغزو المغولي ودمرها المغول ، وهي الآن خربة من أمثال الرها ونصيبين وحران وغيرها من المدن ، بله خرائب المدن الكثيرة التي تركها الغزو المغولي في خراسان وإيران والعراق .

مصادر المعلومات عن الغزوين الصليبي والمغولي :

إن مصادر معلوماتنا عن الغزوات الصليبية والمغولية للبلاد الإسلامية ،

هي في نفسها ، بالأعم الأغلب ، المصادر التاريخية والأدبية ، التي تحدثنا عنها في كتابنا عن الوثائق الفاطمية والأتابكية والأيوبية ، يضاف إليها الكتب التاريخية العامة ، ولذلك لن نحتاج هنا إلى دراستها بتفصيل وإنما نكتفي ببعض الإشارات . فمثلاً كتاب «ذيل تاريخ دمشق» لابن القلانسي مهم كل الأهمية ومصدر أساسي لدراسة الدولة النورية في دمشق وحياة نور الدين الشهيد في مراحلها الأولى . كما وأنه مصدر لا يستغنى عنه مطلقاً لدراسة الحروب الصليبية في أولها . وكذلك الحال مع كتب مثل كتب «زبدة الحلب» لابن العديم ، وكتاب «الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية» لأبي شامة ، و«سيرة صلاح الدين» لابن شداد وغيرها . كما وإن الكتب الأدبية أو كتب الثقافة الأدبية مهمة أهمية فائقة ، ولا يفوقها شيء في هذا المضمار مثل كتاب «صبح الأعشى» للقلقشندي ، وكتاب «نهاية الأرب» للنويري ، فقد سوى هذان الكتابان ، ولا سيما الأول منها ، نصوصاً لوثائق عائدة للحروب الصليبية والغزو المغولي ، غاية في الأهمية ، إلى جانب الدقة والضبط والشمول التي يمتاز بها كتاب القلقشندي .

أما كتب التاريخ الإسلامي العامة ، فقد يكون بعضها أكثر أهمية . لدراسة بعض النواحي من الكتب السابقة ، فكتاب ابن الأثير «الكامل في التاريخ» يعتبر أساسياً لدراسة الحروب الصليبية والغزو المغولي في أوله ؛ ذلك لأن المؤلف عاصر الحركتين ، وتأثر بها كل التأثر ، وهو في وضع يمكنه من تسجيل أحداث عصره بأمانة ودقة ، فقد كان عالماً ناقداً بصيراً ذا ذهن نير منفتح وغوص على بواطن الأمور ، وكان يحاول النفوذ إلى ما تحت السطح وسبر الأغوار كما كان حيادياً وقادراً على الرؤية الواضحة والبعد عن الهوى . وكان مدركاً لأبعاد

المهجوم الشامل الذي شنه اعداء الإسلام عليه ومن الطرفين ، ونجد
 صدى لذلك وانعكاساً له في كتابه . ولذلك اعتبر المؤرخون كتابه
 هذا حجراً أساساً في دراسة تلك الفترة الحرجة من تاريخ الإسلام ،
 ويمكن أن نضيف إلى كتاب ابن الأثير هذا الكتب التي ألفها كل من
 المقرئ والسيوطي وابن كثير وابن تقي بردي وابن الفرات . فكتاب
 «السلوك» للمقرئ يحوي معلومات وثائق تكمل معلومات كتاب «الكامل»
 لابن الأثير ، والمؤلف نفسه شبيه بابن الأثير من حيث بعد نظره ،
 وفهمه للأشياء وإدراكه لحقيقة الصراع . كذلك يمكن اعتبار كتاب
 ابن كثير «البداية والنهاية» ذيلًا لكتاب ابن الأثير ، وابن كثير نفسه
 تلميذ لابن الأثير ، وكتاب ابن الفرات المسمى «بتاريخ ابن الفرات»
 إكمال وذيل للكتابين السابقين ويحوي وثائق مهمة جداً ، ونفس الحكم
 ينطبق على عدد من الكتب التي تقص سيرة مصر والقاهرة مثل كتاب
 ابن تقي بردي «النجوم الزاهرة» والسيوطي «حسن المحاضرة» .

على أن هناك عدداً من الكتب الأساسية المعاصرة لفترة من فترات
 الحروب الصليبية لا بد من التنويه بها هنا .

فقد ذكرنا سابقاً ابن القلانسي وكتاب «ذيل تاريخ دمشق» ، كذلك
 لا بد من ذكر الكتب التالية : كتاب «الروشتين في أخبار الدولتين
 النورية والصلاحية» لأبي شامة ، وكتاب «النوادر السلطانية والمحاسن
 اليوسفية» ، لابن شداد وكتاب «الفتح القسي في الفتح القدسي» للعماد
 الأصفهاني ، وكتاب «مفرج الكروب في أخبار بني أيوب» ، لابن
 واصل ، وكتاب «تشریف الأنام والعصور في سيرة الملك المنصور» ،
 لابن عبد الظاهر ، وكتاب «مضمار الحقائق» ، لحمد بن تقي الدين عمر
 الأيوبي ، وكتاب «جامع التواريخ للهمداني» .

سبق أن تكلمنا عن أغلب هذه الكتب ، في كتابنا الذي ذكرناه أيضاً وهو كتاب الوثائق الفاطمية والأتابكية والايوبية . ونحب أن نضيف هنا أن هذه الكتب تحوي أيضاً من الوثائق ، وبعضها مفرد ، ولاسيما كتاب الروضتين لأبي شامة الذي حوى عدداً لا يستهان به من الوثائق الصليبية زمن كل من نور الدين الشهيد وصلاح الدين الأيوبي . مما يلقي ضوءاً ساطعاً على الأحداث . هذا مع الدقة والضبط والصحة والتجرد .

أما ابن واصل ، فيورد في كتابه مفرج الكروب ، في الأعم الأغلب ، مقتطفات يعتقد أنها مهمة جداً فيوردها بعد أن يكون أتى بملخص عن الوثيقة ، وهو يتجاوز عصر نور الدين ليغطي جميع عهود الأيوبيين حتى بعيد سقوطهم ، فهو مهم من هذه الناحية إذ أنه يكمل عمل الروضتين .

أما كتاب النوادر السلطانية والمهامن اليوسفية ، فقد ألفه قاضي صلاح الدين ابن شداد ليكون سجلاً لحياة هذا السلطان المجاهد ، وهو يقص سيرة صلاح الدين وحروبه ، ولكنه مهم بذكر الأشياء الطريفة النادرة التي تبرز - في رأيه - عظمة صلاح الدين وجهاده وشخصيته . أكثر من اهتمامه بالوثائق .

أما كتاب معجم الحقائق ، فقد ألفه أحد أمراء آل أيوب ليكون سجلاً حافلاً لبطولة من انجبتهم هذه الأسرة . وإن مكانة هذا الأمير ، الذي يكون صلاح الدين عم والده ، وإطلاعه على الأحداث والوثائق الأصلية ، تضيف على معلوماته وعلى ما ينقله من وثائق أهمية خاصة ، ونجد فيه عدداً من الوثائق لانجدها في مكان آخر .

ولقد ألف العماد الاصفهاني كتاب صلاح الدين كتابه الموسوم باسم
الفتح القسي في الفتح القدسي ليكون سجلاً جليلاً جداً وعزيزاً على
قلب كل عربي ومسلم وهو استرجاع السلطان صلاح الدين لبيت المقدس
وماسبق ذلك من أحداث ومارافقه وتبعه من مساجلات ومعارك ،
وإن أهمية هذا الكتاب تتبع من عدد من الحقائق أهمها أن المؤلف
عاصر بنفسه الأحداث التي يقص سيرتها ، ذلك أنه كان كاتباً لصلاح
الدين ، وشارك عن كتب الأحداث ، وشارك فيها ودبج الرسائل بقلمه ،
وأرسلها للآخرين حول هذه المعركة أو تلك الحركة . وكتابته
ألفه بالأساس لتمجيد صلاح الدين وتحريره البيت المقدس ، وكيف أن
هذا الحادث فتق لديه ولدى الآخرين أكام البلاغة في رسائلهم ، تلك
البلاغة التي تذكر ببلاغة قس بن ساعدة الإيادي المشهور ولذلك أسماء
الفتح القسي في الفتح القدسي . وإن المؤلف هو الذي دبج نصوص
أغلب الوثائق التي اشتمل عليها كتابه ، وكتابته مليء بهذه الوثائق . وقد
أراد أن يظهر فصاحته وبلاغته تجاه هذا الحادث المهم كل الأهمية في
حياة المسلمين فأثبتت نصوص كثير من الرسائل التي ألّفها هو حول هذا
الموضوع . والكتاب يقص سيرة الأحداث التي سبقت ورافقت وأعقبت
تحرير المسلمين القدس . فهو بالحقيقة يقص سيرة فترة قصيرة نسبياً ،
ولكنها فترة مهمة كل الأهمية وحافلة بالأحداث ، بل وحاسمة في تاريخ
علاقتنا بالصلبيين . ولكن الذي يشوه هذا العمل العظيم هو هذا السجع
المتعمد الذي يتبعه العماد في تأليف كتابه ورسائله . قد يكون له عذر في
ذلك ، إذ أن روح عصره تملي عليه هذا الأسلوب . ولكن هذا السجع
يبدو ثقيلاً على أسماعنا نحن أبناء القرن العشرين الذين لم نعتقد على مثل
ذلك . وعلى كل فإن هذا الأسلوب لا يقلل من قيمة الكتاب الوثائقية ،

ويبقى من أعظم الوثائق وأجدرها بالثقة والاعتماد التي وصلتنا عن تلك الفترة ومنها .

وهناك كتاب آخر يقص سيرة أحد ملوك المماليك ، وهو الملك المنصور قلاوون الذي عاصر أواخر الحروب الصليبية ، وكان له باع طويل في الحرب ضد الصليبيين وضد المغول ، وهو الذي حرر قسماً من الساحل السوري من أيدي الصليبيين ، وهزم الجيش المغولي في معركة من أروع المعارك التي خاضها المسلمون ضد المغول قرب حمص . ومؤلف الكتاب هو ابن عبد الظاهر كاتب الإنشاء لدى الملك المنصور ، وألفه تمجيداً لبطولات وأعمال هذا السلطان العظيم وحروبه المظفرة ضد المغول والصليبيين وأسماء « تشريف الأنام والعصور في سيرة الملك المنصور » . ويحوي الكتاب عدداً ممتازاً من الوثائق الصليبية والمغولية ليست موجودة في غيره ، ولا سيما نصوص معاهدات وهدن ورسائل بين الأطراف المعنية ، فهو بهذه الكيفية كنز لا يثمن .

وليس لدينا سوى كتاب واحد ، أو بالأحرى ، جزء صغير من كتاب واحد ، وصل إلينا سالماً ، خصص كله لدراسة تاريخ المغول والحركة المغولية ألفه مؤلف استخدمه المغول ليقص سيرتهم من وجهة نظرهم الخاصة بهم . هذا الكتاب هو جامع التواريخ في تاريخ المغول لرشيد الدين بن فضل الله الهمداني الذي كان مؤرخ البلاط المغولي الرسمي استخدمه أبناء وأحفاد هولاكو في بلاد فارس لهذه الغاية . والمؤلف فارسي وألف كتابه بالفارسية ، ولم يصل لنا سوى جزء صغير من هذا الكتاب . ويدل أسلوب الكتاب على روح علمي ، ومحاولة يائسة للتخفيف من جرائم المغول وقسوتهم وهمجيتهم . وحوى كتابه عدداً كبيراً من

الوثائق التي لا وجود لها في غيره ، إلى جانب معلومات وقفاصيل كثيرة لا يعلمها إلا من اضطلع بمثل مهمته وشغل مثل منصبه . وهو في كتابه يلقي الضوء على كثير من الأحداث والأمور التي جرت في المنطقة ، وتلقي وثائقه كثيراً من الأنوار الكشافة ، وهو بهذا بكل المصادر العربية ويتناغم معها ، ولا يعارضها البتة ، ونحن نأسف كل الأسف لعدم تمكننا من الحصول إلا على هذا الجزء الصغير من هذا الكتاب النفيس . وهناك كتاب أخير كان يودنا لو حصلنا على نسخة منه ، واطلعنا على ما يحويه من وثائق إن وجد ، وهو كتاب ابن عربشاه «عجائب المقدور في حملات الأمير تيمور» الذي ألفه المؤلف عن حياة تيمورلنك وحروب وأعماله ، وكان معاصر له وموظفاً لديه . ولكن المؤلف لم يتمكن من الاطلاع عليه ولم تصل إلى يده نسخة منه ، ولذلك يأسف كل الأسف لذلك ، ويرجو أن يتمكن من تدارك ذلك في المستقبل بإذن الله .

هذه هي مصادر معلوماتنا ومصادر وثائقنا عن الحروب الصليبية والغزوات المغولية للعالم الإسلامي بشكل عام . ولا بد أنه شد عنا أسماء عدد من المصادر ، قد يكون بعضها مهماً ، والبعض الآخر أقل أهمية ، ولكننا نعتقد أننا أتينا على ذكر «الجمهرة الكبرى والأكثر أهمية من هذه المصادر .

وهناك مصدر أخير وهو كتب الفرنج والفرس واللاتين الذين عاصروا الحروب الصليبية والغزوات المغولية ، وحضر بعضهم إلى بلادنا لإبانت الاحتلال الصليبي . وكذلك كتب بعض الرحالة الغربيين الذين زاروا بلاطات خانات المغول كاركوبولو وغيره من الرحالة ، وكسفير إسبانيا لدى تيمورلنك الذي ألف كتاباً عن رحلته ومقامه وسفارته لدى تيمورلنك . ولكن ذلك يخرج عن نطاق بحثنا ، لأننا أخذنا أنفسنا بالبحث عن الوثائق التاريخية في المصادر العربية أو المعربة . ثم إن جهل

المؤلف لفة تلك المؤلفات وصعوبة الحصول على نسخ منها عائق آخر دون تحقيق ذلك ، فنكتفي بذكر ذلك والتنويه به .

خطّة الكتاب :

ويتألف كتابنا هذا من قسمين رئيسيين متكافئين : فقد درسنا في هذا الفصل التمهيدي العصر الذي تغطيه الوثائق من خلال الوثائق نفسها ، وحاولنا إعطاء الملامح العامة لكل من الحروب الصليبية والغزو المغولي كما تبدو من خلال نصوص الوثائق المتوفرة لدينا ، ثم بعد ذلك ترد الوثائق مرتبة ترتيباً زمنياً في قسمين كبيرين : قسم الحروب الصليبية وقسم الغزو المغولي . وقد أثبتنا من أجل كل وثيقة المصدر الذي استقيناها منه مع ذكر الجزء والصفحة ، وإذا ورد ذكر لهذه الوثيقة في مصدر آخر أو أكثر من مصدر ، أشرنا إلى ذلك في أسفل الصفحة مع ذكر أسماء المصادر وأماكن وجود الوثائق ، كما وإننا أعطينا قبل إيراد نصوص الوثائق لمحة توضح الجو ، والمناسبة التي صدرت بها هذه الوثيقة أو تلك ونوعها ومن وجهها ولبن وجهت . هذا وإن أغلب الوثائق مواد مكتوبة : مراسلات رسمية بشكل خاص ، ونصوص معاهدات وهدن وما مائل ذلك . وأما الخطب والمناظرات والحوار فنادرة كل الندرة ، وهذا شيء تابع من صميم روح العصر الذي نجتمع وثائقه وندرسه ودليل عليه . وعند وجود أكثر من نص للوثيقة الواحدة أوردنا النص الذي نعتقد أنه أقرب إلى الصحة وأكمل وأدل من غيره على الأمر موضوع البحث . ولم نحاول التصدي لعملية نقد الوثائق ، فهذه عملية تخرج عن نطاق كتابنا هذا وتدخل في نطاق مهام البعثة والدارسين والمؤلفين الذين يستعينون بهذه الوثائق لدراسة العهد الذي

تمثله ، سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وإدارياً وبلاغياً ولفوياً ونفسياً .
ونحب أن نعيد هنا القول: إن هذه الوثائق لا تمثل وجهة نظرنا نحن ،
فإذا أردنا وثيقة صليبية ، فهذا لا يعني أننا نقبى وجهة النظر
الصليبية في الموضوع ، وإنما جمعنا الوثائق من هنا وهناك ، بصرف
النظر عن وجهات النظر التي تمثلها ، وبصرف النظر عن القاطع بصحتها ، أو
عدم صحتها ، وإنما كل عملنا أنا جمعنا هذه الوثائق ورتبناها وصنفناها ،
وبينا مصادرها ، وعلقنا على بعضها ، وقدمنا لها بفصل تمهيدي ، أو مدخل
للوثائق ، ووضعناها تحت تصرف الباحثين ليدرسوها ، ويقرروا فيها
وتجاهها ما شاؤوا وشاءت لهم أساليب البحث وطرقه .

الحروب الصليبية ومفهومها :

للحروب الصليبية مفهومان مختلفان : الأول مفهوم واسع فضفاض ،
والثاني مفهوم اصطلاحي ضيق . فالحروب الصليبية بمعناها الواسع هي
الحروب التي شنتها أوروبا والمسيحية بعامة ضد مخالفيها من جميع الأديان
والممل والنحل والمذاهب باسم الصليب وتحت رايته لحماية الديانة الحقيقية
من أرباب الديانات الأخرى ، ومن المخالفين والزنادقة والمنشقين من
المسيحيين أنفسهم . وهي بهذا المعنى قديمة جداً . ولعل أول من
استغل الروح الديلية وأعطى حرباً صليبية ضد أعداء الدولة وأعداء
الكنيسة هو هرقل امبراطور الامبراطورية البيزنطية بين سنتي ٦١٠ و
٦٤١ م . ذلك أن هذا الامبراطور حارب الفرس وطردهم من البلاد
التي احتلوها في آسيا الصغرى وبلاد الشام ومصر واستعاد الصليب
المقدس وبيت المقدس منهم ، وكان يضطرم بروح دينية عالية جداً
للقضاء على أعداء الدين ، وكانت الكنيسة تساعد وتسانده ، وقد

أعلنها حرباً صليبية حقيقية ونجح فيها ، ولذلك لقب هرقل بلقب أول الصليبيين . ثم توالى الحروب الصليبية ضد المخالفين ، وضد معتنقي الديانات الأخرى وخاصة الإسلام .

فالحروب التي دارت رحاها بين المسلمين وأعدائهم في شبه الجزيرة الأيبيرية كانت حروباً صليبية حقيقية وساهمت بها البابوية أكبر مساهمة . كذلك كانت حروب البيزنطيين المستمرة في بلاد الشام ضد الحمدانيين والسلاجقة من هذا النوع ، وكان القوم يضطرمون حماساً دينياً في حربهم المقدسة ضد أعدائهم المسلمين . ولما بدأت الحروب الصليبية المعروفة بالمعنى الاصطلاحي الضيق كانت الكنيسة هي التي دعت لها ، وغذتها وأعدت لها وسارت الجيوش كلها تحت لواء الصليب لنصرة الدين الحقيقي واسترجاع قبر السيد المسيح ، وقتل واستئصال الكفرة ، وظلت هذه الحروب مستمرة أكثر من قرنين . ولما عجزت البابوية عن تحقيق غايتها ظن الناس أن فكرة الحروب الصليبية قد ماتت وانقضت واصبحت كأمس الدابر ، ولكنهم كانوا واهمين . ذلك أن أوروبا تمتاز أكثر ما تمتاز بتعصبها ، فقد شنت الكنيسة الكاثوليكية حروباً صليبية كثيرة ضد مخالفيها من المسيحيين والمنشقين ، وفعلت بهم الأفاعيل . ولما أتى الإصلاح الديني في أوروبا أوائل القرن السادس عشر ، وانشقت الكنيسة على نفسها إلى شيع وأحزاب حاربت هذه الفرق المتناحرة بعضها بعضاً تحت لواء الصليب ، وكانت كل فرقة تغلي حماساً دينياً وتتعصب كل التعصب لمذهبها وضد الآخرين ، وخضبت صفحات التاريخ بدماء ضحاياها وسودتها بأفعالها التي اقترفتها باسم الدين والمسيح ، والدين والمسيح من ذلك كله برآء .

ولما تأسست الامبراطوريات الكبرى في الغرب ، وبدأ عهد الاستعمار الأوربي للعالم الجديد وللشرق انضافت إلى فكرة الحروب الصليبية أفكار أخرى منها القومي ومنها الاقتصادي ومنها التسلطي ومنها التجاري ، ولكن لم تحتف ففكرة الحروب الصليبية ، وإنما غلفت ببعض الشعارات الأخرى البراقة . ولقد حاربت أوروبا بعضها بعضاً خلال الحربين العالميتين الماضيتين حروباً صليبية ، ولكن اختلفت الشعارات فقط . أما الروح فظلت كما هي روحاً حاكمة تقتل الآخرين بمنتهى القوة تحت شعارات ومبادئ القومية والوطنية والمجال الحيوي والدفاع عن الوطن لإحياء المستعمرات والفاشية والنازية والشيوعية والدفاع عن العالم الحر وما إلى ذلك .

أما المعنى الاصطلاحي الاختصاصي الضيق للحروب الصليبية فيقصد به تلك الحروب التي شنتها أوروبا ضد الإسلام بخاصة في بلاد الشام والأناضول ومصر وتونس لاستئصال شأفة الإسلام والمسلمين ، والقضاء عليهم ، واسترجاع البيت المقدس وقبر السيد المسيح ، وذلك خلال الفترة بين عامي ١٠٩٦ و ١٢٩١ م . وقد أتت هذه التسمية من صليب صغير أحمر مصنوع من القماش كان يلصق على كتف الفارس المزمع السفر إلى بلاد الإسلام للحرب . ولقد كانت الكنيسة الكاثوليكية تتقدح حقداً على الإسلام والمسلمين وبغضاً له ولهم ، وكانت آنذاك في دور من أدوار قوتها ونهضتها ، فظهرت أن تحقق حلمها الذهبي بالقضاء على الإسلام في هرة داره . هذا مع العلم أن جهود أوروبا وبيزنطة للقضاء على الإسلام سابقة على الحروب الصليبية . فقد بدأت أوروبا كلها تغذي الأسباب وقدمهم بالمساعدات ليتمكنوا من القضاء على الإسلام في شبه الجزيرة الأيبيرية . وكانت بيزنطة في حالة حرب متواصلة ضد المسلمين منذ عهد

حروب التحرير الأولى التي حدثت زمن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما . والتي أدت إلى تحرير بلاد الشام ومصر وشمال إفريقيا من الاحتلال البيزنطي . ولقد حدث بعد عهد الأمويين وأوائل العباسيين أن ضعفت البلاد الإسلامية . وتقسمت إلى عدد كبير من الدويلات المتفرقة ، فاستغلت بيزنطة هذه الفرصة ، وشنت هجوماً عنيفاً على البلاد الإسلامية استمر فترة تزيد على القرنين ، واسترجعت عدداً من مراكز الحدود في شمالي العراق وبلاد الشام . وكذلك لما ضعف المسلمون في الأندلس وانقسمت بلادهم إلى دويلات كثيرة تعرف باسم دول الطوائف ، استغلت الكنيسة هذه الفرصة ، وشنت حرباً مقدسة ضد الإسلام كدين وضد المسلمين في الأندلس ، واستطاعت أن تحقق كثيراً من المكاسب . ولكن حدث في تلك الآونة حدثان لم يكونا في حسابان الكنيسة ، وكانا السبب في قلب مخططاتها رأساً على عقب فقد حدث أن نبعت في شمالي إفريقيا دولة المرابطين القوية تحت زعامة يوسف بن تاشفين ، واستنجد مسلمو الأندلس بهذه الدولة وزعيمها ، فأنجدهم وأبحر بقواته إلى الأندلس ، وهناك اصطدم مع الأسبانيين بقيادة ملكهم الفونسو السادس في معركة الزلاقة الشهيرة سنة ١٠٨٦ م ، فكسروهم شر كسرة وأوقف زحفهم في الأندلس ولو إلى حين . وأما الحدث الثاني ، فقد تم بشكل هجرة قبائل بدوية تركية مقاتلة ، هاجرت من موطنها الأصلي في تركستان واتجهت غرباً إلى العالم الإسلامي ، وهناك اعتنقت هذه القبائل الإسلام وأصبحت من أشد المتحمسين لهذا الدين ، ونفذت إلى العالم الإسلامي واستلمت الزعامة في بغداد ، تحت ظل الخلافة العباسية ، في القرن الحادي عشر الميلادي ، وأصبح زعيمها طغرل بك حاكماً وسلطاناً في

بغداد ، يدعى له على المنابر إلى جانب الخليفة العباسي ، وكان ذلك سنة ٤٤٧ هـ ، وتبع ذلك تدفق الجيوش السلجوقية على بلاد الشام ومصر ، وبدأت زحفها وهجومها على الأناضول . وهناك اصطدمت مع الجيوش البيزنطية بمعركة منزيكيرت (ويقال لها ملاذكرد) شرقي الأناضول سنة ١٠٧١ م . وكان الب أرسلان قائد السلاجقة ، ورومان ديوجين قائد البيزنطيين ، وكانت نتيجة هذه المعركة نصراً مؤزراً للسلاجقة على البيزنطيين . وبهذه المعركة زال الخطر البيزنطي عن بلاد الشام وحبط مخطط الإطبات على العالم الإسلامي من الشرق والغرب . كما وأن هذه المعركة فتحت أبواب الأناضول أمام هجرة القبائل التركية ، بحيث لم تمض سوى حقبة من الزمن حتى أصبح الأناضول بأغلبه تركيا .

وأمام هذه المعوقات لم يكن أمام أوروبا والكنيسة الكاثوليكية إلا أن تغير خططها لتدمير الإسلام ، فاتجهت الآن لتوجيه الهجوم إلى القلب بدلاً من الإطبات على الإسلام من جناحيه . ولسوء الحظ نجحت أوروبا والكنيسة الكاثوليكية في خططاتها هذه لفترة من الوقت ، وذلك بسبب ضعف المسلمين ، وانقسامهم على أنفسهم ، بعد موت ملكشاه السلجوقي وانقسام إمبراطوريته بين أولاده الثلاثة ، والحروب الطاحنة الدامية التي دارت بينهم ، وبسبب ضعف الدولة الفاطمية في مصر وعدائها للسلاجقة ، وبسبب وجود عدد من دويلات المدن في بلاد الشام كدولة البوريين في دمشق ، ودولة آل عمار في طرابلس الشام وغيرهما . كل ذلك ساعد على النصر السريع الذي حققه أوائل الصليبيين ، وعلى تحقيق حلم من أعز وأغلى أحلام الكنيسة الكاثوليكية ، وهو استرجاع بيت المقدس من المسلمين ، وتأسيس أربع إمارات صليبية في بلاد الشام تدين بالولاء للبابوية ، مما جعل الملاحظ السطحي للأحداث يعتقد أن

مشروع البابوية الكبير في القضاء على الإسلام قد أصبح قساب قوسين أو أدنى . ولكنهم كانوا واهمين ، فللإسلام أصالته وقوته ، وهو قوة يخشى بأسها ، ويحمل في ثناياه بذور قوته واستمراره بإذن الله ، ولم يكن من الممكن أن يستمر الوضع بهذا الشكل وأن يقبل المسلمون بهذا الأمر ، ولذلك ظهرت ردود فعل مختلفة ، وظهر أبطال عظماء حملوا راية الجهاد عالية خفاقة ضد الغزاة والمعتدين من أمثال عز الدين الزنكي ، ونور الدين الشهيد ، وصلاح الدين الأيوبي ، والظاهر بيبرس ، وتمكنوا بعد معارك بطولية وملاحم أشبه بالأساطير من تحطيم أسطورة التفوق الصليبي ، وردوا الصليبيين إلى بلادهم يحرون أذيال الخيبة والخذلان . ولقد تعلمت أوروبا درساً رهيباً من الحروب الصليبية : وهو أن لاتشن بعد الآن على الإسلام حرباً جبهية باسم الدين ، وإنما عليها أن تعتمد إلى وسائل أخرى ، وشعارات أخرى من أجل تحقيق الغاية الرئيسية الرامية إلى القضاء على الإسلام . ولذلك نجد أن الحروب الصليبية قد استمرت موجهة من أوروبا ، ولاتزال ، ضد الدين الاسلامي وضد العرب والمسلمين ، والغاية الرئيسية لإزالة الاسلام كدين وكقوة عالمية يحسب حسابها ، ليسهل للقوم التحكم في هذه البقعة من العالم ، واستعباد شعوبها وامتصاص خيراتها .

وإن أوروبا تعلم حق العلم أن الإسلام قوة عظمى . وقد جربت الصدام المباشر فلم تحقق ماكانت تصبو إليه . وانضافت إلى الدوافع القديمة دوافع جديدة من سيطرة ، واستعمار ، وبجبال حيوي ، ومناطق نفوذ واستثمار ، وإيجاد أسواق ، وماشاكل ذلك . وحدث في نفس الوقت الذي ارتقت فيه أوروبا أن انشط المسلمون فألاح ذلك لأوروبا فرصتها الثمينة لتحقيق أحلامها القديمة ، ولم ينقض القرن التاسع عشر

حق كان القسم الأعظم من العالم الإسلامي قد سقط بين براثن الاستعمار الأوروبي ، وأفلح القوم في القضاء على الخلافة الإسلامية في أوائل هذا القرن ، وخيل للناظر أن أوروبا حققت حلمها القديم في القضاء على الإسلام . ولكن فترة ما بين الحربين شاهدت نضالاً بطولياً خاضته الشعوب الإسلامية ضد المستعمرين ، وتمكنت بعد الحرب العالمية الثانية أن تسترد شخصيتها ، وأن تحقق استقلالها وتطرد المستعمرين . ولقد أحدث هذا الأمر ردة لدى أوروبا التي لم تغير روحها الصليبية القديمة ، ولذلك فقد غيرت أوروبا بشقيها الغربي والشرقي ، مخططاتها ، وقررت أن تحاول القضاء على الدين الإسلامي والعقيدة الإسلامية على اعتبار أنهما قوة ديناميكية خلقة ، من الداخل وبأيدي أبنائه . ولذلك بدأت المرحلة الثالثة من مراحل الحروب الصليبية ، وعجّالها الفكر والعقيدة والغزو الفكري والتشكيك بطريقة غير مباشرة وبأيدي فئة منتحلة للإسلام ظاهراً ولكنها انسلخت منه وبدأت تعمل على هدمه باسم التمدن والتجديد وملاءمة العصر ، ذلك أن التجربة علمت أوروبا عدم جدوى الهجوم المباشر ، كما علمتها أن الوسائل القديمة كالتبشير وفتح المدارس لم تعد تعطي ثمارها المرجوة بعد أن تنبه القوم لخطرهما . ولذلك لجأت إلى هذه الطريقة وهي تؤمل بواسطتها أن تحقق ما عجزت عنه جهود مئات السنين من الاستعمار والحروب والتبشير أن يحققها . ولكننا على ثقة أن الله تعالى الذي تكفل لهذا الدين بالبقاء والنصر ، لن يتغلب عن أتباعه المخلصين ، وأن النصر لهذا الدين بإذن الله ، ولاسيما وأن الصيرورة الحضارية تقتضي ذلك . ذلك أن الشرق له شخصيته المميزة له ، وأن العمود الفقري للشرق كله ، بمضاه الواسع ، هو الإسلام الذي هو صلب الشرق . ولنا في الجزائر وانتصارها على الاستعمار

الفرنسي أكبر دليل على ذلك . ذلك أن الفرنسة سارت في الجزائر شوطاً بعيداً في أوائل هذا القرن حتى خيل للفرنسيين أن الجزائر أصبحت فرنسية ، ولكن ذلك كان وهماً فإن تمسك الجزائر بسلامها حفظ عليها شخصيتها المميزة لها ، وحفظ لها بالتالي هويتها ، وحكمتها أن تقف في وجه أقصى استعمار عرفته العصور الحديثة ، وأن تقتصر عليه . وقد وجه كثير من المؤرخين الغربيين إلى المسلمين بعمامة ، وإلى المؤرخين المسلمين بخاتمة ، تهمة عجزم عن التمييز بين الحروب التي سبقت الحروب الصليبية بمضامها الإحتصاصي الإصطلاحي الضيق ، وبين تلك الحملات والحروب ، ذلك أنهم يطلقون على جميع من حاربهم اسم الفرنج أو الفرنجة وهذا التعميم في التسمية دليل عندهم على قصور المؤرخ المسلم وحبسه عن استيعاب التغيرات التي حدثت وتحدثت على مسرح التاريخ .

ولكن الحقيقة هي خلاف ذلك . إذ الملاحظ أن المؤرخين المسلمين كانوا منتبهين كل الانتباه إلى هذه الغزوات التي أتهم من بلاد ماوراء البحر حسب تعبيرهم ، وهم يعرفون شعوب الألمان والفرنجة والانكشار والارذمانيين وغيرهم ، وهم يعرفون أنهم شعوب مختلفة تسكن أماكن مختلفة ، ولكل عادات وتقاليد مختلفة ، ولهم حكام متنوعون ، ولكن يجمعهم شيء واحد هو بغضهم للإسلام وأهله . ولكن نظرية المؤرخين المسلمين أرحب وأعمق من نظرية من يتهمهم بالعجز عن إدراك السمات الكثيرة المميزة للحركة الصليبية ، ذلك أن القوم أدركوا أن العدو واحد على مدى الأزمان والأماكن ، وإن تعددت الأسماء والشعارات ، كما أدركوا أن هدف هؤلاء الأعداء واحد ، وهو القضاء على الإسلام . فلا يهيم المؤرخ المسلم أن يعلم أن فريديريك الثاني يختلف عن ريمون دوسانجيل مثلاً ، وإنما يعلم المؤرخ المسلم أن هدف

فريدريك الثاني وهدف ريمون دوسانجيل واحد على الرغم من بعد الزمان
والمكان . وهدف البيزنطيين الشرقيين هو نفسه هدف أوروبا الكاثوليكية
على الرغم من الخلاف بين الطرفين . وهكذا عالج القوم الحركة الصليبية
على أنها امتداد للعداء الذي يكنه الغرب للإسلام ، وحلقة من سلسلة
المحاولات التي قام بها أعداء الإسلام ولا يزالون يقومون بها لإنزاله عن مكان
الصدارة وتدميرها والقضاء عليه كدين وكعقيدة وكحضارة .

وهنا نحب أن نؤكد أننا سنستعمل تعابير الحروب الصليبية أو الحركة
الصليبية أو الصليبيين بمعناها الاختصاصي الاصطلاحي الضيق إلا إذا
نينا على العكس .

مراحل الحروب الصليبية :

ولقد استمرت الحروب الصليبية فترة تقارب القرنين من الزمان ،
وتعددت ساحاتها ، وتراوحت بين مد وجزر ، ولذلك نقسم مراحل
هذه الحروب إلى ثلاث مراحل تسهلاً للبحث والدرس ، وإن كنا لانعتقد
بجدية هذا التقسيم : فهناك دور التفوق الصليبي ، وهناك دور توازن
القوى ، ويأتي أخيراً دور الانهيار الصليبي .

دور التفوق الصليبي :

قلنا - فيما سبق - إن معركة ملاذكرد التي وقعت في آسيا الصغرى
بين السلاجقة والبيزنطيين كانت من الأسباب المباشرة في توجيه الصليبيين
إلى بلاد الشام . والواقع ، لقد هال حكام بيزنطة زحف السلاجقة في
قلب آسيا الصغرى واستيطانهم بها ، فأرسلوا يستنجدون بأوروبا من

أجل دفع هذا الخطر الدائم ، كما تدل على ذلك رسالة الامبراطور البيزنطي الكسيس كومنين الأول إلى روبرت الأول أمير الاراضي الواطئة حوالي عام ١٠٨٨ م . فقد رسم هذا الامبراطور في خطابه صورة قائمة جداً للوضع في بلاده نتيجة زحف السلاجقة في آسيا الصغرى ، وعدد أسماء الأماكن التي احتلوها ، وأوم القرب أن القسطنطينية على وشك السقوط بيدهم إن لم يبادروا لتجديدها وإنقاذها وهو يعدمهم ويمنيهم المجد في السماء والذهب في الارض ... فكنايس القسطنطينية مملأى بكنوز من الفضة والذهب والحلي والأحجار الكريمة والمنسوجات الحريرية التي تستخدم في صنع الأردية والملابس التي تكفي جميع كنايس العالم (١) .

كذلك نجد نفس الصورة في خطاب البابا أوربان الثاني الذي ألقاه في كليرمونت داعياً إلى الحروب الصليبية . فهو يصف السلاجقة :
إنهم شعب لعين وأبعد ما يكون عن الله تعالى ، ويخلط الحقائق مع الخيال ، فيذكر احتلالهم بعض أراضي الامبراطورية البيزنطية ، وينسب إليهم أعمال السلب والنهب والسرقة والقتل وما مائل ذلك . ثم يبدأ بإثارة عواطف الكبرياء لدى الفرنسيين [الفرنجة] ويذكرهم بماضيهم الجيد زمن شارلمان وغيره من الملوك : وأنهم أقوى البشر وأجدرهم وأكثرهم أهلية للانتقام من ذلك المجلس الملعون وإنقاذ قبر السيد المسيح ، ويعدمهم أن يرثوا خيرات بلاد الشام والأرض التي تفيض لبناً وعسلاً ، ويعدم النصر على الأعداء والدخول في ملكوت السموات (٢)

(١) يوسف ، جوزيف نسي . العرب والروم واللاتين في الحروب الصليبية الأولى . الطبعة الثانية . القاهرة . دار المعارف ، ١٩٦٧ م . ص ٣٠٧-٣٠٩ .
(٢) ديورانت ، ول . قصة الحضارة . تعريب محمد بدران . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٠ م ج ١٥ ، ١٥-١٦ .

ولكن الطريف في هذا الخطاب هو ما أبداه البابا من أن القدس تقع في وسط العالم^(١) وهو اعتقاد ظلت تعتقده الكنيسة فترة طويلة من الزمن ولاندري من أين أتاه .

ولقد أدهش إمبراطور بيزنطة الكسيس كومنين ، بكياسته وذكائه ولباقتة وراثته وحضارة بلاده أنصاف الصليبيين الذين احتكوا به أثناء اجتياز جموعهم بلاده في طريقها إلى بلاد الشام ، ذلك أن هذا الامبراطور ، لدوافع كثيرة ، استقبل جيش الصليبيين استقبالا عظيماً وغمرهم بالتحف والهدايا ، وأطعم الفقراء منهم ، وخص الرؤساء بالمزيد من بره وعطفه حتى انطلقت ألسنتهم بمدحه والتغني بكرمه كما فعل الكونت أتين في خطابه الذي أرسله إلى زوجته من المعسكر الصليبي قرب نيقية عام ١٠٩٧^(٢) .

ولقد ساعد التشتت الاسلامي واختلاف الكلمة وتفرق الأهواء ، والحروب الداخلية بين الحكام والأمراء ، ومحاولة كل حاكم وأمير أن يدفع الخطر عن نفسه ولو على حساب جاره - الصليبيين أن يحتلوا الساحل السوري ، أو بالأحرى القسم الأكبر منه بدءاً من أنطاكية في الشمال حتى حدود مصر ، وأن يؤسسوا أربع إمارات هي مملكة القبر المقدس ، وإمارة طرابلس ، وإمارة أنطاكية ، وإمارة الرها . وكانت هذه الإمارات تابعة ، إقطاعياً ، إلى مملكة القبر المقدس وملكيها ومما مكن للصليبيين في بلاد الشام ، عدا العوامل الكثيرة التي ذكرناها سابقاً ، وجود عدد من الخونة كانت تساعد الصليبيين الغزاة ضد أبناء

(١) نفس المصدر .

(٢) يوسف ، جوزيف نسم . المصدر المذكور آنفاً : ٣٢٩-٣٣٠ .

البلاد ، كما فعل الزراد لما سلم أحد أبراج أنطاكية لتناكره لقاء جعل معين^(١) . كما وأنهم استفادوا من الخلافات بين الحكام المحليين ، فكانوا يتحالفون مع هذا ضد ذاك حتى يربحوا من الطرفين . ولقد وقفت بقية البلاد الاسلامية موقف المتفرج من هذا الهجوم المموم ، ولم يصطل بناره إلا أهل بلاد الشام ومصر . بل إن طفتكين حاكم دمشق خاف أن يثير لإنجاده صور ضد الصليبيين غضب وعداء الملك الأفضل حاكم مصر الفعلي ووزير الخليفة الفاطمي ، لأن البلد تابعة له ، فأرسل له رسالة يعتذر ويعد بتسليمها لمن يرسله الأفضل لاستلامها^(٢) . كذلك نلاحظ أن الخلافة العباسية وقفت موقفاً سلبياً من هذه الحركة الهائلة ، ولم يكن لها دور فعال في الصراع ضد الغزاة ، ولم يتمكن ملوك السلاجقة من القيام بعمل إيجابي فعال لإنجاد الشام وأهلها باستثناء بعض المحاولات البسيطة ، وباستثناء عماد الدين زنكي وابنه نور الدين ، اللذين نبعا أولاً في شمالي العراق ، ثم وحدا شمالي العراق مع القسم الشمالي من بلاد الشام فإن بلاد الشام ومصر اعتمدت على قواها الذاتية في صد هذه الغارات الوحشية البربرية . ولقد كان للأعمال الإرهابية البربرية التي قام بها الصليبيون في كل مكان حلوا فيه ، أنطاكية ، معرة النعمان ، القدس ، طرابلس . الخ أثر كبير على نفسية السكان ، ولكن غلب حب الانتقام والرغبة في أخذ الثأر على الخوف واليأس . ولكن

(١) ابن العديم . كمال الدين عمر بن أحمد . زبدة الحلب من تاريخ حلب . تحقيق سامي الدهان . دمشق ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، ١٩٥١-١٩٦٨ م ، ج ٢ - ١٣٤ .
(٢) ابن القلانسي ، أبو يعلى حمزة . ذيل تاريخ دمشق ، تتلوه نخبة من تواريخ ابن الأوزق الفارقي وسبط ابن الجوزي والحافظ الذهبي . تحقيق آمدروز . بيروت : مطبعة الآباء اليسوعيين ، ١٩٠٨ م . ص ١٨٢ .

هناك حامئاً واحداً فت في عضد السكان وأصابهم باليأس ، لفترة وجيزة ، وهو اغتيال مودود حاكم الموصل الذي جمع جيشاً قوياً من الموصل وحضر إلى دمشق ليتوجه منها إلى قتال الصليبيين ، ولكن حدث أن اغتاله باطني في جامع بني أمية يوم العيد ، وأدى ذلك إلى تفرق الجيش وتبدد الآمال التي عقدها المسلمون وأهل دمشق بخاصة عليه وعلى جيشه . ونجد هذا اليأس الموقت يجسداً في رسالة يذكر ابن الأثير وغيره من المؤرخين أن ملك الفرنج في القدس أرسلها إلى طفتكين حاكم دمشق يقول له فيها لما سمع ماحدث لمودود : إن أمة قتلت عبيدها في يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله أن يبيدها " . وطبعاً هذه رسالة خيالية إذ لايمكن أن يرسل ملك القدس مثل هذه الرسالة لأن موت مودود أنقذه وأنقذ مملكته ، وكل وهن يصيب المسلمين في صالحه . ولكن هذه الرسالة تعكس الشعور العام الذي أصاب المسلمين وسكان دمشق لما رأوا أحلامهم وآمالهم تتبخر هكذا وبنتهى السهولة . ولقد منع تعدد الحكم في كل مكان ، وحرصهم على مراكزهم ، وخوفهم من الآخرين أن يضيومهم عن أماكنهم ويحلوا محلهم ، وفقدان الثقة بين الجميع ، إلى جانب الأنانية المفرطة ، وسوء الظن المتبادل ، من أن يتحد الجميع في جبهة واحدة متماسكة تقف في وجه العدو حق في أوقات أشد الأزمات عنفاً . فهذا حاكم دمشق أنر حاصره الفرنج في دمشق بجيش قوي جداً ، وذلك إبان الحملة الصليبية الثانية ، واستنجد بعدد من ملوك الإسلام ليمدوه بالعساكر . وقد حضر إلى

(١) ابن الأثير ، أبو الحسن عز الدين علي . الكامل في التاريخ . القاهرة ، دار الطباعة المنيرية ، ١٣٥٦ هـ . ج ١٠ - ١١ .

لصوته سيف الدين بن عز الدين زنكي ملك الموصل ، وطلب منه أن يسلمه دمشق حتى يكون بآمن من الغدر ، وفي حال الهزيمة يجد مكاناً هو وجيشه يفتصم به : فإن أنا جئت إليك ولقينا الفرنج وليست دمشق بيد نوابي ... وكانت الهزيمة علينا لا يسلم منا أحد لبعده بلادنا . وحينئذ يملك الفرنج دمشق وغيرها . وإن أردت أن ألقاهم وأقاتلهم فتسلم البلد إلى من أئق به . وأنا أحلف لك ، إن كانت النصر لنا على الفرنج أني لا آخذ دمشق ولا أقيم فيها إلا بمقدار ما يرحل العدو عنها وأعود إلى بلادي (١) .

ولكن أن لم يطمئن إلى ذلك وظل على خوفه وحذره ، ولذلك لجأ إلى المراوغة ، واتخذ من قدوم ملك الموصل ورقة رابحة يلعب بها ، وراسل الفرنج الذين قدموا من أوروبا في هذه الحرب ، وخوفهم من قوة ملك المشرق وهددهم بتسليم دمشق إليه إن لم يرحلوا . كذلك راسل الفرنج المقيمين في بلاد الشام وخوفهم وحذرهم ومناهم ووعدهم ، وتمكن بهذا الأسلوب من شق جبهة الفرنج وإنقاذ دمشق وإبعاد الخطر الصليبي عنها ، ولم يسمح لملك الموصل بدخول دمشق (٢) .

ولم يكن حال الفاطميين في مصر أفضل من حال حكام بلاد الشام - فقد هاجم الصليبيون مصر وهددوا القاهرة نفسها ، واستعان بهم الوزير الفاطمي شاور ضد أخصامه ودفع لهم الجزية . ولكن الصليبيين لم يكن يقنعهم هذا الوضع ، وحاولوا احتلال مصر جملة واحدة ، مما اضطر شاور والخليفة العاضد إلى الاستنجاد بنور الدين

تر (١) ابن الأثير ، أبو الحسن عز الدين علي التاريخ الباهر في تاريخ أتابكة الموصل .

ص ٨٩ .

(٢) نفس المصدر .

الشهيد ، الذي لبى النداء وأنجد الفاطميين بجيش قسوي على رأسه أسد الدين شيركوه أقوى قواده . ولقد كان لأسد الدين مطامع واسعة أراد تحقيقها في مصر ، ولم يكن شاور ممن يؤمن بمبدأ سوى مبدأ مصلحته الذاتية الأنانية ، ولو تم ذلك على حساب بلاده ودينه وربيه ، ذلك أنه بعد أن حضر أسد الدين إلى مصر وأبعد الصليبيين عنها طلب منه شاور الرحيل عن مصر ، ولكنه ماطل في ذلك ، فالتجأ شاور إلى ملك القدس يستنصره ضد أسد الدين ويخوفه مغبة بقاءه في مصر ، مما جعل ملك القدس يتحالف مع شاور ضد أسد الدين ويحاربه حتى تمكنوا من إخراجهم من مصر (١) .

ولقد تكرر هجوم الصليبيين على مصر ، وتكرر استنجد شاور والعاقد بنور الدين ، وإرسال أسد الدين إلى مصر وإبعاد الخطر الصليبي عنها ، ثم يلجأ شاور ، من جديد ، إلى الاستنجد بالصليبيين أنفسهم في سبيل إبعاد أسد الدين عنها ، حتى اضطر نور الدين أن يرسل أسد الدين ومعه ابن أخيه صلاح الدين بجيش قسوي إلى مصر بقصد البقاء فيها ، وإنقاذها نهائياً من يد الأعداء الخارجيين والحكام المحليين . وقد تم ذلك بنجاح إذ قتل شاور وألغيت الخلافة الفاطمية ، وتوحدت بلاد الشام ومصر في جبهة واحدة ضد العدو المشترك .

دور توازن القوى :

لم يكن لهذا الوضع أن يبقى ويستمر في العالم الإسلامي . ذلك

(١) أبو شامة ، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل . كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية . تحقيق محمد حمدي محمد أحمد . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٦ م ج ١ ، ق ٢ - ٢١ ، ٤٢١

أن القوم شعروا بالخطر الذي يهددهم ، وظهر بعض الزعماء الأقوياء الذين أدركوا الخطر على حقيقته ، وأدركوا أن العلاج الوحيد للوقوف في وجه هذا الخطر ، ومن ثم للقضاء عليه يكمن في الوحدة . ولذلك بدأ أول هؤلاء الزعماء عمله بأن وحد بين الموصل وحلب وتمكن أن يدق المسار الأول في نعش الصليبيين في بلاد الشام . ذلك أن زنكي أسس سلالة حاكمة في الموصل وتلقب بلقب عماد الدين ، وشنها حرباً حرباً لاهوادة فيها ضد الصليبيين ، وفي نفس الوقت بدأ عملية التوحيد التي أتمها من بعده ابنه نور الدين ومن بعدهما صلاح الدين الأيوبي . ويعتبر استرجاع الرها الذي أنجزه عماد الدين بداية عصر توازن القوى بين الطرفين . واتقد حارب عماد الدين الصليبيين والروم وحلفاءهم عدداً كبيراً من المرات ، وكسرهم في أكثر من معركة ، وترك لابنه نور الدين أن يتم معركته المزدوجة وهي إتمام الوحدة ، والقضاء على الصليبيين .

عصر نور الدين الشهيد :

يعتبر عصر نور الدين الشهيد وعهده مهماً كل الأهمية لأنه أكمل عمل والده ، وتمكن أن يستنطق دمشق ويضمها إلى ملكه ، كما أنه تمكن أن يلقي الخلافة الفاطمية ويضم مصر إلى ممتلكاته . وفي نفس الوقت تابع حروبه ضد الصليبيين ، وصب عليهم الهزائم واسترجع منهم عدداً كبيراً من البلدان في بلاد الشام مثل حارم ومعرة النعمان في الشمال ، وبانياس في الجنوب . وعلى الرغم من أن الوفاة النورية أحدثت هزة كبرى وأصابت عمليتي الوحدة والتحرير بنكسة كبيرة ، إلا أن العمليتين قبيض لهما من يستأنفهما بنفس الهمة والنشاط الذي أبداه نور الدين . ذلك أن صلاح الدين الذي أصبح حاكم مصر الفعلي بعد وفاة

عه أسد الدين شيركوه ، استقل بحكم مصر لما توفي نور الدين وخلف ولدأ قاصراً التف حوله عدد من الأمراء العاجزين المتحامين زينوا له عداء صلاح الدين وتفاعسوا في حروبهم ضد الفرنج ، حق لقد بلغ بهم الأمر أن راسلوا الفرنج الذين حاصروا حصن بانياس (في جنوبي دمشق) بعد وفاة نور الدين ولم يجاريهم ، وإنما لجأوا إلى تهديدهم بصلاح الدين وسيف الدين صاحب الموصل ... ونطلب بلادكم من جهاتها كلها فلا تقومون لنا . وأنتم تعلمون أن صلاح الدين كان يخاف أن يجتمع بنور الدين . والآن فقد زال ذلك الخوف ، وإذا طلبناه إلى بلادكم لا يمتنع ^(١) ... ولقد كان ذلك كافياً لجعل الصليبيين ينسحبون عن الحصن ، ولكن بعد أن حصلوا على مقدار من المال وأطلق لهم المسلمون سراح عدد من الأسرى .

ولقد أغضب هذا الاتفاق المهين صلاح الدين غضباً شديداً ، وأرسل إلى الشيخ شرف الدين بن أبي عمسرون رسالة يوبخه على الاتفاق السابق ، كما أرسل إلى عدد من الأمراء حول الملك الصالح بن نور الدين كتباً مماثلة ، ويخبر أحدهم في إحدى هذه الرسائل أنه لما جمع بحصار الفرنج للحصن سار يبيشه من مصر قاصداً نجدة الحصن ، ولكنه سمع نبأ الهدنة المؤذنة بذل الاسلام من دفع القطيعة وإطلاق الأسارى ^(٢) . وبقيّة بلاد المسلمين ما دخلت في العقد ولا انتظمت في سلك هذا القصد ، والعدو لها واحد ... فرأينا أن سيرة إلى حضرة الأسير شمس الدين أبي الحسن علي وإخوته من يعرفهم قدر خطر هذا الارتباك ،

(١) ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم . مفرج الكروب في أخبار بني أيوب . تحقيق جمال الدين الشيبان ، القاهرة ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ج ٢ / ٧ .
(٢) أبو شامة ، المصدر المذكور آنفاً ج ١ ، ق ٢ - ٥٨٩ .

وأنه ربما عجز عن الاستدراك ، وأن العدو طالب لايفغل ، وجاد لايتكل ، وليت لايفضيح الفرصة ، مجد لايميل إلى الرخصة (١) .

عصر صلاح الدين الأيوبي :

ورث صلاح الدين تركة مثقلة ، ولكنه تمكن بعد حروب طاحنة ومعارك رهيبة وجهود مضنية أن يعيد توحيد مملكة نور الدين تحت قيادته ، كما تمكن أن يحقق أحلام المسلمين باسترجاع بيت المقدس وأن يقف بصلابة في وجه أشمرس هجمة قامت بها أوروبا ضد البلاد الإسلامية حتى ذلك الوقت ، وحطم جيوش أوروبا وكبرياء ملوكها ، وخصوصاً ريشارد قلب الأسد ملك انكلترا كما سيورد تفصيلاً .

ولقد لاقى صلاح الدين صعاباً جمة أثناء عملية التوحيد هذه ، وتحالف خصومه المسلمون مع الصليبيين لينعموه من تحقيق ذلك ، ولكن ذلك كله كان عبثاً . فقد تحالف الحلبيون مع قومص طرابلس ضد عاكر السلطان سنة ٥٧٠ هـ ، ولكنهم ما إن علموا بقدومه حتى تفرقوا وهرب الفرنج ملتجئين إلى حصن الأكراد وانفرط عقد هذا التحالف الغريب (٢) .

ولقد حدث أن توفي ملك بيت المقدس الصليبي سنة ٥٦٩ هـ وحلّ محله في الملك ملك جديد اسمه برديول ، وكان ذلك عند بداية استقلال صلاح الدين بالأمور بعيد وفاة نور الدين . ويَزعم القليشندي أن صلاح الدين أرسل رسالة إلى الملك الجديد ينشئ فيها بالملك ، ويعزّيه بوفاء والده الملك السابق .

(١) نفس المصدر . ج ١ ، ق ٢ ، ٥٩٤ - ٥٩٥ .

(٢) نفس المصدر . ج ١ ، ق ٢ ، ٦١٤ .

وقد حوى الخطاب من عبارات التهنية والتعزية والمدح ما لا يمكن أن يصدر عن أي ملك من ملوك الإسلام ، إلى ملك صليبي مفتصب سيفه يجرى من دماء المسلمين ، بله صلاح الدين . وصلاح الدين الذي غضب وهاجم أنصار الملك الصالح لجرد عقدم مدنة بسيطة مع ملك القدس ، لا يعقل أن يكيل المدح كبراً لهذا الملك الذي يمتدحه قاتلاً سفاكاً مفتصباً دمه حلال : ... خص الله الملك المعظم حافظ بيت المقدس بالجد الصاعد والسعد الساعد والحظ الزائد والتوفيق الوارد ... فإن كتابنا صادر إليه عند ورود الخبر بما ساء قلوب الأصدقاء ، والنعمي الذي ودعنا أن قائله غير صادق ، بالملك الأعز الذي لقاه الله خير ما لقى مثله . . . وسقياً لقبر والده الذي حق له الفدا لو جاز ... (١) كما أن صلاح الدين يصف ملك القدس المتوفى بالصدق في نفس الرسالة . ولو أنه فعل ذلك لزود خصومه ، وما أكثروهم ، بسلاح ماضٍ لمهاجمته أشد هجوم وأقساء . وكيف يمزى بملك القدس وهو الذي أرسل إلى بعض أنصاره لما بلغه وفاة ملك القدس السابق نفسه رسالة يذكر ذلك ويقول : ورد كتاب من الدارم يذكر أنه لما كان عشية الخميس تاسع ذي الحجة ملك مري ملك الفرنجة لعنه الله ونقله إلى عذاب كاسمه مشتقاً ، وأقدمه على نار تلظى لا يصلاها إلا الأشقى (٢) .

ولم تكن معارك صلاح الدين ، في مرحلته الأولى ، كلها مظفرة ضد الفرنج ، فقد تخللها نكسات كبيرة وهذا شيء طبيعي ومتوقع في ذلك الطور . والفائد العظيم الشجاع هو الذي لا يترك المصائب تؤثر

(١) القلشندي ، أبو المباس احمد . صبح الأعشى في صناعة الإنشا . القاهرة ، دار

الكتب المصرية ، ١٩١٤-١٩١٩ م ١٤ ج ١١٦-١١٥ ج ١١٦-١١٥

(٢) أبو شامة . المصدر المذكور آنفاً . ج ١ ، ق ٢ - ٥٦٦ .

فيه أو ثقل عزمه ، فقد هُزم قبله نور الدين الشهيد رحمه الله ، ولكنه نهض من كبوته بسرعة أذهلت أنصاره قبل أعدائه . صلاح الدين ، الذي صب الهزائم على رؤوس الصليبيين فرادى ومجتمعين ، لم يشذ عن هذه القاعدة . فقد فاجأ جيش صليبي ضخم صلاح الدين في نفر من أصحابه قرب الرملة من أرض فلسطين سنة ٥٩٣هـ ، ودارت بين الطرفين معركة رهيبة أبلى فيها صلاح الدين وجيشه بلاءً عظيماً ، ثم اضطر صلاح الدين إلى الانسحاب والذهاب إلى مصر ، ولقي في الطريق مشقة كبرى حتى سلمه الله تعالى . ونجد ذلك واضحاً في رسالته التي وجهها إلى أخيه تورانشاه في دمشق في نفس السنة عن تلك المعركة : .. ولقد أشرفنا على الهلاك غير مرة وما نجانا الله سبحانه إلا لأمر يريده ، وما ثبتت إلا وفي نفسها أمر^(١) ... ولكن صلاح الدين لم يسمح لهذه المعركة أن تقت في عضده ، لذلك نجده يتابع استعداداته الفورية للحرب ضد العدو ، ولم يرض على تلك الحادثة شراً حتى هاجم بنفسه معاقل الصليبيين في الشام وانتسفها نسفاً : .. وأما نوبة العدو في الرملة فقد كانت حثرة علينا ظاهراً ، وعلى العدو باطنياً ، ولزمنا مانسي من اسمها ، ولزمهم ما بقي من غرمها . لادليل أدل على القوة من المسير بعد شهرين من تاريخ وقعتها إلى الشام نخوض بلاد الفرنج بالثغور الثقيلة والحشود الكثيرة . والحريم المستور والمال العظيم الموفور^(٢) . كما ورد في رسالة أرسلها السلطان من مصر إلى القاضي الفاضل .

(١) ابن خلدون ، عبد الرحمن . كتاب المعبر . بيروت ، مؤسسة الأعظمي للطبوعات

١٩٧١ م . ج ٥ - ٦٤١ .

(٢) ابن راصل . المصدر المذكور آنفاً . ج ٢ - ٦٥ .

ولقد اعتاد صلاح الدين أن يرسل للآخرين ، ولاسيما للخليفة العباسي ، رسائل يصف فيها غاراته ومعاركه وما حققه من نجاح ، وما سقط بيده من حصون ، وما حصل معه من نكسات . ورسائله هذه قطع أدبية فنية . ذلك أن عصر صلاح الدين امتاز بوجود كاتبين من ألمع كتاب النثر العربي في عصور الدول المتتابعة وهما القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني الكاتب ، وكل منهما صاحب مدرسة خاصة به في النثر ، الكتابة الديوانية . وقد امتازت رسائل القاضي الفاضل بالأصالة والمتانة والجودة والفحولة ، والجل الطويلة والنفس الطويل والاستطراد ، وإيراد المترادفات لنفس المعنى ، والسجع الذي يبدو لدى القاضي الفاضل مقبولا إلى حد كبير ، بل مستساغا لطيفا . هذا وإن أهمية القاضي الفاضل تبرز كل البروز أثناء حكم صلاح الدين حتى أن دوره تجاوز كل التجاوز دور الكاتب ليصبح دور الوزير والمشير ونائب السلطان في حكم قطر من الأقطار ، إذا غاب السلطان في إحدى حروبه - وما أكثرها حتى لقد قيل بحق : إن دور قلم القاضي الفاضل لا يقل عن دور سيف صلاح الدين نفسه في إحراز الانتصارات التي حققها المسلمون زمن صلاح الدين . وقد أثبتت الأيام والوقائع صحة أحكامه ونضوج آرائه وامتيازها على آراء غيره من حملة السيوف حتى كان صلاح الدين يأخذ بآرائه ويحمل آراءهم .

أما عماد الدين الأصفهاني فقد كان أقل أهمية من القاضي الفاضل ، وشهرته ككاتب ديواني أقل من شهرة القاضي الفاضل ، وإن يكن العماد برز كمؤلف لعدد من الكتب الهامة . وهو إمام مدرسة في السجع تختلف ، إلى حد ما ، عن مدرسة القاضي الفاضل ، وهو يبدو أكثر تكلفا للسجع من القاضي الفاضل كما يبدو أسلوبه ثقيلا مملأ إلى حد كبير ، لأنه يتكلف ما لا يطيق وما لا تطيقه اللغة والأسلوب نفسه بكثرة السجع

والترصيع والمحسنات البديعية واللفظية . ولقد كان القدماء يعجبون به كل الإعجاب ويقلدون أسلوبه ويمتدرونه مثلاً يحتذى في الكتابة النثرية . ولكن نظرة المحدثين إليه تختلف كل الاختلاف عن نظرة القدماء ، ونزل العباد عن عرشه إلى مكان متواضع الآن .

ولقد قتلنا على يد صلاح الدين عدد من أبطال الحرب والسياسة تعلموا على يديه وتخرجوا في مدرسته ، وفي نفس الوقت ساعدوه مساعدات جلى وكانوا له أجل الأعوان ، ونخص بالذكر من هؤلاء أخاه الملك العادل وابن أخيه الملك المظفر اللذين لعبا دوراً ممتازاً في حروب صلاح الدين وسياساته وتخرجوا في مدرسته وساهما في تحقيق الانتصارات العظيمة التي أحرزها على الصليبيين .

معركة حطين وما سبقها وما تبعها :

ولقد تمكن صلاح الدين ، بعد أن أعاد توحيد بلاد الشام ومصر تحت حكمه ، وبعد أن قضى على الأعداء الداخليين والخارجيين ، أن ينزل بالفرجة ضربات قاصبات كانت مفتتها معركة حطين التاريخية ، التي أعادت للمسلمين كرامتهم وأحييت فيهم الآمال ، وأعادت للإسلام نضارته ووجهه الأبيض المشرق ، وأدت إلى تحرير القدس واسترجاع قسم كبير من الأراضي المحتلة ونحن ، العرب الأحياء في هذه الأيام ، نستطيع أن نتخيل وقع أنباء معركة حطين على نفوس أسلافنا الذين ذاقوا مرارة الهزيمة قبلها ، وما أثارت فيهم من كرامة وما أحييت من آمال وما ألهمت فيهم من عزائم .

ولقد أعاد صلاح الدين نفسه وجيشه أفضل إعداد للحرب

ضد العدو . والملاحظ أن الصليبيين ، خلال إقامتهم المديدة في ربوع بلادنا ، لم تهدأ الحرب بينهم وبين المسلمين مطلقاً ، منذ وطئت أقدامهم هذه الأرض حتى ارتحلهم عنها ، إلا في فترات قليلة جداً وفي أواخر أيامهم . صحيح أنهم كانوا يحدون حلفاء من المسلمين ، ولكن ذلك كان استثناء ، وإذا تحالفوا أو عقدوا هدنة مع هذا الحاكم ، فانهم يظنون بحالة حرب مستمرة مع بقية الحكام . وقد سبقت معركة حطين عدة معارك أبدى فيها صلاح الدين تفوقه واقتلع غداة من المعادل من العدو وأرسل الرسائل إلى هنا وهناك يحشد الجنود ويستدعي القواد ليخوض مع العدو معركة فاصلة . وقد أدرك أنصار صلاح الدين أن تحرركه يحيشه هذا عشية معركة حطين لم يكن لأمر اعتيادي ، وأن هناك آمالاً جسيمة معقودة على هذا الجيش ، كما يظهر ذلك من رسالة أرسلها أحد أفراد حاشيته إلى صديق يخبره بذلك : قد نهضت [بالسلطان] به همة لا يرجى غير الله لإنهاضها ، وحجبت به عزيمة ، الله المسؤول في حسم عوارض اعتراضها ... وأرجو أن تتمخض عن زبدة وتستريح الأيدي من الخوض (١) ...

ولقد أثارت أحداث معركة حطين وما تلاها أدباً كثيراً غزيراً عبر فيها القوم عن عواطفهم تجاه هذا الحدث الذي أعاد شباب الأمة غصاً وأشهرهم بالكرامة قصري في هروقههم . وتلاحقت الرسائل من هنا وهنا تقص هذا الحدث الهام وتبأرى في وصفه والإطناب في وقعه . ولعل أبرز نتائج معركة حطين هو تحرير القدس والقسم الأكبر من الساحل السوري . وقد سقط ملك القدس وكبار قواد الصليبيين أسرى

(١) أبو شامة . المصدر المذكور آنفاً ج ٢ - ٧٥ .

بيد صلاح الدين فأكرمهم ، ولكنه استثنى من هذه القاعدة أرفاط
[آرنولد] حاكم حصن العكر ، وهو الذي يرد اسمه في إحدى
الرسائل بالابرنس : وقتل صلاح الدين الأبرنس بيده لأنه كان قد غدر
وأخذ قافلة من طريق مصر^(١) ...

ولإذا كان نصر حطين قد حطم طواغيت الفرنج ، فإن أعظم ثمرة لذلك هو
تحرير البيت المقدس واسترجاع المقدسات التي بذلت الدماء رخيصة من أجلها
وفي سبيل تحريرها . ونستطيع أن ندرك شعور القوم آنذاك عند عودة
القدس إلى أحضانهم ، نحن الذين رأينا بألم أعيننا ذهاب القدس إلى
العدو ، وما رافق ذلك من حأس ومساع لاستردادها . لقد ملأ هذا
الحادث القوم فخاراً ومروراً ، واعتقدوا أن يد الله معهم قوياً
وتشد من أزرهم . ونجد أيضاً من الوثائق [رسائل وخطب] تصف
هذا الحادث العظيم الذي هز البلاد الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها ،
وذهبت الرسائل إلى بغداد ومصر واليمن وغيرها تصف تحرير البيت الأسير
وقد وجد كل من القاضي والعماد الكاتب مادة دسمة جداً يظهران
عبقريتها وأديهما في تحرير الرسائل التي تصف ما حدث ، وأطلقا قلميها
العنان وأقيا بفقن من الآداب والبلاغة والبيان والسجع حتى لم يترك
مزيداً لمستزيد . ولاشك أن الخطبة الأولى التي ألقيت في المسجد
الأقصى بعد تحريره قطعة أدبية بلاغية بيانية بديعة تذكر فضل الله
العظيم وكرمه العميم أن جعل تحرير القدس يتم على يد صلاح الدين ،
مع ذكر فضائل بيت المقدس وماورد فيه من آثار وبيان أهميته عند
المسلمين ، ثم عرج الخطيب بعد ذلك إلى التحريض : تحريض المسلمين

(١) نفس المصدر . ج ٢ من ٨١-٨٢ .

على متابعة الجهاد حتى تنطهر جميع البقاع الإسلامية من الرجز الفرنجي وإبعاد احتلالهم البغيض عن هذه البلاد التي هي مهبط الأنبياء وجمع الأولياء (١). وقد زاد الخطيب في الدعاء لصلاح الدين لقباً جديداً يستحقه بكل جدارة وهو لقب مطهر البيت المقدس . فحق ندعو نحن لأحد زعمائنا وندعوه محرر بيت المقدس ١٢

الحرب الصليبية الثالثة :

ولكن هناك نتيجة ثانية ظهرت بعد انقضاء فترة على معركة حطين وتحرير القدس وما تلى ذلك من معارك وتحرير أراض ، وأعني بذلك ما عرف باسم الحرب الصليبية الثالثة . وهذا ، بالحقيقة ، ردة فعل أوربا ضد الاسلام والمسلمين لما وصلتها من أنباء تحطم أحلامها وتبخر آمالها في القضاء على الاسلام وأهله . ذلك أن الكنيسة التي حرضت على الحروب الصليبية وتبنتها ودعت لها وكانت الروح المحرك لها ، جنونها وثار ثأرها ، وأصيب رجالها بالهستيريا نتيجة لحروب صلاح الدين وانتصاراته وتحرير بيت المقدس . ولذلك انطلقت الصيحات عالية في أوربا مجدداً تطالب بالقضاء على صلاح الدين واسترجاع البيت المقدس وتحطيم المشركين الوثنيين الكفرة . ولقد لبى ملوك أوربا هذا النداء وعلى رأسهم ريشارد ملك انكلترا ، وفريدريك بربروس ملك ألمانيا وفيليب أوغست ملك فرنسا ، إلى جانب عدد كبير من الأمراء والدوقات والكونتات والبارونات ، وتقاطروا زرافات ووحداً ، برأ

(١) ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد . وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان . تحقيق محمد عبيد الدين عبد الحميد . القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٨ م ج ٢ ص ٣٦٥-٣٧١ .

وبجراً ، إلى بلاد الشام محدوم رغبة واحدة ، على الرغم من الخلافات المميتة بينهم ، هذه الرغبة هي القضاء على الاسلام والمسلمين واسترجاع البيت المقدس . كما لبي النداء جمهور عظيم جداً من طغام الناس ورعاعها في أوروبا . واختلطت الدوافع الدينية مع الدوافع الدنيوية في جعل القوم يستميتون في محاولتهم القضاء على الاسلام واستعمار أراضيه وإبادة أهله . ولقد توقع صلاح الدين مثل ردة الفعل هذه ، ولكن قواه المحدودة ، بالمقايضة مع قوى أوروبا ، لم تمكنه من الاستعداد لصدم ومنعهم عن الوصول إلى البلاد الاسلامية . كما وأنه كان على علم بمجريات الأمور وأن ملك الألمان سلك طريق البر عن طريق القسطنطينية يبحث لـجب قاصداً البلاد الإسلامية . ولما لم يكن يملك إمكانات عسكرية أو اقتصادية تمكنه من صد هذه الغزوة ، لذلك لجأ إلى خليفة بغداد ، الذي يدين له بالولاء ، يخبره بما حدث ويطلب منه المدد : قد وصل الخبر بالدهاية الدهياء ، والغمة الغماء ، والنكبة النكباء ، والشدة الدماء والليلة الليلاء ، وهي أن ملك الألمان ، ومعه ملوك الفرنجية وحشودها وقوامصها وكثودها ... وصل جاراً على السماء ذبول قتامة ، بجرياً في الأرض سيول لهامة (١) ... وبعد أن يطنب في وصفه ووصف جيشه يذكر أن سلاجقة الروم متعاطفون مع صلاح الدين ضد هذا الخطر الملاحق . ولكن بعد فترة انقطعت الأخبار ليعلم صلاح الدين أن القوم صانعوا ملك الألمان وتركوه يعبر بلادهم ويصل إلى بلاد الشام ، ثم يقول : وقد تعين الجهاد على كل مسلم ... والاهتمام بدفعه من أفرض المهام وأهم الفروض . والخادم منفرد في حل عبء هذا

(١) المباد الأصهباني ، محمد بن محمد . الفتح القسي في الفتح القدسي ، تحقيق محمد محمود صبيح . القاهرة . الدار القومية للطباعة والنشر ص ٣٩٧-٣٩٨ .

الفادح الباهظ بالنموس ، وهو واثق بأن بركات الدار العزيزة قدرته ولاقتصره (١) ...

والواقع ، لقد أثار ملك الألمان بسلوكه المتفطرس وسلوك جيشه الأشبه بالعصابات ، هداه جميع من مر في أراضيهم . فقد أرسل ملك الروم وامبراطورها رسالة إلى صلاح الدين ، يخبره بخبر ملك الألمان وكيف أنه اجتاز بلاده بالعنف، وكيف آذى فلاحي بلاده ، وكيف أن الحرب دارت بين الطرفين ، وكيف أن الجيش الألماني تأذى وتعب أكثر مما آذوا فلاحي بلادهم ، وقد خسروا كثيراً من المال والدواب والرحل والرجال ، ومات منهم كثير وقتلوا وتلفوا ... وقد ضعفوا بحيث أنهم لا يصلون إلى بلادك ، وإن وصلوا كانوا ضعافاً بعدد شدة كثيرة ، لا يقدر أن ينفعون جنسهم ولا يضرون نسبك (٢) .

كذلك أرسل ملك الأرمن صاحب قلعة الروم على أطراف الفرات كاغيكوس ، رسالة إلى صلاح الدين يخبره خبر ملك الألمان وكيف أنه اجتاز الأناضول ، وكيف اضطرب ملك الألمان امبراطور بيزنطة على مصانعه ، وكيف حاربه سلاجقة الروم ، ولكنهم هزموا أمامه واضطربوا لمساعدته . ثم يقص عليه نبأ غرق ملك الألمان في مياه نهر من أنهار آسيا الصغرى (٣) ويحول في عدد جيشه والأجناس التي يضمها ، ولكنه يذكر في رسالة تالية ضعفهم وعجزهم . والطريف في الأمر هو أنهم حرموا على أنفسهم الملاذ حزناً على بيت المقدس : وقد صرح عن جمع

(١) نفس المصدر .

(٢) ابن شداد ، بهاء الدين . كتاب سيرة صلاح الدين الأيوبي المسماة بالنوادر السلطانية والمحسنات اليوسفية . تحقيق جمال الدين الشيال . القاهرة . ١٣٢٠ - ١٣٣٠ .

(٣) نفس المصدر . ص ١٢٤ - ١٢٦ .

منهم أنهم هجروا الثياب مدة طويلة ، وحرّموا ما حل ولم يلبسوا إلا الحديد .../ وهم من الصبر على الشقاء والذل والتعب في حال عظيم (١).
ولكن الله تعالى أراح صلاح الدين من الألمان وملكهم فقد تفرق القوم أيدي سبأ بعد موت ملكهم وضعفوا وتخطفوا ، ولم يتمكنوا أن يحدوا لهم ملجأ في كل من أنطاكية وطرابلس إلا بشق النفس .
والواقع كان رد فعل أوروبا على ذهاب القدس عنيفاً كل العنف ، عارماً . فقد تعاقد القوم على أن يجعلوها وقعة الانفصال مع الاسلام ، وبذلت الكنيسة أقصى جهودها المادية والمعنوية ، واستجاب القوم - ملوكاً وحكاماً وأفراداً - لنداء البابوية ، واثالوا انشياً على البلاد الإسلامية ، وبدأوا هجوماً كاسحاً يستندهم تفوق عددي رهيب ، وإمداد بحري متصل ، تحمله من أوروبا بشكل مستمر أساطيل دول المدن الإيطالية ، وخاصة البندقية وجنوى وبيزا . ولم يكن لدى صلاح الدين سوى قواه الذاتية ، وهي لاتوازن بقوى الصليبيين ، ولاسيا وأنهم سادة البحر ، والبحر يدمهم بسيل لاينقطع من المال والعتاد والرجال . والشئ المؤلم في الموضوع ، أن خليفة بغداد الناصر لدين الله ، الذي أرسل له صلاح الدين الرسائل قلو الرسائل يشرح الوضع ويستنجد ويستغيث ، لم يمدده إلا ببركاته المعنوية ودعواته الروحية ، وهي ، في المجال العسكري ، لاتفيد إلا قليلاً جداً . ولم يتقدم أبداً ، إلا بعض الأمراء المحليين مثل ملك الموصل ، لمساعدته ، في هذا الموقف البالغ الحرج الذي استمر أكثر من أربع سنوات حول عكا . قد يعترض البعض أن خليفة بغداد كان آنذاك ضعيف الحيلة ليس له سلطان على أحد .

(١) نفس المصدر . ص ١٢٧ .

وعلى الرغم من ضعف وسائل الخليفة إلا أنه كان بإمكانه ، أن يساعد بالمال والعتاد والذخيرة والمواد الغذائية ، إن لم يستطع أن يساعد بالرجال . كما كان بإمكانه أن يوجه نداء إلى ملوك المسلمين يدعوهم إلى مد يد العون إلى صلاح الدين ، بل كان بإمكانه أن يجند القادرين على حمل السلاح في العراق الخاضع لسلطته ليساعد صلاح الدين في معاركه ، ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك واكتفى بالبركات الصالحات . ورسائل صلاح الدين له تفيض بالشكوى المرة والتحذير من خطورة الوضع والاستنجد وطلب المدد ولكن دون جدوى .

والذي يطلع على رسائل صلاح الدين ورسائل أنصاره عن وضع المسلمين في تلك الفترة الحرجة يحصل على انطباع رهيب عن الوضع المتأزم الذي وُجد فيه المسلمون . فقد تتابعت إمدادات أوروبا وتدفقت على بلاد الشام بشكل ليس له مثيل . وكان القوم يضطرمون بغضاً للإسلام وحامساً . وقد بدأوا أعمالهم بحصار عكا ورد صلاح الدين على ذلك بأن حاصر المحاصرين لعكا بنفسه وجيشه . وظل هذا الوضع غير الطبيعي فترة دامت أكثر من أربع سنوات ، وعندما عن تلك الفترة وثائق غاية في الأهمية تشرح الوضع شرحاً كافياً .

فقد فاضت إحدى رسائله إلى الخليفة بشكواه من تحمله ثقل الحرب ، ووطأتها وحده لا مساعد له ولا معين إلا الله ، ويصف ما يعانيه : ومن خبر الكفار أنهم إلى الآن على عكا يدمم البحر بمراكب أكثر عدة من أمواجه ، ويخرج للمسلمين منهم أمرٌ من أجابه ... فإذا قتل المسلمون واحداً في البر بعث البحر عوضه ألفاً ... فالزرع أكثر من الجداد .. وهذا العدو المقاتل - قاتله الله - قد زر عليه من الحنّادق أذراعاً

متينة ، واستنجن من الجنوبات بمحصون حصينة ... وكَم من ساعة فضوا
فيها أقفال الخنادق فأفصى بهم البلاء عند فض أقفالها . إلا أن عددم
الجم قد كافر القتلى ، ورقابهم الغلب قد قطعت النصل لشدة ماقطعها
النصل . ومن قَبَل الخادم من الأولياء قد أثرت المدة الطويلة والكلف
الثقيلة في استطاعتهم لاطاعتهم ، وفي أحوالهم لاشجاعتهم ... يناشد الله
المناشدة النبوية في الصيحة البدوية في : اللهم إن تهلك هذه العصابة .
ويخلص في الدعاء ويرجو . على يد أمير المؤمنين الإجابة ... ولولا أن
في التصريح ما يعود على عدالتهم [الضمير هنا عائد إلى الخليفة]
بالتجريح لقال [أي صلاح الدين] ما يبكي العين ، وينكي القلوب ، وتلشق
له المرائر وتشق الجيوب . ولكنه صابر محتسب منتظر لنصر الله
مرتقب ... رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي ... وولدي ، ولقد
أبرزت لعدوم صفحات وجوههم ، ومان عليّ محبوبك بمكروهم فيهم
ومكروهم . ونقف عند هذا الحد ، والله الأمر من قبل ومن بعده .
وإن لم يشتك الدين إلى « ناصره » والحق إلى من قام بأوله ... فإلى
من يشتكي البث (١) ١١ .

ولكن هذه النفثة المصدورة ذهبت أدراج الرياح كما ذهبت صرخات
قبلها وبعدها .

كذلك حاول صلاح الدين الاستنجاد بأخيه سيف الاسلام ملك اليمن
وشرح له الوضع الخطير حول عكا وما يعانيه من قلة العدد والعدد وتفقؤ
الصليبيين العددي ، ولكن دون طائل (٢) .

(١) الفلقشندي . المصدر المذكور آنفاً . ج ٧ ص ١٢٧-١٣٠ .

(٢) نفس المصدر . ج ٧ ص ٢٣-٢٧ .

ولقد حاول الصليبيون ، في تلك الأثناء ، غزو الحجاز والوصول إلى المدينة المنورة ، فجهزوا أسطولاً في البحر الأحمر نزل في سواحل الحجاز ، وتقدم الجيش الذي حمله الأسطول حتى وصل رابغ ، ولكن وصل الخبر إلى الملك العادل نائب صلاح الدين في مصر فأرسل رجاله وأسطوله وتمكن من تدمير الأسطول الصليبي والقضاء على الجيش الصليبي ، نجد ذلك واضحاً في عدد من الرسائل وجهها صلاح الدين إلى العادل يبدى مروره بما تم . كما وأرسل عدداً من الرسائل إلى الخليفة حول نفس الموضوع .

ولقد أدى تدفق المدد على الصليبيين حول عكا وإمكانيات صلاح الدين المحدودة إلى ضيق الخناق على المسلمين المحصورين في عكا ، ولكن لم تهن عزائمهم وأرسلوا إلى السلطان يقولون : إننا قد تبايعنا على الموت ونحن لانزال نقاتل حتى نقتل ، ولا نسلم هذا البلد ونحن أحياء ، فابصروا كيف تصنعون في شغل العدو عنا ودفعه عن قتالنا ، فهذه عزائنا ، وإياكم أن تخفضوا لهذا العدو أو تلتينوا له ، فإنما نحن قد فات أمرنا^(١) .

ولقد بذل المسلمون حول عكا فوق طاقتهم في سبيل إنقاذ البلد من الوقوع بيد الصليبيين ، وظهر أبطال مجهولون قاموا بخوارق الأعمال في هذا المجال ، كالرفق الدمشقي الذي اخترع محولاً كجواياً كان السبب في تدمير الأبراج الثلاثة التي أقامها الصليبيون لإحكام الحصار حول عكا ، ورفض أن يتقاضى أية مكافأة على ذلك ، قائلاً : إنه فعل هذا في سبيل الله . وكعبسى العوام الذي كان يتقن العوم والفوس وكان رسول صلاح الدين إلى أهل عكا يحمل لهم الرسائل والنقود ، حتى

(١) ابن شداد . المصدر المذكور آنفاً ص ١٦٩ - ١٧٠ .

غرق وهو يحمل الذهب الوفير إلى أهل عكا واكتشفت جثته بعد ذلك ومعها النقود .

وأخيراً ، وبعد ملاحم بطولية استمرت أكثر من أربع سنوات ، وبعد أن دفعت أوروبا إلى عكا أفلاذ أكبادها ، وبعد أن ضحت بأكثر من خمسين ألف قتيل سقطت عكا ، لا كما يسقط الجبان ، بل كما يسقط الشجاع الشهيد الذي أبلى في الحرب أعظم البلاء ، ولكن الكثرة ، كثرة العدد هي التي أردته . وكالمادة أظهر الصليبيون إنسانيتهم وشجاعتهم بالسكان العزل ، ورافق احتلالهم القتل والنهب والسلب . ولكن لم يسمح صلاح الدين لهذا الحادث أن يفت في عضده ، أو ينال من إيمانه وإيمان أتباعه وشجاعته ، بل نراه يزداد تصميمًا على التصدي للفرقة المعتدين ، ويزداد إيماناً بالله تعالى وبنصره وبقدرة المساعدين على التغلب على هؤلاء الأعداء .

يدل على ذلك رسائله التي وجهها إلى عدد من الملوك يخبرهم بسقوط عكا ... وأخذوا البلد على سلم كالحرب ، ودخله العدو ، ولو لم يدخله من الباب دخله من النقب : وما وهنا لما أصابنا في سبيل الله وماضعفنا وما رجعنا وراءنا ولا انصرفنا ، بل نحن مكاننا ننتظر أن يبرزوا فنبارزهم أو يخرجوا فنناجزهم ^(١) . . . لقد تجاوزت عدة من قتل على عكا - يعني من الفرنج - الحسين ألفاً ، قولاً لا يطلقه التسميع ، بل يحوزه التصفيح ^(٢) . كما يقول في رسالة ثانية بعد أن وصف

(١) ابن الفرات ، ناصر الدين محمد . تاريخ ابن الفرات . تحقيق الشماخ . البصرة .

ج ٤ ، ق ٢ ص ٢٤ - ٢٥ .

(٢) نفس المصدر .

سقوط عكا المفجع : ... وقد عزمنا على المصاف ، وصدد صدمة الكافر بالجد الكافي الكاف . والله كافل دينه بالنصر ، والمردى بكفره أهل المكر ، وما هذا أوان الرنى ، بل هو زمان استتجاح المنى ، فإن العدو الخادر قد آن أوان أن يصحر ، وليل الهدى قد قرب أن يسفر^(١).

ولقد طمع الفرنج ، بعد سقوط عكا ، باسترجاع القدس ، وأسرع صلاح الدين إليها يريد حمايتها وتحصينها ، وهناك عقد مؤتمراً من قواده ومستشاريه وعرض عليهم الوضع الصعب وقال : اعلوا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته ، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذرائعهم في ذمكم معلقة ، والله عز وجل سائلكم يوم القيامة عنهم . وأن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه على العباد والبلاد غيركم . فإني وليتم - والعياذ بالله - طوى البلاد وأهلك العباد وأخذ الأموال والأطفال والنساء ... وكان ذلك كله في ذمكم أنتم الذين تصدتم لهذا كله وأكلتم بيت مال المسلمين لتدفعوا عنهم عدوهم وتنصروا ضعيفهم ، فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم ، والسلام . ولقد كان جواب هؤلاء القواد الذي ورد على لسان كبيرهم ابن المشطوب أجمل جواب وأجله ويفصح عن الحب العظيم والولاء الكبير والثقة المطلقة والطاعة العمياء التي يكنها أفراد الجيش لقائدهم العظيم : يامولانا : نحن عبيدك وأنت الذي أعطيتنا وكبرتنا وعظمتنا ، وليس لنا إلا رقابنا ، ونحن بين يديك ، والله ما يرجع أحد منا عن نصرك حتى يموت^(٢) .

ولكن الله تعالى سلم ، واختلف الصليبيون بين بعضهم وأصابعهم

(١) العماد الأصفهاني . المصدر المذكور آنفاً ص ٥٢٠ .

(٢) ابن كثير ، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل . البداية والنهاية . القاهرة ، مطبعة

السعادة ، ١٣٥١ هـ ، ١٤١٨ م ، ١٢٦٨ م ، ٣٤٨-٣٤٩ .

الوهن والخذلان والخبية ، فرجعوا أدرأهم يحرون أذبال الهزيمة .
هذا وإن جهاد صلاح الدين وإيمانه وصبره وتسامحه وبعد نظره ،
ونظرته الرحبة قد كوفئت خير مكافأة وأجلها ؛ ذلك أن ملك الإنكليز
الذي كان أكبر ملوك الحملة الصليبية الثالثة ، والذي حضر إلى المشرق
لنصرة الصليبيين وتدمير الإسلام ، حارب صلاح الدين حول عكا وأدرك
استحالة ما كان يحلم به ، وأراد الرجوع إلى بلاده ، فبدأ يفاوض
السلطان من أجل الصلح وتحقيق أطباعه بالسياسة والمفاوضة ، وهي
ما عجز عن تحقيقه بالحرب .

ولقد دارت بين الطرفين مفاوضات طويلة معقدة ، أظهر فيها صلاح
الدين كياسة وأدباً وحكمة ودراية ، وتمكن أن يحطم أحلام الصليبيين
باسترجاع القدس واحتلال كامل الساحل السوري . ولقد حاول ريشارد
ملك الإنكليز أن يجتمع بالسلطان صلاح الدين بعد أن تحارب المملكان
حول عكا ، ولكن صلاح الدين علمه درساً في الدبلوماسية وما يجب أن
تكون عليه علاقات الملوك ، فقد رفض الاجتماع به إلا بموجب قاعدة
ثابتة يتفق عليها الطرفان : الملوك لا يجتمعون إلا عن قاعدة ، وما يحسن
منهم الحرب بعد الاجتماع والمؤاكلة . وإذا أراد الملك ذلك فلا بد من تقرير
قاعدة قبل هذه الحالة ، ولا بد من ترجان نثق فيه في الوسط ... فإذا
استقرت القاعدة وقع الاجتماع بعد ذلك إن شاء الله تعالى (١) .

ولذلك لجأ ريشارد إلى الملك العادل يوسطه بالصلح بينه وبين أخيه
صلاح الدين ، وطلب منه أن يتوسط لدى السلطان حتى يصطلح
السلطان مع فرنج الساحل الشامي ويرجع ملوك أوربا إلى بلادهم . وقد

(١) ابن شداد . المصدر المذكور آنفاً ص ١٦٣ .

سأله الملك العادل على أي شيء يكون الصلح ؟ فأجابه ملك الإنكليز على أساس إرجاع الأراضي المحررة لهم فأجابه العادل : إن دون ذلك قتل كل فارس وراجل (١) ،

وعلى الرغم من إلحاح ريشارد على استرجاع القدس والبلاد الساحلية كشرط للصلح ، إلا أن السلطان رفض ذلك رفضاً قاطعاً ، وأفهمه أن القدس هي للمسلمين كما هي للمسيحيين : وهو عندنا أعظم . مما عندكم . . . فلا يتصور أن ننزل عنه ولا نقدر على التلطف بذلك بين المسلمين . وأما البلاد فهي أيضاً لنا في الأصل واستيلاؤكم كان طارئاً عليها (٢) . . .

كذلك اقترح ملك الإنكليز على السلطان أن يزوج أخته [أي أخت ملك الإنكليز] إلى الملك العادل ، ولكن رجال الدين المسيحي عارضوا في ذلك ، وأراد بذلك أن يبرهن على حبه ووده لصالح الدين ورغبته الجادة في الصلح . وبعد مراسلات كثيرة أبدى فيها ملك الإنكليز كل مودة وصداقة ، وتنازل عن أشياء كثيرة من طلباته ، بل أبدى فيها خضوعاً وتذلاً وتضرعاً ، عقدت بين الطرفين هدنة عامة : أخذ الصليبيون بموجبها ما في أيديهم فقط ، ولم ينالوا من القدس شيئاً ، وتمكن السلطان العظيم المجاهد أن يحتل يافا وينتزعها من الصليبيين أثناء المفاوضات ، وأن يهدم عسقلان وسورها .

بعد أن أعلنت الهدنة العامة أرسل السلطان إلى الخليفة رسائل يشرح له ما حدث من الهدنة العامة ، ويفصل له فيها أحرزه من انتصارات

(١) ابن الفرات . المصدر المذكور آنفاً ج ٤ ، ق ٢ - ٣٣ .

(٢) ابن شداد . المصدر المذكور آنفاً . ص ١٩٤ .

ويذكر له المميزات التي حصل عليها المسلمون ، ويعلمن ولاءه الصريح للخليفة ويلتمس رضاه وبركاته .

وبعد أن أنجز صلاح الدين هذه المهمة بفترة وجيزة رجع إلى دمشق، وكان قد غاب عنها فترة طويلة ، فاستقبل أروع استقبال وأحفله . وبعد هنية وإفاء الأجل المحتوم ، فانتقل إلى جوار ربه راضياً مرضياً ودخل في سجل الخالدين .

هذا وإن شخصية صلاح الدين تبدو عملاقة من خلال ماحقه ومن خلال نصوص الوثائق التي بين أيدينا . فهو بطل الوحدة وهو عسكري وقائد من الطراز الممتاز ، فهو قائد غزا القلوب قبل القلاع ، وهو داهية وسياسي من الطراز الرفيع جداً ، فقد استغل رغبة ملك الإنكليز لعقد الصلح ، وأدرك تلهفه على ذلك ، فاطله حق جعله يقبل التنازل عن قسم كبير جداً من طلباته . كما وأنه استغل فرصة مرض ملك إنكلترا فأرسل له الهدايا والأطبباء ، وذلك من أجل التجسس والكشف عن مناحي الضعف في المعسكر الصليبي . كذلك امتاز بسرعة حركته أثناء الحرب ، ولعل أفضل مثال على ذلك مهاجمته يافا وأخذه لها بشكل مفاجيء أثناء المفاوضات التي دارت بينه وبين ملك الإنكليز . وهذا شيء لم يتوقعه ولم يتصوره الملك الصليبي . كما وأن ثقاه وتقانيه في الدفاع عن الإسلام وأهله وأرضه ومقدساته وحرصه على مصلحة المسلمين وراحتهم وسلامتهم أنصع وأوضح من الشمس الساطعة . هذا إلى جانب بعد نظره وحنكته الإدارية وبراعته في القيادة وفهمه نفسية أتباعه ، وتقشفه وزهده في حطام الدنيا وعدله وشقيقته على رعيته ورغبته في تخفيف الأعباء عنهم ، وصبره وتحمله المشاق التي يعجز عنها الرجال الذين

هم في ريمان الشباب . ولكن لنا عليه ملاحظتان : الأولى تسامحه مع الصليبيين . وقد أثبتت الحوادث اللاحقة أن الصليبيين قوم لا ينفع ولا ينجم معهم التسامح ولم يزدحم التسامح إلا إغالا في الوحشية ونقض اليهود والعودة إلى الإجرام والكذب والخداع بنفس السهولة التي أقسموا بها على احترام اليهود . فقد ارتكب الصليبيون قبل عهد صلاح الدين ، وفي زمانه وبعده من الجرائم ضد المسلمين ما لم يسمع بمثله وحشية وقسوة ، فقد ارتكبوا ذلك عن سابق تصور وتصميم ، وكانوا يتباهون بذلك . وهو وإن بدا مثلاً أعلى وسط دياجير القرون الوسطى الأوروبية بتسامحه وأخلاقه النبيلة ، وإن أصبح معلم أوروبا التسامح في وقت ران فيه التعصب القبيح على الغرب بأبشع صورة ، إلا أنه في سلوكه كان متبهماً أجمل وأرقى ما في تعاليم الإسلام من قيم ، ومعلماً أوروبا نفسها أجمل ما في دينها من مثل وأخلاق كانت فوق مستوى القوم الديني والأخلاقي .

وأما الملاحظة الثانية ، فهي حرصه الشديد على كسب رضى خليفة المسلمين في بغداد ، علماً أن هذا الخليفة لم يقدم من العون لصلاح الدين في صراعه المرير ضد الصليبيين إلا البركات والموافاة الكلامية التي لم تسمن ولم تغن من جوع . هذا مع العلم أن الخليفة المباسي الناصر لدين الله كان شخصاً صعب المراس ، وقد اعترض على صلاح الدين أكثر من مرة واضطر صلاح الدين لاسترضائه في أكثر من مناسبة .

دور الانبياء الصليبي :

على الرغم من أن الهدنة العامة التي عقدها صلاح الدين مع الصليبيين أعطتهم فرصة للبقاء في هذه البلاد ، وعلى الرغم من أن بقاءهم استمر حوالي مئة سنة أخرى بعد وفاة صلاح الدين ، وعلى الرغم من استمرار

حلاتهم على مصر بخاصة ، إلا أن حروب صلاح الدين سجلت بداية دور الانهيار الصليبي في العالم الإسلامي .

واللاحظ في هذا الدور الذي استمر حوالي تسعين سنة ، أن مركز الثقل في الحروب الصليبية قد انتقل من بلاد الشام إلى مصر ؛ ذلك أن أوروبا أدركت أن مركز الثقل في هذا الصراع هي مصر لمواردها الطبيعية والبشرية والاقتصادية ، فقرروا إنهاء الحروب الصليبية لصالحهم في مصر . ولكن مصر أثبتت أنها حصن للمروبة والإسلام ، وتكسرت جميع محاولات وغزوات الصليبيين لمصر على صخرة المقاومة البطولية التي أبدوها المصريون وأعقب المدء جزر . وبعد فترة أخذت مصر وبلاد الشام المتحدتان في دولة واحدة تحت حكم المماليك زمام المبادرة في الحروب الصليبية وأوصلها إلى نتیجتها الطبيعية وهي تحرير بلاد الشام من الحكم الصليبي وطرد آخر جندي صليبي عن هذه البلاد سنة ٦٩٠ هـ الموافقة لسنة ١٢٩١ م .

بغايا الأيوبيين :

يعتبر عهد الملك العادل امتداداً لمهد أخيه صلاح الدين ، فـ استمرت الهدنة وقتاً ما ، ثم تحارب مع الفرنج المقيمين في بلاد الشام ، وكانت له اليد الطولى عليهم . ولكن حدث في أواخر أيامه أن تحرك الملك الزنديق فريدريك الثاني إمبراطور ألمانية ومملك صقلية نحو بلاد الشام وهدفه القدس . وحصلت حركة عامة وذعر شديد بين السكان ، وفي تلك الآونة توفي العادل وحل محله ابنه الكامل . ولما لم يكن مستعداً للقتال ، فقد تفاوض مع الإمبراطور الذي كان طلبه القدس ليرفع رأسه بين الملوك وأمام البابا : وقد علم البابا والملوك باهتمامهم ،

فإن رجعت خائباً ، انكسرت جرمقي ، وهذه القدس فهي أصل دين النصرانية ، وأنتم قد خربتموها وليس لها طائل ، فإن رأيت أن تنعم عليّ بقصبة البلد ليرتفع رأسي بين الملوك ، وأنا التزم بحمل دخلها إليك^(١) .

وقد حصلت زمن السلطان الكامل وإخوته في مصر وسورية حادثة مهمة جداً . ذلك أن الصليبيين وجهوا كامل قواهم إلى مصر لاحتلالها وقد تمكنوا من أخذ دمياط ، ورفضوا جميع العروض التي عرضها عليهم السلطان الكامل ليرجعوا عن احتلال مصر وأبوا إلا إكمال مخططاتهم القاضي بالقضاء التام على قوة مصر . ولقد كان لسقوط دمياط صدى عظيم في بلاد الشام ، فقد أصدر الملك المعظم عيسى حاكم بلاد الشام أوامره إلى نائبه على دمشق أن يحرض الناس على الجهاد ، وأريد أن تحرض الناس على الجهاد وتعرفهم ماجرى على إخوانهم أهل دمياط من الكفرة أهل العناد^(٢) . . . ولقد لبى أهل بلاد الشام النداء ونفروا خفافاً وثقالاً وحاربوا الفرنج فكانت النتيجة هزيمة ماحقة حلت بالصليبيين واستسلموا ورجعت دمياط إلى المسلمين وقتل الفرنج قتلاً ذريعاً وأمروا ، واضطرت البقية الباقية أن تعقد صلحاً مذللاً مع الملك الكامل تسلم بموجبه دمياط وجميع البلدان ، وتنسحب إلى بلادها تجر أذيال الهزيمة . والطريف في الأمر أن هؤلاء الفرنج كسروا منبر جامع دمياط قطعاً قطعاً وأهدوا كل قطعة منه إلى ملك من ملوكهم ، فلما استسلموا كان في المدينة صوارٍ عظام جداً وأراد الفرنج أخذها ، فمنهم من ذلك نائب السلطان

(١) الذهبي ، محمد بن أحمد . كتاب العبر في خبر من غير . تحقيق صلاح الدين المنجد وفؤاد السيد . الكويت ، دائرة المطبوعات والنشر ، ١٩٦٠ م ج ٥ - ١٠٢ .

(٢) ابن تغري بردي . النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة . القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٢٩ م . ج ٦ - ٢٣٩ .

شجاع الدين ، فلجأ الفرنج إلى السلطان يطلبون منه أن يسلمهم هذه الصواري ، ولكن شجاع الدين طلب من السلطان أن يطالب الفرنج أن يعيدوا المنبر حتى يعيد لهم الصواري . ولما عجزوا عن ذلك رفض تلبية طلبهم (١) .

ولم يتعلم الصليبيون من تجاربهم شيئاً ذا غناء ، ولم يفهموا الدرس الذي تلقوه في مصر ودمياط وكانوا بحاجة إلى درس آخر حتى يستطيعوا على الحقيقة المرة ، وهي أنهم أعجز من أن يحققوا ما يصبون إليه ، وأن زمن تفوقهم قد انقضى ، وأن عليهم أن ينتظروا زمناً طويلاً جداً حتى يستطيعوا أن يعيدوا الكرة على بلاد الإسلام .

فقد استأنف الهجوم على مصر الصليبيون بقيادة الملك الفرنسي الموهوس ببغض الإسلام وخدمة الكنيسة لويس التاسع الذي أعاد الكرة ونزل بشغب دمياط . وهنا نجد الملك الفرنسي يغير خطة الصليبيين ويرسل إلى الملك الأيوبي في مصر الملك الصالح نجم الدين رسالة يعرض عليه فيها التسليم . وهي رسالة سقيمة لاتعني شيئاً سوى التفاوض والتبجح الكاذب، والتباهي بعدد العساكر التي أحضرها معه، وأنه سيقول الملك الصالح . ويدعي لويس التاسع في تلك الرسالة أنه أمين الأمة العيسوية وهذا ادعاء لانتعقد أن بقية ملوك أوروبا توافق عليه (٢) . ويدل جواب الملك الصالح له على نفس واثقة بالله تعالى وبعدالة القضية التي يدافع

(١) ابن واصل المصدر المذكور آنفاً . ج ٤ ص ٩٩-١٠٠ .

(٢) المقرئزي ، تقي الدين أحمد بن علي . كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك . تحقيق محمد مصطفى زيادة . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٤ م ، ج ١ ، ق ٢ ص ٣٣٤ - ٣٣٥ .

عنها ، وعلى أن العدوان الصليبي لا بد وأن ينتهي بتدمير المعتدين ،
 واستشهد في كتابه بآيات من الذكر الحكيم تناسب المقام (١) .
 وقد صدق الله وعده جنده المؤمن به ، وهزم المعتدون شر هزيمة في
 معركة المنصورة الشهيرة عام ٦٤٨ هـ وأمر ملك فرنسا نفسه مع قواده
 وثقاته ، وتحطم غروره ، وتمزق جيشه ، وتفرق أيدي سبا .
 ولقد أثار ظفر المنصورة العزة في النفوس ، وأعاد للمسلمين ثقتهم
 بربهم وبأنفسهم ، وعاد الدين جديداً كما كان ، ولبست البلاد ثوباً
 قشياً هو ثوب الظفر الذي أتى بعد أن يش العباد من البلاد والأهل والأولاد ،
 فنودوا : ألا تياسوا من روح الله (٢) .

عهد المماليك :

يعتبر عهد المماليك - في أوله على الأقل - امتداداً للعهد الأيوبي ،
 ولا سيما فيما يتعلق بالحرب ضد الصليبيين . ذلك أن أوائل ملوك
 المماليك أوصلوا الحرب ضد الصليبيين إلى نهايتها المحتومة : وهي تطهير
 بلاد الشام من أرجاسهم . ذلك أن أوربا الصليبية لم تعد قادرة -
 بعد هزيمة المنصورة المذكورة آنفاً - أن تعيد الكرة على مصر وبأعداد
 غفيرة ، كما وأن أوائل ملوك المماليك كالظاهر بيبرس والملك المنصور
 قلاوون كانوا محاربين من نوع نادر ، فهم الذين أعادوا وحدة مصر -
 وبلاد الشام ، وهم الذين حطموا أسطورة الجيش المغولي الذي لا يقهر
 ففهموه أكثر من مرة ، وصبوا الهزائم المتوالية على رؤوس أباطرة

(١) نفس المصدر .

(٢) المقرئ : « بقي الدين أحمد بن علي الخطط المقرئية . الشياح ، لبنان ، مكتبة

إحياء العلوم . ج ١ - ٣٩١ .

المغول . وحاربوا الصليبيين في بلاد الشام وافتزعوا معاقلمهم واحداً بعد واحد حتى أجلوم عن سورية سنة ١٢٩١ م كما حاربوا الثوار وقضوا عليهم ، إلى جانب حربهم لسلاجقة الروم وللبيزنطيين وهزيمتهم إياهم أكثر من مرة . والواقع أثبت الملك الظاهر بيبرس أنه قائد محارب من أرفع طراز . وقد ميز نفسه عندما كان ضابطاً وقائداً للفرسان زمن أواخر الأيوبيين . وأما في زمن السلطان قطز فقد كان هو الروح المحركة والمقل المفكر وراء كل ماتم إنجازه ضد المغول بخاصة ، ولاسيا في معركة عين جالوت الحاسمة . ولما أصبح الظاهر بيبرس سلطاناً ، انضاف إلى خلاله السابقة صفة الحكم والقيادة ، وهي خلال كان هو من أجدر الناس بها ، وهو الذي يعود له الفضل الأكبر ، في زمن المماليك ، في تحطيم القوة الصليبية في سورية . وعلى الرغم من أن بقاء الصليبيين استمر في بلاد الشام فترة ليست بقصيرة بعد وفاته ، إلا أن شرف إنهاء الحكم الصليبي يعود له ولحروبه البطولية التي حطمت معاقل الفرنج معقلاً معقلاً . وقد بلغ من عجز حكام سورية الفرنج وضعفهم أنهم أصبحوا يطلبون عقد الهدن مع الظاهر بيبرس ، بل وقد أصبح هو نفسه حكماً بينهم كما حدث لما احتال ملك قبرص وحاكم عكا على صاحبة بيروت وجعلها تترك مملكتها وتذهب إلى قبرص ، فبقيت بيروت بدون حاكم ، فأرسل السلطان إلى صاحب عكا يقول : هذه الملكة بي-ني وبينها هدنة ، وما سافر زوجها حتى أودعها عند جامي ، وعادتها إذا سافرت تستودعني بلادها . وفي هذه المرة ماسيرت لي رسولا ، ولابد من حضورها وأن تتوجه رسلي وتشاهدها ، وإلا أنا أحق ببلادها ^(١) .

(١) ابن الفرات . المصدر المذكور آنفاً . ج ٧ - ٣٥ .

ولكي يتمكن السلطان من تنفيذ خطته في تطهير بلاد الشام من الفرنج لم يكتف بالاستعداد الحربي وحده ، وإنما لجأ إلى الدبلوماسية فحالف بعض الصليبيين إلى فترة ، ليأمن جانبهم ، وتفرغ للآخرين ، كما فعل لما عقد عدة هدن مع بيروت ، ومع الأستبارية في حصن الأكراد ومع غيرهما ، وهاجم عندئذ بقية المماقل واحتلها كما فعل لما هاجم صفد والشقيف واللاذقية ويافا وانطاكية وفتحها كلها .

وقد كان من حسن حظ الملك الظاهر وابنه من بعده الملك بركة ومن بعدهما السلطان قلاوون أن وجد عندهم كاتب للإنشاء من ألمع كتاب الإنشاء الذين حفل بهم التاريخ الإسلامي وأرشقهم أسلوباً وأفصحهم بياناً وهو محي الدين بن عبد الظاهر . وأن أسلوبه الرشيق وعباراته الرضية وسهولة كتابته وامتناعها ، ولصوقها بالقلب ، وإثارته للعجاب ، وتدفق فصاحته وبلاغته وفصاحته ، لتذكرنا بالقاضي الفاضل وما أنجزه في عصر صلاح الدين الأيوبي . وهو على الرغم من استعماله السجع والمحسنات البديعية والبيانية بكثرة ، وعلى الرغم من أن رسائله معرض لمذح السلطان بحساب ويغير حساب ، ومعرض لإظهار بلاغته وقدرته الكتابية والبيانية والبديعية ، وقدرته على الإتيان بالمتراذفات والسجع والترصيع ، إلا أن كل ذلك لا يحجب أسلوبه الرصين وشخصيته المتميزة بحيث يستطيع الإنسان المطلع على أسلوبه أن يحكم على رسالة ألفها هو ولكن جمل مؤلفها من أسلوبها أنها من تأليفه . وقد ترك لنا قطعاً فريدة من نوعها تعود إلى ذلك العصر وكلها شواهد حية تدل على ذوق ذلك العصر الرفيع وعلى ما وصل إليه النثر العربي تحت إشراف هذا الكاتب العظيم وبهيمته وسعيه .

والطريف في الموضوع الروح المرحية التهكمية التي كانت تحكم الملك الظاهر . ذلك أنه بعد أن احتل أنطاكية أرسل إلى صاحبها بوهيموند السادس ، وكان يحكم أنطاكية وطرابلس معاً وكان يلقب بالبرذنس ، يخبره بفتح أنطاكية ويخاطبه بالقرص . ذلك أن سقوط أنطاكية بيد السلطان جعلت رتبة بوهيموند تنحط من الإمارة إلى الكونتية ، كما وأن فتحها دليل حي على عبقرية السلطان العسكرية والسياسية . فقد هاجم أولاً طرابلس وحارب ضواحيها وفعل بها الأفاعيل ، ودافع عنها بوهيموند بشدة ، ثم انسحب السلطان من ضواحي طرابلس ، فاعتقد بوهيموند أن دفاعه كان السبب في رحيل السلطان وإجبار الهجوم على طرابلس ، ولذلك ركن إلى الراحة . ولكن ذلك كان جزءاً من خطة اتبها السلطان ، فقد أوهم خصمه أن الهجوم الرئيسي هو على طرابلس ، على حين أن هدف الهجوم الرئيسي أنطاكية . ووصل السلطان إلى أنطاكية في غضون خمسة عشر يوماً من تركه طرابلس . وهناك حاصرها وتمكن خلال فترة وجيزة من أخذها . ومن هناك أرسل إلى بوهيموند تلك الرسالة يخبره بخبر أنطاكية وكيف أخذها وهي رسالة تقطر تهكماً وسخرية لاذعة إلى جانب احتوائها على الحقائق الناصعة من أخذ البلد وماحل بها من الدمار . فهو يفتتح رسالته بتحية بوهيموند . . . المنتقلة مخاطبته بأخذ أنطاكية منه من البرنسية إلى القومصية (١) . ثم يعلمه بما تم من قتل خيالاته ورجالاته في أنطاكية وماحل بالبلد : فلو رأيت خيالك وهم صرعى تحت أرجل الخيول ، وديارك والنهاية

(١) القرظي ، تقي الدين . كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك . تحقيق محمد مصطفى زيادة . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر . ١٩٣٤ م . ج ١ ، ق ٣ ص ٩٦٦-٩٦٩

ففيما تصول والكسابة فيها تجول ... وداماتك وكل أربع منهم تباع
فتشتري من مالك بدينار ... ولوشاهدت النيران وهي في قصورك
تحترق ، والقنلى بنار الدنيا قبل نار الآخرة تحترق ... لكنك تقول :
يا ليتني كنت تواباً ! ويا ليتني لم أوت بهذا الخبر كتاباً ، ولكانست
نفسك تذهب من حسرتك ... ولتعلم أنا قد أخذنا بحمد الله منك
ما كنت أخذته من حصون الإسلام ... وكتابنا هذا يتضمن البشرى
لك بما وهبك الله من السلامة وطول العمر بكونك لم يكن لك في
أنطاكية في هذه المدة إقامة ، وكونك ما كنت فيها فتكون إما قتيلاً
وإما أسيراً وإما جريحاً وإما كسيراً . سلامة النفس هي التي يفرح بها الحي
إذا شاهد الأموات ... وبعد هذه المسابقة لا ينبغي لك أن تكذب
لنا خبراً ، كما أن بعد هذه المخاطبة يجب ألا تسأل غيرها غبراً .

ويعلق المقرئ على ذلك بقوله : ولما وصل إليه هذا الكتاب
اشتد غضبه ولم يلبثه خبر أنطاكية إلا من هذا الكتاب (١) .

كما وأن السلطان دأب على نفس الأسلوب مع بوهيموند من إرسال
الرسائل له بعد أن يقتطع من أملاكه بلداً من البلدان ، كما فعل لما
احتل حصن عكار من أملاك طرابلس . فقد أرسل له رسالة ثانية
تفيض تهكماً وسخرية وتهديداً ووعيداً ، وهي بمثابة إنذار بالتسليم
أو الرحيل ، وإلا فإن اللقاء قريب بين الطرفين وسيحل بالكونت
وأهل طرابلس الصليبيين ما حل بأهل عكار . واللطف في الموضوع
هو أن السلطان يعطينا لون علمه ولون علم بوهيموند السادس فيقول :

(١) نفس المصدر .

وكتابتنا هذا يبشرك بأن علمنا الأصفر نصب مكان علمك الأحمر...^(١)
ولقد توفي السلطان وهو في أوج مجده وعزه بعد أن حطم المغول
وبعد أن أنهى القسم الأكبر من الاحتلال الصليبي لبلاد الشام ، وبعد
أن رفع سمعته وسمعة بلاده عالية خفاقة في أرجاء العالم ، وترك للسلطان
الملك المنصور ان يتم ما بداؤه . وعلى الرغم أن السلطان بركة هو
الذي خلف والده الملك الظاهر في العرش ، إلا أن حكمه قصير وشخصيته
مرجوحة مما مكن لقلاوون من خلعها والحلول محله .

وقد تمكن قلاوون أن يحرر ما بقي من معاقل الصليبيين في بلاد
الشام باستثناء صور التي جرى تحريرها زمن ابنه الملك الأشرف . وقد
سار قلاوون على سياسة الملك الظاهر ، فمقد الهدن مع بعض الأطراف
ليتفرغ للأطراف الأخرى كما فعل لما عقد هدنة مع مملكة عكا ليتفرغ
لفتح وتحرير طرابلس . ولما حرر طرابلس رجع إلى عكا واحتلها
وهكذا . وأخيراً شاهدت هذه البلاد خاتمة العدوان الصليبي ، بمعناه
الاصطلاحي الاختصاصي الضيق ، على يد الملك الأشرف خليل الذي
ظهر صور ١٢٩١ م . ولم يعد الصليبيون إلى هذه البلاد ، أو بالأحرى
جيوشهم ، إلا في القرن التاسع عشر والقرن العشرين .

وقد انتهت الحروب الصليبية ، كما عرفناها في أول هذا الفصل ،
في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي ، ولكنها خلفت في البلاد آثاراً
رهيبية ، وكان لها نتائج بعيدة المدى . فقد ساهمت أكبر مساهمة في
تغيير عقلية الفاتحين الصليبيين البرابرة ، وجعلتهم يطمعون على حضارة
أرقى من حضارتهم ، وصححت كثيراً من مفاهيمهم عن الشرق بعامة ،
وعن الإسلام والمسلمين ، كما وأنها جعلتهم يغيرون أساليبهم في مهاجمة

(١) نفس المصدر ج ١ ق ٣ . ٩٧٢-٩٧٣ .

الإسلام والبلاد الإسلامية ، ولكنها لم تؤثر فيهم بحيث يتخلون عن أنفسهم أو حقدهم أو أطماعهم ، فهذه أشياء مفروسة في نفوسهم يتوارثونها كبراً عن كابر . كما وأنها علمتهم أهمية التبادل الاقتصادي وإمكانية ذلك في ظل سلم بين الطرفين ، وإيجاد سبل آمنة برية وبحرية بين الطرفين . كما وأن هذه الحروب ساهمت أكبر مساهمة في إضعاف نفوذ البابوية في الغرب ، وبالتالي الكنيسة ، وفي إضعاف نظام الإقطاع الذي كان سائداً في أوروبا ، مما ساعد على تأسيس الملكيات المطلقة كبول فرنسا وإنكلترا وإسبانيا ، وكان له أثر فعال في إنهاء العصور الوسطى وبداية عصر النهضة الأوروبية .

وأما تأثير هذه الحروب على الشرق فيختلف كل الاختلاف ، ذلك أن الشرق فقد قواه الذاتية في صراعه ضد الصليبيين والمغول ، واعتقد أن البحر مصدر الشر ، لأنه حمل له أمواج الصليبيين ، فأهل القوم البحر ولم يلتفتوا إليه ، حتى إنهم دمروا أكثر الموانئ المطلة على البحر الأبيض المتوسط خوفاً من أن يستعملها الغزاة في العودة ثانية إلى البلاد . كما وأنهم أهملوا الأسطول وتركوا الزيادة في هذا المجال لدول إيطاليا كالبندقية وجنوا . كما وأن تدمير قسم كبير من البلاد ومصرع عدد كبير من السكان أثر على الحضارة الإسلامية وأفقدتها أصالتها ، فجعلها ، مع عوامل أخرى كثيرة أهمها الغزو المغولي ، تلجأ إلى التقليد الحرفي مما كان له أكبر الأثر في الجمود الفكري والحضاري الذي ران على البلاد والعباد فترة طويلة من الزمن . كما وأن هذا العدوان الأوربي ضد المسلمين جعلهم يقفون موقفاً عدائياً تجاه أوروبا وكل ما يصدر عنها ، ولو كان هذا الذي يصدر شيئاً جيداً يمكن أخذه والاستفادة منه ، إلى جانب أنهم انطؤوا على أنفسهم قدر

الاستطاعة وحاولوا الابتعاد عن مجرى الأحداث العالمية ، بما كان له أكبر الأثر على عقليتهم ومعارفهم . أضف إلى ذلك أن أغلب ملوك الممالك ، بعد الملك المنصور قلاوون وابنه الملك الناصر محمد كانوا ملوكاً ضعافاً هزيلين ، ولم يكن عندهم تصور واضح عن مفهوم الحكم والدولة فانخرطوا في منازعات محلية استنزفت قواهم وقوى شعبهم . وإذا تذكرنا العاصفة المغولية الكبرى التي اجتاحت الشرق حتى سواحل البحر الأبيض المتوسط بقيادة السفاك تيمورلنك أواخر القرن الرابع عشر الميلادي ، وما أحدثته من دمار وأنزلته بالبلاد والعباد من ضروب البلاء والقتل والتدمير ، فإننا نكون قد رسمنا صورة شبه كاملة لأسباب التدهور والتأخر الحضاري الذي سيطر على الشرق فترة طويلة من الزمن .

ولم يحاول العثمانيون ، ولم يكن بإمكانهم ، أن يغيروا هذه الصورة ، بل لعلمهم ثبوتها ورسوخها وزادوها استقراراً ، وذلك بسبب قصورهم وبسبب طبيعة تكوينهم وتكوين نظام الحكم لديهم . ولكن ذلك خارج عن نطاق كتابنا هذا . وإنما نكتفي بالإشارة إليه .

ولقد تعاصر مع الغزو الصليبي لهذه البلاد ، الغزو المغولي لها الذي كان له آثار قاتلة على كل ناحية من نواحي الحياة في العالم الإسلامي والحضارة ككل ولعل هذه الآثار أشد من الآثار التي خلفها الغزو الصليبي .

وعلى الرغم من أن المسلمين خرجوا منتصرين في كلتا الحالتين ، إلا أنهم فقدوا قواهم الذاتية في هذا الصراع الرهيب ، وأصبحوا عرضة لاختلاف أنواع الآفات والمصائب ، مثلهم في ذلك مثل جسد أصيب بأمراض خطيرة جداً ويمكن هذا الجسد من التغلب على تلك الأمراض ، بمدد صراع رهيب ، وخلال فترة طويلة ، ولكن هذا الصراع أضعف ذلك الجسد كل الإضعاف فأصبح هدفاً لأبسط الأمراض وأنواع الجراثيم تهاجمه وتفتك به .

الغزو المغولي :

يعتبر المغول من العنصر الأصفر ، ومكانهم الأصلي منغوليا ، وهي التي أعطتهم اسمها على ما يبدو . وقد استمروا فترة طويلة في ذلك المكان ، ولكن حدث أن ظهر فيهم زعيم قوي في أوائل القرن الثاني عشر هو جنكيزخان الذي تمكن أن يمد سلطانه على بقاع شاسعة من الأرض ، وأن يوجد أوسع إمبراطورية وجدت حتى عهده . وكانت العالم الإسلامي هدفاً دسماً وسهلاً للمغول . ذلك أن العالم الإسلامي كان أكثر حضارة وتحضراً من المغول ، ويخزر بالثروات والخيرات والمدنية ، إلى جانب ضعف سياحي وانقسام وتنافس طاحن بين مختلف الفرقاء . ودائماً تجذب البؤر الأكثر تحضراً ، والضعيفة عسكرياً وسياسياً ، البرابرة الأقل تحضراً لاحتلال تلك البؤر والتمتع بما تحويه من خيرات . وهذا ماحدث في عالمنا الإسلامي . ولم يكن لدى المغول قيم روحية أو أخلاقية رفيعة ، فقد كانوا وثنيين أو لادين لهم ، ومستوأم الأخلاقي ومفاهيمهم الأخلاقية منخفضة كل الانخفاض ، إلى جانب أعداد غفيرة ومزاييدة ، وتنظيم عسكري دقيق ، وقيادة سياسية وعسكرية حازمة وحاذقة . كل ذلك أدى إلى جعلهم يحققون ما يصبون إليه من تدمير واحتلال وقتل وسيطرة . ولا يحسن أحد أنهم كانوا غير منظمين ، بل لعلمهم كانوا أكثر تنظيمًا وأدق من أعدائهم ، وهذا أحد عناصر تفوقهم . ذلك أنهم كانوا منظمين كل التنظيم ويعرفون ما يريدون ، ويعرفون الطريق لتحقيق ما يريدون . ويمكن تقسيم أدوار الغزو المغولي للعالم الإسلامي ، تسهلاً للبحث إلى ثلاثة أقسام كبرى :

الدور الأول : وينتهي بسقوط بغداد بيد المغول سنة ١٢٥٦ هـ .

الدور الثاني : الذي يمتد حتى ظهور تيمورلنك أواسط القرن الرابع عشر الميلادي .

الدور الثالث والأخير : دور العاصفة التيمورية التي استمرت حتى وفاة تيمورلنك أوائل القرن الخامس عشر الميلادي .

الدور الأول من أدوار الغزو المغولي :

لقد سبق المغول في الإغارة على العالم الاسلامي أقوام آخرون من جنسهم هم الخطا والتتار ، ولكن المسلمين كانوا قادرين على الخلاص منهم ، ومن حسن الحظ وجد ملك في شرق البلاد الإسلامية في خوارزم هو خوارزمشاه الذي كان محارباً قديراً ودبلوماسياً بارعاً ، فتمكن أن يحارب الخطا وأن يكسرهم ، كما حارب التتار وتخلص منهم ، وأبدى خلال هذه المعارك مقدرة عسكرية لا بأس بها ومهارة سياسية . ولكن الحظ خانته أمام المغول فلم يتمكن من الوقوف في وجه جمعاقل جنكيزخان الذي اتخذ ذريعة للهجوم عليه قتل نائب خوارزمشاه تجاراً أرسلهم جنكيزخان إلى خراسان باسم التجارة ظاهراً ، ولكن للتجسس وتقصي الحقائق باطناً ، فأرسل جنكيزخان إلى خوارزمشاه رسالة يعقب عليه فيها ويطلب منه مجازاة نائبه لفعله ، ولكن خوارزمشاه قتل رسول جنكيزخان الذي غضب لهذه الإهانة ، وأرسل يهتد ويذبح ويقول : تقتلون أصعابي وتأخذون مالي منهم ! استعدوا للحرب فلاني واصل إليكم يجمع لاقبل لكم به (١) .

وقد وصل جنكيزخان وحارب خوارزمشاه وهزمه واحتل قسماً

(١) ابن الأثير المصدر المذكور آنفاً . ج ١٢ - ٣٦٣ .

كبيراً من شرقي البلاد الإسلامية . ولقد تابع خلفاؤه سياسته ، وبشكل خاص منكوقاآن الذي أرسل أخاه هولاًكو لتحقيق حلم جدم جنكيزخان باحتلال البلاد الواقعة بين جيحون وأقاصي بلاد مصر (١) .

وتبدو في وصيته لأخيه هولاًكو الشخصية المغولية واضحة كل الوضوح : من اعتزاز بجنكيزخان وحض على التمسك بقوانينه في الكليات والجزئيات ، إلى تحريض على تحطيم كل من يقف في طريقه : أما من يعصيك فأغرقه في الذلة والمهانة مع نسائه وأبنائه وأقاربه وكل ما يتعلق به ... فإذا فرغت من هذه المهمة ، فتوجه إلى العراق ... وإذا بادر خليفة بغداد بتقديم فروض الطاعة ، فلا تعرض له مطلقاً ، أما إذا تكبر وعصى ، فالحقه بالآخرين من الهالكين (١) .

ولقد أدرك المسلمون الخطر الماحق الذي يهددهم من هؤلاء المغول ، ولكن الانقسام السيامي وضعف الحكم وتخاذلهم وخيانتهم ، والخوف الذي استولى على النفوس ، كل أولئك عوامل لم تساعد على إحياء جبهة إسلامية موحدة تقف في وجه المغول ، بل ساعدت على اتساع هوة الخلاف وعلى تسهيل عملية الغزو المغولي للعالم الإسلامي . فقد فرض بدر الدين لؤلؤ على أهل الشام ضريبة أسماها ضريبة النتر (٢) ، ولكن عبتاً . كما كان المسلمون يعلمون أن هدف المغول احتلال جميع البلاد الإسلامية بما فيها مصر . فقد ورد في رسالة أرسلها تاجر مجهول من الري إلى أصحابه في الموصل سنة ٦٢٧ هـ يعلمهم عن هذا الغزو ما يدل

(١) الحمذاني ، رشيد الدين بن فضل الله ، جامع التواريخ في تاريخ المغول . تعريب محمد صادق نشأت ومحمد موسى هنداري وفؤاد عبد المعطي الصياد القاهرة ، الإدارة العامة للثقافة ، ١٩٦٠ م . ج ٢ ، ق ١ ، ٢٣٦-٢٣٧ .

(٢) المغربي . المصدر المذكور آنفاً . ج ١ ، ق ٢ - ٣١٥ .

على ذلك . إن الكافر - لعنه الله - ما نقدر أن نصفه ... حتى لاتنقطع قلوب المسلمين ... ولاتظنوا أن هذه الطوائف التي وصلت إلى نصيبين والخابور ... كان قصدهم النهب ، إنما أرادوا أن يعلموا هل في البلاد من يردم أم لا ؟ فلما عادوا أخبروا ملكهم بخلو البلاد من مانع ومدافع ... فقوي طمعهم ، وهم في الربيع يقصدونكم وما يبقى عندكم مقام ، إلا إن كان في بلاد المغرب ، فإن عزمهم على قصد البلاد جميعها فانظروا لأنفسكم^(١) ،

ولقد افتتح هولاء حملاته على البلاد الإسلامية بتوجيه نداء إلى جميع حكام البلاد الإسلامية الشرقية - وما أكثرهم - ومن جملتهم خليفة بغداد المستنصر بالله ، أن يساعده بالمال والرجال والسلاح من أجل إخضاع واحتلال قلاع الملاحدة المنتشرة في شمالي إيران الحالية ... فإذا أسرعتم وساهتم في تلك الحملة بالجيش والعدد والآلات فسوف تبقى لكم ولاياتكم وجيوشكم ومساكنكم وستعتمد لكم مواقفكم . أما إذا تهاوتم في امتثال الأوامر أو أهملتم ، فإننا حين نفرغ بقوة الله من أمر الملاحدة ، فإننا لانقبل عذرکم ونتوجه إليكم فيجري على ولاياتكم ومساكنكم ما يكون قد جرى عليهم^(٢) ..

ولقد ثبت أن قليلا من الحكام المسلمين لبوا نداء هولاء وساهموا في حملته المشهورة هذه . ولذلك امتلأ غضبا عليهم ، وبعد أن انتهى من أمر الملاحدة وقلاعهم ، وجه سهام نقده وصب جام غضبه على الخليفة باعتباره أكبر الحكام المسلمين في المراق مقاما وقوة ، وسلطته الروحية

(١) ابن الأثير . المصدر المذكور آنفاً . ج ١٢ - ٥٠٣ .

(٢) الهمداني . المصدر المذكور آنفاً ، ج ٢ ، ق ١ - ٢٤٠ .

ومكانته المقدسة لدى المسلمين ، فأرسل له رسالة يعاقبه على عدم إرسال الجنود للمساعدة في فتح قلاع الملاحدة ، ويذكر له أنه مهما تكن أسرتك هريقة وبيتك ذا مجد تليد ، فإن لمعان القمر قد يبلغ درجة يخفى معها نور الشمس الساطعة ^(١) . وفي هذا اعتراف صريح بتفوق وسمو أسرة آل العباس على أسرة جنكيز خان ، مع إمكانية أن يلمع هولاء أو أحد أفراد أسرته أكثر من لمعان أحد أفراد أسرة آل العباس . ثم بعد ذلك ينتقل معه إلى التهديد ، ويذكر له أن كثيراً من السلالات حكمت إلى جانب الخليفة في بغداد بعد أن احتلتها من أمثال السلاجقة والديلمة والأتابكة ، فكيف تغلق بغداد في وجه المغول وهم أقوى من كل أولئك ؟ بعد ذلك يطلب من الخليفة الخضوع والطاعة ، وآية الطاعة هدم الحصون وطم الخنادق وإرسال وفد مؤلف من ثلاثة موظفين لمقابلة هولاء ، وتقديم الخضوع والولاء له . وإذا رفض الخليفة ذلك فالحرب بين الطرفين ، والويل للخليفة وشعبه ^(٢) .

ولقد كانت هذه الرسالة فاتحة ترسل بين الخليفة وهولاء ، وأظهر الخليفة جهلاً بالقوى التي يواجهها ويحاربها ، كما أظهر غروراً وعجزاً كبيرين . فقد لبس ثوب النمر في رسالته الجوابية إلى هولاء ، وهو عاجز عن أن يلبس ثوب الهر . فقد وصف الخليفة هولاء بالشاب الحدث المتمني قصر العمر ... ثم بعد ذلك يقول : إن عنده من السلطة والاستطاعة ما يمكنه من جمع الشتات وحسم الأمور في إيران . ثم بعد ذلك يتوجه إلى توران ويضع كل إنسان موضعه ، وعندئذ سيصير

(١) نفس المصدر ، ج ٢ ، ق ١ - ٢٦٨ .

(٢) نفس المصدر .

وجه الأرض جميعه مملوءاً بالقلق والاضطراب ؛ غير أني لا أريد
الحقد والخصام ...^(١)

ولقد رد هولاءكو رداً غنياً على رسالة الخليفة هذه وعاتبه بشدة
وأخبره أنه زاحف على بغداد يجيش لاقبل له به . ولقد امتاز رد
الخليفة الثاني على رسالة هولاءكو الأخيرة باستشهاده بحوادث التاريخ
ليثبت هولاءكو أن بني العباس مكلوون بالعناية الإلهية ، وأن كل من
قصدهم بأذية لابد أن يقصم ، وقد استشهد الخليفة بأعمال يعقوب بن
الليث الصفار وأخيه وبفتنة البساسيري ومحاولته خلع الخليفة ونقل
الخلافة إلى الفاطميين في مصر ، وبأعمال السلطان السلجوقي محمود
ومحاربه الخليفة وكيف أراد احتلال بغداد وعجز عن ذلك . كذلك
ذكر الخليفة محاولة خوارزمشاه احتلال بغداد وخذلانه وخيبتة ، ليصل
إلى تقرير حقيقة ثابتة في رأيه : وهي أن العناية الإلهية تحرسه وتحرس
أسرة العباس : فليس من المصلحة أن يفكر الملك في قصد أسرة
العباسيين ، فاحذر عين السوء من الزمان الغادر (٢) .

ويبدو أن الخليفة كان معتقداً حقاً بحماية إلهية له ولأسرته ، ولذلك
تصرف بهذا الشكل الاعتباري ، ولكنه كان واحماً في ذلك ، ودفع
ثم هذا الوم حياقه وعرشه وسلالته كلها .
كما وأن هناك أخطاء في الأحداث التي سردها الخليفة ولاسيما فيما
يتعلق بفتنة البساسيري التي حدثت في العراق وبغداد في حدود ٤٤٠ -
٤٤٧ هـ . ذلك أن الخليفة ذكر أن البساسيري نجاه بجيش عظيم من مصر

(١) نفس المصدر . ج ٢ ، ق ١ ص ٢٦٩ - ٢٧٠ .

(٢) نفس المصدر . ج ٢ ، ق ١ ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .

إلى بغداد وقبض على الخليفة وسجنه في الحديقة وجعل السكة والخطبة في بغداد للمستنصر الفاطمي ، ثم أتى طغرل بك السلجوقي إلى بغداد وأنهى حركة البساسيري (١) . ولكن الحقيقة خلاف ذلك . ذلك أن البساسيري لم يذهب إلى مصر قط ولم يأت بجيش منها ، وإنما تحالف مع أمير بدوي محلي هو قريش ، كما وأنه لم يعتقل الخليفة العباسي القائم بأمر الله ، وإنما لجأ هذا إلى مدينة الحديثة وهناك استقر في إحدى قلاعها بحماية أمير بدوي اسمه مهارش بن بجلى أضف إلى ذلك أن البساسيري خطب للخليفة الفاطمي في بغداد مدة تقرب من السنة . ولقد أدرك الخليفة ، بعد فوات الوقت ، أن تهديدات هولاكو في محله ، وأن لاشيء ينقذه من مخالفه ، فحاول الصلح وتلبية قسم من طلبات هولاكو ، ولكن هذا رفض وشن الحرب على بغداد والخليفة حق أوصلها إلى نتيجة الحتمية وهي احتلال بغداد وتدميرها ، ودفع الخليفة حياته ثمناً لما حدث .

- في العصر المملوكي بعد سقوط بغداد :

تمكن المماليك الذين حكموا بعد الأيوبيين في سورية ومصر أن يطردوا الصليبيين من بلاد الشام وأن يصدوا تيار الغزو المغولي الجارف وأن يستنقذوا من براثنهم بلاد الشام ، وأن يحيلوا مدمم إلى جزر ولقد استمر الغزو المغولي لبلاد الشام فترة طويلة وعلى شكل موجات متتابعة تفصلها فترات زمنية . ولقد اندفع المغول بشكل شلال متدفق من اللحم ، قذفها على سطح الأرض بركان ثائر ، وهاجوا بلاد الشام التي

(١) نفس المصدر .

كانت ضعيفة ومتقسمة بين عدد كبير من الحكام . ولقد رافق الهجوم المغولي على بلاد الشام انقضاء الحكم الأيوبي في مصر ، وقيام الحكم المملوكي ولقد رافق هذا التغيير في الحكم اضطراب ساعد في تقدم الغزاة في بلاد الشام . ولم يكن بين حكام بلاد الشام من هو قادر على الوقوف في وجههم . فصاحب حلب الأيوبي الملك الناصر كان قصبة مرضوضة ولم يكن أهلاً للوقوف في وجه المغول ، ولا سيما بعد أن شاعت وذاعت في الخافقين أعمالهم الإرهابية : ذلك أن المغول أسروا النفوس وزرعوها خوفاً وهلعاً ، واعتقد معاصروهم أنه لا يمكن الوقوف بوجههم بحال من الأحوال - بله التغلب عليهم - ولقد زحف المغول على بلاد الشام والناس يعتقدون هذا الاعتقاد . وتدل الرسائل التي أرسلها هولاكو إلى الناصر الأيوبي صاحب حلب على شخصية متفطرسة متعطشة للحكم والاستبداد ، وأن جزاء المخالفين هو جزاء أهل بغداد وحكامها ، وأن ما أحلّوه ببغداد وأهلها وحكامها إن هو إلا انتقام إلهي لسوء سلوكهم وطفيتهم وجبروتهم ، ويحذره ويحذر أهل حلب مغبة المقاومة اللابعدية ويطلب إليهم الاستسلام ، وذلك بعد أن صور لهم ما حل بالمصاة وما فعلوه بالأنفس والأموال والأولاد والبلاد والعباد فأغلب رسائل المغول من هذا الطراز : الغاية منها تحطيم روح المقاومة لدى الخصم ، وفتح النفوس قيل فتح البلاد والأجساد .

ولم يتمكن الملك الناصر من الوقوف في وجه جيوش هولاكو وكانت النتيجة احتلال المغول بلاد الشام بأغلبها ، وفعلوا بها الأفاعيل . وبدأوا يتهيئون للزحف على مصر . وقد حدث آنذاك أن انقضى الحكم الأيوبي في مصر وافتتح العهد المملوكي فيها السلطان الملك المنصور قطز رحمه الله . وكان حكمه بداية عهد جديد في تاريخ الشرق ، وبشكل

خاص في تاريخ الغزو المغولي للعالم الإسلامي . ذلك أن في عهد هذا السلطان القصير تحول المد المغولي إلى جزر وهزم المغول لأول مرة في تاريخهم ، وأدرك الناس أن هؤلاء الهمج يمكن قهرهم ، وأنهم قهروا بالفجاءة وقتلوا وشردوا ، واسترجع الممالك . منهم بلاد الشام بأسرها ، وزال ذلك الوم الذي ركب النفوس ، وتمكن الملك قطز وأنصاره أن يحرروا نفوس البشر من الخوف من المغول قبل أن يحرروا البلاد ، وكان انتصارهم العظيم في معركة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ فاتحة سلسلة من المعارك خاضوها ضد المغول وحطبوا أسطورتهم وكبرياءهم وقوامهم ، وطهروا بلاد الشام منهم ، وأنقذوا الإسلام والمسلمين من شر وبلاء عظيم . وعاد دين الإسلام غض الإهاب ، ولذلك حق اعتبارها من المعارك الفاصلة في التاريخ ، وحق تقدير الأبطال الذين خاضوها وتمكنوا أن ينزلوا الهزيمة بأوحش جيش عرفه التاريخ يغزو هذه البلاد .

ولقد افتتح هولاء ، كالعادة ، حروبه ضد سلطان مصر قطز برسالة حملها رسله لاثوي إلا الوعيد والتخويف والترهيب وتطلب الاستسلام ، ويضرب لهم الأمثال بمن عصى وما حل بهم نتيجة لعصيانهم ، ثم يطلب إليهم التسليم لأمره والخضوع لحكمه ، وإلا فالويل لهم : فن طلب حربنا ، ندم ، ومن قصد أماننا ، سلم ، فإن أنتم بشرطنا ولأمرنا أطعتم ، فلکم مالنا وعليکم ما علينا ، وإن خالفتم مملکتکم ، فلا تهلکوا نفوسکم بأيديکم . . . فکثیرکم عندنا قليل ، وعزیزکم عندنا ذلیل ، وبغير الإهانة ماللوکم عندنا سبیل . . .^(١)

ولكن هذا الخطاب الشديد المملوء بالترهيب والوعيد لم يؤثر في

(١) القرطبي . المصدر المذكور آنفاً . ج ١ ، ق ٢ ، ٤٢٧-٤٢٩ .

أعصاب السلطان قطز وأتباعه . ذلك أنهم أدركوا أنهم هم حماة الإسلام والحضارة ، وأن على قرارهم يتوقف مصير أمة ومدنية . ولذلك بحثوا الأمر من كل وجوهه ، وتوصلوا بالإجماع إلى ضرورة حرب المغول ، فذلك أفضل من التسليم والخضوع إلى حكم حاكم مخادع غادر لا يفي بالعهد مثل هولاء . ذلك أن السلطان قطز جمع أمراءه وقواده وتشاور معهم فيما يجب أن يفعل . ولقد كان من الممكن أن يطمئن القوم إلى هولاء ويدخلوا تحت حكمه لو كان إنساناً وفيماً بالعهد : إنه [أي هولاء] ليس بالإنسان الذي يطمأن إليه ، فهو لا يتورع عن احتراز الرؤوس ، وهو لا يفي بعهده وميثاقه ؛ فإنه قتل فجأة خورشاه والخليفة وحسام الدين عكه وصاحب إربل بعد أن أعطاهم العهد والميثاق . فإذا ماسرنا إليه فسيكون مصيرنا هذا السبيل^(١) .

ويقول السلطان قطز لأتباعه بعد سماع العبارة التالية من أحدهم :
والحالة هذه فإن كافة بلاد ديار بكر وربيعة والشام ممثلة بالمناحات والفجائع ، وأصبحت البلاد من بغداد حتى الروم خراباً يباباً . . .
وينبغي أن تختار مع هذه الجماعة التي تريد بلادنا واحداً من ثلاثة :
الصلح ، أو القتال ، أو الجلاء عن الوطن . أما الجلاء عن الوطن فأمر متعذر ، ذلك لأنه لا يمكن أن نجد لنا مقراً إلا المغرب وبيننا وبينه مسافات بعيدة .

فأجاب نصر الدين قيمري :

وليس هناك مصلحة أيضاً في مصالحتهم إذ أنه لا يوثق بعهودهم .

(١) الحمذاني . المصدر المذكور آنفاً . ج ٢ ، ق ١١١ ، ٣١٣ .

عندئذ قال قطز : إن الرأي عندي هو أن نتوجه جميعاً إلى القتال ، فإذا ظفرتنا فهو المراد ، وإلا فلن نكون ملومين أمام الخلق . واتفق الأمراء على ذلك^(١) .

ولقد لجأ قطز إلى تدبير حكيم رفع به روح شعبه وقواده المغنوية، ذلك أنه أمر بصلب رسل المغول الذي أرسلهم هولاء كوفصلبوا بالليل^(٢) ولقد تقدم الجيش المملوكي إلى حرب الجيش المنيولي ، وجعلوا شعارهم في حربهم هذه : وإسلاماء ، ودارت المعركة الفاصلة في عين جالوت في فلسطين . وهناك قدر الله أن تنتصر الحضارة على الهمجية ، والإسلام على الوثنية ، والإنسانية على البربرية . وذاق جيش المنيول الذي كان بقيادة كيتوبوقا لأول مرة كأس الهزيمة المرة ، وشربوا من الكأس التي أسقوها مراراً للآخرين ، وسقط كيتوبوقا نفسه قتيلاً في المعركة . وحررت هذه المعركة نفوس البشر من الخوف القاتل الذي سيطر عليها ، ومن الوم الكبير الذي اعتراها ، وهُزِمَ الجيش المغولي الذي لا يقهر ، ودفع المغول ثمن غرورهم وجبروتهم ولاإنسانيتهم غالباً جداً ، وكانت نتائج هذه المعركة أن حفظت لمصر وبلاد الشام وحدتها وأعادت للإسلام وجهه الأبيض ، وأحييت الآمال وحررت البلاد والعباد ، وأعادت الثقة بالنفس لحكام مصر وبلاد الشام ، وكانت الأساس في تدعيم حكم المماليك في مصر وسورية . ونجد صدق هذا الانتصار العظيم في الرسالة التي وجهها قطز إلى صاحب اليمن الملك المنصور يخبره بمحدث في ذلك اليوم الأغمر : فصدرت هذه التهئة إليه رواية للصدق .

(١) نفس المصدر .

(٢) نفس المصدر .

عن اليوم المجهل الآخر (١) ... وقتل من المشركين كل جبار عنيد .
ذلك بما قدمت أيديهم وماربك بظلام للعبيد (٢) .

ولقد استمرت المعارك بين المغول والمسلمين في بلاد الشام زمن
خلفاء قطز ولاسيما الملك الظاهر بيبرس والملك المنصور قلاوون . ولقد
بلغ من شهرة الملك الظاهر بيبرس وقوته وهيبته أن لجأ إلى مساعدته
بركة خان ليساعده ضد أخيه هولاكو في حراعه معه (٣) .

ولقد دار الزمان دورته ، وأصبح ملوك الإسلام يصبون الهزائم على
رؤوس المغول وملوكهم ، كما فعل الظاهر بيبرس لمحارب المغول وهزمهم هزيمة
منكرة في بلاد الروم ، وأراد ملكهم أبا قاخان أن يثأر لهذه الإهانة
التي لحقت به فأرسل رسالة تهديد وسباب إلى الملك الظاهر (٤) . ولكن
السلطان أجابه أنه سيظل محارباً لهم حتى يستعيد جميع بلاد الخليفة التي
احتلها المغول وسائر أقطار الأرض (٥) .

كما وأن السلطان الملك المنصور قلاوون انتصر انتصاراً مؤزراً على
الجيش المغولي الذي غزا سورية سنة ٦٨٠ هـ ، فتصدى له السلطان ونشبت
بين الطرفين معركة كانت غرة في جبين الدهر ، وحقت الهزيمة على الجيش
المغولي وجرح قائده وقتل قواده وأفراده ، وكانت المعركة ظاهرة
محض . وكانت معركة رهيبة حقاً قادها السلطان المملوكي بنفسه ،

(١) القلقشندي . المصدر المذكور آنفاً . ج ٧ ، ص ٣٦٠-٣٦٢ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) ابن كثير . المصدر المذكور آنفاً . ج ١٣ - ٣٣٨ .

(٤) الحمداي . المصدر المذكور آنفاً . ج ٢ ، ق ١ ص ٦٣-٦٤ .

(٥) ابن كثير . المصدر المذكور آنفاً . ج ١٣ - ٢٥٤ .

وحول بشجاعته وثباته وحسن قيادته وهيبته الهزمية إلى نصر مؤزر ،
 وحرر البلاد الواقعة غربي الفرات تحريراً كاملاً من المغول وجيوشهم .
 ونجد صدىً طيباً لهذه المعركة في رسالتين الأولى : أرسلها السلطان
 نفسه إلى نائبه في دمشق يبشره بهذا النصر العظيم ، والرسالة آية في
 البلاغة والفصاحة والإيجاز : نعلمه أنا ضربنا مصافاً مع العدو المخذول...
 وكان العدو المخذول على ظاهر حصص في مائة ألف فارس أويديون
 والتحم النهار من ضحوة النهار إلى غروب الشمس ففتح الله ونصر ،
 وساعدنا بمساعفة القدر ونصرنا ، والمحمد لله على أن أذل الأعداء
 وكسرهم ، وظفر المسلمون ونصرهم ، وكتابنا هذا والنصر قد ضربت
 بشائره وحلق طائره وامتألت القلوب سروراً . وأولى الله الإسلام من
 تفضله علينا وعليهم خيراً كثيراً^(١) .

أما الرسالة الثانية : فهي رسالة مطولة من إنشاء كاتب الإنشاء
 محيي الدين بن عبد الظاهر أرسلها ولي عهد قلاوون الملك الصالح باسمه
 واسم والده إلى ملك اليمن الملك المظفر جواب رسالة أرسلها مسنداً
 لقلاوون مهنئاً بهذا النصر العظيم . وهي قطعة أدبية رائعة بماحوت من
 بلاغة وفصاحة وتشبيهات واستعارات وسجع وبيان وترصيع ومحسنات
 بدعية ، كل ذلك بأسلوب متين جزل يذكرنا بأسلوب القاضي الفاضل :
 ويستفتح بذكر نعمى أصبح لطف الله بها على كل مؤمن في أقاصي
 الأرض يمتن ، وهي النعمة التي عاد بها عمر الإسلام فتياً وكوكب سعه
 مضياً ويوم نصره بدرياً^(٢) .. وذلك بأن التتار المخذولين جمعوا كل من

(١) اليونيني ، قطب الدين . ذيل مرآة الزمان ج ٤ ص ٩٥-٩٦ .

(٢) ابن الفرات . المصدر المذكور آنفاً . ج ٧ ص ٢٢٣-٢٢٤ .

اعتقدوا في ظنهم أنه يهزم الجمع بفرده ، وانتخبوا كل شجاع لا يبالف غير ظهور الخيل الجياد من يوم مولده (١) . فلما قربوا من حاة المحروسة واستدنتهم حصص لقراها وثب لهم مولانا السلطان وثبة شيت منهم الوليد ، وأقدم عليهم إقداماً كان مساوقه فيه مصنفه خاله بن الوليد ، وأردفته الملائكة بنجدها ، وكاثرتة الملوك بعددها وعددها ... (٢) وثبت مولانا السلطان ثبوتاً ما سمع أن سلطاناً ثبتته ، واطلع الله على ما نواه من نصر الدين ، فتقبله بقبول حسن وأنبته . وكان العدو في مائة ألف مقابل مقاتل .. فصبروا على حر العلقم ، ورأوا الموت خيراً لهم من الهزائم ، فلم يفلت منهم إلا من استمهل السيف ساعة من نهار ، وفر بعضهم والموت يقول لهم: قل لن ينفعكم الفرار ... (٣) ولم يفلت منهم إلا من تخطفته طيور الخيول في كل معبر وطريق ، ومن هوت به الريح في مكان سحيق ... (٤) وثنى مولانا السلطان العنان وملوك المغل الأسرى يساقون بين يديه سكارى وممام بسكارى ... ووصلت الأخبار السارة بذلك فعمت بالنهاي الوجوه ، وضربت البشائر في كل صوب ، وحلقت الملائكة حتى الأفق حتى بالبرود والسماء ضربت فيها البشائر بالرعود ... (٥)

(١) نفس المصدر .

(٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر .

(٤) نفس المصدر .

(٥) نفس المصدر .

- المغول المسلمون -

ولقد حدثت حادثة مهمة في الربع الأخير من القرن السابع الهجري ألا وهي اعتداء المغول ، أو القسم الأكبر منهم إلى الإسلام . ولقد كان لهذا الحدث أهميته ، إذ كان من المفروض أن يصبح المغول أنصاراً لهذا الدين وأن يدافعوا عنه بعد أن كانوا يهاجمونه . ولكن الذي حدث أن المغول ، الذين أنزلوا بالإسلام والحضارة الإسلامية والمسلمين ضربات قاسمة ، ودمروا بلادهم وحضارتهم وأزالوا سلطانهم من على مساحة واسعة من ديار الإسلام ، اعتنقوا الإسلام وقد فقد المسلمون قوامهم ، وقد تقوض بنيان الحضارة الإسلامية ، وفقدت تألقها وأصالتها وبدأت في الانحدار . فلم تكن الحضارة الإسلامية ولا الدعوة الإسلامية في حالة تمكنها أن تبعث في نفوس هؤلاء المعتنقين الجدد النواحي الإيجابية التي تقود إلى الأصالة وإلى المساهمة في رفع شأن الإسلام كدين والمساهمة في بناء صرح الحضارة الإسلامية . وذلك لأنهم اعتنقوا الإسلام وتبنوا المؤسسات الإسلامية التي وجدوها ، وتابعوا الخط الحضاري الذي وجدوه ، وقد أصاب جميع هذه المؤسسات الخراب والتدهور والوهن والجود والانحراف . ولما لم يكن عند المغول أصالة ذاتية ، تمكنهم من سد الثغرات الواسعة التي أحدثها هجومهم المدمر على العالم الإسلامي ، لذلك لم يكن يمكنهم أن يحرفوا الخط الحضاري عن مسيرته ، وتابعت الحضارة الإسلامية تدهورها ، ولم يفعل المغول المسلمون شيئاً لإيقاف هذا التدهور ، بل لعلهم زادوا فيه وكانوا عاملاً مهماً في زيادة سرعته .

ولقد أثبت المغول ، سواء أكانوا وثنيين كهولاكو وجنكيزخان وأولادهما ، أم مسلمين كغازان وتيمورلنك ، أنهم أعداء ألداء للحضارة وللإنسانية وللعمران وللجنس البشري . وإن أفعال غازان وتيمورلنك

في بلاد الشام تذكرنا بأعمال هولاءكو ، بل تفوقها وحشية ولا إنسانية . وإذا كان المغول الوثنيون ، قبل تيمورلنك المغولي المسلم ، يدمرون المدن ويقتلون السكان ، فإن تيمورلنك كان يحرق المدن محواً ويستأصل المسلمين استئصالاً ، لذلك لم يؤثر تحول المغول إلى الإسلام تأثيراً يذكر في تغيير نفسية الفاتحين أو عقليتهم ، وظلوا على عدايتهم القديم للحضارة والإنسانية . نستثني من هذا الحكم مغول الهند الذين أسسوا امبراطورية المغول الكبرى في الهند ، وتبنوا الحضارة ، وأسسوا مدنية رائعة ظلت مزدهرة حتى القرن التاسع عشر .

وحق تتضح الصورة تماماً نوازن بين اعتناق السلاجقة الإسلام واعتناق المغول الإسلام . فكلا الشعبين أتى من أواسط آسيا ، وكلاهما كان شعباً بدوياً لم تصقله الحضارة ، وكلاهما اعتنق الإسلام . ولكن شتان بين تأثير الإسلام في نفوس السلاجقة وتأثيره في نفوس المغول . فقد تفاعل الإسلام في نفوس السلاجقة ، وأصبحوا من حماة الإسلام والحضارة الإسلامية . وقدموا للدين الإسلامي والمدنية الإسلامية أجل الخدمات ، على حين لم يكن لهذا الدين وهذه الحضارة إلا أثر سلبي في نفوس هؤلاء الهج من المغول ، وأثبتوا أنهم أعداء ألداء لكل القيم الإنسانية سواء أكانوا وثنيين أم مسلمين .

وأول من اهتدى من ملوك المغول إلى الإسلام وأعلن ذلك هو السلطان احمد بن هولاءكو الذي أعلن ذلك في منشور أصدره لما جلس على العرش سنة ٦٨٠ هـ ووجهه إلى أهل بغداد خاصة^(١) . كما وأنه أرسل رسالة شهيرة في هذا المعنى إلى السلطان الملك المنصور قلاوون سلطان مصر وسورية المملوكي يعلن اهتدائه إلى دين الإسلام ، ويدعو إلى السلم ونبذ الحرب ويطلب منه

(١) ابن عبد الظاهر ، هي الدين تشریف الأمام والمصور في سيرة الملك المنصور . تحقيق مراد كامل . القاهرة ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، ١٩٦٩ م . ص ٤ .

فتش أبواب الطاعة والاتحاد ، وبذل الإخلاص بحيث تنعم تلك الممالك والبلاد ، وللبهرنة على حسن نيته وسلوكه وجنوده للسلم يخبر سلطان مصر أن جنوده أمسكوا جاسوساً من جواسيس السلطان بزي الفقراء فأطلق سراحه مبرهنناً بذلك على خلوص نيته وهو يخاطب سلطان مصر بضمير الغائب الجمع . . . وأعدناه اليهم . . . ولا يخفى عليهم^(١) كما وأنه يذكر أنه أصدر أمره إلى حرس الحدود أن يكفوا عن الهجوم على أملاك السلطان . والملاحظ في خطاب السلطان أحمد إلى قلاوون لهجة الاستعلاء الناتجة عن شعوره بالتفوق . وكتابه هذا يحمل طابع الوثنية المغولية على الرغم من أسلوبه الإسلامي وورود عدد من الآيات القرآنية فيه . ولقد كان رد ملك مصر مثلاً بليفاً عالياً على الدبلوماسية والفهم والمزة والكرامة . وقد رد في رسالته على جميع بنود رسالة السلطان المغولي فهو يعلن سروره لإسلام الملك . ويذكر له أن الله تعالى أراد به الخير إذ هداه للإسلام . وهو يخاطبه بضمير الغائب المفرد : وأن ينبت حبباً حبباً هذا الدين في قلبه . . (٢) بعد ذلك يغمزه غمزة ذكية معلم معود على أمثال هذه الغمزات ذلك أن الملك المغولي يخبر قلاوون أن مجلس المغول الأعلى قرر إرسال الجيش المغولي العظيم إلى بلاد الشام لحرب قلاوون وإزالة سلطانه ، ولكنه ، أي أحمد ، باعتباره مسلماً ولا يجوز للمسلم أن يحارب أخاه المسلم أوقف هذا القرار وارسل يخبر بذلك قلاوون ممتناً عليه . ولكن جواب قلاوون كان حاسماً في هذا الباب . . . وأنه (أي أحمد) أطفأ هذه النائرة وسكن تلك النائرة ،

(١) نفس المصدر ٦٠-١٦ .

(٢) نفس المصدر .

فهذا فعل الملك المتقني المشفق من قومه على من بقي ، المفكر في العواقب
بالرأي الصائب . وإلا فلوتركوا وآراءهم حتى تحملهم العزة لكانت تكون
هذه الكرة هي الكرة (١) . . . ثم يرد عليه قوله : إنه لايجب المسارعة
إلى المقارعة إلا بعد إيضاح الحججة وتركيب الحججة ، فبانتظامه في سلك
الإيمان صارت حجتنا وحجته المترتبة وعلى من غدت طواعيته عن سلوك
هذه الحججة متنكبة . . . (٢) وحيث قد دخل معنا في الدين هذا
الدخول فقد ذهبت الأحقاد وزالت الذخول (٣) . . . ثم يعتب عليه
فخبره بإقامة شعائر الاسلام من العدل والإحسان وإصلاح الأوقاف والمساجد
وتسبيل سبل الحج . . . ويخبره أن هذه أوجب واجبات الملك المسلم :
بل تقهر الملوك الأكابر برد ممالك على ملوكها ، ونظمها على ماكانت عليه
في سلوكها (٤) . ثم يخبره أنه أصدر أمره إلى قواته في بلاد الشام بالآلا
يتعرضوا لحرس الحدود المغوليين طالما أن هؤلاء لايتعرضون لهم وأنه
سمح بحرية الانتقال بين البلدين . بعد ذلك يتعرض لذكر الجواسوس الذي
اعتقل في بلاد السلطان أحمد ويخبره أن المغول هم الذين بدؤوا إرسال
الجواسيس إلى بلاد الشام ومصر . ويعتب قلاوون على أحمد استشاده
بقوله تعالى : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) ويقول له : فما على هذا
السبيل ينهج . . . (٥) كذلك يخبره أن رئيس الوفد الذي حمل الخطاب
إلى السلطان أخبره مشافهة برغبة السلطان أحمد في الاتفاق ورضاه

(١) نفس المصدر .

(٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر .

(٤) نفس المصدر .

(٥) نفس المصدر .

بما في يده وبكف الأذى عن الرعية وعدم الإغارة من الطرفين ، وإذا
أصر قلاوون على الإغارة فيطلب منه السلطان أحمد تعيين مكان اللقاء
ويعطي الله النصر لمن يشاء . ويرد عليه قلاوون مذكراً بالهزائم التي
صحبها هو وببيبرس على روؤس أسلافه وأن المغول يخافون لقاءه وأن موعد
ومكان اللقاء علمه عند الله تعالى^(١) كذلك يعود أحمد في رسالة ثانية
إلى قلاوون ، يفتخر بأسلافه المغول الوثنيين من عهد جده جنكيز خان
حتى عهده هو^(٢) .

ولم تتبدل نفسية ولا سلوك من أتى بعد السلطان أحمد من سلاطين
المغول ، بل ظلوا يتطاولون على بلاد الشام ومصر ويحاولون التوسع في
تلك البلاد ، فقد أرسل ملك المغول كيخنتوا إلى السلطان الأشرف
خليل رسالة يطلب منه أن يعيد له حلب لأنها بما فتحه هولاكو وهو
يريد الإقامة فيها ويقول له : إن رفض ذلك فسيأخذ الشام كله منه .
ولقد أجابه السلطان على أن ذلك وافق ما في نفسه . . . فإني كنت على عزم
من أخذ بغداد وقتل رجاله ، فإني أرجو أن أردّها دار إسلام كما كانت . . .^(٣)

- غازان -

ولقد كان سلوك القان قازان أو غازان كما يسمى أحياناً ، وهو المدعي
للإسلام ، كسلوك أسلافه الوثنيين ، أو هو أسوأ بكثير ، لأن أولئك كانوا
وثنيين ، أما هذا فقد ادعى الإسلام واعتنقه واعتقده ، ومع ذلك فعل
بالمسلمين في بلادهم ما لم يفعله إلا أسلافه الوثنيون . فقد هاجم بلاد الشام

(١) نفس المصدر .

(٢) نفس المصدر . ٦٩-٧١ .

(٣) القريري ، المصدر المذكور آنفاً ، ج ١ ، ق ٣ - ٧٨٦ .

واجتاحها ووصل في زحفه إلى دمشق واحتلها ، وفعل بها القبايح ، وأرسل رسالة إلى السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون يشرح ما حصل ويعلم أنه هو المؤمن المسلم حقاً وأنه احتل بلاد الشام لدفع عدوان المماليك . ثم بعد ذلك لا ينجح أن يقول : والآن فإننا وإياكم لم نزل على كلمة الإسلام مجتمعين ، وما بيننا ما يفرق كلمتنا ، إلا ما كان من فعلكم بأهل ماردن ، وقد أخذنا منكم القصاص ، وهو جزاء كل عاص ، فراجع الآن إلى إصلاح الرعايا ، ونجتهد نحن وإياكم على العدل في سائر القضايا...^(١) وقد غفل هذا السلطان عن أنه يخاطب بهذه اللهجة التي لا يخاطب بها رئيس عصابة ملكاً عظيماً ومحارباً ممتازاً من ملوك المماليك. ولقد كان رد السلطان ناصر حاسماً في الموضوع . فقد أخبره أنه يعرف جميع حركات وسكنات الملك المغولي لأن أقرب ثقاته هم عيون السلطان ناصر عليه . ويخبره أنه لم ينتصر على جيوشه إلا لامتناعهم عن حربه لما سمعوا كذباً ، أنه وجنده مسلمون ، ثم يذكره بالمعارك الطاحنة التي دارت بين المماليك وبين المغول من عهد السلطان قطز حتى عهده هو ، والهزائم القاصمة التي ألحقوها بهم ويحييوشهم . ثم يرد عليه ادعائه أنه اعتقد الإسلام قولاً وفعلًا ويقول له : إن ما اقترفته يداك وبدا جيوشك في دمشق وبيت المقدس ينقض دعواك من أساسها ... وحرم بيت المقدس تشرب فيه الخمر وتهتك الستور وتقتض البكور ... ثم على رأس خليل الرحمن تعلق الصليبان ... فإن كان هذا من عملك ورضاك فواخيبتك في دنياك وأخرأك ... وأن كنت لم تعلم ذلك فقد أعلمناك ، فاستدرك ما فات فليس مطلوباً به سواك ...^(٢)

(١) ابن تغري بردي . المصدر المذكور آنفاً . ج ٨ ص ١٤٢-١٤٦ .

(٢) نفس المصدر .

ولقد تتابعت الرسائل بين الطرفين وكلها تدور حول نفس المعنى والموضوع : تهديد من غازان واستعداد للحرب واتهام للسلطان ناصر والمماليك وجيوشهم بالكفر ومخالفة الإسلام ، وأن المغول وملوكهم هم المدافعون الحقيقيون عن الإسلام ، وأن ما فعلوه في بلاد الشام نتيجة طبيعية لعدوان بعض عساكر الملك الناصر على حدود بلاد الملك قازان ٥٠ .^(١) ولقد رد الملك الناصر التحية بأفضل منها ورد على الملك غازان تهجمه واتهمه بالمروق من الدين وذكره بأبجاء المماليك السابقة وحذره وأنذره ٢١ .

ويدل المرسوم الذي أصدره قازان لما احتل دمشق على رغبة في تحسين أوضاعه مع الشعب عن طريق إعلان أن المماليك كفرة فجرة ، وأن المغول وهو بالذات ، قد نور الله تعالى قلوبهم بنور الإيمان والإسلام ، وأنهم هم أنصار الإسلام الحقيقيون ومنفذو تعاليمه . السمحة ، مع استشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ثم يعلن تأمين السكان على أموالهم وأنفسهم وأملأهم وأهليهم وأعراضهم . ويحرم على العساكر الهجوم عليهم أو التعرض لهم بأذى . كما وأنه يعلن حماية الأقليات الدينية حماية تامة كالنصارى واليهود والصابئة ، ثم يطلب من جميع الرعايا الاستبشار بهذا النصر الهني والفتح السني ... مقبلين على الدعاء لهذه الدولة القاهرة والمملكة الظاهرة آتاء الليل وأطراف النهار ٣١

(١) القلقشندي . المصدر المذكور آنفاً ، ج ٨ ص ٦٩-٧١ .

(٢) نفس المصدر . ج ٧ ص ٢٤٣-٢٥٠ .

(٣) الدواداري . أبو بكر بن عبد الله بن أبيك . كنز الدرر وجامع الفرر وهو الدرر

الفاخر في سيرة الملك الظاهر ، تحقيق هانس روبرت روير . القاهرة ١٩٦٠ م ٢٠-٢٢ .

ولقد ظن غازان أن الشام طاب له فتحه ، ولكنه كان واهماً ، فقد عجز عن احتلال قلعة دمشق ، وأساء جنده وحكامه السيرة ، وثار الشعب ضده ، ورفض كثير من حكام المماليك في سورية التعاون معه ، ثم أتته الضربة القاصمة على يد جيش المماليك الذي حارب جيش غازان المغولي واقتصر عليه بقيادة الملك الناصر في معركتين هما من أكبر المعارك التي خاضها المماليك ضد المغول : الأولى معركة مرج الصفر سنة ٧٠٢ هـ والثانية معركة شقعب سنة ٧٠٣ هـ. ولقد أرسل الملك الناصر إلى غازان رسالة تهكمية تقريعية بعد انتصاره العظيم على جيوشه وبعد تخطيطها وتحرير الشام منها . وهو يذكره في رسالته ببغية وخداعه ونفاقه وادعائه ما ليس به : فهو يرسل الرسل من أجل تقرير قواعد الصلح ، وفي نفس الوقت يحشد الجنود للحرب والهجوم. ولكن الله تعالى نصر السلطان المملوكي عليه لبغية وكذبه وتدليسه. وبعد أن يذكر له سير المعركة يخاطبه بقوله : فلو رأيت ، أيها الملك ، عساكرك ، إما ذليلاً أسيراً ، أو جريحاً عقيراً . وكان يوماً على الكافرين عسيراً ... وعاد أصحابك طعماً للذئاب ، لعضضت على يديك وقلت : يا ليتني كنت تراباً ... (١) فبادر ، أيها الملك ، إلى حمد الله العادل الذي لم ير عينك هذه الحافل ، ومروها على سمعك أهون من العيان ... (٢) ثم يقول له إن جنوده دخلوا الديار المصرية ولكن على غير حالة مرضية . أما الخيول فعلى أيدي عساكرنا مجنوبة ، والطبول في أعناقهم مقلوبة ، وأما الرجال ففي أعناقهم الحبال والسلاسل

(١) نفس المصدر ١١٩-١٢٢ .

(٢) نفس المصدر .

والأغلال ، فمادت مغلك كالكلاب في أيدي أسود الغاب ... ثم يختم
رسالته يهذين البيتين من الشعر :
وإن كان أعجبكم عامكم فعودوا إلى الشام في قابل
فإن السيوف التي ورخت مواقعها في يد القاتل^(١)

- تيمورلنك -

نصل الآن ، في بحثنا ، إلى آخر الغزاة المغول الذين لهم يد طويلة
وقدم راسخة في تدمير الحضارة الإنسانية وعداء الجنس البشري .
ذلك أن هذا الغازي الذي خرج من أواسط آسيا استطاع أن يشق
طريقه غرباً على أبراج جحاجم الجنس البشري وعلى أنقاض المدن ، وكان
سلاحه الرئيسي في ذلك قسوة مفرطة وبربرية لامثيل لها في التاريخ .
وكانت الحرائق والمذابح والتدمير والقتل الجماعي والإبادة توافق هذا
المغولي وجيوشه ، وقد ملأ بلاد آسيا الوسطى والغربية قتلى وأشلأ
وأكداس من الجحاجم وخرائب وسلباً ونهباً ، بحيث لا نكون مغالين
إذا اعتبرنا هذا الرجل أكثر غزاة التاريخ فظاعة وفظاظة وبربرية
وعداء لكل القيم الإنسانية . وعلى الرغم من أنه مسلم ، أو يدعي
المؤرخون أنه مسلم ، إلا أنه فعل في بلاد الاسلام وفي المسلمين
ما لم يفعله غازي قبله ولا بعده . فقد فاق في وحشيته أسلافه المغول
من أمثال جنكيزخان وهولاكو . كما وأنه فاق في هذا المجال الجال
لصوص الصليبيين وقتلتهم ، ولم يبهز في هذا المجال أحد من مجرمي
الحروب الذين حفل بهم التاريخ الحديث ، ولا سيما تاريخ العرب الحديث .

(١) نفس المصدر .

وقد تمكن هذا الغازي ، بجهوده وقسوته المتناهية ، وبما بثه في قلوب الشعوب والحكام من رعب ، أن ييسط سلطانه على مساحات شاسعة من الأرض تمتد من أواسط آسيا حتى شواطئ البحر الأبيض المتوسط . ولكن هذه الامبراطورية المبنية على الخوف والرعب والأشلاء والحقد لم تلبث أن انهارت مثل كومة من القش بعيد وفاة المؤسس لها ، ولم يبق من هذه الامبراطورية إلا اللعنات تصب على رأس أكبر سفاك للشعوب عرفه التاريخ .

ولقد اتصل تيمورلنك بالأتراك العثمانيين في الأناضول وملكهم بيلازيد وتغلب عليهم واحتل بلادهم ، كما اتصل بالمماليك وملكهم الظاهر برقوق سلطان سورية ومصر وأواخر القرن الثامن الهجري . ولقد ظل تيمورلنك متردداً في الهجوم على بلاد الشام طيلة حياة الملك الظاهر ، ولم يجرؤ على مهاجمتها إلا بعد وفاته وبعد أن استلم ابنه القاصر فرج عرش السلطنة . ولقد دارت مراسلات كثيرة بين تيمورلنك وبين ملوك المماليك . وكالعادة افتتح علاقاته بالمماليك برسالة تهديدية يطالب الملك برقوق فيها بالخضوع المطلق للملك الملوك سيد الخلق ، وإلا فمصيرهم مصير الأمم التي قارمت تيمورلنك : وإن خالفتم وعلى بغيكم عقابهم فلا تلوموا إلا أنفسكم ، فالحصون منا .. لا تمنع ، والمدائن بشدتها لقتالنا لا ترد ولا تنفع ^(١) إلى غير ذلك من العبارات التي تذكرنا بما كان يرسله أسلافه ملوك المغول ، ولا سيما غازان وأحمد إلى سلاطين المماليك .

ولقد كان جواب سلطان المماليك الملك الظاهر برقوق مناسباً كل المناسبة لخطاب تيمور وتهديداته . فهو لم يأبه له ولا لتهديداته ، ولم يخاطبه إلا بالأمير تيمور

(١) ابن تفردي بردي . المصدر المذكور آنفاً . ١٢ ج ٤٩ - ٥٠ .

وأجابه بنفس لفته ، ورد على أقواله فقرة فقرة ، وأخبره أنه كافر وعدو للإنسانية وأنه ملعون بكل لسان وبكل دين : وأما قولكم : قلوبنا كالجبال وعددا كالرمال ، فالقصاب لا يبالي بكثرة الغنم ، وكثير الحطب يفنيه الضر . وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين^(١) .

ولقد استمرت المراسلات بين تيمورلنك وبرقوق . والذي يبدو لنا من هذه المراسلات أن هدف المغول من ذلك مزدوج ، فالرسول ، أو بالأحرى الرسل لم يكونوا رسلاً بالمعنى الحرفي للكلمة ، إنما كانت مهمتهم استكشافية تجسسية ، وهذا يفسر كثرة قتل المماليك لرسل المغول ، لأنهم جواسيس بالحقيقة أكثر من كونهم رسلاً . كما وأن أغلب رسائل تيمور خاصة كانت خالية من شيء معين ، وإنما غايتها جس النبض وإشاعة القلق والخوف من الخصم ، وبكلمة أخرى كانت جزءاً من حرب نفسية يشنها على أعدائه قبل بدء الحرب الحامية الفعلية بين الطرفين . وتدل أجوبة برقوق على شخص متمكن من موقفه ، واثق من نفسه لم يترك للخور أو الجبن أو الخوف إلى نفسه سبيلاً . إلى جانب استعداد للقاء أينما كان ومتى كان ، مما جعل تيمورلنك لا يقدم على حربه ، وإنما اهتبل فرصة وفاته وتنصيب ابنه القاصر فرج ملكاً مكانه وتطاحن القواد والرؤساء وصراعهم حوله من أجل السلطة ، فزحف إلى بلاد الشام وشن عليها حرباً ليس لها مثيل في التاريخ بهولها وشاعتها وبعدها عن كل القيم الإنسانية والأخلاقية التي يؤمن بها البشر وعلى الرغم من أننا نملك بين أيدينا نص رسالة جوابية من برقوق إلى

(١) نفس المصدر . ج ١٢ ، ٥١ - ٥٢ .

تيمورلنك دون رسالة تيمور له ، إلا أننا نستطيع أن نحزر مضمون رسالة تيمورلنك له من جواب برقوق ذلك أن برقوق في جوابه يرد على كل فقرة من فقرات رسالة تيمور بفقرة تماثلها وتفند ما رد فيها وتنقضها .

فدحن نعلم أن تيمورلنك افتتح رسالته لبرقوق بالتهديد والإنذار والإرعاد ، ويرد عليه برقوق بأنه اطلع على ذلك^(١) . ثم نعلم أن تيمورلنك أرسل إلى برقوق هدية هي عبارة عن سيف وترس . ويمجب برقوق غاية العجب من هذه الهدية ، لأنه لم تجر عادة أحد من ملوك المغول أن أهدي أحد أعدائه مثل هذه الهدية ... لأنك لم تقل في كتبك كلها تستشهد بتاريخ جنكيز خان وأخباره وأحواله ... وما سمعنا في التواريخ ولا اتفق قط من جنكيز خان ولا من تقدمه وتأخره من ملوك مملكته في زمن من الأزمان أنه أهدي إلى خادم الحرمين الشريفين سيفاً ولا تركاشاً^(٢) . ثم يرد عليه بقوله : إنه (أي تيمور) فتح معه باب الهبة والوداد والصحبة والاتحاد لا باب الخصامة والمشاورة والعناد ، إنه لو كان صادقاً في دعواه : كنت لما حضر إليك شكر أحمد وأرغون السلامي اللذان هما من بعض ممالكنا ... أمسكتها وجهازتها إلينا بعد أن قيدتها ، فما فعلت ذلك بل عملت بالضد منه لأنك آويتها وحميتها وعظمتها وأكرمتها ...^(٣) كما وأن تيمور أكرم أحد أمراء العرب من أعداء برقوق ، واسمه فخير ، وراسله وعظمه ووعدته بالنصرة ، بل إن برقوق

(١) القلقشندي . المصدر المذكور آنفاً . ج ٧ ، ٣٠٨-٣١٩ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر .

يورد في رسالته نص رسالة أرسلها تيمورلنك إلى نعيمر هذا . (١)
 ولقد طلب تيمورلنك من برقوق ، في رسالته إن يسلمه السلطان
 أحمد الحلايري الذي لجأ إلى برقوق لما احتل تيمور بلاده . ويرد عليه
 برقوق متسائلاً عن الذنب الذي اقترفه أحمد ضد تيمورلنك حتى يطلبه
 هذا الطلب ، وهو الذي حلف له مراراً كثيرة أغلظ الأيمان بالله تعالى
 على الأمان له ولبلاده ثم غدر به شر غدره واحتل بلاده وشرده وأسر
 نساءه وحريمه . ثم يقرعه برقوق قائلاً : ففي أي مذهب من المذاهب يحل
 لك أخذ حريم المسلمين وإعطائهم لغير أزواجهن ؟ ... (٢)
 ثم يخبره أن السلطان أحمد قد استجار به ، وحق الجوار محفوظ ومكرم ومقدس
 في الإسلام ولدى الملوك ، ولا سيما إذا كانوا من جنس واحد .
 ثم يبدأ بالتهكم عليه عندما ذكر له أن صاحب تكريت كان لصاً
 قاطع طريق ففعل به ما فعل ، فيقول له برقوق بتهكم لاذع : أفاهل
 بغداد كانوا حرامية قطاع طريق حتى فعلت بهم ما فعلت ؟ وقتلت منهم
 من التجار خاصة ثمانمائة نفس في المصادرة بالعقوبة والعذاب ... كيف
 تدعي أنك عادل وتعمل بأهل بغداد المسلمين الموحدين وبغيرهم من
 المسلمين هذه العماثل (٣)

ثم يتابع تهكمه عليه ويتحداه عندما هدد تيمور برقوق بالزحف
 عليه إن لم يرسل له السلطان أحمد الحلايري فيخبره أنه مستعد لمقابلته
 أينما شاء ومتى شاء ، وأنه كان متوقعاً قدومه من زمن طويل (٤) .

(١) نفس المصدر .

(٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر .

(٤) نفس المصدر .

ويرد على عتاب تيمورلنك له لإساءة معاملة رسول أرسله تيمورلنك له بأنه لم يكن رسولاً وإنما كان جاسوساً يكتب المنازل منزلة منزلة . وطلب من حاكم الرحبة المصري أن يقبل الأرض للأمير تيمور وأن يقرأ الخطبة باسمه ، ولذلك فعل به ما فعل لأنه ليس برسول بل تجاوز مهمة الرسول^(١) . ويأخذ عليه افتخاره بكثرة جيشه ويقول له إنه (أي برقوق) يستمد مدده واعتماده على الله تعالى الذي يهب النصر لمن يشاء من عباده . ويختم رسالته برد تهديد تيمورلنك له بخراب الديار ويخبره أن الذي يتكلم عن خراب الديار هو الذي تخرب دياره^(٢)

ولقد هاجم تيمورلنك بلاد الشام ودمرها وقتل رجالها وسبي نساءها وفعل بها أفعالاً تدمغه بالكفر والندالة والوحشية والبربرية . وقد تحلى بحكام مصر عن بلاد الشام بسبب الخلاف والتنافس على العرش وعلى من يكون أتابك الملك الصغير ووصيه . ودفعت بلاد الشام ثناً رهيباً كل الرهبة لهذا الخلاف . ثم بدا للسفاح تيمور أن يعاود المراسلة مع الملك فرج ، فأرسل له رسالة يطلب منه أن يرسل له لاجئاً كان لجأ إلى مصر زمن السلطان برقوق . وهنا نجد تغيراً واضحاً جداً في مخاطبة تيمورلنك ، فقد خوطب بألقاب الملوك والأباطرة المعظمين ، وخلت الرسالة من شيء اسمه تحدي أو تهكم أو خلافة ، وإنما هي قطعة أدبية تنطق بفضائل تيمورلنك وعظمته ، وحق عندما تعرض فرج لذكر ما لحق دمشق وجامعها على يد المجرم من دمار ، لم يوجه كلمة لوم واحدة إلى تيمورلنك . وهو يعلن له أنه كان قد جد في تجهيز الأمير

(١) نفس المصدر .

(٢) نفس المصدر .

أطلمش لما جاءته الأنباء بتدمير دمشق وقلعتها وجامعها ، فاعتقد أن تيمورلنك عدل عن طلب الأمير أطلمش ، أما وهو يطلبه فإن السلطان فرج جاد في تجهيزه له . ويؤخذ من الرسالة أن تيمورلنك أقسم بالله الطالب الغالب المدرك المهلك الحي الذي لا ينام ولا يموت أنه إن أُجهز إليه أطلمش ، فإنه يعود إلى بلاده . ويبدو من الرسالة رغبة تيمورلنك في الصلح والتعاقد مع مصر وملكها ، وقد رد فرج التحية بأحسن منها ، ولم يكن باستطاعته إلا أن يفعل ذلك (١).

بعد ذلك تم عقد الصلح بين فرج وتيمورلنك . وقد تم ذلك على يد وفد أوفده تيمورلنك لهذه الغاية ، وحلف كل من الطرفين للآخر على الوفاء ، وعلى أن لا يتجاوز أحدهما أو عساكرهما حدود البلد الآخر ، وأن ينظر الملوك إلى بعضهما ويتعاملوا مع بعضهما على أنهما والد وولد (٢) .

ولكن هذا الصلح لم يمهّد لمطامع تيمورلنك في مملكة السلطان فرج ، فقد أرسل له رسالة يطالبه فيها بأن يسلم لنوابه عدداً من بلدان الحدود كابليستين وملطية والبيوة . وقد رد عليه فرج بأن هذه البلاد خراجها لا يكفيها وأنها صعبة الإدارة ، ولكن تسليمها يوهن سلطته ويتعارض مع المواطنين التي أبداهما تيمورلنك تجاه فرج وأن يعامله كولده ، ويتعارض مع الأيمان التي أقسمها ، ويتعارض مع دعواته لله تعالى أن يزيده في ملك السلطان فرج (٣) .

ولاندري إن كان تيمورلنك قنع بهذا الجواب أم لم يقنع لأن كتب التاريخ غامضة في هذه المسألة . كما واننا نجد صدق لهجوم تيمورلنك

(١) نفس المصدر ج ٧ ، ٣١٩ - ٣٢٤ .

(٢) نفس المصدر ج ١٤ ، ١٠٣ - ١٠٧ .

(٣) نفس المصدر ج ٧ ، ٣٢٥ - ٣٣١ .

على بلاد الشام ومالحقها من قتل وتدمير واستباحة في رسالة أرسلها إلى السلطان فرج صاحب فاس السلطان أبو سعيد عثمان المريني ، وقد ترامت إلى مسامعه أنباء ما حدث في بلاد الشام فأرسل إلى فرج يستفسره ويعرض عليه المساعدة ويخبره أنه كان مستعداً لإرسال جيوشه التي تسد الفضاء وأساطيله المنصورة : ما محمد إمداد المناصرة ويرتضى (١) ولكن الله تعالى كفى أمر هذه الداعية وانسحب الطاغية راجعاً إلى بلادهم . وبما يلاحظ ، بشكل بارز كل البروز . الألقاب الرفيعة الكثيرة المتتالية المترادفة التي يلقب بها السلطان المريني نفسه والسلطان فرج ، حتى إنها فقدت معناها (٢) كما وأنه يصف تيمورلنك أنه : عدو الله وعدو الإسلام الباغي بالاجترار على عبادته سبحانه بالبؤس والانتقام الآخذ فيهم بالغيث والفساد ، الساعي بجهده في تهديم الحصون وتخريب البلاد . ولقد رد السلطان فرج التحية بأفضل منها وشرح له الظروف والمناسبات التي أدت إلى حدوث ما حدث ، وأن الجيش المملوكي لم يهزم وإنما كان مستعداً تمام الاستعداد لصد تيمورلنك ، وتقدم إلى بلاد الشام ، وفي تلك الآونة حدثت حركة في القاهرة من أجل العرش ، فاضطر الجيش المملوكي إلى الرجوع إلى مصر لقمع تلك الحركة ، فاغتنم تيمورلنك خلو البلاد من محارم وفعل فعلته الشنعاء . ثم بعد ذلك يخبره بخبر الصلح الذي تم بين الطرفين وعودة بلاد الشام إلى حوزته وعودة الهدوء إلى البلاد . ولا ينسى أن يكيل المدح للسلطان المريني ولنفسه (٣) ، وكأنها مما اللذان أنقذا بلاد الشام من وطأة تيمورلنك ، أو هما اللذان أبعداه وطردها عنها إلى .

(١) نفس المصدر . ج ٨ ، ١٠٣-١٠٦ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر . ج ٧ ، ٤٠٧-٤١١ .

القسم الأول

وثائق الحروب الصليبية

١٤٨٩ - ١٦٩٠

١٠٩٦ - ١٢٩١ م

أ - الدور التمهيدي :

١ - رسالة الكسيس كومنين الأول امبراطور الدولة البيزنطية إلى روبرت الأول أمير الأراضي الواطنة (حوالي سنة ١٠٨٨ م) - .

مقتطفات :

من امبراطور القسطنطينية إلى السيد الأجل الاسورد روبرت أمير الأراضي الواطنة ، وإلى جميع كبار رجال المملكة المؤمنين بالعقيدة المسيحية ، وإلى رجال الدين والدنيا : تحية وسلاماً ... أيها السيد العظيم حامى العقيدة المسيحية ، أردت أن أحيطك علماً بما وصل إليه تهديد البجافاكية ^(١) والأثراك ^(٢) للامبراطورية الإغريقية المسيحية المقدسة ^(٣) . فهم يعملون فيها السلب والتخريب كل يوم ، ويتوغلون في أراضيها دون انقطاع . وكَم من مذابح وتقتيل وجرائم تفوق حسد الوصف يقرّفونها ضد المسيحيين الإغريق ^(٤) ، فضلاً عن السخرية والتحقير فإنهم يذبجون الأطفال والشباب داخل أماكن التعميد حيث يريقون دماء القتلى محتقرين بذلك المسيح .

لقد استولى أولئك القوم على كل البلاد الواقعة بين بيت المقدس وبلاد الإغريق ، إذ امتلكوا بلاد اليونان كلها ، بما في ذلك أجزاءها

-
- (١) البجافاكية من العناصر التركية التي عبرت الدانوب وتغلغلت إلى جوف الامبراطورية البيزنطية ويسمون أيضاً البتشينج Pechongo .
 (٢) يقصد بالأثراك هنا السلاجقة .
 (٣) يقصد بالامبراطورية الإغريقية المسيحية المقدسة الامبراطورية البيزنطية .
 (٤) يقصد بالمسيحيين الإغريق البيزنطيين .

العليا ، وهي : كبادوكيا الصغرى وكبادوكيا الكبرى ، وفريجية وبثينية ، وفريجية الصغرى إلى طروادة ، وكذلك بنطش وغلطية وليدية وبمفيلية وايسورية وليكيا وجزائر خيوس وميتيلينيا الرئيسية ، كما وضعوا أيديهم على مناطق وجزائر أخرى حتى تراقية ، وغير هذا وذلك مما لا يقع تحت عد أو حصر ، ولم يبق الآن تقريباً سوى القسطنطينية .

لذا : استخلفك بحجة الله وباسم جميع المسيحيين الإغريق أن تمد لنا وللمسيحيين الإغريق يد العون والمساعدة ، وذلك بتقديم جميع الجنود المسيحيين من كبير وصغير ، فضلاً عن العامة ممن يتسنى جمعهم من بلادك .

وبناء على ذلك يجب أن تحاربوا بكل ما أوتيتم من قوة وشجاعة قبل سقوط القسطنطينية ^(١) ، وستسعدون ويكون لكم في السماء أجراً عظيماً (كذا) . ومن الأفضل أن تكون القسطنطينية في حوزتكم وليست في قبضة الأتراك ، لأن بها أثمن آثار السيد ، وهي الصليب الذي صُلب عليه ، والسوط الذي ضرب به ، والرداء القرمزي الذي ألبسوه إياه ، وتاج الشوك ... وكذلك الملابس التي نزعته عنه أمام الصليب ، وقطعة كبيرة من خشب الصليب الذي صلب عليه ^(٢) ورأس يوحنا المعمدان وخصلات شعره بأكملها ولحيته ، فضلاً عن بقايا أجساد كثير من القديسين فإذا لم يحفظهم ^(٣) كل هذا للقتال ويفضلون عليه الذهب فسوف

(١) الخطاب هنا موجه لأهل الغرب .

(٢) هذه هي عقيدة المسيحيين في السيد المسيح بشكل عام. أما نحن المسلمين فمعتقدنا يخالف ذلك كل المخالفة فحاشا لله أن يكون السيد المسيح قد صلب : وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم .

(٣) الخطاب هنا موجه لأهل أوربا .

يجدون في هذا المكان أكثر مما يوجد في العالم كله . فكنايس القسطنطينية ملأى بكنوز من الفضة والذهب والحلي والأحجار الكريمة والمنسوجات الحريرية التي تستخدم في صنع الأردية والملابس التي تكفي جميع كنايس العالم . سارعوا إذن بكامل رجالكم وحاربوا بكل مالدكم من قوة حق لاتقع كل هذه الكنوز والنفائس في أيدي البجاناكية والأتراك ، إذ ينتظر وصول ستين ألفاً منهم بين وقت وآخر .

ولهذه الأسباب مجتمعة اعملوا قبل فوات الأوان كيلا تفقدوا مملكة مسيحية ، وما هو أهم وأعظم قبر المسيح ، وسوف يكون جـزاًؤكم ليس الدنيوية في هذا العالم ، وإنما ثواب الآخرة عند الله ^(١) .

« العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى لجوزيف نسيم يوسف ٣٠٧ - ٣٠٩ »

٢ - خطاب البابا أوربان الثاني في الجماهير المسيحية في مؤتمر كليرمونت داعياً إلى الحروب الصليبية :

يا شعب الفرنجة ! شعب الله المحبوب المختار لقد جاءت من تخوم فلسطين ومن مدينة القسطنطينية أنباء محزنة تعلن أن جنساً لعيناً أبعد ما يكون عن الله قد طغى وبغى في تلك البلاد بلاد المسيحيين ، وخرّبها بما نشره فيها من أعمال السلب والحرائق ، ولقد ساقوا بعض الأسرى إلى بلادهم ، وقتلوا بعضهم الآخر بعد أن عذبوهم أشنع تعذيب ، وهم يهدمون المذابح

(١) يذكر المؤلف أن الأصل اللاتيني لهذا الخطاب موجود في الكتاب التالي :
Epistola Alexi I Komneni imperatoris ad Robertum I Comitem Flandrensem (Circa annum 1088) ; of Hogenneyer. H. (ed.) Epistoloe ad historiam primi belli socii spectantes I Heidelberg, 1901 (PP. 129 - 136) .

والكنائس بعد أن يدينوها برجسهم ، ولقد قطعوا أوصال مملكة اليونان فانزعوا منها أقاليم بلغ من سعتها أن المسافر فيها لا يستطيع اجتيازها في شهرين كاملين .

على من تقع تبعة الانتقام لهذه المظالم ، واستعادة تلك الأصقاع ، إذالم تقع عليكم أنتم - انتم يا من حباكم الله أكثر من أي قوم آخرين بالمجد في القتال وبالبسالة العظيمة ، وبالقدرة على إذلال رؤوس من يقفون في وجوهكم ؟ ألا فليكن من أعمال أسلافكم ما يقوي قلوبكم . أجداد شارلمان وعظمته ، وأجداد غيره من ملوككم وعظمتهم - فليثر همتمكم ضريح المسيح المقدس ربنا ومنقذنا ^(١) ، الضريح الذي تمتلكه الآن أمم نجسة ، وغيره من الأماكن المقدسة التي لوئت وذنست - لاتدعوا شيئاً يقعد بكم من أملاككم أو من شؤون أسركم . ذلك بأن هذه الأرض التي تسكنونها الآن ، والتي تحيط بها من جميع جوانبها البحار وقلل الجبال ، ضيقة لاتتسع لسكانها الكثيرين ، تكاد تعجز عن أن تجود بما يكفيكم من الطعام ، ومن أجل هذا يذبح بعضكم بعضاً ، ويلتهم بعضهم بعضاً ، وتتحاربون ويهلك الكثيرون منكم في الحروب الداخلية .

طهروا قلوبكم إذن من أدران الحقد ، واقضوا على ما بينكم من نزاع ، واتخذوا طريقكم إلى الضريح المقدس ، وانزعوا هذه الأرض من ذلك الجنس الخبيث وتملكوها أنتم ، إن أورشليم أرض لا نظير لها في ثمارها ،

(١) هذه هي عقيدة الكنيسة الكاثوليكية في السيد المسيح ، وحاشا لله من ذلك إذ عقيدتنا نحن المسلمين في السيد المسيح أنه عبد من عباد الله بشركامل البشرية وأحد أنبيائه . وقد أورد رونسيمان في كتابه « تاريخ الحروب الصليبية » تعريب السيد البار العربي بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٦٧ م الجزء الأول ١٦١-١٦٢ ملخصاً موجزاً كل الإيجاز لهذا الخطاب الهام .

هي فردوس المباح . إن المدينة العظمى القائمة في وسط العالم تستقيث بكم أن هبوا لإنقاذها ، فقوموا بهذه الرحلة راغبين متحمسين تنخلصوا من ذنوبكم وثقوا أنكم ستنالون من أجل ذلك مجداً لا يفي في ملكوت السموات .

قصة الحضارة لول ديورانت ١٥ / ١٥ - ١٦

الترجمة العربية بقلم محمد بدران

٣ - مقتطفات من خطاب أرسله الكونت اتين صاحب شارتر وهوا إلى زوجته الكونتيسة أديل .

والخطاب أرسل من الشرق من معسكر الجيش الصليبي بالقرب من مدينة نيقية في ٢٤ يونيو سنة ١٠٩٧ م وأرسل إلى الغرب الأوربي .

الملحق الرابع :

من الكونت اتين إلى حبيبته وزوجته الكونتيسة أديل ... وصلت بحمد الله وسلامته إلى مدينة القسطنطينية ، وكان فرحي زائداً وسروري عظيماً . ولقد أحسن الامبراطور (١) استقبالي وأكرم وفادتي وعاملني كما لو كنت ابناً له كما أغدق علي الكثير من الهدايا النفيسة . كذلك كنت موضع ثقة الامبراطور ومحبة أكثر من أي شخص آخر في جيش الله ، سواء أكان ذلك الشخص دوقاً أو كونتاً أو أحد العظماء . لقد ألح علي جلالاته ومازال يلح ياعزيزتي على أن يكفل أحد أبنائنا وأن يتبناه ... حقاً لا يوجد تحت قبة السماء من هو أعظم منه ، فقد غمر جميع رؤساقنا بالمنح والهدايا ، وكذلك فعل مع كل فرساننا ، كما أطعم جميع الفقراء ، ويوجد على مقربة من مدينة نيقية قلعة تسمى كيفيتوت ، وبالقرب منها مضيق بحري قبحر فيه ليل

(١) هو الامبراطور البيزنطي الكسيس كومنين .

نهار سفن الامبراطور المتجهة صوب القسطنطينية وتقوم هذه السفن بنقل الطعام والمؤن من العاصمة إلى كيفيتوت حيث توزع على الجموع الغفيرة هناك . ولاعتقد أنه يوجد في زماننا هذا رئيس أوزعيم له مثل شخصية الامبراطور وصيته الذائع : إن أباك في الحقيقة ، ياعزيزتي : غمرنا بكثير من الهدايا الثمينة ، ولكن ذلك لايقاس بالنسبة لما أضفاه علينا الامبراطور ... (١)

العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى
لجوزيف نسيم يوسف ٣٢٩ - ٣٣٠

ب - دور التفوق الصليبي :

٤ - رسالة الزراد إلى بيمند (بوهيموند)

حاصر الصليبيون أنطاكية بزعمارة بوهيموند ، ويسميه المؤرخون المسلمون بيمند ، وكان في أحد أبراجها زراد خائن كان ياغي سيان حاكم البلد قد صادره سابقاً ، فحمله حنقه على أن راسل بيمند في تسليم البرج وقال في رسالته :

أنا في البرج الفلاني وأنا أسلم إليك أنطاكية إن أمنتني وأعطيني كذا وكذا .

وقد وافقه بوهيموند على طلبه وتم الأمر كما رسم .

زبدة الحلب لابن المديم ج ٢ - ١٣٤

(١) يذكر المؤلف أن نص هذا الخطاب موجود في :

Epistolo I Stephani conitis Cornotensis ad Adeleni Uxorem Suam (scripta e castris prope Nicaeam a 109 Ca 24 diem Junü) ed, H. Hagenneyer, Epistolae et Chartae ad historiam primi belli spectantes. Heidelberg 1901 (pp. 138 - 140) .

٥- رسالة طفتكين حاكم دمشق إلى الملك الأفضل الوزير الفاطمي حول مدينة صور :

حاصر الفرنج صور فانجدها طفتكين وخلصها منهم ، ثم رحل عنها ، وخاف أهل صور من عودة الفرنج لها فطلبوا ، من طفتكين حمايتهم فأجابهم إلى ذلك وأرسل عساكره إليها . ولكنه خاف أن يؤدي ذلك إلى غضب الملك الأفضل لأن صور من أملاك مصر فأرسل إليه يقول :

وإن بغدوين (بلدوين) قد جمع وحشد للنزول على صور ، وإن أهلها استنجدوا بي عليه والتمسوا مني دفعه عنهم فبادرت بأنهاض من أثق بشهامته لحمايتها والمرامة دونها إليه ، وحصلوا فيها ، ومتى وصل إليها من مصر من يتولى أمرها ويذب عنها ويحميها بادر بتسليمها إليه وخروج نوابي منها . وأنا أرجو أن لا يهمل أمرها وإنفاذ الأسطول بالغلة إليها والتقوية إليها . ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ١٨٢

٦ - رسالة ملك الفرنج إلى طفتكين حاكم دمشق لما قتل مودود

حشد مودود ، حاكم الموصل ، بعد سقوط القدس بيد الصليبيين بفترة ، جيشاً قوياً لحرب الفرنج ، ولكنه أي مودود ، اغتيل يوم العيد في جامع بني أمية بدمشق وتفرق الجيش كله ، فأرسل ملك الفرنج إلى طفتكين رسالة يقول فيها :

إن أمة قتلت عმიدها في يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله أن يبيدها (١) .

الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ١٠ - ٤٩٧

(١) يذكر ابن العماد في « شذرات الذهب » ج ٤ - ٢١ نصاً مطابقاً للنص المذكور أعلاه .

٧ - رسالة عيسى صاحب منبج إلى جوسلين صاحب الرها لما حاصر
 بلك عيسى هذا في بلدته :
 إن وصلتني وكشفت عني عسكر بلك سلمت إليك منبج .
 زبدة الحلب لابن العديم ج ٢ - ٢١٨

٨ - رسالة الصليبيين إلى ايلغازي ملك حلب :
 آل ملك حلب إلى ايلغازي صاحب ماردين ، وبينما كان مقيماً في
 ماردين سمع أن الصليبيين قصدوا حلب وحاصروها فجمع جنوده وقصدهم ،
 فلما قرب منهم أرسل له الصليبيون رسالة يقولون فيها : لا تعذب نفسك بالمسير
 ..إلينا فنحن وإصلون إليك..
 السكامل في التاريخ لابن الأثير ج ١٠ - ٥٥٤

٩ - رسالة والي حلب من قبل نجم الدين غازي بن أرتق إلى ملك
 الصليبيين .

دارت معارك كثيرة بين نجم الدين غازي صاحب حلب وماردين
 وبين الصليبيين ، ثم استقر الصلح بين الطرفين ، ورحل نجم الدين إلى
 ماردين ، ثم حدث أن أغار جوسلين صاحب الرها على حلب عدة
 مرات ، فأرسل والي حلب إلى ملك الفرنج يقول :
 إن نجم الدين لم يترك هذه البلاد خالية من العساكر إلا ثقة بالصلح .

١٠ - جواب ملك الفرنج لوالي حلب :
 مالي على جوسلين يد .

زبدة الحلب لابن العديم ج ٢ - ١٩٧

١١ - رسالة بغدوين (بلدوين) ملك القدس الفرنجي الى قمرناس

الأرتقي

أسر قمرناس بن ايلغازى الأرتقي في احد معاركه بلدوين ، ملك الفرنج مع عدد من امراء مملكته وجرت بين الطرفين مفاوضات واتفقا على إطلاق سراح بغدوين لقاء فدية كبيرة وتنازله عن عدد من المدن والحصون القريبة من حلب مثل إعزاز وكفرطاب وغيرها ، ولكن الملك الفرنجي غدر ورفض تسليم الحصون ، وذلك بعد إطلاق سراحه وعودته إلى القدس ، وأرسل الى قمرناس يقول :

البطريك الذي لا يمكن خلفه سألني عما بذلت وما الذي استقر ، فحين سمع حديث إعزاز وتسليم حصنها أبى وأمرني بالدفع عنها وقال : إن خطيئتك تلزمي ولا أقدر على خلفه .

زبدة الحلب لابن العديم ج ٢ - ٢٢٢

١٢ - رسالة والي شيزر إلى أهل دمشق يبشرهم بنصر عظيم

حازه التركمان بقيادة الأمير مسعود سوار في حلب سنة ٥٣٠ هـ عند الفرنج .

أغار الأمير مسعود مسع من انضم اليه من التركمان ، على أراضي الفرنج في اللاذقية وأنطاكية وظهر ظفراً مبيناً ، وأرسل والي شيزر إلى أهل دمشق يبشرهم بذلك ويقول :

إن المتجدد عندنا بهذه الناحية ما يجب علينا من حيث الدين أن نذيعه ونبشر به كافة المسلمين ، فإن التركمان - كثرهم الله ونصرهم - اجتمعوا في ثلاثة آلاف فارس جريدة بعدة ، ونهضوا إلى بلاد اللاذقية وأعمالها بغتة بعد اليأس منهم وقلة الاحتراز من غارتهم ، وعادوا من هذه الغزاة

إلى شيرز يوم الأربعاء حادي عشر رجب ومعهم زيادة على سبعة آلاف أسير مابين رجل وامرأة وصبي وصبية ومائة ألف رأس دواب مابين بقر وغنم وخيل وحمير ، والذي حازوه أو اجتاحوه يزيد على مائة قرية كبار وصغار وهم متواصلون بحيث امتلأت الشام من الأسارى والدواب .
ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٢٥٥

١٣ - رسالة زنكي إلى ملك الروم لما حاصر شيزر مع الفرنج .
تحالف الروم والفرنج وزحف جيش رومي فرنجي بقيادة ملك الروم على بلاد الشام وحاصروا شيزر فتصدى لهم عماد الدين زنكي ، ولما طال عليه المطال أرسل إلى ملك الروم يقول :

إنكم قد تحصنتم مني بهذه الجبال ، فانزلوا منها إلى الصحراء حتى تلتقي ، فإن ظفرت بكم أرحت المسلمين منكم ، وإن ظفرتم استرحتم وأخذتم شيزر وغيرها .

ولكن ملك الروم لم يجبه إلى ذلك

الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ١١ - ٥٧

١٤ - رسالة سيف الدين بن عز الدين الزنكي ملك الموصل إلى أنو صاحب دمشق :

حاصر الصليبيون في الحملة الصليبية الثانية دمشق وضايقوها فاستنجد حاكمها بملوك الإسلام فحضر سيف الدين ملك الموصل لنجدته وأرسل إليه يقول :

قد حضرت ومعي كل من يطيق حمل السلاح من بلادي ، فإن أنا جئت إليك ولقينا الفرنج ولبست دمشق بيد نوابي وأصحابي ؛ وكانت الهزيمة علينا لا يسلم منا أحد لبعد بلادنا عنها وحينئذ يملك الفرنج دمشق

وغيرها ، وإن أردت أن ألقاهم وأقاتلهم فتسلم البلد إلى من أئق به .
وأنا أحلف لك ، إن كانت النصره لنا على الفرنج أفي لا آخذ دمشق
ولا أقيم بها إلا بمقدار ما يرحد العدو عنها وأعود إلى بلادي .

١٥ - رسالة أنر إلى الفرنج الغرباء الذين حاصروا دمشق مع الفرنج
المقيمين في بلاد الشام :

لم يجب أنر على الرسالة السابقة لأنه خاف من سيف الدين ، ولذلك
جأ إلى المراغة وحاول تفريق كلمة الفرنج الوافدين عن الفرنج المقيمين
فأرسل إلى الوافدين يقول :
قد حضر ملك المشرق ومعه من العساكر ما لا طاقة لكم به ،
فإن أنتم رحلتم عنا وإلا سلمت البلد إليه ، وحينئذ لا تطعمعون في
السلامة منه .

١٦ - رسالة أنر إلى الفرنج المقيمين :

أنتم بين أمرين مذمومين : إن ملك هؤلاء الفرنج الغرباء دمشق
لا يبقون عليكم ما بأيديكم من البلاد ، إن سلمت أنا دمشق إلى سيف
الدين فأنتم تعلمون أنكم لا تقدرعون على منعه عن البيت المقدس (١) .
التاريخ الباهر لابن الأثير ص ٨٩

(١) وردت نصوص هذه الرسائل الثلاث السابقة ، بشكل مقارب كل القرب لنصنا
أعلاه ، في كل من « الكامل في التاريخ » لابن الأثير ج ١١ - ١٣٠ ، وكتاب « الروضتين »
لأبي شامة ج ١ ، ق ١ - ١٣٨ . و « مفرج الكروب » لابن واصل ج ١ - ١١٢ - ١١٣ ،
وكتاب « المعبر » للذهبي ج ٤ - ١١٧ . ويمتاز نص الذهبي باختصاره .

١٧ - رسالة العاضد الخليفة الفاطمي إلى نور الدين مستنجداً ضد الصليبيين الذين هددوا القاهرة :

هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنفذهن من الفرنج^(١) .
التاريخ الباهر لابن الأثير ص ١٣٨

١٨ - رسالة شاور إلى ملك القدس الصليبي موى (امالريك)
يستنجدة ضد أسد الدين شيركوه .

استجاب نور الدين لنداء العاضد وأرسل له جيشاً بقيادة أسد الدين شيركوه ، أبعد الخطر الصليبي عن مصر ، وأراد شاور أن يتخلص من شيركوه ، ولكن شيركو رفض العودة بخفي حنين ، فأرسل شاور إلى ملك القدس يستنجده ضد شيركوه ويقول :
إن شيركوه طلع معي نجدة على ضرغام ، فلما حصلوا في البلد طمعوا فيها ، ومق ملكوها مضافة إلى بلاد الشام لم يكن لك معهم عيش ولا قرار :

كتاب الروضتين لأبي شامة ج ١ ، ق ٢ - ٤٢١

١٩ - رسالة شاور إلى شيركوه أثناء حصاره له في بلبيس .
حاصر الفرنج وقوات شاور شيركوه في بلبيس وطال عليهم الحصار ، وفي تلك الأثناء أثنى نور الدين في بلاد الفرنج ، فقرر هؤلاء العودة إلى بلادهم ، فاستمهلهم شاور أياماً ، ثم بدأ يرسل شيركوه في الصلح وأرسل إليه يقول :
اعلم أنني أبقيت عليك ولم أتمكن الفرنج منك لأنهم كانوا قادرين

(١) ورد نص مطابق لنصنا أعلاه في «الكامل في التاريخ» لابن الأثير ج ١١ - ٣٣٧ .

عليك ، وإنما فعلت ذلك لأمرين : أولهما ، أني ما أختار أن أكسر جاء المسلمين وأقوي الفرنج عليهم . والثاني ، أني خفت أن الفرنج إذا فتحوا بلبيس طمعوا فيها وقالوا : هذه لنا لأننا فتحناها بسيوفنا . وما من يوم كان يمضي بمصر إلا وأنا أنفذ إلى كبار الفرنج الجملة من المال ، وأسألهم أن يكسروا همة الملك عن الزحف .

كتاب الروضتين لأبي شامة ج ١ ، ق ٢ - ٤٣٣

٢٠- رسالة شيركوه إلى شاور لما قدم مصر للمرة الثانية واجتمع شاور مع الصليبيين منده .

اجتمع شاور والصليبيون على حرب شيركوه ، ورأى شيركوه في ذلك فرصة نادرة للقضاء عليهم إذا انضم شاور إليه فأرسل إليه يقول : أنا أحلف لك بالله الذي لا إله إلا هو ، وبكل يمين يثق بها المسلم من أخيه ، أنني لأقيم ببلاد مصر ولا أعاود إليها أبداً ، ولا أتمكن أحداً من التعرض إليها ، ومن عارضك فيها كنت معك إلباً عليه ، وما أوصل منك إلا نصر الإسلام فقط . وهو أن العدو قد حصل بهذه البلاد والنجدة عنه بعيدة وخلصه عسير ، وأريد منك أن تجتمع أنا وأنت عليه ، وننتهز فيه الفرصة التي قد أمكنت ، والغنيمة التي قد كتبت فنستأصل شأفته ونحمد نأثرته . وما أظن أنه يعود فيتفق للإسلام مثل هذه الغنيمة أبداً .

ولكن شاور رفض ذلك

كتاب الروضتين لأبي شامة ج ١ ، ق ٢ - ٤٢٥

٢١ - رسالة شاور إلى مري ملك بيت المقدس الفرنجي .

هاجم الفرنج مصر بعد رحيل شيركوه عنها ، فأرسل شاور إلى نور الدين يستنجد به ضدهم ، ولجأ في نفس الوقت إلى المراوغة فأرسل إلى مري يقول :

إن هذا بلد عظيم كبير وفيه خلق كثير ، ولا يمكن تسليمه ألبتة ولا أخذه إلا بعد أن يقتل من الفريقين عالم عظيم ، ولا تعلم أنت ولا أنا لمن الدائرة . والرأي أن تحقن دماء أصحابك ودماء أصحابي وتحصل شيئاً أدفعه لك فيحصل لك عفواً .

واستقرت المصالحة على أربعمائة ألف دينار .

كتاب الروضتين لأبي شامة ج ١ ، ق ٢ - ٤٣٣

٢٢ - رسالة مري ملك الفرنج إلى شاور

كان بين شاور وملك الفرنج اتفاق يقدم له شاور بموجبه جزية سنوية في حال مساعدته على صد أعدائه عنه . وقد أحس ملك الفرنج بضعف شاور ومصر بعد رحيل شيركوه عنها ، فأراد إما احتلالها أو مضاعفة الجزية فزحف نحو مصر وأرسل إلى شاور يقول :

إني قد قصدت الخدمة على ما قررتك لي من العطاء في كل عام .

٢٣ - جواب شاور إلى الملك عن رسالته السابقة :

إن الذي قررتك إنما جعلته لك متى احتجتك إلى نجدتك أو إذا قدم عليّ عدو ، فأما مع خلو بالي من الأعداء فلا حاجة لي إليك ولا لك عندي مقرر .

٢٤- جواب الملك إلى شاور عن الرسالة السابقة :

لابد من حضوري وأخذ المقرر^(١) .

إتعاظ الحنفا للمقريري ج ٣- ٢٩٢

٢٥- رسالة مري ملك الفرنج إلى شاور لما احتل بلبيس وقتل
سكانها :

احتل مري بلبيس وسبى نساءها وأسر ولدين من أولاد شاور
وأرسل إليه يقول :

إن ابنك قال : أيجب مري أن بلبيس جينة يأكلها ؟ نعم بلبيس
جينة والقاهرة زبدة .

إتعاظ الحنفا للمقريري ج ٣- ٢٩٣

ج- دور توازن القوى :

أ- نور الدين الشهيد محمود بن زنكي ٥٤١-٥٦٩هـ /

١١٤٦-١١٨٣ م .

٢٦- رسالة حاكم حارم الصليبي إلى الصليبيين :

حاصر نور الدين حارم وضيق عليها الخناق ، فتجمع الفرنج وعزموا
على قصده ، فأرسل حاكم حارم إلى الفرنج يقول :

لاتلتقوه فإنه إن هزمكم أخذ حارم وغيرها ، ونحن في قوة ،
والرأي مطاولته .

فصالحوا نور الدين على أن يعطوه نصف أعمال حارم .

زبدة الحلب لابن العديم ج ٢- ٣٠٦

(١) ذكر أبو شامة في « الروضتين » ج ١ ، ق ٢ ، ٤٣٠-٤٣١ نصاً قريباً كل
القرب من النص أعلاه .

٢٧- رسالة أرسلها القاضي الفاضل إلى مدينة قوص يصف غزوة قام بها صلاح الدين سنة ٥٦٦ هـ ، وهو وزير فاطمي وقائد من قواد نور الدين ، للداروم وغزة ، وكيف خرب معاقل الفرنج وكيف أن ملك الفرنج حاول إنجاده ففجّر وهزم .
وفيه :

توجهنا من بركة الحب يوم الخميس الخامس عشر من ربيع الأول ، ووصلنا بتاريخ السابع والعشرين من الشهر المذكور والمساكر بالسهل والوهر منتظمة ، والهمم على السهل والصعب مزدحمة ، وجنود الله في الأرض المعلمة ، وقد أيدتها جنود السماء المسومة ، وصاحبنا الدير^(١) يوم الأربعاء بقتال جعل كل من في حصن الدير راهباً ، ونصبنا عليه منجنيقاً لا يزال شهاب القذف ضارباً . فلما تعالى النهار ملكنا ربضه وأطلقنا فيه النيران ، ورملنا الرجال بالدم ، وأرملنا النسوان وزحفنا إلى أبراجه ، وهي أبراج قد استعدت للبليل جلابياً ، فجعلنا لكل واحد جورة مفردة وباباً ، وسرحنا إليهم رسل المنايا من النشاب ، وقصدنا أحد الأبراج ، والبيوت توتى في الحرب من غير الأبواب . وتقدمت إليها نقابة الحلبية فباتت ليلتها تساوره وتراجع به بالسنة المعاول وتشافه وأسفر الصبح وقد أمكن تعليقه وتيسر تحريقه ، فأودعنا تلك العقود آلات الوقود ، فلم يكن إلا مقدار اشتعالها حتى خر صريعاً سريعاً ، وعفر بين أيدينا سامعاً مطيعاً ، وانتظمت الرجال على أحجاره وتواثبت إلى أمثاله من الأبراج وأنظاره ، فحصلت في القبضه وعجز من كان فيها عن النهضة ، واحتكم فيها العذاب بالسيف والنار ، وضاق عليهم مجال النفس والقرار .

(١) المقصود بالدير دير الداروم .

واستقبلنا يوم الخميس نقب القلعة وتقديم المنجنيق ، وتيسير السبيل
للقاتل وتخليص الطريق . هذا والسلوب والنهب قد امتارت منها
العساكر، وخرجت منها مكنونات الذخائر ، وأشبه اليوم يوم تبلى السراير ،
وظهر الأرض منهم بالدم المائر .

فلما كان بكرة الجمعة ، وردتنا الأخبار بأن الملك قد زحف
من غزة في فارسه وراجله وراحه ونابله ، وحشود دياره وجنود أنصاره
فركبنا مستبشرين بزحفه ، موقنين بمحتفه ، ولقيناه فأحطنا من بين
يديه ومن خلفه ، وناوشت الخيل الطراد ، وأحدثت به إحداق الأغلال
بالأجساد ، وانتظرت محله التي كان لها قبل ذلك اليوم موقع ، وصدمته
التي لها من رجال الحرب موضع ، فلأ إليه قلبه رهبا وثنى صدقه
كذباً ، ولم يزل يخاتل ولا يقاتل ، ويواصل المسير ولا يصاول ، والقتل
في أعقابيه ، وأيدي السيوف وسواعد الرماح لاتي في عقبه ، حتى
حصل في الديره هو وخيله ورجله ، ولم يبق له من ملك الشام إلا ما وطنته
رجله ، فناسبناه الحصار في ليلة السبت مستهل ربيع الآخر بالركوب
إليه والوقوف عليه لعله يبرز ويبارز ، ويخرج ولا يجاز ، فخبرست
غماغمه ، واستذابت ضراغمه ، فتركناه وراء ظهورنا ، وجعلنا ببلاد
أمام صدورنا ، فكنا في توليته مرضين لله تعالى سبحانه لا مغضبين ،
وفي تركه وراء ظهورنا ومباعدته من الله متقربين .

رواجهنا غزة بعساكرنا المنصورة ، وأطفنا بها في أحسن صورة ،
وهي على ما علم من كونها بكرة لم تفرعها الحوادث ، وحصاناً لم يطمشها
أمل طامث وهي معقل الديوية ، الذين هم جرة الشرك وداهية الإفك .
وأتى الله بنيانها من القواعد ، وأنجز فيها من النصر صادق المواعد ،
ووردناها بأيمن الموارد ، وفتحناها من عدة جوانب ، ووطشناها فإذا
الوفائق - ١١٣ -
الوفائق - ٨

هي كأمس الذاهب فألقت إلينا أفلاذ كبدها وذخيرة يدها ، فمن بين مواشي بخراب البلاد التي خرجت ، وخبول مسومة كأنها لركوبنا أسرجت وألجت ، وحوامل أثقال وزوامل خففت عن عساكرنا وفرجت ، وميرة كثيرة تمكنت منها يد الأجناد وأفرجت ، وأسارى المسلمين فكوا من القيد والقد ، وأنقذوا بلطف الله من سوء المكيدة وشدة الجهد . فأما الرؤوس المقطوعة وأسارى الفرنج الذين أيديهم إلى أعناقهم مجموعة ، فإن الفضاء الفضي تعصف من دماهم وتذهب ، وجرى منها ما به اضطرم وقد الجحيم وتلهب ، وفي الحال أمرنا بالنار أن نشغل بها وتشتعل ، وبألهدم أن ينقل عنها معاوله وينتقل : فهل ترى لهم من باقية (١) ، أو تنظر إلا طولوا على عروشها خاوية ، وعراساً من سكانها خالية ، قد بقيت عبرة للعابر ، وذكرأ للذاكر ، وموعظة سارة للمسلم وغمة للكافر . ثم عدنا بقية يوم السبت إلى الملك ، خذله الله تعالى ، راجين أن يحمله الشكل على الإقدام ، ويخرجه من النار إلى مقام الانتقام ، فإذا شيطانه قد نصحه ، وقتل أصحابه قد جرحه فبقنا عليه ، والأسنة بفراره تعيره ، واستبارد يقرعه ويقرره . وأصبحنا يوم الأحد ثاني شهر ربيع الآخر ، والكسب قد أثقل المقاتلة ، ونصر الله قد بلغ الغاية المستأصلة ، ورحلنا والسلامة لصغير عسكريا وكبيره شاملة ، والعدو قد غزي في عقره وعقر وأذل في دار ملكه واحتقر ، ووصلنا إلى مستقر سلطاننا في يوم الاثنين الحادي عشر من الشهر المذكور ، فاستقبلنا من مولانا ، صلوات الله عليه ، وتشريعه واستقبال ركابه ، ومشافهتنا بمقبول دعائه الشريف وحجابه ما عظمت

(١) سورة الحاقة الآية ٨ .

به النعم وجلت ، وزالت به وعشاء الطريق وثجلت ، وجادتها سماء إنعامه
التي لم تزل تجودنا واستهلت .

كتاب الروضتين لأبي شامة ج ١ ، ق ٤٨٩٢ - ٤٩١

٢٨ - رسالة من صلاح الدين إلى نور الدين يخبره بفزوة قام بها

ضد الكرك والشوبك سنة ٥٦٨ هـ .

ويخبره فيها أيضاً بترحيل البدو من تلك الأماكن إلى أماكن إسلامية
من إنشاء القاضي الفاضل :

سبب هذه الخدمة إلى مولانا الملك العادل ، أعز الله سلطانه ، ومدة أبدأ
إحسانه ومكن بالنصر لإمكانه وشيد بالتأييد مكانه ونصر أنصاره وأعان
أعوانه ، علم المملوك بما يؤثره المولى بأن يقصد الكفار بما يقص أجنتهم
ويقلل أسلحتهم ، ويقطع موادهم ، ويخرب بلادهم ، وأكبر الأسباب المعينة على
ما يرومه من هذه المصلحة ألا يبقى في بلادهم أحد من العربان ، وأن
ينتقلوا من ذل الكفر إلى عز الإيمان وبما اجتهد فيه غاية الاجتهاد وعده
من أعظم أسباب الجهاد ترحيل كثير من أنفارهم والحرص على تبديل
دارهم ، إلى أن صار العدو اليوم إذا نهض لا يجد بين يديه دليلاً ولا يستطيع
حيلة ولا يهتدي سبيلاً .

كتاب الروضتين لأبي شامة ج ١ ق ٥٢٦٢ - ٥٢٧

٢٩ - رسالة الأمير شمس الدين بن المقدم للفرنج :

توفي نور الدين وحل ابنه الملك الصالح محله وهو قاصر ، فاغتنم
الفرنج هذه الفرصة وهاجوا ثغر وقلعة بانياس (جنوبي دمشق) ،
فأقام ابن المقدم يميناً وأرسل إلى مقدمهم يقول :
إن أنتم صالحتمونا وعدتم عن بانياس ، فنحن على ما كنا عليه ، وإن

أبيتم ذلك أرسلنا إلى سيف الدين صاحب الموصل وصلاح الدين صاحب مصر نستنجدهم ونطالب بلادكم من جهاتها كلها فلاتقومون لنا . وأنتم تعلمون أن صلاح الدين كان يخاف أن يجتمع بنور الدين ، والآن فقد زال الخوف ، وإذا طلبناه إلى بلادكم لا يمتنع (١) .

فعلوا صدقه وصالحوه على شيء من المال وعدده من الأسرى أطلقوهم لهم .

مفرج الكرب لابن واصل ج ٢ - ٧

٣٠- رسالة صلاح الدين إلى الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون يوجهه على الاتفاق السابق مع الفرنج :

لما وصلت إلى مسامع صلاح الدين ، أنباء الاتفاق الذي تم عقده بين ابن المقدم والفرنج ، غضب كل الغضب ، وأرسل إلى عسدد من الكبراء الملتفين حول الملك الصالح كتب توبيخ ومن جملتها هذا الكتاب الموجه لابن أبي عصرون ، وهو من إنشاء القاضي الفاضل :

لما أتاه كتاب الملك الصالح بقصد الفرنج تجهز وخرج وسار أربع مراحل ، ثم جاءه الخبر بالهدنة المؤقتة بدل الإسلام من دفع القطيعة وإطلاق الأسارى وسيدنا الشيخ أول من جرد لسانه الذي تفعد له السيوف وتجرد ، وقام في سبيل الله قيام من يقط عادية من تعدى وتمرد .

وفي آخره :

وكتب من المنزل بغاقوس ، والفجر قد هم أن يشق ثوب الصباح لولا أن الثريا تعرضت تعرض أثناء الوشاح ، وهذه الليلة سافرة عين

(١) أورد ابن الأثير في « الكامل » ج ١١ - ١٠٨ ؛ نصاً يسكاه يكون مطابقاً

لنصنا أعلاه .

نهار يوم الجمعة ثاني عشر ذي الحجة ، بلغه الله فيه أمه وقبل عمله ، بالغا
أسنى المراد وأفضله .

كتاب الروضتين لأبي شامة ج ١ ق ٢ - ٥٨٩

٣١ - نص آخر لكتاب صلاح الدين إلى الشيخ ابن أبي عصرون
عن نفس الحادثة :

ورد الخبر بصلح بين الفرنج والدمشقيين ، وبقيّة بلاد المسلمين
مادخلت في العقد ولا انتظمت في سلك هذا القصد ، والعدو لها
واحد ، وصرف مال الله الذي أعد لمغنم الطاعة ومصلحة الجماعة في
هذه المعصية المنقضية لله ورسوله ولصالحه هذه الأمة ، وكان مذخوراً
لكشف الغمة فصار عَوْنًا ، وإن أسارى من طبرية وفرسانها كانت
وطأتهم شديدة ، وشوكتهم حديدية ، دفعوا في القطيعة ، وجعلوا إلى
السلم السبب والذريعة . فلما بلغنا هذا الخبر ، وقفنا به بين الورود
والصدر ، وإن أيمنا ظن بنا غير مانريد ، وإن قعدنا فالعدو من
بقية الثغور التي لم تدخل في الهدنة غير بعيد . وإن فرقنا العساكر
لدينا فاجتماعها بعد افتراقها شديد ، فأينما أن سيرنا إلى حضرة الأمير
شمس الدين أبي الحسن علي وأخوته من يعرفهم قدر خطر هذا الارتباك ،
وإنه ربما عجز عن الاستدراك ، وإن العدو طالب لايفغل ، وجساد
لاينكل ، وليث لايفزع الفرصة ، مجد لايميل إلى الرخصة . فإن
كانت الجماعة ساخطين فيظهر أمارات السخط والتغيير ، ولا يمسك في
الأول فيعجز عن الأخير ؛ لاسيما ونحن نغار لله ونغير ، ونقصد للمسلمين
مايجمع به صلاح الرأي وصواب التدبير . وقد منننا عساكرنا أن تفرق
خوفاً أن يقصد العدو ناحية حارم بالمال الذي قويت به قوته ، وورث

به ثروته ، وانبسطت به خطوته ، فإذنه مادام يعلم أنا مجتمعون ، وعلى طلبه بجمعون ، لا يمكنه أن يزايل مراكزه ، ولا يبادر مناهزه .
كتاب الروضتين لأبي شامة ج ١ ، ق ٢ ٥٩٤ - ٥٩٥

ب - صلاح الدين الايوبي يوسف بن أيوب ٥٦٩ -

٥٨٩ / ١١٧٣ - ١١٩٣

١ - أيامه الأولى :

٣٢ - رسالة أرسلها صلاح الدين إلى بعض أنصاره يخبره بوفاة ملك القدس الصليبي سنة ٥٦٩ هـ من إنشاء القاضي الفاضل :
ورد كتاب من الدارم يذكر أنه لما كان عشية الخميس تاسع ذي الحجة هلك مري ملك الفرنج ، لعنه الله ، ونقله إلى عذاب كاسمه مشتقاً ، وأقدمه على نار تلظى لا يصلها إلا الأشقى (١) .
كتاب الروضتين لأبي شامة ج ١ ، ق ٢ - ٥٦٦

٣٣ - رسالة أرسلها صلاح الدين إلى ملك القدس الصليبي الجديد بردييل معزياً بأبيه ومهنئاً له بجلوسه على عرش القدس ، وذلك قبل تحريرها :

أما بعد : خص الله الملك المعظم حافظ بيت المقدس بالجد الصاعد والسعد الساعد والحظ الزائد والتوفيق الوارد ، وهناك من ملك قومه ماورئته ، وأحسن من هداه فيما أتى به الدهر وأحدثه ؛ فإن كتابنا صادر إليه عند ورود الخبر بما ساء قلوب الأصدقاء ، والنعمي الذي

(١) سورة الليل الآية ١٥ .

وددنا أن قائله غير صاوق بالملك العادل الأعز الذي لقاءه الله خير مالقى مثله وبلغ الأرض سعادته كما بلغه محله ، معزياً بما يجب فيه العزاء ، ومتأسفاً لفقده الذي عظمت فيه الأرزاء . إلا أن الله سبحانه قد هون الحادث بأن جعل ولده الوارث . وأنسى المصائب بأن حفظ فيه النصاب ، ووهبه النعمين : الملك والشباب ، فهنيئاً له ما حاز ، وسقياً لقبر والده الذي حق له الفداء لوجاز . ورسولنا الرئيس العميد مختار الدين ، أدام الله سلامته ، قائم عنا بإقامة العزاء من لساذه ، ووصف ما نالتنا من الوحشة لفراق ذلك الصديق وخلو مكانه ، وكيف لا يستوحش رب الدار لفرقة جيرانه . وقد استفتحنا الملك بكتابتنا وارتبادنا ، وودّه الذي هو ميراثه عن والده من ودادنا ، فليلق التعية بثلها ، وليأت الحسنه ليكون من أهلها ، وليعلم أنا له كما كنا لأبيه مودة صافية وعقيدة وافية ، ومحبة ثبت عقدها في الحياة والوفاة ، ومبررة حكمت في الدنيا بالموافاة ، مع ما في الدين من المخالفات . فليسترسل إلينا استرسال الوائق الذي لا ينجل ، وليستمد علينا اعتماد الولد الذي لا يحمل عن والده ما تحمل . والله يديم تعميره ، ويحرس تأميره ويقضي له بموافقة التوفيق . ويلهمه تصديق ظن الصديق .

صبح الأعشى للقلقشندي ج ١١٥٧ - ١١٦

٣٤ - رسالة أرسلها صاذح الدين إلى الملك العادل يخبره بتحالف الحلبين مع الفرنج ضده وخاصة مع قومص طرابلس ، وكيف أن ذلك لم يغن عنهم شيئاً وهرب الجميع عند قدوم السلطان ، وكان ذلك سنة ٥٧٠ هـ . والرسالة من إنشاء القاضي الفاضل .

قد أعلمنا المجلس أن العدو خذله الله ، كان الحلبيون قد استنجدوا

بصلبانهم واستطالوا على الإسلام بعدوانهم ، وأنه خرج إلى بلد حصص ،
فوردنا حماة وأخذنا في ترتيب الأطلاب لطلبه وإلقاء ، فسار إلى حصن
الأكراد متعلقاً بجبله مفتضحاً بجبله . وهذا فتح تفتح له أبواب القلوب
وظفر ، وإن كان قد كفى الله تعالى فيه القتال المحسوب ، فإن العدو
وقد سقطت حشمته ، وانحطت همته ، وولى ظهره كان صدره يصونه
ونكس صليبا كانت ترفعه شياطينه .

كتاب الروضتين لأبي شامة - ١ ، ق ٢ - ٦١٤

٣٥ - رسالة أرسلها صلاح الدين سنة ٥٧٢ هـ إلى بغداد يخبر بقدم
نجدة إلى فرنج الشام وكيف أنهم نقصوا الهدنة التي كانت معقودة
بينه وبينهم ، وهي من إنشاء القاضي الفاضل :

خرج الكفار إلى البلاد الشامية فاسخين لمقد كان محكماً ، غادرين
غدرأ صريحا ، مقدرين أن يجهزوا على الشام لما كان بالجذب جريحا ،
ونزلوا على ظاهر حماة يوم الاثنين الحادي والعشرين من جمادى الأولى ،
وزحفوا إليها في ثافية فخرج إليهم أصحابنا . وقضمن كتاب سيف
الدين - يعني المشطوب (١) - أن القتل من الفرنج يزيد على ألف رجل
ما بين فارس وراجل ، شفى الله منهم الصدور ورزق عليهم بالنصر
والظهور ، ثم انصرفوا مجموعاً لهم بين تنكيس الصلْب وتخطيم الاصلاب
مفرقة أخراهم عن المدينة المحروسة كما افترقت عن المدينة الشريفة
النبوية الأحزاب .

كتاب الروضتين لأبي شامة - ١ ، ق ٦ - ٧٠٧

(١) هو سيف الدين المشطوب وكان من أعظم وأقدر قواد صلاح الدين .

٣٦ - رسالة صلاح الدين إلى أخيه تورانشاه في دمشق سنة ٥٧٣ هـ ،
يصف فيها معركة الرملة وكيف أنه اضطر للانسحاب ، وكيف نجى
منها ووصل سالماً إلى مصر بعد شدة كبرى .

فاجأ جيش صليبي سنة ٥٧٣ هـ صلاح الدين في ففر يسير من أصحابه
قرب مدينة الرملة ، فاضطر صلاح الدين بعد معركة غير متكافئة مع العدو
أن أبلى هو وصحبه فيها أعظم البلاء ، أن ينسحب وذهب إلى مصر ،
ولقي في الطريق شدة عظمى ومشقة ، ولما استقر في مصر أرسل إلى
تورانشاه في دمشق رسالة يذكر له الواقعة وما حدث له ، افتتحها بهذا
البيت من الشعر :

ذكرتك والخطي يخطر بيننا وقد فتكت فينا المثقفة السمر
ويقول فيها :

ولقد أشرفنا على الهلاك غير مرة ، وما نجا الله سبحانه منه إلا لأمر
يريد ، وما ثبتت إلا وفي نفسها أمر (١) .

كتاب العبر لابن خلدون ج ٥ - ٦٤٩

٣٧ - فصول من رسالة أرسلها القاضي الفاضل إلى صلاح الدين بعد
معركة الرملة

بعد وصول صلاح الدين إلى مصر أعاد تنظيم جيشه ورجع إلى
الشام ، وهناك وردته رسالة من القاضي الفاضل منها - الفصول
التالية :

إن العدو - خذله الله - نهض ووصل إلى صدر ، وقاتل ولم يتم له

(١) ذكر ابن الأثير في الكامل ج ١١ - ٤٤٣ نصاً يكاد يطابق نصنا أعلاه .

أمر . وصرف الله شره وكفى أمره ، ووصل من الفرنج مستأمن وذكر
أنهم يريدون الغارة على فاقوس واستقلوا أنفسهم وعرجوا .
ومنها :

انهم وضعوا بنية تجديد الحشد ومعاودة القصد
ومنها :

وأما نوبة العدد في الرملة فقد كانت عثرة ، علينا ظاهرها ، وعلى
العدو باطنها ، ولزمنا مانسي من اسمها ، ولزمهم مابقي من عزمها ، لادليل
أدل على القوة من المسير بعد شهرين من تاريخ وقعتا إلى الشام نخوض
بلاد الفرنج بالقوافل الثقيلة والحشود الكثيرة ، والحريم المستور ، والمال
العظيم الموفور .

مفرج الكروب لابن واصل ج ٢ - ٦٥

٣٨ - رسالة الملك المظفر ملك حماة إلى صلاح الدين حول حصن
بيت الأحزان

عمر الفرنج حصن بيت الأحزان على مخاضة قرب دمشق وبدؤوا
بضايقون المسلمين والبلد ، وخاف السلطان من بقاء هذا الحصن ، فأرسل
إلى الفرنج يطلب منهم هدمه ، فطلبوا منه أن يدفع لهم نفقات إنشائه
فبذل لهم مائة ألف دينار ، وهم قد داخلهم الطمع وطالبوا بأكثر من
ذلك ، وأرسل السلطان إلى الملك المظفر صاحب حماة يستشير في الأمر فأجابه
بما يلي :

إن هذا الرأي الذي قد أزممت عليه ليس بشيء ، وإن الله تعالى
يسألك عن إعطائهم هذا المال ، وأنت قادر على المسير إليهم . والرأي

أن تصرف هذا المال إلى الأجناد وترغبهم في الجهاد ، وتسير بعساكره وتنزل عليه ، والله تعالى في معونتك ونصرتك .

مضمار الحقائق لمحمد بن تقي الدين عر ص ٢٥

٣٩- رسالة صلاح الدين إلى الديوان العزيز يبشره بهدم حصن الأحزان المذكور آنفا سنة ٥٧٥ هـ

صدق الله وعده وتمكن صلاح الدين من احتلال حصن الأحزان وهدمه ، وأرسل إلى خليفه بغداد يبشره بهذا الفتح ويقول - والرسالة من إنشاء القاضي الفاضل :

فصل :

وقد عرض حائله الى أن زاد على عشرة أذرع ، وقطعت له عظام الحجارة ، وكل فص منها من سبعة أذرع الى مافوقها وما دونها ، وعدتها تزيد على عشرين ألف حجر ، لا يستقر الحجر في مكانه ولا يستقل في بنيانه إلا بأربعة دنانير فما فوقها ، وفيما بين الحائطين حشو من الحجارة الصم ، المرغم بها ألوف الجبال الشم ، وقد جعلت سقيته بالكس الذي إذا أحاطت قبضته بالحجر مازجه بثل جسمه ، وصاحبه بأوثق وأصلب من صرمه ، وأوعز الى خصمه من الجديد بالابتعرض لهدمه .

وبات الناس في ليلة الجمعة مطيفين بالحصن ، والنيران به مطيفة وعليه مشتملة ، وعذبات ألسنتها على تاجه مهدلة ومسدلة ، ومن خلفه مسبلة ، وقارهم قد أطفأها الله بتلك النار الواقعة ، ومنعتهم قد أذهبها الله بتلك الأبرجة الساجدة ، وبنفسج الظماء قد استحال جلتاراً ، والشفق قد عم الليلة فلم يختص آصالاً ولا أسحاراً ، ونفحاتها حميمة وقودها الناس والحجارة ، والبلاد ينادي بلسان مصابها : إياك أعني واسمعي يا جارة . فولجت النار

مواليج يضيق بها الفكر ويمجز عنها الأبر ، ونقلت البناء من العين الى الأثر ، وقال الكفر : انها لإحدى الكبر . ومؤلف المثل : ان السعادة لتلحظ الحجر ، وأغنى ضوءها لسان كل إمعة أن يسأل هذا وهذا : ما الخبر ؟ وقذفت بالشرر كالجالات الصفر ، وزفرت بغيظ تعفر له حدود الجبال الصمر ، وتلحقها كالكتب العفر وبات الليل والنهار يشله وكلها أغمده الخود جعل الوقود يسله ، الى أن بدا الصباح كأنه منها يتار الأنوار ، وانشق الشرق ومن عصفرها صبغ الإزار ، فحينئذ تقدم الخادم فاقتلع الأحجار بيده من أسسها ، وبها حروف البنيان من طرسها ، وتبعه الجيش ورفاقه ، وكافة من اشتمل عليه نطاقه (١) .

مفرج الكروب لابن واصل ج ٢ ، ٨٤ - ٨٥

٤- رسالة أرسلها صلاح الدين إلى الخليفة في بغداد يصف غارة ناجحة شنها على صمد عن الدين فرخشاه

... ورأينا أن البدار الى الحلول بدارهم وإحلال الخزي بهم في تعجل دمارهم ، فرصة لفريضة الجهاد منتهزة ، وعدة من الله تعالى في قهر عدائه منتبجة ، وغنيمة للإسلام محرزة ، وفسرة في أقرب أمد بأنجح أمل بعون الله موجزة ، لاسيا والصوارم قد قلقت في أغمادها ، واللاهزم قد علقت عرى اجتهادها في جهادها ، والمزائم قد رمضت مضارب مظانها ، والسوابق قد خمرت في مضمارها شوقاً إلى أضرابها ، والبيض والسمر فداهنت أعطافها إلى الانتشاء من طلاء الطلى ، والارتقاء في أكلاء السكلا ، والاكتساء من النجيب القاني محرم الحلل والحلى ، وألسنة

(١) يذكر ابن كثير في البداية والنهاية ج ١٢ - ٣٠٤ نصاً أقل تفصيلاً بكثير من النص المثبت أعلاه .

قد خطبت عقائل المعامل ، وخطبت على أعواد العوامل الذوابل ، وطيور
السهام المبرية المريشة إلى أوكارها من المقل نازعة نازية ، والأقدار بما
تجري به من نصرة الإسلام زاهية ، والمنايا بأما في المفورين من أهل الشرك
هازية ، همنا العالية بدّين الدين متقاضية ، وإلى حاكم القضاء في اقتضائه
مقاضية . وهذه سنة قد هبت فيها النصرة من سنتها ، ومحت سيئة الليالي
بحسناتها ، وبلغت نعم الله تعالى فيها منتهاها ، وأظهرت فرصة الانتهاز
لها آية مكنتها ، ومما يبرهن على هذا القول ويبرر الأنام بشكر هذا الطول ،
مقدمة في النصر يدل على أن نتائجها الفتوح الأبرار ، وباكورة في الظفر
سمح بها القدر تبشر بأن جرت بمساعتنا الأقدار .

وذلك أن ولدنا عز الدين فرخشاء - أحياء الله تعالى وأبقاه -
نهض من العسكر برأس الماء في الحاضرين بمسكراً عنده واستصحب
رجالة بانياس معه ، وأغار على صفد بكرة الأربعاء ثامن عشر ذي القعدة
عند سلخ الصباح : فساء صباح المنذرين (١) . وكانوا في مساكنهم غارين
وبحصانها مغترين ، فأذن إقدامه بشت شملها ، ودخل المدينة على حين
غفلة من أهلها ، وسقى عطاش البيض وظماء الطيب من ورد وريدم
ورواها ، وأحرق أرباضها فدمدم عليهم ربههم بذنوبهم فسواها (٢) ، وأعجلهم
عن الالتجاء إلى القلعة والاحتباء بالتلعة ، فسفح ذلك السفح دماءهم ،
وسبى ذرارهم ونساءهم ، وساق أغنامهم وأبقارهم ، وخرب عليهم بل
أحرق ديارهم ، وأشعل تلك الأماكن ناراً ، وأدركتها دعوة نوح : رب
لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً (٣) . فأعاد عليهم ليلاً ثانياً بمشارين

(١) سورة الصافات : الآية ٣٧ .

(٢) سورة الشمس : الآية ٩١ .

(٣) سورة نوح : الآية ٢٦ .

من نفع ودخان ، وأقام فيها المأتم بنسكيتين من أسرى وإفخاخ ، وعاد
الى الخيم مشكور الخيم موفور النعم ظاهر الراية ، باهر الآية غانم الجند
غالب الجند ، كريم الظفر ، حميد الأثر ، وقد كف " كف الكفر وهـ " ركن النكر ،
وسفرت وجوه الإسلام بهذه البشرى بشراً ، وطابت قلوب المؤمنين وطابت أرجاء
الرجاء بأرج نجاحهم بشراً ، فهذه صفة صفد عند النهضة إليها والإشراف
عليها ، فكيف والسيوف قد طاب ربيها من طهيرة ، وعانيت هي
وأخواتها منا البلية . والقدس ينتظر إقدامنا ويستشرف اعتزامنا ، ونأمل
من الله أن ينجز ميعاد نصره ويفتح لنا البلد الموعود بحصره ، فعينئذ
يهي سلك الساحل وتتبدد عقوده ، وبستخلص من أيدي المشركين يعون
الله تعالى حقوقه وحدوده .

مضمار الحقائق لمحمد بن تقي الدين عمر ٣٢ - ٣٣

٤١ - فصول من رسالة أرسلها صلاح الدين إلى الملك المظفر
في مصر يحثه على إرسال المساكين المصرية إلى الجهاد سنة ٥٧٩ هـ .
فصل :

قد تقدمت المسكينة إلى مجلس الملك المظفر - لازالت أيامه بالملك
والعز منموتة ، وصلاة صلاته بالحمد والإخلاص موقوتة ، وولاية ولائه
مرموقة ، وعداة آلائه بمقوتة ، ومنايا مناوئيه مكتوبة ، وشناة شائبه مكبوتة
وعرفناه ماشمل من نعم الله وفاض ، واستنار من لآلاء آلائه واستفاض ،
وأن الله أغاث بفيوث رحمته وبفوت نعمته حتى سالت أوديتها ، وسفكت
دماء المحول بسيوف البوارق فلا يقال قودها أو ديتها ، قدم الحروب مطول
وسيف البارق مسلول .

ومنها :

وقد كاتبنا أمراء الأطراف باستعدادهم لاستدعائهم ، وأن يجزموا
يجمع العساكر أوامرهم لأمرائهم ، فما منهم إلا من يسابق إلى تلبية
النداء ، ويسارع إلى إجابة الدعاء ، ويعشق ، ولاعشق لقاء الأجابة ،
لقاء الأعداء . وهم الآن ينتظرون شتات شمل الشتاء . وإذا رأوا آذار
مقبلا أقبلوا ، فإنهم مذ شاهدوا ضرع العارض حافلا احتفلوا ، وأجمعوا
أمرهم قبل الاجتماع بأمرنا فتملأوا بما فعلوا . والله عز وجل يمد الإسلام
بفتوح تفوح أرجاؤها بأريج العز ، ويسمي للجهاهد في سبيله ما واعد
من درج الفوز وقد عزمنا - مع خروج شباط - على السير إلى حلب ،
لان هناك العساكر يقرب اجتماعها والغنائم يتحقق اتساعها ، والمشاورات
الصائبة يتداني استماعها ، والهيبة في النفوس تفخم ، والصيت في الآفاق
يعظم .

مضمار الحقائق لمحمد بن تقي الدين عمر ١٦٣ - ١٦٤

٤٢ - بشارة أرسلها صلاح الدين لأحد الملوك بفتح غزة واقتلاعها
من الديوية .

أدام الله سعادات المجلس وأحسن له التدبير ، وأصفى عيشه من
التكدير ، وحقق له فيه أحسن الرجاء والتقدير ، وجعل وجهه من
أهلة الأكابر والتكبير ، وأعاذ تأخير أجله من التقديم ، وتقدم حظه
من التقديم .

نشعر المجلس بما من الله تعالى به من فتح مدينة غزة يوم الجمعة
الجامع لشمل النصر ، القاطع لحبل الكفر ، وهذه المدينة ، قد علم
الله ، أنها من أوسع المدائن وأملأ الكنائن وأثرى المعادن ، وهي كرسي

الدوية ومهبط رؤوسهم ومحط نفوسهم وحى كايهم بل كلاهم ، وظهر
صليهم بل أصلابهم ، وما كانت الأبصار إليها تطمح ، ولا الأقدار بها
قبلنا تسمح ، ولها قلعة ، وأنفها شامخ في الهواء ، وعطفها جامع عن
عطفة اللواء ، قد أوغلت في الجو مرتفعة ، وأوهضت في الليل ملتعة ،
وبرداء السحاب ملتفة . قد صافحتها أيدي الأيام بالسلامة من قوارعها ،
وما دنتها حوادث الأيام على الأمن من دوائها ، إلى أن أتيح لها من
أتاح لها الحين ، وقبض لها من اقتضى منها الدئين ، فصبحها بما ساء به
صباحها ، وزعزعها بالزئير الذي خرس له نباحها . وكان من خبرها أقنا
لما أطلنا عليها مغيرين ، وأطفنا بها دائرين ، ولكؤوس الحرب مديرين ،
تقلبت الأنجاد والأبطال على الزحف ، وأعجل ارتياح النصر عن انتظام
عقد الصف ، وانقضوا عليها انقضاؤا البزاة على طرائدها ، وأسرعوا
إليها إسراع العطاش إلى مواردنا ، ورفعت الألوية خافقة كذوائب
الضرام ، طالعة برسائل الحمام ، مشيرة بالعذبات إشارة لم يطمثوا إليها
بالسلام ، وجساءم الموت من كل مكان ، وأمطرت الشهب من كل
سنان ، فرأوا مثوام الحبيب ومحلهم الحبيب وقد ركضت فيه خيول
الغيتر ، واعترضت فيه سيول العيتر ، وجردت فيه نصول القدر ، والنار
قد لعبت فيه بجدة ، واحمرت فيه خدودها مخدة ، وأقواتهم للذخيرة
وأموالهم المثمرة نفلا مباحا وزبدا مطاحا ومغنما مشاعا ونهبا مضاعفا قد
ملئت منه الرجال وأخصبت ، واتسعت به الأيدي وضافت به الأرض
بما رحبت .

صبح الاعشى للقلقشندي ج ٧ ٢٢ - ٢٣

٢ - فترة تحرير الساحل السوري والقدس

٤٣ - رسالة أرسلها أحد أفراد حاشية صلاح الدين الأيوبي لبعض إخوانه ، وصلاح الدين يستعد لمعركة حطين التاريخية وذلك سنة ٥٨٢ هـ .

كتبت هذه المكاتبة من جسر الخشب ظاهر دمشق ، وقد ورد السلطان ، أعز الله أنصاره ، للفرقة إلى بلاد الكفر ، في عسكر فيه عساكر ، وفي جمع البادي فيه كأنه حاضر ، وفي حشد يتجاوز أن يحصله الناظر إلى أن لا يحصله الحاطر ، وقد نهضت به همة لا يرجى غير الله لإنهاضها ، وحجبت به عزمة ، الله المسؤول في حسم عوارض اعتراضها ، وباع الله نفساً يستمتع أهل الإسلام بصفقتها ، ويذهب الله الشرك بهيتها . وأرجو أن يتمخض عن زبدة وتستريح الأيدي من الخوض ، وأن يكون الله قد بمت سفتجة نصرة للإسلام وسلطانه قد نهض للقبض .

كتاب الروضتين لأبي شامة ج ٢ - ٢٥

٤٤ - رسالة القاضي الفاضل إلى صلاح الدين يهنئه بنصر حطين لأنه كان غائباً عن المعركة .

ليهن المولى أن الله قد أقام به الدين القيم ، وأنه كما قيل : أصبحت مولاي ومولى كل مسلم ، وأنه قد أسبغ عليه النعمتين الباطنة والظاهرة ، وأورثه الملكين : ملك الدنيا وملك الآخرة .

كتب الملوك هذه الخدمة والرؤوس إلى الآن لم ترفع من سجودها ، والدموع لم تمسح من خدودها . وكلما فكر الخادم أن البيع تعود وهي مساجد ، والمكان الذي كان يقال فيه : إن الله ثالث ثلاثة يقال اليوم

فيه : إله الواحد ، جدد لله شكراً ، ثارة يفيض من لسانه ، وثارة يفيض من جفنه ، وجزاء يوسف خيراً عن إخراجه من سجنه . والماليك ينتظرون أمر المولى ، فكل من أراد أن يدخل الحمام بدمشق قد عول على دخول حمام طبرية .

تلك المكارم لأقعيان من لبن وذلك الفتح لاعمنان واليمن
وذلك السيف لاسيف ابن ذي يزن
والألسنة بعد في هذا الفتح شرح طويل وقول جليل (١) .

كتاب الروضتين لأبي شامة ج ٨٢٢ - ٨٣

٥ - قطعة من رسالة أرسلها العباد الأصفياني تبشر بنصر حطين التاريخي وذلك باسم صلاح الدين .

... ولما أحيط بالقوم ، آوى ملكهم إلى جبل يعصمه من العوم ، فأسمعه السيف : لاعاصم اليوم ، واستولى الخذلان عليهم بأسرهم ، وبردت أيدي المؤمنين بحرقتلهم وأسرمهم ، ولم يبق لهم باقية ، وغضت بقتلام في الدنيا والآخرة أرض الله الواسعة ، ونار الله الحامية ، فإيطاً من يصل إلى خيمهم الأعلى رمهم البالية ، وأسر الملك وأخوه وبارونيته ومقدموه ، ولم يفلت منهم إلا القمص ، وهو مسلوب ، ولايد أن ندركه وهو مطلوب . وقد كنا نظرننا ضرب رقبة الابرنس صاحب الكرك الغدار ، كافر الكفار ونشيدة النار ، فلما رأيناه ضربنا عنقه سريعاً ، وسرنا إلى عكا ، وهي بيضة ملكهم ، وواسطة سلكتهم ، ومركز دائرة كفرهم وجمع جمع برهم وبحرم فتسللناها بالأمان .

والصخرة المقدسة الآن بنا تصرخ وتستغيث ، وعباد الله الصالحون

(١) أورد ابن كثير في « البداية والنهاية » ج ١٢ - ٣٢٢ نصاً أكثر اختصاراً من نصنا أعلاه .

قد وصلت إليهم بوعد الله الصادق المواريث ، والبشارة بفتح القدس
لاتأخر ، والهمم بعد هذا الفتح السني على ذلك تتوفر ، والحمد لله الذي
تم الصالحات بحمده : ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما
يمسك فلا مرسل له من بعده ^(١) .

كتاب الروضتين لأبي شامة ج ٢ - ٨٧

٤٦ - رسالة أرسلها شخص يقيم في عسقلان اسمه عبد الله بن أحمد
المقدسي إلى بغداد يصف معركة حطين .

كتب هذا الكتاب من عسقلان يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الآخرة
سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وفيه :

ولو حمدنا الله عز وجل طول أعمارنا ما وفيينا بمشعر معشار نعمته
التي أنعم بها علينا من هذا الفتح العظيم . فلما خرجنا إلى عسكر صلاح
الدين ، وتلاحق الأجناد حتى جاء الناس من الموصل وديار بكر
وإربل ، فجمع صلاح الدين الأمراء وقال : هذا اليوم الذي كنت أنتظره
وقد جمع الله لنا المساكين ، وأنا رجل قد كبرت ، وما أدري متى
أجلي ، فاغتنموا هذا اليوم وقاتلوا الله تعالى لامن أجلي ، فاختلفوا في
الجواب وكان رأي أكثرهم لقاء الكفار ، فعرض جنده ورتبهم ، وجعل
تقي الدين في الميمنة ، ومظفر الدين في الميسرة ، وكان هو في القلب ، وجعل
بقية العسكر في الجناحين .

ثم ساروا على مراتبهم حتى نزلوا لأقحوانة ، فتركوا بها أثقالهم وساروا حتى
نزلوا بكفر سبت ، فأقاموا يومين ينتظرون أن يبرز لهم الكفار ، وكان عسكر
الكفار على صفورية ، فلم يبرزوا ، فعاد صلاح الدين حتى نزل على طبرية ،

(١) سورة فاطر الآية ٢ .

فتقدم فرسانه وحاماته ورماته والنقابون فدخلوا تحت الحصن ، فلما تمكن النقب منه انهال من غير وقود ، ودخل المسلمون فانتهبوا يوم الخميس .

وأصبحوا يوم الجمعة، فشرعوا في نقب القلعة ، فلما كان وقت الصلاة جاء الخبر أن الكفار قد توجهوا إلينا ، فارتحل صلاح الدين على صفوفه فلقبهم ، ثم لم يزالوا يتقدمون حتى صار المسلمون محيطين بهم وصار قلب المسلمين خلفهم فتراموا ساعة وبات كل فريق على مصافهم .

ثم أصبحوا فساد الكفار يقصدون طبرية ، والمسلمون حولهم يلحون عليهم بالرمي ، فاقتلع المسلمون منهم فوارس وقتلوا خيالة ورجالة ، فانحاز المشركون إلى تل حطين فنزلوا عنده ونصبوا الخيام ، وأقام الناس حولهم إلى أن انتصف النهار وهبت الرياح ، فهجم المسلمون عليهم فانهمزوا لا يلبون على شيء ، ولم يفلت منهم إلا نحو مائتين ، وكانوا كما قيل اثنين وثلاثين ألفاً ، وقيل ثلاثة وعشرين ، ولم يتركوا في بلادهم من يقدر على القتال إلا قليلاً .

وكان الذي أسر الملك هو درباس الكردي . وغلाम الأمير إبراهيم المهراني أسر الأبرنس (١) . وقتل صلاح الدين الأبرنس بيده لأنه كان قد غدر وأخذ قافلة من طريق مصر .

ثم عاد صلاح الدين إلى طبرية فأخذ قلعتها بالأمان ، ثم ضرب أعناق الأسارى الذين كانوا في المسكر ، وأرسل إلى دمشق فضربت أعناق الذين بها منهم .

كتاب الروضتين لأبي شامة ج ١٢ - ٨٢

(١) المقصود بالأبرنس أوطاس صاحب حصن الكرك واسمه أرولود وكان من أخبث الصليبيين وأكثرهم غدراً وعدواناً على المسلمين وتهجماً على ذات الرسول عليه السلام فقتله صلاح الدين بيده .

٤٧ - رسالة صلاح الدين إلى بغداد من عكا بعد تحريرها ويصف فيها معركة حطين .

صبح الخادم طبرية فاقتض عذرتها بالسيف وهجم عليها هجوم الطيف، وتفرق أهلها ما بين الأسر والقتل، وعاجلهم الأمر فلم يقدر على الخداع والختل، جاء الملك ومن بعد من كفاره ولم يشعر أن ليل الكفر قد آن وقت اسفاره، فأضرم الخادم عليهم ناراً ذات شرار، أذكرت بما أعد الله لهم في دار القرار، فترجل هو ومن معه عن صهوات الجياد وتسئموا هضبة رجاء أن تنجيهم من حر السيوف الحداد، ونصبوا للملك خيمة حمراء ووضعوا على الشرك عمادها، وتولت الرجال حفظ أطناها فكانوا أوتارها، فأخذ الملك أسيراً، وكان يوماً على الكافرين عسيراً، وأسير الأبرنس - لعنه الله - فحصد بذره، وقتله الخادم بيده، ووفى بذلك نذره .

وأسر جماعة من مقدمي دولته وكبراء ضلالتة، وكانت القتل تزيد على أربعين ألفاً ولم يبق أحد من الديوية، فله هو من يوم تصاحب فيه للذئب والنسر، وتداول فيه القتل والأسر. أصدر الخادم هذه الخدمة من ثغر عكا، والإسلام قد اتسع مجاله، وتصرف أنصاره ورجاله، والكفر قد ثبتت أوجاله ودنت آجاله .

كتاب الروضتين لأبي شامة ج ٢ - ٨٧

٤٧ مكرر - رسالة صلاح الدين إلى خليفة بغداد الناصر يبشره بفتوحه التي سبقت أو عقت حطين من إنشاء العماد الأصفهاني .

ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي

الصالحون (١).

الحمد لله على ما أنجز من هذا الوعد ، وعلى نصرته لهذا الدين الحنيف من قبل ومن بعد ، وجعل من بعد عسر يسراً ، وقد أحدث الله بعد ذلك أمراً ، وهون الأمر الذي ما كان الإسلام يستطيع عليه صبراً ، وخوطلب الدين بقوله : ولقد مننا عليك مرة أخرى (٢) . فالأولى في عصر النبي فالصحابة ، والأخرى هذه التي عتق بها من ذل الكآبة ، وهو قد أصبح حراً ريان الكبد الحرئى ، والزمان كبيتته استدار ، والكفر قد رد ما كان عنده من المستعار . فالحمد لله الذي أعاد الإسلام جديداً ثوبه ، مبيضاً نجره ، مخضراً نصله ، متمسماً فضله ، مجتمعاً شمله

والخادم يشرح من نبأ هذا الفتح العظيم والنصر الكريم ما يشرح صدور المؤمنين ، ويمنح الجبور لكافة المسلمين ، ويورد البشرى بما أنعم الله به من يوم الخميس الثالث والعشرين من ربيع الآخر إلى يوم الخميس سلخه ، وتلك سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً سخرها الله على الكفار ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية (٣) . وإذا رأيت ثم رأيت البلاد على عروشها خاوية ، ورأيتها إلى الإسلام ضاحكة وكالت من الكفر باكية .

فيوم الخميس الأول فتمت طهيرة

ويوم الجمعة والسبت نازل الفرنج فكسروا الكسرة التي ما لهم بعدها قائمة (٤) ، وأخذ الله أعداءه بأيدي أوليائه ، أخذ القرى وهي ظالمة (٥) .

(١) سورة الأنبياء الآية ١٠٥ .

(٢) سورة طه الآية ٣٧ .

(٣) سورة الحاقة الآية ٧ .

(٤) يقصد بالكسرة هنا الهزيمة الشنماء التي مني بها الصليبيون في معركة حطين .

(٥) سورة هود الآية ١٠٣ .

وفي يوم الخميس سلخ الشهر فتحت عكا بالامان ورفعت أعلام
الإيمان ، وهي ام البلاد واخت ارم ذات العمام .

وقد أصدر هذه المطالمة و صليب الصلبوت مأسور ، وقلب ملك
الكفر الأسير يجيشه المكسور مكسور . والحديد الكافر الذي كان في
يد الكفر يضرب وجه الإسلام قد صار حديداً مسلماً يعوق خطوات الكفر
عن الإقدام . وأنصار الصليب وكباره ، وكل من المعمودية عمدته والدير
داره قد أحاطت به يد القبضة ، وغلق رهنه فلا يقبل فيه القناطير
المقنطرة من الذهب والفضة ، وطبرية قد رفعت أعلام الإسلام عليها ،
ونكصت من عكا ملة الكفر على عقيها ، وعمرت إلى أن شهدت يوم
الإسلام وهو خير يومها .

وقد صارت البيع مساجد يعمرها من آمن بالله واليوم الآخر ،
وصارت المذابح مواقف لخطباء المنابر ، واهتزت أرضها لموقف المسلم فيها ،
واطالما ارتجت لموقف الكافر .

فأما القتلى والأسرى فلإنها تزيد على ثلاثين ألفاً .

وأما فرسان الداوية والإستبارية فقد أمضي حكم الله فيهم وقطعتهم
سيوف نار الجحيم ، ودخل الداخل منهم إلى الشقاء المهيم ، وقتل الأبرنس
كافر الكفار ونشيدة النار من يده في الإسلام كما كانت يد
الكليم .

والمعاقل التي فتحت

طبرية .	عكا .	الناصره .	صفورية .
قيسارية .	نابلس .	حيفا .	معليا .
الغولة .	الطور .	الشقيف .	

وقلاع بين هذه كثيرة .

الملك المظفر تقي الدين ، ظفروه الله ، مضايق لصور وحصن تبين .
والآن الملك العادل سيف الدين ، نصره الله ، قد كوتب بالوصول
فيمن عنده المساكر ، وينزل في طريقه على غزة وعسقلان ، ويجهز مراكب
الأسطول المنصور إلى عكا .

وما يتأخر النهوض إلى القدس ، وهذا أوان فتحه . ولقد دام عليه ليل
الظلام وقد آن أن يسفر فيه الهدى عن صبحه ^(١) .

مفرج الكروب لابن واصل ج ٢ ، ٢٠٣ - ٢٠٥

٤٨ - رسالة أخرى من صلاح الدين إلى بعض أهله يخبره بما تجدد
من فتوحه ويعلن تهيؤه لفتح القدس .

. . . انتقلنا إلى الجانب الذي فيه القدس وعسقلان ففتحنا قلاع

كلها وحصونه جميعها ومعاقله يحملتها ومدنه بأسرها وهي :

حيفا .	والرملة .	والدير .	وقيسارية .
ولد .	والخليل .	وارسوف .	وتل الصالحية .
ويافا .	وبيت جبريل .		

ونازلنا عسقلان ، وهي المعقل المنيع والحصن الحصين والتل الرفيع ،
وفيهم من القوة والعدة والعدد ما تتقاصر الآمال عن فيل مثله ، فافتتحناها
سلياً لتمام أربعة عشر يوماً من يوم نزلنا عليها ، ونصبت أعلام التوحيد
على أبراجها وأسوارها وحررت بالمسلمين وخلت من مشركيها وكفارها ،
وكبر المؤذنون في أقطارها .

(١) ذكر أبو شامة في كتاب « الروضتين » نصاً يكاد يكون مطابقاً لنصنا أهله

ولم يبق في الساحل من جبيل إلى أوائل حدود مصر سوى القدس
وصور ، والعزم مصمم على قصد القدس ، فإله يسهله ويعجله ، فإذا
يسر الله تعالى فتح القدس ملنا إلى صور ، والسلام .
كتاب الروضتين لأبي شامة ج ٢ - ٩١

٤٩ - رسالة أرسلها صلاح الدين إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله
يبشره بفتح بيت المقدس ويذكر المهارك التي سبقت تحريره وعملية
التحرير من إنشاء القاضي الفاضل :

أدام الله أيام الديوان العزيز النبوي الناصري ، ولا زال مظفر الجذ
بكل جاحد ، غني التوفيق عن رأي كل رائد ، موقوف المساعي على
اقتناء مطلقات الحماد ، مستيقظ النصر والسيف في جفنه راقد ، وارد
الجلود والسحاب على الأرض غير وارد ، متعدد مساعي الفضل وإن كان
لا يلقى إلا بشكر واحد ، ماضي حكم القول بعزم لا يمضي إلا بنسل غوي
وريش راشد ، ولا زالت غيوث فضله إلى الأولياء أنواء إلى الرابع
وأواراً إلى المساجد ، وبعوث رعبه إلى الأعداء خيلاً إلى المراقب وخيالاً إلى
المراقد .

كتب الخادم هذه الخدمة تلو ما صدر منه مما كان يجري بحري
التبشير بصبح هذه الخدمة ، والعنوان لكتاب وصف هذه النعمة ، فإنها
بحر للأقلام فيه سبج طويل ، ولطف الحق للشكر فيه عبء ثقيل ،
وبشري للخواطير في شرحها مأرب ، ويسرى للأسرار في إظهارها مسارب ،
ولله في إعادة شكره رضى ، وللنعمة الراهنة به دوام لا يقال معه هذا
مضى . وقد صارت أمور الإسلام إلى أحسن مصايرها ، واستتبعت عقائد
أهله على بصائرهما ، وتقلص ظل رجاء الكافر المبسوط وصدق الله أهل

دينه ، فلما وقع الشرط حصل المشروط ، وكان الدين غريباً فهو الآن في وطنه ، والفوز معروضاً فقد بذلت الأنفس في ثمنه ، وأمر أمر الحق وكان مستضعفاً وأهل ربه وكان قد عيف حين عفا ، وجاء أمر الله وأنوف أهل الشرك راغمة ؛ فأدبلت السيوف إلى الآجال وهي نائمة ، وصدق وعد الله في إظهار دينه على كل دين ، واستطارت له أنوار أبانت أن الصباح عندها حيان الحين . واسترد المسلمون تراثاً كان عنهم آتياً ، وظفروا يقظة بما لم يصدقوا أنهم يظفرون به طيفاً على النأي طارقاً ، واستقرت على الأعلى أقدامهم ، وخفقت على الأقصى أعلامهم ، وتسلقت على الصخرة قبلهم ، وشفيت ، وإن كانت صخرة ، كما تشفى بالماء غلهم .

ولما قدم الدين عليها عرف منها سويداء قلبه ، وهنأ كفؤها الحجر الأسود ببت عصمتها من الكافر بحربه . وكان الخادم لا يسمي سميها إلا لهذه العظمى ، ولا يقاسي تلك البؤسى إلا رجاء هذه النعمى ، ولا يناجز من استمطه في حربه ، ولا يعاتب بأطراف القنا من تمادى في عتبته إلا لتكون الكلمة مجموعة ، والدعوة إلى سامعها مرفوعة ، فتكون كلمة الله هي العليا ، وليفوز بجوهر الآخرة لا بالعرض الأدنى من الدنيا ، وكانت الألسنة ربما سلقته فأنضج قلوبها بالاحتقار ، وكانت الخواطر ربما غلت عليه مراجلها فأطفأها بالاحتمال والاصطبار . ومن طلب خطيراً خاطراً ، ومن رام صفقة رابحة تجاسر ، ومن سما لأن يحملي غمرة غامر ، وإلا فإن القمود يلين تحت نيوب الأعداء المعاجم فتعضتها ، ويضعف في أيديها مهنر القوائم فتفضها . هذا إلى كون القمود لا يقضي فرض الله في الجهاد ، ولا يرعى به حق الله في العباد ، ولا يوفي به واجب التقليد الذي تطوقه الخادم من أئمة قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون . وخلفاء الله كانوا

في مثل هذا اليوم لله يسألون . لاجرم أنهم أورثوا سرورهم وسريرهم
خلفهم الأطهر ونجلهم الأكبر وبقيتهم الشريفة وطلعتهم المنيفة ، وعنوان
صحيفة فضلهم لاعدم سواد العلم وبياض الصحيفة . فما غابوا لما حضر ،
ولا غصوا لما نظر ، بل وصلهم الأجر لما كان به موصولا ، وشاطروه
العمل لما كان عنه مشغولا ومنه مقبولا ، وخلص إليهم إلى المضاجع
ما اطمأنت به جنوبها ، وإلى الصفائح ما عبت به جيوها . وفاز منها بذكر
لا يزال الليل به سميراً والنهار به بصيراً ، والشرق به تدي بألواره ، بل إن
أبدى نوراً من ذاته هتف به الغرب بأنواره ، فإنه نور لا تكتنه أغساق
السوف ، وذكر لا تواريه أوراق الصحف .

وكتاب الخادم هذا وقد أظفر الله بالعدو الذي تشظت قناته
شفقاً ، وطارت فرقه فرقاً ، وفل سيفه فصار عصا ، وصدعت حصاته
وكان الأكثر عدداً وحصا ، فكلت حملاته وكانت قدرة الله تصرف
فيه العنان بالعيان ، عقوبة من الله ليس لصاحب يدٍ بها يدان ، وعثرت
قدمه وكانت الأرض لها حليفة ، وغضت عينه وكانت عيون السيوف
دونها كسيفه ، ونام جفن سيفه وكانت يقظته تريق نطف الكرى من
الجفون ، وجديعت أنوف رماحه ، ولطالما كانت شاحخة بالمئى أو راعفة
بالتون ، وأصبحت الأرض المقدسة الطاهرة وكانت الطامث ، والرب
للمبود الواحد وكان عندهم الثالث ، فبيوت الشرك مهدومة ، ونيوب
الكفر مهتومة ، وطوائف المحامية مجتمعة على تسليم البلاد الحامية وشجعانه
المتوافية مدعنة ببزل المطامع الوافية ، لا يرون لهم في ماء الحديد لهم
عشيرة ، ولا في فناء الأفنية لهم نصرة ، وقد ضربت عليهم الذلة
والمسكنة ، وبدل الله السيئة الحسنة ، ونقل بيت عبادته من أيدي أصحاب
المشائمة إلى أيدي أصحاب الميمنة .

ولقد كان الخادم لقيهم اللقاء الأولى فأمدده الله بمداكره وأنجده ببلاتكته فكسرهم كسرة ما بعدها جبر ، وصرعهم صرعة لا يعيش معها بمشيئة الله كفر ، وأسر منهم من أسرت به السلاسل وقتل منهم من فتكت به المناصل ، وأجلت المعركة عن صرعى من الخيل والسلاح الكفار ، وعن أنصاف محيل فانه قتلهم الأفلاق والرماح الأكسار ، فنيلوا بثار من السلاح ونالوه أيضاً بثار ، فكم أهلة سيوف تقارضن الضراب بها حق عادت كالمراجين ، وكم أنجم رماح تبادلت الطعان حق صارت كالمطاعين . وكم فارسية ركض عليها فارسها السهم إلى أجل فاختلسه ، وفقرت تلك القوس فاما فإذا فوها قد نهش القرن على بعد المسافة فافقرسه . وكان اليوم مشهوداً ، وكانت الملائكة شهوداً ، وكان الكفر مفقوداً والإسلام مولوداً ، وجعل الله ضلوع الكفار لنار جهنم وقوداً . وأسر الملك وبيده أوثق وثاقه وأكد وصله بالدين وعلائقه وهو صليب الصليبوت وقائد أهل الجبروت ، ومادموها قط بأمر إلا وقام بين دهائمهم يبسط لهم باعه ، ويمرضهم وكان من اليدين في هذه الدفعة وداعه ، لاجرم أنهم تهافت على فارم فراشهم ، وتجمع في ظل ظلامه خشاشهم ، فيقاتلون تحت ذلك الصليب أصلب قتال وأصدق ، ويرونه ميثاقاً يبنون عليه أشد عقد وأوثقه ، ويعمدونه سوراً تحفر حوافر الخيل خندقه .

وفي هذا اليوم أسرت سراتهم وذهبت دهاتهم ، ولم يفلت معروف إلا القومص ، وكان - لعنه الله - ملياً يوم الظفر بالقتال ويوم الخذلان بالاحتيال ، فنجا ولكن كيف ؟ وطار شوقاً من أن يلحقه منسر الرمح وجناح السيف . ثم أخذه الله بعد أيام بيده وأهلكه لموعده ، فكان لعدتهم فذلك ، وانتقل من ملك الموت إلى مالك .

وبعد الكسرة مر الخادم على البلاد فطواها بما نشر عليها من الراية
 العباسية السوداء صبغاً ، البيضاء صنماً ، الخافقة هي وقلوب أعبائها ، الغالبة
 وهي وعزائم أوليائها ، المستضاء بأنوارها إذا فتح عينها البشر ، وأشارت
 بأفامل المذبات إلى وجه النصر ، فافتتح بلد كذا وكذا ، وهذه أمصار
 ومدن ، وقد تسمى البلاد بلاداً وهي مزارع وفدن . وكل هذه ذوات
 معاقل ومعاقر وبحار وجزائر ، وجوامع ومناظر وجوع وعساكر ، يتجاوزها
 الخادم بعد أن يحمرزها ، ويتركها وراءه بعد أن ينتهزها ، ويحصدها منها
 كقراً ويزرع إيماناً ، ويحيط من منائر جوامعها صلباناً ويرفع أذاناً ، ويبدل
 المذابح منابر والكنائس مساجد ، ويبوي بعهد أهل الصليبان للذبح
 عن دين الله مقاعد ، ويقر عينيه وعيون أهل الإسلام أن تعلق
 النصر منه ومن عسكره بحار وبحرور ، وأن ظفر بكل سور ما كان
 يخاف زلزاله وزيله إلى يوم النفخ في الصور . ولما لم يبق إلا القدس ،
 وقد اجتمع إليها كل شريد منهم وطريد ، واعتصم بمنعتها كل قريب
 منهم وبعيد ، وظنوا أنها من الله مانعهم ، وأن كنيستها إلى الله شافعهم ،
 فلما نازلها الخادم رأى بلداً كبلاد ، وجعاً كيوم التناد ، وعزائم قد
 تألفت وتألبت على الموت ، فنزلت بعرضته ، وهان عليها مورد السيف
 وأن تموت بغصته ، فزاول البلد من جانب فإذا أودية عميقة ، ولجج وهرة
 عريقة ، وسور قد انعطف عطف السور ، وأبرجه قد نزلت مكان الواسطة
 من عقد الدار ، فعدل إلى جهة أخرى كان للطامع عليها معرّج ، وللخيل
 فيها متولج ، فنزل عليها وأحاط بها وقرب منها ، وضربت خيمته بحيث
 يناله السلاح بإطرافه ، ويزاحمه السور باكتافه ، وقابلها ثم قاتلها ، ونزلها
 ثم نازلها وبرز إليها ثم بارزها ، وحاجزها ثم ناجزها ، فضمها ضمة ارتقب
 بعدها الفتح ، وصعد أهلها فإذا هم لا يصبرون على عبودية الجدد عن عتق

الصفح ، فراسلوه ببذل القطيعة إلى مدة ، وقصدوا نظرة إلى شدة
ولانتظاراً لنجدة ، فعرفهم في لحن القول وأجابهم بلسان الطول ، وقدم
المنجنقيات التي تتولى عقوبات الحصون عصيها وحبالها ، وأوتر لهم قسيها
التي تضرب فلاتفارقها سهامها ، ولا يفارق سهامها نصالها ، فصافحت السور
بأكنافها فإذا سهمها في ثنايا شرفاتها سواك ، وقدم النصرُ نسرًا من
المنجنيق يخلد أخلاده إلى الأرض ويعلوه علوه إلى السالك ، فشجَّ
مرادع أبراجها ، وأسمع صوت عجيجها ورفع مثار عجاجها ، فأخلى
السور من السيارة والحرب من النظارة ، فأمكن النقب ، أن يسفر
للحرب النقب ، وأن يعيد الحجر إلى سيرته من التراب ، فتقدم إلى
الصخر فضغ سرده بأنياب معوله ، وحل عقده بضربه الأخرق الدال
على لطافة أمّله ، وأسمع الصخرة الشريفة حنينه واستغاثته إلى أن
كادت ترق لمقبله ، وتبرأ بعض الحجارة من بعض ، وأخذ الخراب
عليها موثقاً فلن تبرح الأرض . وفتح في السور باب سد من نجاتهم
أبواباً ، وأخذ نقب في حجره قال عنده الكافر : ياليتني كنت تراباً^(١) .
فحينئذ يئس الكفار من أصحاب الدور ، كما يئس الكفار من أصحاب
القبور ، وجاء أمر الله وغرم بالله الفرور .

وفي الحال خرج طاغية كفرهم وزمام أمرهم ابن بازان سائلاً أن
يؤخذ البلد بالسلم لا بالعنوة ، وبالأمان لا بالسطوة ، وألقى بيده إلى
التهلكة ، وعلاه ذل الملكة بعد عز المملكة ، وطرح جبينه في التراب
وكان حيناً لا يتعاطاه طارح ، وبذل مبلغاً من القطيعة لا يطمح إليه
طرف أملٍ طامع . وقال : هاهنا أسارى مؤمنون يتجاوزون الألوف ،

(١) سورة النبأ الآية ٤٠ .

وقد تعاقد الفرنج على أنهم إن هجمت عليهم الدار وحملت الحرب على ظهورهم الأوزار ، بدى بهم فمجلوا ، وثنى بنساء الفرنج وأطفالهم فقتلوا ، ثم استقتلوا بعد ذلك فلم يقتل خصم إلا بعد أن ينتصف ، ولم يسل سيف من يد إلا بعد أن تنقطع أو تنقص وأشار الأمراء بالأخذ بالميسور من البلد المأسور ، فإنه إن أخذ حربياً فلا بد أن تقتحم الرجال الأنجاد وتبذل أنفسهم في آخر أمرٍ قد نيل من أوله المراد . وكانت الجراح في المسافر قد تقدم منها ما اعتقل الفتكات وإعتاق الحركات ، فقبل منهم المبدول عن يد وهم صاغرون ، وانصرف أهل الحرب عن قدرة وهم ظاهرون ، وملك الإسلام خطة كان عهده بها دمنة سكان ، فخدمها الكفر إلى أن صارت روضة جنان ، لاجرم أن الله أخرجهم منها وأهبطهم ، وأرضى أهل الحق وأسخطهم ، فإنهم - خذلهم الله - جموها بالأسل والصفاح ، وبنوها بالغمد والصفاح ، وأودعها الكنائس بها وبيوت الديوية والاستبارية منها كل غريبة من الرخام الذي يطرد ماؤه ولا يطرد لآلؤه ، وقد لطف الحديد في تجديعه ، وتفنن في توشيعه ، إلى أن صار الحديد ، الذي فيه بأس شديد ، كالذهب الذي فيه نعيم عتيد ، فما ترى إلا مقاعد الرياض لها من بياض الترخيم رقراق ، وعمداً كالأشجار لها من التنبيت أوراق .

وأوعز الخادم برد الأقصى إلى عهده المعبود ، وأقام له من الأئمة من يوفيه ورده المورد ، وأقيمت الخطبة يوم الجمعة رابع شهر شعبان فكادت السموات يتفطرن للسجوم لا لاوجوم ، والكواكب ينتثرن للطرب لا للرجوم ، ورفعت إلى الله كلمة التوحيد وكانت طرائقها مسدودة ، وطهرت قبور الأنبياء وكانت بينهم بالنجاسات مكدودة ، وأقيمت الخمس ، وكان التثليث يقدمها ، وجهرت الألسن بالله أكبر وكان

سحر الكفر يعقدها ، وجهر باسم أمير المؤمنين في قطبه الأقرب من المنبر ، فرحّب به ترحيب من "بر" بن "بر" ، وخفق علماء في حفافيه ، فلو طار به سروراً لطار بيجناحيه .

وكتاب الخادم وهو مجد في استفتاح بقيمة الثغور ؛ واستشراح ماضاق بتماذي الحرب من الصدور ، فإن قوى العساكر قد استنفدت مواردها ، وأيام الشتاء قد مردت مواردها ، والبلاد المأخوذة المشار إليها قد جاست العساكر خلالها ، ونهبت ذخائرها وأكلت غلالها ، فهي بملاد ترفد ولا تسترفد ، وتجم ولا تستنفد ، وينفق منها ، وتجهز الأساطيل لبحرها ، وتقام المرباط لبرها ، ويدأب في عمارة أسوارها وممرات معاقليها . وكل مشقة فهي بالإضافة إلى نعمة الفتح محتلة ، وأطباع الفرنج فيما بعد ذلك مذاهبها غير مرجئة ولا معتزلة ، فلن يدعوا دعوة يرجو الله من الخادم أنها لاتسمع ، ولن تزول أيديهم من أطواق البلاد حتى تقطع .

وهذه البشائر لها تفاصيل لاتكاد من غير الألسنة تتلخص ، ولا بما سوى المشافهة تتلخص ، فلذلك نفدنا لساناً شارحاً ومبشراً صادقاً ، ينشر الخبر على سياقته ويعرض جيش المسرة من طليعته إلى ساقته^(١) .
صبح الأعشى للفيلسوف ج ٦ ، ٤٩٦ - ٥٠٤

(١) ورد نص هذه الرسالة الشهيرة في عدد من المصادر ، فالفيلسوف نفسه يعيد نص هذه الرسالة مع ذوي من الخلاف في « صبح الأعشى » ج ٨ / ٢٨٢-٢٨٩ ، كما وأن أباشامة في « كتاب الروضتين » ج ٢ / ٩٦-٩٧ يأتي بنص مختصر لهذه الرسالة ، وكذلك يفعل ابن خلكان في « وفيات الأعيان » ج ٦ / ١٧٠-١٨٠ وابن واصل في « مرجع الكروب » ج ٢ / ٢٣٩-٢٤٨ وياقوت في « معجم الأدباء » ج ١٩ / ٢٠-٢٢ . أما النويري فيأتي بمقتطفات في « نهاية الأرب » ج ١ - ٤٠٣ .

٥٠- رسالة أخرى من صلاح الدين إلى الخليفة الناصر لدين الله
العباسي يخبره بمعركة حطين وتحرير بيت المقدس من إنشاء العباد
الاصفياني الكاتب .

ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي
الصالحون (١) .

الحمد لله على ما أنجز من هذا الوعد ، على نصرته لهذا الدين
الحنيف من قبل ومن بعد ، وعلى أن أجرى هذه الحسنة التي ما شتمل
على شبيهها كرام الصحائف ، ولم يجادل عن مثلها في المواقف ، في
الأيام الإمامية الناصرية - زادها الله غرراً وأوضاحاً ، ووالى البشائر
فيها بالفتوح غدوراً ورواحاً ، ومكن سيوفها في كل مازق من كل كافر
ومارق ، ولا أخلاها من سيرة سرية تجمع بين مصلحة مخلوق وطاعة
خالق ، وأطال أيدي أوليائها لتحمي بالحقيقة حتى الحقائق ، وأنجزها
الحق وقذف به على الباطل الزاهق ، وملكها هوادي المغارب ومرامي
المشارك ، ولا زالت آراؤها في الظلمات مصابيح ، وسيوفها للبلاد مفاتيح ،
وأطراف أسنتها لدماء الأعداء نوازع .

والحمد لله الذي نصر سلطان الديوان العزيز وأيده ، وأظفر جنده
الغالب وأنجده ، وجلا به جلايب الظلماء وجدد جدوده ، وجعل بعد
عسر يسراً ، وقد أحدث الله بعد ذلك أمراً ، وهون الأمر الذي
ما كان الإسلام يستطيع عليه صبراً ، وخوطف الدين بقوله : ولقد
متنا عليك مرة أخرى (٢) . فالأولى في عصر النبي ﷺ والصعابة ،

(١) سورة الأنبياء الآية ١٠٥ .

(٢) سورة طه الآية ٣٧ .

والأخرى هي التي عتق فيها من رق الكآبة ، فهو قد أصبح حراً .
فالزمان كهيئته استدار ، والحق بجهته قد استنار ، والكفر قد رد
ماكان عنده المستعار ، وغسل ثوب الليل بما فجر فجر فجر من أنهار
النهار ، وأتى الله بنيان الكفر من القواعد ، وشفى غليل صدور
المؤمنين برقراق ماء المورديات البوارد ، أنزل ملائكة لم تظهر للعيون
اللاحظة ، ولم تخف عن القلوب الحافظة ، عزت سماء الإسلام بمسوتها
وترادف نصره بمردها ، وأخذت القرى وهي ظالمة فترى مترفها كأن
لم تؤو فيها ، فكم أقدم بها حيزوم ، وركض فأتبعه سحاب عجاج
مركوم ، وضرب فإذا ضربه كتاب جراح مرقوم ، وإلا فإن الحروب
إنما عقدت سجالاً ، وإنما جمعت رجالاً ، وإنما دعت خفافاً وثقالاً .
فأما سيوف تقاتل سيوفاً ، أو زحوف تقاتل زحوفاً ، فيكون حد الحديد بيد
مذكراً وبيد مؤنثاً ، ويكون السيف في اليد الموحدة وفي اليد
المثلثة لا يعني بالضرب مثلثاً ، ذلك انه في فئتين التقتا ، وعدوتين لغير
مودة اعتنقتا ، وان هذه النصره إن زويت عن ملائكة الله جمعت
كراماتهم . وإن زويت عن البشر فقد عرفت قبلها مقاماتهم ، فما كان
سيف يتليقظ من جفنه قبل ان ينبه الصريح ، ولا كان ضرب يطير
الهام قبل ضرب يراه الناظر ويسمعه المصيح ، فكم قرية كأنها هجرة
الموت وبها التاريخ ، وكم طعنة تخر لها هضاب الحديد ولها شماريخ .
والحمد لله الذي أعاد الإسلام جديداً ثوبه ، بعد ان كان جديداً
حبلة ^(١) ، مبيضاً نصره ، مخضراً نصره ، متمسماً فضله ، مجتمعا شمله .
والخادم يشرح من نبأ هذا الفتح العظيم والنصر الكريم ما يشرح صدور

(١) جديداً حبلة : مقطوعاً حبلة .

المؤمنين ، ويمنح الجبور لكافة المسلمين ، ويكرر البشرى بما انعم الله به من يوم الخميس الثالث والعشرين من ربيع الآخر إلى يوم الخميس منسلخة وتلك سبع ليال وثمانية أيام حسوماً سخرها الله على الكفار ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية (١) ، ورايتها إلى الإسلام ضاحكة كما كانت من الكفر باكية . فيوم الخميس الأول فتحت طبرية وفاض ري النصر من بحيرتها ، وقضت على جسرهما الفرنج فقضت نحبها بخيرتها . وفي يوم الجمعة والسبت كسر الفرنج الكسرة التي مالهـم بعدها قائمة واخذ الله اعداءه بأيدي اوليائه اخذ القرى وهي ظالمة ؛ وفي يوم الخميس منسلخ الشهر فتحت عكا بالأمان ورفعت بها أعلام الإيمان ، وهي أم البلاد وأخت إرم ذات العماد ، وقد أصبحت كأن لم تغن بالكفر ، وكأن لم تغتفر من الإسلام .

وقد أصدر هذه المطالعة وصليب الصليبوت مأسور ، وقلب ملك الكفر الأسير جيشه المكسور مكسور ، والحديد الكافر الذي كان في الكفر يضرب وجه الإسلام قد صار حديداً مسلماً يفرق خطوات الكفر عن الاقدام ، وأنصاره الصليب وكباره ، وكل من المعمودية عمدته والدير داره ، قد أحاطت به يد القبضة ، وأخذ رهناً فلا تقبل فيه القناطير. المقنطرة من الذهب والفضة . وطبرية قد رفعت أعلام الإسلام عليها ؛ ونكصت من عكاملة الكفر على عقبها ، وعمرت إلى أن شهدت يوم الإسلام وهو خير يومها . بل ليس من أيام الكفر يوم فيه خير . وقد غسيل عن بلاد الإسلام بدماء الشرك ما كان يتخللها فلا ضرر ولا ضرر ، وقد صارت البيع مساجدهم بها من آمن بالله واليوم الآخر ،

(١) سورة الحاقة الآية ٧ .

وصلت المناحر مواقف لخطباء المنابر ، وامتزت أرضها لوقوف المسلمين فيها وطالما ارتجت لمواقف الكافر . والبأس الإمامي الناصري قد أمضى مشكاته على يد الخادم حق بالدني من الكنائس ، وإن عز أول الإسلام بحط تاج فارس ، فكم حطت سيوفه في هذا اليوم من تاج خلتس .

فأما القتلى والأسارى فإنها تزيد على ثلاثين ألفاً .

وأما الفرسان الديوية والاستبارية فقد أمضى الله حكمه فيهم وقطع بهم سيوف نار الجحيم ، ووصل الراحل منهم إلى الشقاء المقيم ، وفك بأفرنس (١) كافر الكفار ومشيد النار ، من يده في الإسلام كما كانت يد الكلم ، وافترت النصره عن ثغر عكا بحمد الله الذي يسر فتحها ، وتسلمتها الملة الإسلامية بالأمان ، وعرفت في هذه الصفقة ربها . وأما طبرية فأفترتها يد الحرب فأفترت الحرب جرحها .

فالحمد لله حمداً لاتضرب عليه الحدود ، ولا تزكى بأزكى منه العقود ، وكأنه بالبيت المقدس وقد دعا الأقصى من أقصاه ، وبلغ الله فيه الأمل الذي علم أن يحصيه وأحاط بأجله وأقصاه ، لكل أجل كتاب . وأجل العدو هذه الكتائب الجامعية ، ولكل عمل ثواب ، وثواب من هدي لطاعته جنات نعيمه الواسعة ، والله المشكور على ما وهب ، والمسؤول في إدامة ما استيقظ من جد الإسلام وهب .

وقد توجه من بجانبه الأمير رشيد الدين ، دام تأييده ، في إهداء هذه البشرية نيابة عن الخادم ، ووصف ما يسهه الله لأوليائه من العزائم .

(١) المقصود بأفرنس كافر الكفار أرفاط (أرولد) صاحب حصن الكرك الذي قتله صلاح الدين بيده بعد معركة حطين مباشرة .

والبلاد والمعاقل التي فتحت هي : طبرية ، عكا ، الناصرة ، صفورية ،
قيسارية ، نابلس ، حيفا ، معلية ، القزلة ، الطور ، الشقيف ، وقلاع بين هذه
كثيرة .

والولد المظفر تقي الدين بصور وحصن تبنين ، والأخ العادل سيف
الدين ، نصره الله ، قد أوفت بالوصول من عنده من عنده من المسامر
فينزل في طريقه إلى غزة وعسقلان . ويجهز مراكب الأسطول المنصور
ويكثر عددها ، ويسير بها إلى قعر عكا المحروس ، ويشحنها بالرجال
ويوفر سلاحها وعددها . والنهوض إلى القدس فهذا أوان فتحه ، ولقد
دام عليه ليل الضلال ، وقد آن أن يستقر فيه الهدى مشكور الإحسان
إن شاء الله تعالى (١) .

صبح الأعشى للقلقشندي ج ١٧٦ - ٥٢٠

٥١ - مقتطفات من رسالة أرسلها صلاح الدين إلى الخليفة العباسي
الناصر لدين الله صحبة رسوله إليه ضياء الدين المشهور زوري مبشراً
بفتح القدس . والرسالة من إنشاء العماد الأصفهاني الكاتب .
... وقد سبقت البشائر بما من الله به من الفتح العظيم ، والنصر
المميم ، والترف الجسم ، والفضل الوسيم ، واليوم الأغر الأعز الكريم ،
والشرف الذي ذخره الله لهذا العصر ليفضله على الأعصار ، وأراد تأخير
فخاره إلى هذه الأيام ليكون بها تاريخ الفخار ، فقد أعجز الملوك عن
اقتضاء نصرته وإقتضاض عذرتة ، وخص من أجراه على يده بسمو قدره

(١) يذكر القلقشندي أن هذه رسالة صلاح الدين إلى الخليفة بفتح القدس ، وليس
الامر كذلك لأن ختامها يذكر أوان النهوض إلى القدس : فهي وصف للمعارك التي سبقت
وأعقب حطين وتكاد تكون صورة طبق الأصل عن الوثيقة رقم ٤٧ في هذا الكتاب .

ونفو قدرته ، وأعاد به القدس إلى قدسه . وأظهره وطهره من رجس الكفر ورجسه ، وقد رجع الإسلام الغريب منه إلى داره ، وخرج قمر الهدى به من سراه ، وذهبت ظلم الضلالة بأنواره ، وعادت الأرض المقدسة إلى ما كانت موصوفة من التقديس ، وأمنت الخواف فيها وبها فصارت صباح السرى ومناخ التعريس ، وقد أقصى عن المسجد الأقصى الأقصى الأقصون من الله الأبعدون ، وتوافد إليه المصطفون الأقربون والملائكة المقربون ، وخرس الناقوس بزجل المسبحين ، وخرج المفسدون بـدخول المصلحين .

وقال المهراب لأهله مرحباً وأهلاً ، وشمل جماعة المسلمين من إقامة الجمعة والجماعة ما جمع للإسلام به شمل . ورفعت الأعلام العباسية على منبره فأخذت من بره أوفى نصيب ، وتلت بالسنة عليها : نصر من الله وفتح قريب^(١) . وغسلت الصخرة المباركة بدموع المتقين من دنس المشركين . وبُعد أهل الأعداء من قربها بقرب الموحدين ، فذكر بها ما كاد يلسى من عهد المعراج النبوي ، وقامت بدلالاتها براهين الإعجاز الحمدي ، وصافحت الأيدي منها موضع القدم ، وتجدد لها من البهجة والرسالة ما كان لها من القدم .

فهو ثاني المسجدين بل ثالث الحرمين ، فليهن البيت الحرام خلاص أخيه البيت المقدس من الأسر ، واسفار صبح الإسلام بعد طول اعتسار ليل الكفر ، وتطهير مواقف الانبياء - صلوات الله عليهم - من أدناس الارجاس ، وقضوع أرج الرجاء في أرجائه بعد اليأس .

(١) سورة الصف الآية ١٣ .

فالحمد لله الذي أبدل الإيماء بالإيمان ، ونزع عنه بإفاضة خلع الرحمة عليه لباس البأس وجعل عصر مولانا أمير المؤمنين - صلوات الله عليه - على الأعصر مفضلاً ، وكمل بهذا الفتح الشريف شرف زمانه فأصبح فخر الدين والدنيا به مكماً ، ويسر ببركات أيامه فتح البلاد الساحلية بأسرها ، وعجل هلاك هذه الطائفة الطاغية من الفرنج بقتلها وأسرها ، ولقد حل الكفر عروة عروة وهُدُ ذروة ذروة ، وعادت حباله رثاً وعقوده أنكثاً ومساكنه أجدثاً ، وصار حديثاً بعد أن شوهه أهل الذمة أحداثاً .

فالرتاج مستفتح والرجاء مستنجد ، والبلاد مستخلصة ، والقيم الغوالي منها بسوم العوالي مسترخصة ، والمقاتل مفتضة والمعاقل منقضة ، ومناهل المني بيماء النجاح مرفضة ، ونجوم الرجوم على شياطين الكفر بسيوف أهل الايمان منقضة ، والثغور مبتسمة ، والأمر منتظمة ، والحصون متسلمة والخصوم مذعنة مستسلمة ، وأرض الكفر ينقصها الإسلام كل يوم من أطرافها ، بل يستولي على أوساطها وأكتافها ، ويعيد إلى الطاعة كرهاً مذهب خلافها ، ولقد أينع زرعها وثمرها من رؤوس المشركين . وهذا أوان حصادها وقطافها ، والنعمة بحمد الله عظيمة ، والموهبة ، وإن خصت بهذا الإقليم ، فهي في جميع أقاليم المسلمين عيمة .

ولو شرح ما لهذا الفتح من جلالة العظمة ودلالة المكرمة ، لكبا قلم البليغ في مضمار البيان ولم يبلغ مدى : قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مداداً^(١) . والقاضي ضياء الدين القاسم الشهرزوري قد توجه لهذا النعمة واصفاً ، وعندما يؤمر به من إنهاء البشرى بها واقفاً ، وأولى من وصف العرف من كان بأوصافه

(١) سورة الكهف الآية ١٠٩ .

عارفاً ، وأحق من شرح الحق والحقيقة من تفي بشرح الصدور ومصادر شرحه ،
ويفتح على الإسلام أبواب الهناء بانها ما تسنى من فتحه ، ويحدث ، وهو
الضياء بإسفار صبحه .

الفتح القسي للعماد الأصفهاني - ١٤٧ - ١٤٩

٥٢ - رسالة أرسلها صلاح الدين إلى أخيه حاكم اليمن سيف الإسلام
ظهر الدين طغتكين يبشروه بتحرير القدس ، وهي من إنشاء العماد
الأصفهاني

صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس السامي - ضاعف الله علاءه وظاهر آلاءه
وضافر نعماءه ، وأظفر بالنجح رجاءه ، وأضعف حساده وأعز أوليائه
وأذل أعداءه ، ولا زالت أيامه بالأيام مسفرة ، ولياليه بالمجالس مقمرة ،
ومسكارمه بالمحامد مثمرة ، وعهود مواليه بشكر النعم محكة ، ومعااهد
معادية بقهر النقم مقفرة - دالة على البشرى بالفتح الأكبر والنجح الأزهر
والنصر الأشهر والمصر الأبهى والفضل الأكثر ، والافضال الأوفر واليوم
الأنور ، واليمن الأنضر والفجر الأسفر والفخر الأظهر ، والجد الأشم
الأشمخ ، والمجد الأبلج الأبلخ (١) ، والمز الأسحق الأسى ، والنور الأتم
الأغنى والأظفر الأجل الأجل والوطر الأحل الأحلى والشرف الأسنم الأسنى
والمفرم الأغنم الأغنى ، والسعد الأجدر الأجدى ، والصيت الأبدى
الأبدى .

وهو الفتح الذي تفوح بمحابه مهاب الفتوح ، وتبوح بسر روحه
وملكه سرائر الملائكة والروح ، وتروح وتغدو عوادي النعم وروائحها

(١) المجد الأبلخ : المجد العظيم المتكبر أي المجد الذي يدعو الى الكبرياء .

إلى روض الهدى المروح ، وتلوح تباشير بشرائه في لوح الدهر لكل مؤمن يتلقاها بالوجه السافر والصدور المشروح ، وتنوح ناعية الكفر في كل ناحية ، ولكل نادية للأسى على قتلها وأسيرها ندوب في القلب المقروح .

وهو فتح بيت المقدس الذي غلق نيفاً وتسعين سنة مع الكفر رهنة ، وطال في أسره سجنه ، واستحكم وهنه وقوي نكسه وضعف ركنه وزاد حزنه وزال حسنه . وأجدبت من الهدى أرضه وأخلف مزنه ، وواصله خوفه وفارقه أمنه ، واشتغل خاطر الإسلام بسببه وساء ظنه ، وذكر فيه الواحد الأحد الذي تعالى عن الولد ، أن المسيح ابنه ، وأربع فيه التثليث فمز صليبه وصلبه ، وأفرد عنه التوحيد فكاد يخفى متنه .

ودرج الملوك الأقدمون على تمني استنفاذه ، فأبى الشيطان غير استيلائه واستعواذه ، وكان في الغيب الإلهي أن معاده في الآخرة إلى معاده ، وأن نفاذ ليل الشوك بإسفار صبح أمرنا وإشراق مطالع نفاذه ، ودخر الله هذه الفضيلة لنا ولهذا العصر ، وأنزل على نصلنا نص النصر ، وأطلع الليل عزمنا فجر الفخر ، ووقفنا لوصول أسباب الإسلام وقطع دابر الكفر .

وذلك أنا استفتحنا سنة ثلاث وثمانين بقمع أهل التثليث ، وأصرحنا الإسلام بالجد المنجد والعزم المغيث ، وخرجنا من دمشق في الحرم ، في العزم المصمم والرعب المجهز إلى الكفر والبأس المقدم .

وكنا اشفقنا على طريق الحج من قصد الفرنج فشغلناهم عن القصد بقصدهم ، وقصدينا لجهادهم بردم عن المراد وصدم ، وأقننا بظاهر بصرى تخمين على سمت الكرك ، وقدمنا الطلائع إلى المناهل ، ونظمنا سلك إمدادهم في ذلك المسلك حتى وصل الحاج سالماً ، وذل الكفر عن قصده راغماً .

ولما فرغ القلب من شغله ، وفاز كلٌ يجمع شمله بأمله ، سرنا إلى الكرك
في الأمراء والمفردين الخواص ، وشفعنا للجهاد في سبل الله الفاتحة بالإخلاص ،
وقد كنا استدعينا العساكر والجموع للجهاد من جميع الجهات ، وترقبنا
توافيهم بالمقات ، وأمرنا ولدنا الملك الأفضل أن يقيم برأس الماء ، ويكون
بخدمته جميع الأفراد ، وسرنا إلى الكرك والشوبك فأخربنا عماراتها وأحرقنا
غلاتها وقطعنا ثمراتها وأزعجنا ساكنيها وأخفنا آمنها ، وأجلينا عنها فلاحها ،
وأقمنا النوائج عليها في نواحيها .

ووصل البنا ، ونحن بالقريتين ، العسكر المستدعى من الديار المصرية ،
فقويت به قلوب الأمة الحمدية ، واجتمع بالخيم الأفضل برأس الماء ، من
وصل من العساكر الشامية والفراتية والجزرية والموصلية ، والديار بكريه ،
فانتهز ولدنا هناك فرصة الإمكان ، وأنهض إلى الكفر سرية سرية (١) من
أهل الإيمان ، فساروا سارين وأغاروا غارين وأخذوا ونهبوا وسبوا وسلبوا ،
فلم يشعروا إلا وجوع الكفر قد سدت عليهم الطريق ، وأخذت دون خروجهم
إلى السعة المضيق ، فثبتوا ثبوت الجبال بالرياح العواصف وشرعوا إلى عرانين
الكفر أسنة الرماح القواصف .

وكان مقدم عسكرنا (٢) ، ومعه مملوكنا (٣) فلقيا بصدرها صدور العوامل ،
وحملوا في عسكرنا على الفارس والراجل ، وحصل الفرنج منهم في دائرة
الردى ، وخذل الضلال ونصر الهدى ، وكثر من الفرنج القتلى والأسرى ،
وعاد المسلمون بالمسرة العظمى والمبرة الكبرى . واتصلت بنا ونحن في

(١) السرية الثانية صفة للسرية الأولى والمعنى السرية الكريمة ذات المروءة والأصل .

(٢) مقدم العسكر هو مظفر الدين بن زين الدين .

(٣) المملوك هو قايماز النجمي صارم الدين .

بلاد الكرك البشرى ، وشكرنا الله على نصرته الأولى ، وقلنا هذه مقدمة الأخرى .

ولما قضينا الوطر في تلك البلاد ، ووفينا بإحراق أقوات أهل النار بالنار حق الجهاد ، اجتمعنا بأصحابنا القادمين من مصر ، وتناصرت لدينا دلائل الظهور وتظاهرت أمارات النصر ، وعدنا إلى الشام وقد تكاملت به جموع الإسلام ، وزخر بحر الفضاء بأمواج الأعلام ، وطفأ على أثباج^(١) لجة حباب الخيام ، وقد قضى الفضاء ختام القتال ، وعلق بالفلق من ذلك الفيلق غرام الرغام ، فخيمنا بعشرا شهراً ، وقد أعدنا بشهر نيات الغمود سرها جهرأ ، وخطبنا من الله الكريم فتح بكر جعلنا بذل المهج لها مهراً .

وقد سمع الفرنج يجمعنا فجمعوا ، ونادوا في بلادهم فاجتمعوا ، واجتمعوا على صفورية من صفر ، وحضروا في تلك الأشهر في جمعهم في المحشر جموع سقر ، وأخرجوا صليب الصليب وقائد أهل الجبوت ، فتهاقت إلى شعلة ناره فراشهم ، وتوافى إلى ظلة ضلاله خشاشهم ، وقاموا وقيامه رعيهم قائمة ، وسوابج جردهم في بحر المعجاج عائمة ، وطلائعهم سارية وسرايهم طالعة ، ومقدمات رغبتهم منا السائرة لجنوبهم وقلوبهم مقضة خالعة .

فلما تكامل منا الجمع ، وأخذ بعجاجه وعجيجه على الآفاق البصر والسمع ، وعرضنا عساكرنا في يوم يذكر بيوم العرض ، ويتلو مشاهده لنزل الملائكة : والله جنود السموات والأرض^(٢) في ريات خافقة كقلوب الأعداء ، عالية كهيم الأولياء ، وسرنا في جموع ضاق بها واسع الفضاء ، وسار في كنائنها نازل القضاء ، وسحب ذيل الأرض بشار تقعها على السماء ، وقطعنا الأردن

(١) أثباج جمع ثبج وهو أعل الشيء أو معظمه أو وسطه .

(٢) سورة الفتح الآية ٧ .

وتأييد الله مواصل ، وقدره بأقدارنا على الأعداء كافل ، فما الممنا بطبرية
حق فتحناها بالسيف ، ودخلناها دخول المغير لادخول الضيف ، وتسلمنا
المدينة ونازلنا قلعته البكر الحصينة ، وذلك يوم الخميس الثالث والعشرين
من شهر ربيع الآخر . والخميس يوم الخميس (١) . وأسد الوغى قد
اتخذت من وشيجها العريس .

هذا والملك العادل عنا غائب ، ومعه أيضاً بصر كتاب ، وتوفيق
الله له مصاحب . وكنا عزمنا قبل قصد طبرية أن نلاقي الفرنج على
صفورية في مركزهم ومجتمعهم ، ونلابسهم في غيهم ، فحين نزلنا من الشفر
بالأقحوانة ، وتمكننا من الله بالاستتجاد والاستعانة ؛ ركبنا قبل قصد طبرية
إلى الفرنج في جمعهم ، وأشرفنا عليهم في موضعهم فما برحوا من مكانهم
ولا تحركوا برجالهم ولا فرسانهم .

وارتدنا في صحراء لوبية موضعاً للمصاف واسعاً وقضاء لمازق الجمع
جامعاً ، وبتنا هناك بأطلاب الأبطال ميمنة وميسرة ، ووجدنا بتأييد الله
أسباب الظهور ميسرة ، وجئنا في خواصنا والجاندارية ، ونزلنا في العدة
المجردة على طبرية ، وأخذ النقاويون ساعه النزول في النقب ، فصرع قائم
سورها للجانب ، ودخل الناس إليها ليلاً للنهب ، وكانت ليلة مدلهمة معتمة ،
وأرجاء المدينة مظلمة ، فاشعلوا وأوقدوا ، ودخلوا الدور وتفقدوا ما لم
يفقدوا .

وكانت بها حواصل من زفت وكتان علق بها النار ، فاحترقت تلك
المساكن والديار ، وتحصن أهلها بقلعتها وتمنعوا بمنعتها ، فأصبحنا على إحصرها
وسلكنا جدد الجد في أمرها : فجاءت رسل الأمراء أن الفرنج قد تحركت ،

(١) الخميس الثانية تعني الجيش العرمم الكثير العدد والمعد .

وانزعجت لكون عقيلتهم من طيرية تملكيت ، وأدركهم الندم كيف تركت
وما أدركت ، وأنها قد عبت جنودها ، وشبت وقودها ولبت فداء
جموعها ، وصبت عليها ماء دروعها وفاضت في غدران سوابغها السائرية ،
 وفاضت ببجلار سوابجها الأعوجية .

وإن جرم قد استمر ، وإن بحرهم قد زخر ، وأنهم قد أتوا في عددهم
وعديدهم وحدهم وحديدتهم ، وخيلهم ورجلهم ، وطلهم ووبلهم ، وفارسهم
وراجلهم وأحزاب ضلالهم وأبطال باطلهم ، وأنهم حين عرفوا استيلاءنا
على طيرية ، وسبقنا بفضيلة فتحهما البرية غاروا على العقيلة السبية ،
وأشعلت نخواتهم نار الحمية ، وساقوا [أنفسهم] إلى معترك الردى وملتقى
المنية .

ولما عرفنا قريبهم قصدنا حربهم ، وزحفنا إليهم وأشرفنا عليهم ، واللجب
الساري كالجلجل الراسي ، وقد أفاض الحديد من قلبه على الحجر القاسي ،
ولمعت بوارق بيارقه وراعت طوارق طوارقه وبرقت قوائس قوامصه ^(١) ،
وارتعدت فرائص فرائصه ، وأمكننت فرائص فرائسه ، وباح الحديد على
عوابسه بوساوسه ، وماجت بحار سلاجه ، واشتعلت نيران قواضيه ، وشدت
الأجادل ^(٢) دون صوار صوارمه ، وسدت بعرض أفواجه فجاج بخارمه ،
وقرنت الألفات بلاماته ، وظهر من حشره يوم الحشر بعلاماته ، فاغتنمنا
الفرصة في اللقاء ، وهجنا إلى الهيجاء . وأسرعت الأعنة وأسرعت الأسنة ،
ورفع النقع أوام الجو وأجاب الصدى دوي الدو ، وجال الجاليش وطار
السهم المريش ، وعصفت رياح السوابق ، واستعبرت عيون البوارق ، ولقيناهم

(١) القنس : أعل الرأس ، والقومص : الفرس ،

(٢) الأحادل : الدروع المحكمة ، وصوار : مائلة .

في عرمم عارم وبجر جارج وعوامل جوازم، وصواهل صلادم وضراغم ضوار.
وجوارح جوارج، وأسود قد اعتقلت أساود، وجياد قد حملت أجاود،
وسوابج قد أقلت بجوراً، وصقور قد ركبت صقوراً.

وأوقفناهم نهار يوم الجمعة وساكنهم لايتحرك، وبازلهم لايبرك، وصفهم
لاينفض، وجدارهم لاينقض. وبنيانهم مرصوص، وطائرهم عن الطيران
مخصوص (١)، حتى دخل الليل، وقر في الوادي ذلك السيل، وبات الفريقان
على تمبيتهما. وإجابه داعي الموت بتليبتها.

وأصبحنا يوم السبت، وأهل الأحد على حالهم لم يرموا موضع قتالهم،
وما زالت الحملات تتناوب، والأسلات (٢) تتواثب وتتشاب (٣)، والسواعد
بقرع الغلبا سواع، والرواعف في زرع الطلى رواع. والمنايا تن، والحنايا
تحن، والبيض قصفاح البيض صفاحها، والدكور لنتاج الحرب العوان بالفتح
البكر عند اللقاء لقاحها. والدوايل في أشاجع الشجعان ذواب، والصوارم
يحوامح النيران شواب، وضماير الغمود قد باحت بأسرارها، ونواظر
الجفون قد تخلت عن غرارها (٤).

ولما أحسوا بأسنا ومرار أمراسنا، والهجير يتلظى وقد وقد عليهم
بناره، والأوام يتوقد ولايتوقى إحراقهم بأواره، مالوا إلى طلب الماء،
وأخذوا طريق البحيرة للارتواء، فأخذنا قدامهم ووقفنا أمامهم، وجلأناهم
عن الورد، وألجأناهم إلى الردى بالرد، فاعتصموا بتل سطين وصرنا بهم
محيطين، وتحكمت فيهم قواضي القواضب، ونشبت من النشاب بهم نيوب

(١) مخصوص : ضعيف ريش الجناح،

(٢) الأسلات : الرماح.

(٣) تتشاب : تتوارد.

(٤) الغرار : القليل من النوم.

النواب ، وكان جمعهم نجراً وقد وقد ، فصب عليهم السيف نهراً فمخمد .
وفضوا بالفضاء وفرشوا بالمرء ، وعب ذأماء الدماء ، وعجت الفجاج بالقنلى
والأسراء .

وأسر الملك وأخوه ، والأبرنس الكركي ومؤازروه ، ووجوه الكفر
ومقدموه ، ومقدم الداوية وأعوانه ، وصاحب جبيل وأهياه ، وهنفرى بن
هنفرى وابن صاحب اسكندرونة وصاحت مرقية . ولم يفلت إلا ابن بازان
والقومص ، وتم لهما من الورطة المخلص ، وكان كلاهما ملهماً عند اللقاء بالقتال ،
وعند الفرار بالاحتياط ، فأما القومص فإنه لما مر بطرابلس أدركه الموت
في برجه المشيد ، ونقله القدر المميد إلى عذابه المؤبد . وذلك اليوم
أهل الجبروت ، وحيز صليب الصلبوت ، وبار وباد أولياء الطاغوت ،
وهلك عبدة الناسوت واللاهوت ، وملك عليهم القدر كتاب الأجل
الموقوت .

وقدما الأبرنس وضربنا رقبته وفاء بالنذر ، وعجلنا به إلى النار
مأوى أهل القدر ، وألقنا به الداوية والاستبارية ، وأدنا عليهم
صبراً كؤوس المنية ، وروينا ظماء الظبى من نجيمهم ، وقرينا سيد
الفلا من صريمهم ، وعدنا إلى طبرية فتسلنا قلعتها وحلنا عقدتها ،
وفرعنا ذروتها وافترعنا عذرتها .

ثم سرنا إلى عكا ففتحناها بالأمان ، وأعلننا بها شعار الإيمان ،
واستقرينا بعدها البلاد الساحلية من جبيل وحد طرابلس إلى الداروم ،
غير صور ، فإنها امتنعت بسورها ، ولم يبق في كأس الكفر غير
سورها ، ولأنها وجدت فسحة في أيام اشتغالنا بفتح أخواتها ، وكشفت
من عدد المحاصرة آلاتها . وكنا لما فتحنا عسقلان بدأنا بالنزول على

القدس ، وذلك يوم الجمعة ثالث عشر رجب ، فرجف بها قلب الكفر
ورجب ، وظن أهلها أنهم يمتصمون ، وأنهم من بأسنا يسلمون .
فنصبنا عليهم منجنيقات هدت أحجار السور أحجارها ، وآذن
ركوعها بسجود الأبراج في إجبارها ، ووقت الصخور بإصراخ الصخرة
وعثرت تلك القمل بإقالة مادام بها من العثرة ، وكشف النقب ونقب
الأسوار ، ورمت الجنادل جوانب ذلك الجدار ، وعلم الكفار لمن عقبى
الدار ، وأيقنوا بالقتل والإسار .

فخرج مقدموم متذللين بالإذعان ، مبتهلين في طلب الأمان ،
فأبيننا كل الإباء ، وإلا سفك الدماء من الرجال وسي الذراري والنساء
فخوفوا بقتل الأسراء وإخرااب العمران وهدم البنساء ، فأمناهم على
قطيعة موازية لأثمانهم لو أسروا أو سبوا ، فأمنوا أن يسلبوا وهم في
الحقيقة قد سلبوا ، ومن وفى منهم بالقطيعة خرج بحكم العتق ، ومن عجز
عن أدائه دخل تحت الرق .

وعاد الإسلام بإسلام البيت المقدس إلى تقديسه ، ورجع بنيانسه
التقوى إلى تأسيسه ، وزال ناموس ناقوسه ، وبطل بنص النصر قياس
قيسه ، وفتح باب الرحمة لأهلها ، ودخلت قبة الصخرة لفضلها ،
وبشرت الجباه بها مواضع سجودها ، وصافحت أيدي الأولياء آثار
القدم النبوية لتجديد عمودها ، وشوهد مقام المعراج وموطىء براقه ،
ورئي نور الإسراء ومطلع إشراقه .

ودنا المسجد الأقصى للراكن والساجد ، وامتلا ذلك الفضاء بالأتقياء
الأمجاد ، وطنت أوطانه بقراءة القرآن ورواية الحديث وذكر الدروس ،
وجليت هدى الهدى من الصخرة المقدسة جلوة العروس ، وزارها
شهر رمضان مضيفاً لها نهار صومها بالتسبيح وليل فطرها بالتراويج ،

وشفى الله بسقيا هذا الفتح ما كان دم القلوب لأجلها من تيار التباريح .
فالبيت الحرام مساوٍ للبيت المقدس ، مفدى منا كلامها من المهج
والأنفس بالأنفس ، وإنه المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال الرجال
ويضيّق عن وصف شرفها في حلبة البيان المجل ، وهو للحرمين ثالث
ولاتثليث في حرم توحيده ، فتجدد جدّ الإسلام بتجديده .

ولما فرغ البال من تدبيره ، وقضينا حق تقديسه وتطهيره ، صرنا
إلى صور ، وفازلناها بعسكرنا المنصور ، وفي صور سور الكفر وبقيته ،
وقد تحصن بسورها ومنعته شذمته ، وهي مدينة حصينة متوسطة في
البحر كأنها سفينة نصبنا عليها المنجنيقات فنكأت فيها ، وردت من
أعاليها وهدمت من مبانيها ، ولم يبق في جمعة الكفر سوى نشايها ،
وإن جمعت علينا فنصرة الله وعوائد تأييده لنا تؤذن باصحابها ، وإذا
تسلطناها تسلمنا - بإذن الله - كل بلد للفرنج باق ، وما لهم من عذاب
الله الواقع بهم واثق .

ثم رأينا أن حصار صور يطول ، وأن مسألة بيكار^(١) العسكر
فيها تعول ، وأن فتحها لا يفوت ، وله وقته الموعود ووعده الموقوت .
وكان العسكر قد ضجر ومل وأعيا وكل ، وقد دخل الشتاء وبرد
الهواء ، وجادت السماء ، وتواترت الأنواء ، وتواصلت الأنداء ، ولا بد من
استئناف جمع العساكر في أيام الربيع ، واستمداد النصر الذي يضم
لاستجداد الفتح شمل الجميع .

ورحلنا عنها بعد أن رتبنا حولها في الثغور المجاورة لها ، من
يديم شن الغارات عليها ، ويواظب على النهوض إليها ، وفسحنا لأجنادنا

(١) البيكار : كلمة فارسية معناها العام الحرب .

في الاستراحة مدة شهرين إلى النيروز ، فإن في تلك الأيام تتوفر
 العزائم على المبارزة والبروز ، وقد جرت المواعدة على المعاودة ،
 والمعاودة للمعاودة ، والمعاودة للمساعدة . فليس في الفرنج من يقاتل
 الآن على الخيل ، والنهار عليهم في إظلام الليل ، والعز متقلص الظل
 عنهم ، والذل ضافي الذيل ، وقد حذب حزبهم من حربنا مشير
 للحرب والويل . وقد اشتمل الفتح على البلاد المعينة والمعاقل المبنية
 وهي : طبرية ، عكا ، الزيب ، معليا ، اسكندرونة ، تبنين ،
 هونين ، الناصرة ، الطور ، صفورية ، الفولة ، جينين ، زرعين ،
 دبورية ، عفر بلا ، بيسان ، سمسطية ، نابلس ، اللجون ، ويحا ،
 سنجيل ، البيرة ، يافا ، أرسوف ، قيسارية ، حيفا ، صرغند ،
 صيداء ، قلعة أبي الحسن ، جبل جليل ، بيروت ، جليل ، مجدل يابا ،
 مجدل حباب ، الداروم ، غزة ، عسقلان ، قل الصافية ، التل الأحمر ،
 الأطرون ، بيت جبريل ، جبل الخليل ، بيت لحم ، لد ، الرملة ،
 قرتيا ، القدس ، صوبا ، هرمس ، السلع ، عفرا ، الشقيف ، ولم
 نذكر ماتخللها من القرى والضياع والأبراج الحصينة الجارية بحرى
 الحصون والقلاع .

ولكل واحدة من البلاد التي ذكرناها أعمال وقرى ومزارع وأماكن
 ومواضع ، وقد جاس المسلمون خلالها ، واسترعوا ثمارها وغلالها .
 وقد كنا عند قصدنا البلاد ، وعرضنا للجهاد الأجناد ، كاتبنا أخانا
 الملك العادل سيف الدين أن يدخل بالمساكر المصرية من ذلك الجانب ،
 وينتظر كتابنا بنصر هذه الكتائب ، فلما بشر بسكر الفرنج وفتح
 طبرية وعكا ، والظفر الذي أضحك الأولياء وأزعج الأعداء وأبكى ،

وتلي عليه ، قد أفلح المؤمنون (١) و : قد أفلح من تركى (٢) ، كان وصل إلى السودة في سواده وبياضه وبحار جيشه وبراضه (٣) ، وورد من مورد النصر إلى حياضه ، فجاش بيجوشه ، وحاز العريش بعريشه ، وزار دار الداروم بدورها ، وأجفلت قدامه البلاد في كل من اعتمد عليه بأمورها .

ووصل إلى يافا ففتحها عنوة ، وقال المسكر فيها بالنهب والسبأ حظوة ، ثم حضر مجدل يابا وحصرها ، وطلبت منه الأمان فأنظرها ، وكتبنا إليه بالإقامة في ذلك الجانب ، ماضي المزائم قاضي القواضب ، وأن يستفتح من البلاد ما يتمجل فتحه ، ويقدم من الرجاء ما يتييسر نجحه ، إلى أن نفتح ما في جانبنا من البلاد ونسلمه ، ونفتز فرصة الإمكان فيما نحن بصدده ونفتنمه .

وقد كنا أنهضتنا إلى كل بلد من الناصرة وصفورية وحيفا وقيسارية من يتولى افتتاحه ، ويستقبل من مهب النصر أرواحه ، فنصرهم الله على الناصرة وقيسارية قسراً ، وتسلمت البواقي سلماً ، ورأى من كان فيها سلامته غنماً ، ورضي بالغرم رغماً ، وتسلمنا نحن تبين وبسبوت بالأمان بعد أن قاتلنا أهلها قتلاً شديداً ألجأهم إلى الإذعان . فأما صيداء فإن صاحبها أذعن إلى التسليم بعد أن بات منا بليبه السليم . وأما جيبيل فقد سلمها صاحبها وخلص من الأسر ، ورأى ربح خلاصه فيما تعجله من الخسر .

وحينئذ سرنا واجتمعنا بالملك العادل في عسقلان ، وهما لنا كل

(١) سورة المؤمنون الآية ١ .

(٢) سورة الأعلى الآية ١٤ .

(٣) البراض جمع برض : وهو القليل والمعنى أنه وصل بكثير جيشه وقليله .

ما استصعب ودان ، وظهر لنا منها وجه الفتح وبان ، وأمكن كل
 ماتعذر واشتد ولان ، وزاحنا مناكب أبراجها من المنجنقيات بناكب ،
 وأصبنا فوائدها لما رميناها بمصائب ، وأصبينا مقاتل الأسوار بسهام
 قسيها ، وهاقبناها بجبالها وعصيا ، واقتدنا بجرائم الكره أنف الطاعة من
 عصيا ، وهافحننا ببيض الصفائح يد الرضى من أيها ، وباشرت سهام المجانيق
 بسواكها ثنايا الشرفات فتمتها ، ونهضت أحجار الرماة إلى أحجار البناء
 فهدتها وهدمتها ، وغنى فيها معول النقاب فرقصت للاضطراب لا للإطراب ،
 وعادت الحجارة إلى أصلها من التراب .

ولما أيقن أهلها بالعطب ، لاذوا بالضراعة والطلب ، وخرجوا مسلمين
 مستسلمين ، وانقادوا مستكينين مذعنين ، وأسلم البلد وأسلم ، وجدع أنف
 الكفر وأرغم ، وعاد منه الإيمان الغريب إلى وطنه ، وقر منه الإسلام
 القريب في مسكنه ، وعند ذلك تسلمنا غزة وأعدنا لإليها العزة .

وأتيننا على الرملة ولد والنطرون ، وفتحنا بيت جبريل وجبل الخليل
 وجميع تلك المعاقل والحصون .

ثم ختمنا فتوحات تلك السنة بفتح الأرض المقدسة ، والحمد لله على
 نعمه المفرجة للكروب وألطفه المنفسة . وقد جعطنا هذه البشارة القدسية
 بما هنأ الله من الموهبة السنية وسناه من المنحة الهنية لمملوكنا حسام الدين
 منقر الخلاطي ، وأمرناه أن يسير فيها من أصحابه من يقوم فيها بحق
 منابه . والمجلس السامي يشيع ميامنها ببلاد اليمن ، ويحلو عروسها البكر
 في حسنها الحلي وحليها الحسن ، ويشكر نعمة الله التي خصنا بها وعمت
 الأمة ، ويديم شكرها ، فإن دوام الشكر يديم النعمة . لازال المجلس

السامي مشكور الشئمة عالي الهمة منصور العزم إن شاء الله^(١).
الفتح القسي للعماد الأصفهاني ١٩٠ - ٢٠٢

٥٣ - أول خطبة ألقيت في المسجد الأقصى بعد تحريره

لما دخلت الجمعة الأولى بعد استرجاع القدس ، أصدر السلطان صلاح الدين مرسوماً يقضي بتكليف القاضي أبي الماعلي محمد بن علي بن زكي الدين الدمشقي أن يلقي الخطبة ، فألقى الخطبة التالية بحضور السلطان^(٢) .

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين ، أهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين^(٣) . فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين^(٤) . الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون^(٥) . وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الدن وكبره تكبيرا^(٦) . الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً^(٧) . قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون^(٨) . الحمد لله الذي له مافي السماوات ومافي الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير^(٩) .

(١) أورد ابن واصل في مفرج الكروب ج ٢ - ٢٤١ مقتطفات موجزة كل الإيجاز لهذه الرسالة .

(٢) لم يذكر ابن خلكان سوى مطالع الآيات فأتمناها نحن وذكر أن قصد الخطيب أن يأتي بجميع تحميدات القرآن الكريم .

(٣) سورة فاتحة الكتاب .

(٤) سورة الأنعام الآية ٤٥ .

(٥) سورة الأنعام الآية ١ .

(٦) سورة الإسراء الآية ١١١ .

(٧) سورة الكهف الآية ١ .

(٨) سورة النمل الآية ٥٩ .

(٩) سورة سبأ الآية ١ .

الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير (١) .
ثم شرع في الخطابة فقال :

الحمد لله معز الإسلام بنصره ، منذل الشرك ببقهره ، ومصرف الأمور بأمره ومدبج النعم يشكره ، ومستدرج الكفار بمكره ، الذي قدر الأيام دولاً بعمله ، وجعل العاقبة للمتقين بفضله ، وأفاء على عباده من ظله ، وأظهر دينه على الدين كله ، القاهر فوق عباده فلا يمانع ، والظاهر على خليفته فلا ينازع ، والأمر بما يشاء فلا يراجع ، والحاكم بما يريد فما يدافع ، أحمد على إظهاره وإظهاره ، وإعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره ، وتطهير بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره ، حميد من استشمر الحمد باطن سره وظاهر جهاره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد (٢) . شهادة من طهر بالتوحيد قلبه ، وأرضى به ربه ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله رافع الشك ومدحض الشرك وداحض الإفك ، الذي أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وعرج به منه إلى السماوات العللى سدره المنتهى ، عندها جنة المأوى مازاغ البصر وما طغى (٣) . صلى الله عليه وعلى خليفته أبى بكر الصديق السابق إلى الإيمان ، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفع عن هذا البيت شعار الصليبان ، وعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ذي النورين جامع القرآن ، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب منزلزل الشرك ومكسر الأوثان ، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان .

(١) سورة فاطر الآية ١ .

(٢) سورة الإخلاص الآية ٣-٤ .

(٣) سورة النجم الآية ١٧ .

أيها الناس : أبشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى والدرجة العليا ، لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة من الأمة الضالة ، وردّها إلى مقرها من الإسلام ، بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريباً من مائة عام ، وقطع هذا البيت الذي أذن الله أن يرفع ويذكر فيها اسمه .

وإمالة الشرك عن طريقه بعد أن امتد عليها رواقه ، واستقر فيها رسمه ورفع قواعده بالتوحيد . فانه بنى عليه ، وشيد بنيانه بالتمجيد ، فانه أسس على التقوى من خلفه ومن بين يديه . فهو موطن أبيكم إبراهيم ومعرج نبيكم محمد عليه الصلاة والسلام ، وقبلتكم التي كنتم تصلون إليها في ابتداء الإسلام ، وهو مقر الأنبياء ومقصد الأولياء ومدفن الرسل ومهبط الوحي ومنزل به ينزل الأمر والنهي ، وهو في أرض المحشر وصعيد المنشر ، وهو في الأرض المقدسة التي كتبها الله في كتابه المبين ، وهو المسجد الذي صلى فيه رسول الله ﷺ بالملائكة المقربين ، وهو البلد الذي بعث الله إليه عبده ورسوله وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروحها عيسى الذي أكرمه برسائله ، وشرفه بنبوته ، ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته . فقال تعالى : لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون (١) . كذب العادلون بالله وضلوا ضلالاً بعيداً . ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً ذهب كل إله إلا بهما خلق ولهما بعضهم على بعض . سبحان الله عما يصفون (٢) . لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم (٣) . وقال المسيح يابني

(١) سورة النساء الآية ١٧٢ .

(٢) سورة المؤمنون الآية ٩١ .

(٣) يذكر راري الخطبة ابن خلكان عند وصوله هنا أن الخطيب تابع ذكر الآيات المتعلقة بالمسيح من سورة المائدة حتى آخر تلك الآيات دون ذكرها فلما كملناها نحن

اسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ، لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم ^(١) . ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون ^(٢) .

وهو أول القبيلتين وثاني المسجدين وثالث الحرمين لانشد الرجال بعد المسجدين إلا إليه ، ولا تعمد الحناصر بعد الوطنين إلا عليه ، فلو لا أنكم من اختاره الله من عباده ، واصطفاه من سكان بلاده ، لما خصكم بهذه الفضيلة التي لا يحاربكم فيها مجار ولا يباريكم في شرفها مبار ، فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم من المعجزات النبوية ، والواقعات البدرية ، والعزمات الصديقية والفتوحات العمرية ، والجيوش العثمانية ، والفتكات العلوية ؛ جددتم للإسلام أيام القادسية ، والملاحم اليرموكية والمنازلات الخيبرية والهجمات الخالدية ، فجزاكم الله عن نبيه محمد ﷺ أفضل الجزاء وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم في مقارعة الأعداء ، وتقبل منكم ما تقر به إليه من إهراق الدماء ، وأثابكم الجنة فهي دار السعداء ، فاقدروا ، رحمكم الله ، هذه النعمة حق قدرها ، وقوموا لله تعالى بواجب شكرها ، فله المنة عليكم لتخصيصكم بهذه النعمة ، ومرشيعكم لهذه الخدمة . فهذا هو الفتح الذي فتحت له أبواب السماء ، وتبلجت بأنواره وجوه الظلماء ، وابتهج به الملائكة المقربون ، وقرء به عيناً الأنبياء والمرسلون ، فماذا

(١) سورة المائدة الآيتان ٧٢ و ٧٣ .

(٢) سورة المائدة الآية ٧٥ .

عليكم من النعمة أن جعلكم الجيش الذي يفتح على يديه بيت المقدس في آخر الزمان ، والجند الذي يقدم لسيوفهم بعد فترة من النبوة أعلام الإيمان، فيوشك أن يفتح الله على أيديكم أمثاله وأن يكون النهائي لأهل الخضراء أكثر من النهائي لأهل الغبراء. أليس هو البيت الذي ذكره الله في كتابه ونص عليه في محكم خطابه ، فقال تعالى : سبحانه الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ^(١) . أليس هو البيت الذي عظمته الملل ، وأثنت عليه الرسل ، وتليت فيه الكتب الأربعة المنزلة من الله عز وجل ، أليس هو البيت الذي أمسك الله تعالى لأجله الشمس على يوشع أن تغرب ، وباعد بين خطواتها ليتيسر فتحه ويقرب؟ أليس هو البيت الذي أمر الله عز وجل موسى أن يأمر قومه باستنقاذه فلم يحبه إلا رجلاًن ؟ وغضب الله عليهم لأجله فألقاهم في التيه عقوبة للعصيان . فاحمدوا الله الذي أمضى عزائمكم لما نكلت عنه بنو إسرائيل وقد فضلت على العالمين ، ووفقكم لما خذل فيه أمم كانت قبلكم من الأمم الماضين ، وجمع لأجله كلمتكم وكانت شق ، وأغناكم بما أمضته كان وقد عن سوف وحق . فليهنكم أن الله قد ذكركم به فيمن عنده ، وجعلكم بعد أن كنتم جنوداً لأهويتكم جنده ، وشكر لكم الملائكة المنزلون على ما أهديتهم لهذا البيت من طيب التوحيد ونشر التقديس والتمجيد ، وما أمطم عن طرقهم فيه من أذى الشرك والتثايل والاعتقاد الفاجر الخبيث ، فالآن يستغفر لكم أملاك السماوات وتصلي عليكم الصلوات المباركات . فاحفظوا ، رحمكم الله ، هذه الموهبة فيكم ، واحرسوا هذه النعمة عندكم بتقوى الله التي من تمسك بها سلم ،

(١) سورة الاسراء الآية ١ .

ومن اعتصم بعروتها نجا وعصم ، واحذروا من اتباع الهوى ومواقعة
الردى ورجوع القهقري ، والنكول عن العدا ، وخذوا في انتهاز
الفرصة وإزالة ما بقي من الغصة ، وجاهدوا في الله حق جهاده ،
وبيعوا ، عباد الله أنفسكم في رضاه إذ جعلكم من خير عباده ،
وإياكم أن يستزلكم الشيطان وأن يتداخلكم الطغيان فيمخيل لكم أن
هذا النصر بسيفوفكم الحداد وخيولكم الجياد ، ويحلاكم في موطن
الجلاد ، لا والله ما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم . فاحذروا
عباد الله - بعد أن شرفكم بهذا الفتح الجليل والمنح الجزيل
وخصكم بنصره المبين ، وأعلق أيديكم بحبله المتين - أن تقترفوا
كثيراً من مناهيه ، وأن تأتوا عظيماً من معاصيه فتكونوا كالتي نقضت
غزلها بعد قوة أنكاثاً ، وكالذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه
الشيطان فكان من الغاوين . والجهاد الجهاد فهو من أفضل عباداتكم
وأشرف عاداتكم ، وانصروا الله ينصركم واحفظوا الله يحفظكم ،
اذكروا الله يذكركم ، اشكروا الله يزدكم ويشكركم ، جدوا في حسم
الداء وقطع شأفة الأعداء ، وطهروا هذه الأرض من هذه الأنجاس التي
أغضبت الله ورسوله ، واقطعوا فروع الكفر واجتثوا أصوله ، فقد
نادت الأيام بالثارات الإسلامية والملة المحمدية . الله أكبر ، فتح الله
ونصر ، غلب الله وقهر ، وأذل الله من كفر . واعلموا ، رحمكم
الله ، أن هذه فرصة فانتزعوها ، وفريسة فناجزوها ، وغنيمة فحوزوها ،
ومهمة فأخرجوها لها همكم وأبرزوها ، وسيروا إليها سرايا عزما تكم
وجهزوها ، فالأمور بأواخرها ، والمكاسب بذخائرها ؛ فقد أظفركم
الله بهذا العدو الخدول ، وهم مثلكم أو يزيدون ، فكيف وقد
أضحق قبالة الواحد منهم منكم عشرون ؟ وقد قال الله تعالى : إن يكن

منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يعقلون (١) .

أعاننا الله وإياكم على اتباع أوامره والازدجار بزواجه ، وأيدنا معاشر المسلمين ، بنصر من عنده ؛ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده (٢) . إن أشرف مقال يقال في مقام ، وأنفذ سهام تترق عن قسي الكلام ، وأمضى قول تحمل به الأفهام قول الواحد الفرد العزيز العلام . قال الله تعالى : وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون (٣) . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم . سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم . هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأنهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار (٤) .

ثم قال :

آمركم وإياي بما أمر الله به من حسن الطاعة فأطيعوه ، وأنهاكم وإياي عما نهاكم عنه من قبح المعصية فلا تعصوه . وأستغفر الله العظيم لي ولكم ولجميع المسلمين فاستغفروه .

(١) سورة الأنفال الآية ٦٥ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٦٠ .

(٣) سورة الأعراف الآية ٢٠٤ .

(٤) سورة الحشر الآيتان ١ و ٢ . لم يذكر راوي الخطبة نص الآيتين وإنما ذكر أن الخطيب تلا أول الحشر فأثبتناها نحن هنا .

ثم خطب الخطبة الثانية على عادة الخطباء مختصرة ، ثم دعا للإمام الناصر خليفة العصر ، ثم قال :

اللهم وأدم سلطان عبدك الخاضع لهيبتك الشاكر لنعمتك المعترف بوهبتك ، سيفك القاطع ، وشهابك اللامع ، والمهامي عن دينك المدافع ، والذاب عن حرمك الممانع ، السيد الأجل الملك الناصر جامع كلمة الإيمان وقامع عبدة الصلبان صلاح الدنيا والدين ، سلطان الاسلام والمسلمين ، مطهر البيت المقدس أبي المظفر يوسف بن أيوب ، محيي دولة أمير المؤمنين . اللهم عم بدولته البسيطة ، واجعل ملائكتك براياته محيطة ، وأحسن عن الدين الحنيفي جزاءه ، وانشر في المشارق والمغارب دعوته . اللهم كما فتحت على يديه البيت المقدس بعد أن ظنت الظنون وإبتلى المؤمنون ، فافتح على يديه داني الأرض وقاصيها ، وملكه صياصي الكفر ونواصيها ، فلا تلقاه منهم كتيبة إلا فرقها ، ولا جماعة إلا فرقها ، ولا طائفة بعد طائفة إلا ألحقها بمن سبقها . اللهم اشكر عن محمد ﷺ سعيه ، وأنفذ في المشارق والمغارب أمره ونهيه اللهم واصلح به أوساط البلاد وأطرافها ، وأرجاء المملكة واكثافها . اللهم ذلل به معاطس الكفار ، وأرغم به انوف الفجار ، وانشر ذوائب ملكه على الأمصار ، واثبت سرايا جنوده في سبل الأقطار . اللهم أثبت الملك فيه وفي عقبه إلى يوم الدين ، واحفظه في بنيته وبني أبيه الملوك الميامين ، واشدد عضده ببقائهم ، واقض بإعزاز أوليائه وأوليائهم . اللهم كما أجريت على يده في الإسلام هذه الحسنة التي تبقى على الأيام ، وتتخلد على مر الشهور والأعوام فارزقه الملك الأبدي الذي لا ينفد في دار المتقين ، وأجب دعاءه في قوله : رب أوزعني أن

أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه ،
وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين^(١) .
ثم دعا بما جرت به العادة ^(٢) .
وتوفي القاضي سنة ٥٨٩ هـ .

توقيعات الأعيان لابن خلكان ج ٣ - ٣٦٥ - ٣٧١

٥٤ - فصل من رسالة أرسلها صلاح الدين إلى أخيه سيف الدين
طلعتكين ملك اليمن يبشره بفتح اللدقية .

وهذه اللدقية مدينة واسعة وخطة جامعة ، معاقلمها لاترام ،
وأعلاقها لاتستام ، وهي أحسن بلاد الساحل وأحصنها ، وأزيدها أعمالاً
وضياعاً وأزيتها ، ومافي البحر مثل مبنها ، وللمراكب الواردة إليها
مثل مرساها ، وهي جنة كان يسكنها أهل الجحيم ، وطالما مكثت
بالكفر دار بؤس فعادت بالإسلام دار نعيم .

مفرج الكروب لابن واصل ج ٢ - ٢٦٠

٥٥ - رسالة القاضي الفاضل إلى صلاح الدين يهنئه بفتحه حصن
برزيه سنة ٥٨٣ هـ وكان يحمي أقالمية .

وصلت كتب البشارة بفتح حصن برزية ، وهو الذي تضرب به
الأمثال ، وتعزب عنه الآمال ، ويكاد يحزن إذا قادت أيدي السلاسل
أزمة الجبال ، ويكاد يذم ساكنيه من خطرات الأوجال بل من خطوات

(١) سورة النمل الآية ١٩ .

(٢) ذكر كل من اليافعي في «مرآة الجنان» ج ٣ ، ٣٧٥-٣٧٧ وابن واصل في

«مفرج الكروب» ج ٢ ، ٢١٩-٢٢٧ وأبي شامة في «كتاب الروضتين» ج ٢ ، ١١٠

- ١١٢ نصراً تتقارب مع نصنا أعلاه وإن كان نصنا أكمل وأوضح .

الآجال ، وكان للكفر درعاً حصينة طالما كانت تنزأ بالنصال ، فعمطت المنة السلطانية عند أهل الإسلام ، ودعوا بأن يفلج الله حجة سيفه ألد الخصام . وقد كان الناس يعدون مواهبته بما لا يحصى ، فقد تحققت بها فتوحاته فهي أيضاً لا تحصر ، فرحباً بفتوح يقول غائبها الحمد لله ، وحاضرها الله أكبر . وما بقي المملوك يستبطيء خبر أنطاكية فقد ألفت الأرض أفلاذها ، وقد ولدت لكرمه ذهبها ، ولنصره فولاذها ، ولم تر في نعم الله مثلها نعمة كريمة وجيبة ، ولا نعرف بعدها للزمن سيئة ولا كريمة . إلا أنا نرجع في معرفة قدرها وإخلاص شكرها إلى مريضه الله شكراً ممن نجاه من أهوال يوم القيامة ، وأدخله دار المقامة بأنهم قالوا : الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن (١) . الحمد لله الذي صدقنا وعده (٢) . الحمد لله الذي هدانا لهذا (٣) ، وكان آخر دعوانم أن الحمد لله رب العالمين (٤) فرضي بالحمد منهم ورضي عنهم وأثنى عليهم بأنهم اختتموا به وافتتحوا ، وقدسوا به وسبحوا ، وثقلت به موازين أعمالهم فرجحوا ونجحوا . ونحن نقول : الحمد لله على بهجة الدنيا ؛ ولانا ونصرتها ، وعلى عزة الملة به ونصرتها ، وعلى بهجة القلوب به ومسررتها ، وعلى غنى الأيدي به وميرتها ، وعلى روعة قلوب الأعداء وحسرتها ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها . وفتوح مولانا من تلك النعم وإن قصصنا في شكرها فما نقصر في ذكرها ، وإن عجزنا عن حصرها فما نعجز عن المعرفة بفضل قدرها ، وتلك

(١) سورة فاطر الآية ٣٤ .

(٢) سورة الزمر الآية ٧٤ .

(٣) سورة الأعراف الآية ٤٣ .

(٤) سورة بونس الآية ١٠ .

النعم ، بحمد الله منتظمة العقود ومطرودة السعود متوافية الرسل عامرة
السبل ، خارقة العوائد ، قارئة المساعي بالمساعد ، كادت العيون
قبل وقوعها تلحظها ، وكادت المنابر لما يدرس عليها من كتبها تحفظها
فما يشرح صدر من خبرها فيسمعه ذو صدر إلا انشرح ، وما يسأل
الناس هل فتح الملك الناصر ؟ وإنما يقال ما اسم البلد الذي فتح .
فمن عند مولانا الجنان ومن عندنا اللسان ، وعليه الجهد وعلينا الحمد ،
فهني فتوح كثرات الجنة لامقطوعة ولامنوعة ، وأعمالها المبرورة إلى
الله مرفوعة .

كتاب الروضتين لأبي شامة ج ١٣١٢ - ١٣٢

٥٦ - بشاره أرسلها صلاح الدين إلى بعض الأمراء بفتح حصن
برزية من إنشاء العباد الأصفهاني .

إن هذه البشري ، بما أجده الله من الفتح العزيز والنصر الوجيز ،
بفتح حصن برزية الذي برزت له الأرض في قشب أبوابها ، وتفتحت
له السماء لتتنزل الملائكة من أبوابها ، بل سمرت به عرائس الأيام في
في حل أيامنها ، وأشرقت منه أقمار الليالي في أنوار محاسنها . وهذا
الحصن لا يمكن وصف ما هو عليه من الحصانة ، وكان حججه في حجر
حصن للحضانة ، وقد عرف ما فتحناه من البلاد والحصون ، وسلبنا
أهل الكفر بها من السلامة والسكون ، وفتحنا كل مرتج لم يكن
فتحته مرتجى ، ولم يجد من حصل في أسر الدهر به مخرجاً ، حتى
أقت أيامنا ، ودانى فيه مرامنا فجاء عصرنا وفجأ أمرنا ، ووصل
إلينا ما هو في الأزل ذخراً ، وكمل بهذه الفتوحات فخراً .

وذلك أننا فتحنا من حدود طرابلس إلى حد أنطاكية ، وسقينا

بماء الحديد الجاري في أنهار دم أهل النار مغارس الهدى الزاكية ،
وجلونا بها ثغور الثغور الضاحكة وعيون العدو الباكية . وهذه الحصون التي
فتحنها والمعقل التي استبحناها ، لوكلنا الله إلى اجتهدنا في فتح أحدها
لتعذر ، ولو أنجحت عساكر الدنيا بمددها ، ولكن الله سهل ويسر
وفتح ونصر وأزل الظفر . وإن حصن برزية لم يكن عليه قتال
ولا ألوم فيه مجال ، ولا منصب عليه لمنجنيق ، ولا مسلك إليه
لسالك طريق .

وحضرنا لحصره ، متوكلين على الله في أمره ، غير طامعين في فتحه
ولاراجين لنجحه ، فالقاد جناحه ، وانخفض جناحه وساء صباحه
وكل سلاحه ؛ وتوكل (١) الرجال في ذروته توكل النجوم في الأفلاك ،
ونصر الله أهل التوحيد على أهل الإشراك ، وفتحناه بالسيف عنوة ،
ودجا يوم المثلث عليه يوم الثلاثاء ضحوة . فإننا لما توكلنا على الله في
منازلته واستعنا به في مقاتلته ، ونظر الله إلى النيات وأعان ذوي
العزائم والثبات ، فتملقوا في الجبل وتسلقوا إلى القل ، وسعوا إلى
الأجل في طلب تسني الأمل ، فكان كما قال الله تعالى : وما أمرنا
إلا واحدة كلمح بالبصر (٢) ؛ حق من الله بالظفر ، وأصفى الورد
والصدر من الكدر .

وقد بقيت أنطاكية ، وما لها بقاء ، ولها في الاعتصام رجاء ، وقد
نقضنا أطرافها واستبحنا أكنافها ، وشفها نطافها ، وعضدنا من رؤوس
أهلها بحدود الصوارم قطافها ، ولم يبق من معاقلها إلا القصير ودربسك
وبغراس ، وقد تقدم إليها الفاتحان الرعب واليأس .

الفتح القسي للعماد الأصفهاني ٢٥٢ - ٢٥٣

(١) توكل في الجبل : صمد فيه .

(٢) سورة القمر الآية ٥٠ .

٥٧ - رسالة صلاح الدين إلى الخليفة العباسي يبشره بفتح حصون الكرك وشوبك وصفد وكوكب من إنشاء العباد الاصفهاني :

... وقد خلص لنا جميع مملكة القدس وحدها في سمت مصر من العريش وعلى صوب الحجاز من الكرك والشوبك ، ويشتمل على البلاد الساحلية إلى منتهى أعمال بيروت ، ولم يبق من هذه المملكة إلا صور ، وفتح أيضاً جميع أعمال أنطاكية ومعاقلها التي للفرنج والأرمن ، وحده من أقصى أعمال جبلة واللاذقية إلى بلد ابن لاون ، وبقيت أنطاكية بفردما ، والقصير من حصونها ، ولم يبق من البلاد التي لم تفتح أعمالها ولم تجل عما كانت عليه سوى طرابلس ، فإنها لم يفتح فيها إلا مدينة جبيل ، فقد سحبت عليها المهلة الذيل ، ومعاقلها باقية وليس لها من عذاب الله واقية .

والخادم الآن على التوجه إليها وعزم النزول عليها ، وإنه قدرتب الجانب القبلي والبلد المقدس ، وشعن الثغور من حد جبيل إلى عقلا بالرجال والآلات والعُدَد والعَدَد المتواصل المدد ، ورتب فيها ولده الأفضل علياً لحمايتها وحفظ ولايتها ، وقلد ولده العزيز عثمان ولاية مصر ومملكة أقاليمها لتهديب أحوالها وتقويمها .

مفرج الكروب لابن واصل ج ٢ ٢٧٥ - ٢٧٦

٥٨ - رسالة صلاح الدين إلى أخيه سيف الإسلام ملك اليمن يبشره بفتح كوكب وصفد والكرك سنة ٥٨٤ هـ ويستمدد المساعدة ضد الصليبيين الذين تجمعوا حول عكا ، والرسالة من إنشاء القاضي الفاضل

أصدرنا هذه المكتوبة إلى المجلس ، وبما تجدد بمحضرتنا فتوح كوكب ، وهي كرمي الاستبارية ودار كفرهم ومستقر صاحب أمرهم وموضع سلاحهم

الوفاقي - ١٢

ما ذخرم ، وكان يجمع الطرق قاعداً ، ولملتقى السبل راصداً ، فتعلقت بفتحها بلاد الفتح واستوطنت ، وسلكت الطرق فيها وأمنت ، وعمرت بلادها وسكنت ، ولم يبق في هذا الجانب إلا صور ، ولولا أن البحر ينجدها والمراكب ترددها لكان قيادها قد أمكن وجماحها قد أذعن ، ومأم بحمد الله في حصن يحمهم ، بل في سجن يحويهم . بل هم أسارى وإن كانوا طلقاء ، وأموات وإن كانوا أحياء .

قال الله عز وجل : فلا تمجّل عليهم إنما نعد لهم عداً^(١) . ولكل امرئ أجل لا بد أن يصدقه غائبه ، وأمل لا بد أن يكذبه خائبه . وكان نزولنا على كوكب بعد أن فتحت صفد بلد الداوية ومقلهم ومشتغلهم وعملهم ، وعلمهم الأحصن ومنزلهم ، وبعد أن فتحنا الكرك وحصونه . والمجلس السيفي - أسماء الله - أعلم بما كان على الإسلام من مؤونته المشقة ، وقضيته المشكلة وعلته المعضلة ، وأن الفرنج - لعنهم الله - كانوا يقعدون منه مقاعد للسمع ، ويتبوؤون منه مواضع للنفع ، ويحولون بين قات وراكبها ، فيذللون الأرض بما كان ثقلها على مناكبها ، والآن ما أمن بلاد الحرمين بأشد من أمن بلاد الحرمين ، فكلها كان مشتركاً في نصرة المسلمين بهذه القلعة التي كانت تراسى ولا ترام ، وتسامى ولا تناسم ، وطامسا استفرغنا عليها بيوت الأموال ، وأنفقنا فيها أعمار الرجال ، وقرعنا الحديد بالحديد إلى أن ضجت النصال من النصال . والله المشكور على ما انطوى من كلمة الكفر وانتشر من كلمة الإسلام ، وإن بلاد الشام اليوم لا تسمع فيها لغواً ولاتائماً ، إلا قبيلاً سلاماً سلاماً . وكان نزولنا على كوكب والشتاء في كوكبه ، وقد طلع بيمين الأنواء في موكبه ، والشلوج

(١) سورة مريم الآية ٨٤ .

تنشر على البلاد ملاءها الفضيض وتكسو الجبال عمامها البيض ، والأودية
قد عجت بمائها وفاضت عند امتلائها ، وشمخت أنوفها سيولاً ، فخرقت
الأرض وبلغت الجبال طولاً ، والأوحال قد اعتقلت الطرقات ، ومشى
المطلق فيها مشية الأسير في الحلقات ، فتجشمتنا الغناء نحن ورجال
المساكر ، وكاثرتا العدو والزمان ، وقد يجرز الحظ المكاثراً . وعلم
الله النية فأنجذنا بفضلها ، وضمير الأمانة فأعان على حملها ، وزكنا من
رؤوس الجبال بمنازل كان الاستقرار عليها أصعب من ثقلها ، والوقوف
بساحتها أهون من ثقلها : وأما بنعمة ربك فحدث .

والحمد لله الذي ألهمنا بنعمته الحديث ، ونصر بسيف الإسلام
الذي هو سيفه ، وسيف الإسلام الذي هو أخوتنا ، الطيب على
الخبث . فمدح السيف ينقسم على حديه ، ومدح الكريم يتمدى إلى
يديه . والآن فالجلس - أسماء الله - يعلم أن الفرنج لا يسلون عما
فتحنا ، ولا يصبرون على ما جرحنا ، فإنهم - خذلهم الله - أمم
لاتحصى ، وجيوش لاتستقصى ، ووراءهم من ملوك البحر من يأخذ
كل سفينة غصباً ، ويطمع في كل مدينة كسباً ، ويد الله فوق أيديهم
والله يحيط بأقربهم وأبعدهم ، وسيجعل الله بعد عسر يسراً ، لاتدري
لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً .

ومام إلا كلابٌ قد تعاوت ، وشياطين قد تعاوت ، وإن لم يقدفوا
من كل جانب دحوراً وبتبعوا بكل شهاب ثاقب مدحوراً ، استأسدوا
واستكلبوا ، وتآلبوا وجلبوا وأجلبوا ، وحاربوا وحزبوا ، وكانوا
لباطلهم الداحض أنصر منا لحقنا الناهض ، وفي ضلالهم الفاضح أبصر
منا هدايا الواضح ، والله در جرير حيث يقول :
إن الكريمة ينصر الكرم ابنها وابن اللثيمة للثام نصور

فالبدار إلى النجدة البدار ، والمسارة إلى الجنة فإنها لاتنسال إلا
بإيقاد نار الحرب على أهل النار . المهمة المهمة ! فإن البحار لاتلقى إلا
بالبحار ، والملوك الكبار لايقف في وجوها إلا الملوك الكبار .
وما هي إلا نهضة تورث العلا ليومك ما حنت روازم نيب

ونحن في هذه السنة - إن شاء الله تعالى - نزل على أنطاكية ، وينزل
ولدنا الملك المظفر - أظفره الله - على طرابلس ، ويستقر الركاب
العادي - أعلاه الله بمصر ، فإنها مذكورة عند العدو - خذله الله -
بأنها تطرق ، وأن الطلب على الشام ومصر تفرق ، ولاغنى عن أن
يكون المجلس السيفي - أسماء الله - بجرأ في بلاد الساحل يزخر
سلاحاً ، ويحرد سيفاً يكون على مافتحناه قفلاً ولما يفتح بعد مفتاحاً
فإله ليس لأحدٍ ما للأخ من سمعة لها في كل مسجع سمعة ، وفي كل
روح روعة ، وفي كل محضر محضر ، وفي كل مسجد منبر ، وفي كل
مشهد منبر ، فما يدعى العظيم إلا للعظيم ، ولايرجى لموقف الصبر
الكريم إلا الكريم . هذا والأقدار ماضية وبمشيئة الله جارية ، فإن
يشأ الله ينصر على العدو المضئف بالعدد الأضعف ، ويوصل إلى الجوهر
الأعلى بالمرض الأدنى ، فإننا لانتأب بأن الله مافتح علينا هذه الفتوح
ليغلقها ، ولأجمع علينا هذه الأمة ليفرقها ، وأن العدو إن خرج من
داره بطراً ، ودخل إلى دارنا كان فيها جزراً . وما بقي إن شاء الله
إلا أموال تساق إلى ناهيها ، ورقاب تقاد إلى ضاربها ، وأسلحة تحمل
إلى كاسيها ، وإنما نؤثر أن لاتنطوي صحائف الحمد خالية من اسمه ،
ومواقف الرشد خاوية من عزمه ، ونؤثر أن يسام آل أيوب في
ميراثهم منه مواقع الصبر ومطالع النصر . فوالله إنا على أن نعطيـه

عطايا الآخرة الفاخرة أشد منا حرصاً على أن نعطيها عطايا الدنيا
القاصرة . وإنا لايسرنا أن ينقضي عمره في قتال غير الكافر ونزال
غير الكفء المناظر . ولاشك أن سيفه لو اتصل بلسان ناطق وفم
لهال : مادمت هناك فلست ثم . وماهو محمول على خطة يخافها ،
ولا متكلف قضية بحكنا يعافها ، والذي بيده لانستكثره بل نستقصيه
عن حقه ونستصغره . وما ناولناه لفتح أرضه السلاح ، ولا أعزناه للملك
مركزه النجاح إلا على سخاء من النفس به وبأمثاله ، على علم منا أنه
لا يقعد عنا إذا قامت الحرب بنفسه وماله . فلانكن به ظناً أحسن منه
فعلاً ، ولا نرضى ، وقد جعلنا الله أهلاً ، أن لانراه لنصرنا أهلاً .
وليستشر أهل الرشاد فإنهم لا يألونه حقاً واستنهاضاً ، وليعص أهل
العواية فإنهم إننا يتغالون به لمصالحهم أغراضاً ، ومن بيته يظعن ، وإلى
بيته يقفل ، وهو يبيننا جواب مثله لمثلنا ، وينوي في هذه الزيارة
جمع شمل الإسلام قبل نية جمع شملنا ، ولاتقعد به في الله نهضة قائم ،
ولاتخذله عزمة عازم ، ولا يستفت فيه فوت طالب ولاتأخذه في الله
لومة لائم . فإننا هي سفرة قاصدة وزجرة واحدة ، فإذا هو قد بيض
الصحيفة والوجه والذكر والسمعة ، ودان الله أحسن دين فلا حرج عليه
إن فاء إلى أرضه بالرجعة ، وليتدبر ما كتبناه ، وليتفهم ما أردناه ،
وليقدم الاستخارة فإنها سراج الإنارة ، وليقضب لله ورسوله ولدينه ولأخيه
فإنها مكان الاستغضاب والاستشارة ، وليحضر حق يشاهد أولاداً لأخيه
يستشعرون لفرقة غماً ، وقد عاشوا ما عاشوا لا يعرفون أن لهم مع عمهم
عماً . والله سبحانه يلهمه توفيقاً ويسلك به إليه طريقاً ، وينجدنا به سيفاً

لرقبة الكافر مرتقاً ودمه مريقاً ، ويجعله في مضمار الطاعات سابقاً
لا مسبقاً^(١)

صبح الأعشى للقلقشندي ج ٧ ، ٢٣ - ٢٧

٣ - رد الفعل الصليبي والمعارك التي تجددت في بلاد الشام حتى انتهت بالهدنة بين الطرفين

أ - موقف صلاح الدين من قدوم النجيدات الالمانية
وغيرها إلى صليبي الشام .

٥٩ - رسالة امبراطور الروم إلى صلاح الدين حول عبور مملك
الألمان بجيشه بلاده في طريقه إلى بلاد الشام :

من ايساكىوس الملك المؤمن بالمسيح الإله ، المتوج من الله المنصور العالي
أبدأ ، أقمقوس المدير من الله القاهر الذي لا يغلب ، ضابط الروم بذاته
انكليوس ، إلى النسيب سلطان مصر صلاح الدين :

هذه هي ديباجة الكتاب ، وأما ما فسر من الكتاب فهو كما يلي :

الحبة والمودة ، وقد وصل خط نسبتيك الذي أنفذت إلى ملكي
وقرأته وعلمنا منه أن رسولنا توفي . وحزننا حيث إنه توفي في بلد غريب ،
وما قدر أن يتم كلما رسم له ملكي ، وأمره أن يتحدث مع نسبتيك ويقول
في حضرتك ، ولا بد لنسبتك أن تهتم بإنفاذ رسول إلى ملكي ليعرف

(١) أورد أبو شامة في كتاب « الرضتين » ج ٢ ، ١٣٦-١٣٧ نصاً أكثر اختصاراً
من نصنا أعلاه .

ملكي ما بعثت إليك مع رسولي المتوفى . وأما القماش الذي خلفه ووجد بعد موته ينفذ إلى ملكي لنعطيه أولاده وأقاربه . وما أظن أنسه سمع نسبته أخباراً ردية . وأنه قد سار في بلاد الألمان ، وما هو عجب فإن الأعداء يرجفون بأشياء كذب على قدر أغراضهم ، ولو تشتهي أن تسمع الحق فإنهم قد تأذوا وتعبوا أكثر مما آذوا فلاحى بلادى ، وقد خسروا كثيراً من المال والدواب والرحل والرجال ، ومات منهم كثير وقتلوا وتلفوا وبالشدة قد تخلصوا من أيدي أجناد بلادى ، وقد ضعفوا بحيث إنهم لا يصلون إلى بلادك ، وإن وصلوا كانوا ضعافاً بعد شدة كثيرة ، لا يقدر أن ينفعون جنسهم ولا يضرون نسبته . وبعد ذلك كله العجب كيف قد نسيت الذي بيني وبينك ؟ وكيف ما عرفت للملكي شيئاً من المقاصد والمهمات ؟ ما ربح ملكي من محبتك إلا عداوة الفرنج وجنسهم ، ولا بد لنسبتك ، كما قد كتبت للملكي في كتابك الذي قد أنفذت إلينا من إنفاذ رسول حتى يعرفني جميع ما قد كتبت إليك في القديم من الحديث ويكون ذلك بأسرع ما يمكن ، ولا تحمل على قلبك من مجيء الأعداء الذين قد سمعت بهم ، فإن إدارهم على قدر نيتهم وآرائهم . وكتب في أيام سنة ألف وواحد وخمسة ؟

النوادر السلطانية لابن شداد ١٣٢-١٣٣

٦٠ - رسالة ملك الأرمن صاحب قلعة الروم التي على أطراف الفرات

كاغيكوس إلى صلاح الدين يخبره خبر ملك الألمان وما جرى منه :

كتاب الداعي المخلص الكاغيكوس : بما أطلع به علوم مولانا ومالكنا السلطان الناصر جامع كلمة الإيمان ، رافع كلمة العدل والإحسان ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، أدام الله إقباله وضاعف جلاله ،

وصان مهجته وكاله ، وبلغه نهاية آماله بعظمته وجلاله . من أمر ملك
الألمان وما جرى له عند ظهوره ، وذلك : أنه أول ما خرج من دياره
ودخل بلاد الهنكر غصباً ، وغصب ملك الهنكر بالإذعان والدخول تحت
طاعته ، وأخذ من ماله ورجاله ما اختار ، ثم إنه دخل أرض مقدم الروم
وفتح البلاد ونهبها ، وأقام بها وأخسلاها ، وأحوج ملك الروم إلى أن
أطاعه وأخذ رهائنه ولده وأخاه وأربمين نفرأ من خلصائه ، وأخذ منه
خمين قنطاراً ذهباً وخمين قنطاراً فضة ، وثياب أطلس مبلغة عظيماً ،
واغتصب المراكب وعاد بها إلى هذا الجانب ، وصحبته الرهائن إلى أن دخل
حدود بلاد الملك قليج أرسلان ورد الرهائن وبقي سائراً ثلاثة أيام ، وترك
الأوج يلقونه بالأغنام والأبقار والحيل والبضائع ، فتدخلهم الطمع وجمعوا
جمعاً من جميع البلاد ووقع القتال بين التركان وبينه ، وضايقوه ثلاثة وثلاثين
يوماً وهو سائر . ولما قرب من قونية جمع قطب الدين ولد قليج أرسلان
العساكر وقصده وضرب معه مصافاً عظيماً ، فظفر به ملك الألمان وكسره
كسرة عظيمة ، وسار حتى أشرف على قونية ، فخرج إليه جموع عظيمة
من المسلمين فردهم مكسورين وهجم قونية بالسيف وقتل منها عالماً عظيماً
من المسلمين والفرس ، وأقام بها خمسة أيام . فطلب قليج أرسلان الأمان
فأمنه الملك واستقر بينهم قاعدة أكيدة وأخذ منه الملك رهائن وعشرين
من أكابر دولته ، وأشار على الملك أن يجعل طريقه على طرسوس والمصيصة
ففعل وقبل منه . وقبل وصوله إلى هذه البلاد نفذ كتابه ورسوله يشرح
حاله وأين قصده وما لقيه في طريقه ، وأنه لابد بحتاز هذه الديار اختياراً
أو كرهاً ، فافتضى الحال إنفاذ المملوك حاتم وصحبته ما سأل ومعه من
الخواص جماعة للقاء الملك في جواب كتابه . وكانت الوصية معه أن يحرقوه
على بلاد قليج أرسلان إن أمكن ، فلما اجتمعوا بالملك الكبير وأعادوا

عليه الجواب وعرفوه الأحوال أبى الانحراف ، ثم كثر عليه العساكر والجوع ونزل على شط بعض الأنهار فأكل خبزاً ونام ساعة وانتبه ، فتاقت نفسه إلى الاستحمام في الماء البارد ، فمكث أياماً قلائل ومات . وأما لاون فكان سائراً يلقي الملك . فلما جرى هذا المجرى هرب الرسل من العسكر وتقدموا إليه وأخبروه في الحال ، فدخل في بعض حصونه واحتفى هناك .

أما ابن الملك فكان أبوه منذ توجه إلى قصد هذه الديار نصب ولده الذي معه عوضه واستقرت القاعدة ، وبلغه هرب رسل ابن لاون فأأنفسه واستعطفهم وأحضرهم وقال : إن أبي كان شيخاً كبيراً وما قصده هذه الديار إلا لأجل حج بيت المقدس ، وأنا الذي دبرت الملك وعائيت المشاق في هذه الطريق فمن أطاعني وإلا قصدت دياره .

واستعطف ابن لاون واقتضى الحال الاجتماع به ضرورة ، وبالجملة فهو في عدد كثير . وقد عرض عسكره فكان اثنين وأربعين مجتجفاً (١) . وأما الرجال فما يحصى عددهم ، وهم أجناس متفاوتة على قصد عظيم وجد في أمرهم وسياسة هائلة ، حق إن من جنى منهم جنابة فليس له جزاء إلا أن يذبح مثل الشاة . ولقد بلغهم عن بعض أكابرهم أنه جنى على غلام له وجاوز الحد في ضربه فاجتمعت القسوس للحكم ، فاقتضى الحكم العام ذبحه وشفع إلى الملك منهم خلق عظيم ، فلم يلتفت إلى ذلك وذبحه ، وقد حرّموا الملاذ على أنفسهم حتى إن من بلغهم عنه بلوغ لذة هجروه وعزروه ، كل ذلك كان حزناً على بيت المقدس .

وقد صح عن جمع منهم أنهم هجروا الثياب مدة طويلة ، وحرّموا

(١) التجفاف ما يجعل به الفرس من سلاح وآلة تقيه الجراح ، وقد يلبسه الإنسان . والمعنى أن عدد فباطي الخيالة اثنين وأربعين وهي مدرعة .

ما حلّ ولم يلبسوا إلا الحديد ، حتى أنكر عليهم الأكبر ذلك ، وهم من الصبر على الشقاء والذل والتعب في حال عظيم ، طالع المملوك بالحال ، وما يتجدد بعده يطالع به إن شاء الله تعالى (١) .

النوادر السلطانية لابن شداد ١٢٤-١٢٦

٦١ - رسالة ثانية من كاغيكوس إلى صلاح الدين حول ملك الألمان

أرسل كاغيكوس رسولا خاصا يخبر صلاح الدين بأنباء جيش الألمان بعد وفاة ملكهم ، ويقول في رسالته مع الرسول :
 هم عدد كثير ولكنهم ضعفاء قليلو الخيل والعدة ، وأكثرهم قتلهم حمير وخيل ضعيفة .
 وقال الرسول :

ولقد وقفت على جسر يعبرون عليه لاعتبرهم فعبر منهم جمع عظيم ما وجدت مع واحد منهم طارقة ولارحما إلا في النادر ، فسألته عن ذلك قالوا : أقننا برج وخيم أياما ، وقتل أزوادنا وأحطابنا فوجدنا معظم عدونا ومات منا خلق عظيم ، واحتجنا إلى الخيل فذبجناها وأكلناها وأوقدنا الرماح والعدد لإعواز الخطب .

النوادر السلطانية لابن شداد ١٢٧

(١) أورد أبو شامة في « الروضتين » ج ٢ - ١٥٥ وابن الفرات في « تاريخه » ج ٤ : ٢١٦-٢١٨ وابن واصل في « مفرج الكروب » ج ٢ ، ٣٢٠-٣٢١ نصرا متقاربة مع نصنا أعلاه ، مع خلاقات لا بد منها . هذا ويسمي ابن الفرات وابن واصل كاغيكوس باسم كافيلوس .

٦٢ - رسالة صلاح الدين إلى الديوان العزيز حول قرب وصول ملك الألمان بجيشه وعن عدد جيشه

وقد وصل الخبر بالداهية الدهياء والغمة الفناء والنكبة النكباء والشدة الدهماء والليلة الليلاء ، وهي أن ملك الألمان ، ومعه ملوك الفرنجية وحشودها وقوامصها وكنودها ، وأحزاب الشيطان وجنودها ، وألوية اللأواء وينودها وصل جاراً على السماء ذيول ققامه ، مجرياً في الأرض سيول لهامه ، فائراً بأطلابه لطلاب ثاره ، سائراً بجيله ورجله كالسيل إلى قراره .

وانه في عصائب صلبان في عصبيتها متصلبة ، وأتباع شياطين لإرضائها متغلبة ، وأسراح سراحين على سرح الاسلام متوثبة ، وأنه في مئين الألوف الألاف للنون ، وأقطاب الإعطاب الدائرة لدوائر سوئها رحي الحرب الزبون ، وقد أوقدوا للشر شراراً ، وأضرموا للشرك الداعي إلى النار ناراً ، فإن حسرتهم على (قيامتهم) دائمة ، وقيامتهم قائمة والموت يدعومهم إلى المقبرة التي يدعونها ، والآجال تلبسهم لمناياهم التي يدعونها . وكان خبر وصوله متداولاً على السنة الأراجيف ، وقشيعه أعداء الله من قبل للترهيب والتخويف . واستعدت المساكر الإسلامية للتوجه إلى بلاد الروم في الربيع ليقع التساعد مع عساكرها على دفع تلك الجموع باتفاق الجميع ، وانتظر ورود خبر صحيح ، ويقين بأمر صريح ، حتى إذا صح الخبر سار المسكر ثم انقطعت الأخبار ، وتقادى الانتظار ، ومضت شهور الربيع آذار ونيسان وأيار .

وكانت كتب سلطان الروم قليج أرسلان وأولاده ، ورسلم متواصله بما ينبىء عن التعاضد ، ويبني أمر الوفاء والوفاق على التعاون والتعاقد ، وهم بأنهم ما يصح عندهم واعدون ، ويزعمون أنهم في رد الواردين وإردائهم مساعدون . فأخلف ذلك الوعد وضيع ذلك العهد ، ووصلت كتبهم بغتة في هذا الأوان بما تأخر به الخبر عن العيان .

وقالوا : إنهم قد توسطوا ببلاد الإسلام ، وإنهم على قصد الشام ، ثم ورد الخبر بأنهم صالحوم وصانعوم وأخلوا لهم الطريق وواعدوم ، ووسعوا لهم في المضائق ، وسموا في أمن طرقهم من الطوارق ، وهذا حادث كارث وباعث فاجيء فاجع لأهل الحمية في الدين باعث ، وناكب لعقود العقول في تعاطف ضرورة ، وتفانم خطره . ناكث .

وقد تعين الجهاد على كل مسلم ، وما في الوجود مؤمن يكون له هذا الملم غير مؤلم ، والاهتمام بدفعه من أفرض المهام وأهم الفروض ، والخادم منفرد في حمل عبء هذا الفادح الباهظ بالنهوض وهو واثق بأن بركات الدار العزيزة تدركه ولا تتركه ، وأن الذي يستبعد من النصر القريب يتمحق ويتمسح به سلكه ومسلكه إن شاء الله تعالى .

الفتح القسي للعماد الأصفهاني ٣٩٧ - ٣٩٨

٦٣ - رسالة صلاح الدين إلى الخليفة الناصر يخبره بمحنة صاحب القسطنطينية وصاحب صقلية ضده وماحدث بينه وبينهما ويعتذر عن تأخير الرسائل من إنشاء القاضي الفاضل :

سلام الله الأطيب ، وبركاته التي يستدوها الحُفُزُ والفُتُيبُ ، وزكواته التي ترفع أوليائه إلى الدرج ، ونعمه التي لم تجعل على أهل طاعته في الدين من حرج ، على مولانا سيد الخلق وساد الخرق ومسدد أهل الحق ، ولا بس الشعار الأطهر سواداً ، ومستحق الطاعة التي أسعد الله من خصه بها بدرأ ومعاداً ، ومولى الأمة الذي تشابه يوم نداءه وبأسه إن ركض جوداً أو جواداً ، وواحد الدهر الذي لا يثنى واليه القلوب تُثنى ، ولا يقبل الله جمعاً لا يكون لولائه جمع سلامة لا جمع تكسير ، ولا استقبال قبلة ممن لا تكون محبته في قلبه تقيم واسمه في عمله إلى الله يسير ، مولانا أمير المؤمنين ،

وعلى آباءه المألبي الأرض عدلاً ، والميلاء أهلاً وفضلاً ، والضاربين فيصلاً
والقاتلين فصلاً ، ومن تقول الجنة لأهلها بهم أهلاً ، المخصوصين بالعناية
الإلهية ، الحاكمين فكل أمة بطاعتهم مأمورة ، وعن معصيتهم منبهة ، والمشرقي
الأساري على أسرة الشرف ، فكم ملأت البهو مناظرهم البهية ،

المملوك يخدم الحرم الشريف باحترامه ، والفناء الكريم بإعظامه ، والبساط
المقبّل بطول استلامه ، والستر الذي أسبله الله على العبادة بتمحيته
وسلامه ، وينهي أنه آخرُ الخدم عن أن ينتظم الأوقات المتجددة ،
ويقتضب الحالات المتجردة ، والرسول عن أن تتوارد دراكا ، وقوتوالى
وشاكاً ، والإنهاء عن أن تثبت بالمقامات الشريفة النبوية ، ومجالس العرض
العلية ، ما انتهت إليه الأقدار ، وما أفضى إليه من كثير المناجع وقليل
الأعذار ، فإن أدب الأمالي عن المطالعة كالصوم لايفض ختامه ولايمل
نظامه إلا بعيد يطلع هلاله مبشراً ، ويث خبره في الاتفاق معطراً ،
فلو أن متكلفاً أفطر قبل مواعده وورد الماء قبل مورده لكان مفسداً
لعقده ناكثاً لعده .

كذلك المملوك أمسك حين كانت الأخبار يجانبه مشبهة ، والحقائق
لديه غير متوجهة فإن طاغيتي الكفر لقسطنطينية وصقلية كانا قد أوقدا
للحرب ناراً ، ورفعاهما أوزاراً ، واتخذا لها اسطولا جاريا وعسكراً جزاراً ،
وتباريا ولم يزد الله الظالمين إلا تباراً ، وكتبا إلى الفرنج بعد انهمامهم
بالنجدة والنصرة ، وتضمننا لهم الخروج والكرة ، ويصفان مااستعدا به
بما لايعبر عنه الا بالكثرة ، واستطارت الشناعة وتداولتها الألسن ، وخرجت
من الأفواه حتى كادت تدخل فيما رآته الأعين . وورد إلى المملوك رسول
من طاغية القسطنطينية ، وهو أقدم ملوك النصرانية قدماً ، وأكثرهم مالا

منتمى ، فمرض عليه موادة يكون بها عسكره مودعاً ويكون له بها
مفرغاً ، وله ولصاحب صقلية الذي زعم أنه أصل الشر يكون الشر منه
مفرغاً ، فلم ينز ولم يجب إلى السلم ، ولم يزعه أن عسكره - خذله الله -
مبارك في البر واليم ، إن شاء الله تعالى .

صبح الأعشى للقلقشندي ج ٦ ٥١٥ - ٥١٦

ب - الموقف في عكا وحولها .

٦٤ - رسالة القاضي الفاضل إلى الملك العادل وقد سمع بتجدد
حركة العدو إلى بيروت :

وقد تجدد من وصول العدو للعين وحركته إلى جانب بيروت ، وخطر البلاد
ما أذهل كل مرضعة وأوقع في ضائقة تنفق الأفكار فيها في سعة ، وللإسلام اليوم
قدم إن زلت زل ، وهمة إن ملت فإن النصر عنه مل ، وتلك القدم القدم
العادية وتلك الهمة الهمة المسابقة السيفية ؛ فالله الله ثبتوا ذلك الفؤاد ،
ودموا ذلك المهاد ، واسهروا في الله فليست بليلة رقاد ، ولا ينظر في
حديث ، في حديث زيد ولا عمر ، ولا أن فلاناً نفع ولا ضر ، ولا أن من الجماعة
من جاء ، ولا أن فيهم من مر ، فانظروا إلى أنكم للإسلام كله قد برز
إلى الشرك كله وأنكم ظل الله ، فإن صحتم تلك النسبة فإن الله لا نسخ
لظله ، واخبروا أن الله مع الصابرين ، ولا تنهوا وإن ذهب الناصر فإن
الله خير الناصرين ، فما هي إلا غمرة وتنجلي ، وهيعة وتنقضي ، وليلة وتصبح
وتجارة وتربح .

كتاب الروضتين لأبي شامة ج ٢ ٢٣٢ - ٢٣٣

٧٥- رسالة القاضي الفاضل إلى الأمير عز الدين لما أخذ العدو

بيروت .

قال بعد البسملة :

قال الله سبحانه في كتابه العزيز مسلماً نبيه الكريم ﷺ : وإن يريدوا
خيانتك فقد خانوا الله من قبل^(١) . فإذا كان من الناس من خان الله
ورسوله ﷺ فكيف لا يخون الناس^١ الناس ؟ ! وأين الموفون بعهدهم إذا
عاهدوا ، والصابرون في البأساء والضراء وحين البأس ؟ .

وقد كانوا إذا عُدوا قليلاً فقد صاروا أقل من القليل

والمولى - أعز الله بنصره ، وعوضه أحسن العوض من أجره ، وكتب
له ثواب تسليمه إليه وصبره - ليس بأول من وثق بن خان ، وقضية بيروت
بأول مقدور قال الله له : كن ، فكان . والقدر السابق لا يدفعه أهم اللاحق ،
ومن الخجلات المستعارة خجلة الوثاق ، والموثوق به لائق الخجل الصادق .
ومعاذ الله أن ينكس المجلس رأسه حياء ، أو أن يسخط الله قضاء ،
أو أن يأسف على مال نقله من مودعه الذي لا يؤمن من الآفات عليه ،
إلى مودع الله يحفظه إلى أن يأتيه به أحوج ما يكون إليه . والحمد لله
الذي جعل مصائبنا في الدنيا فوائداً في الآخرة ، ثم الحمد لله الذي جعل
البادرة للعدوان والعاقبة للتقوى . وقد علم الله أني مقاسمه ومسامحه ومضمر
من أهم بما اتفق من هذا المقدور ما مقدره عالمه ، غير أنه لاحيلة لمن لا حيلة له إلا
الصبر ، وإن صبر جرى عليه القدر وجرى له الأجر ، وإن لم يصبر
جرى عليه القدر وكتب عليه الوزر . وكل ما ذهب من صاحبه قبل أن
يذهب صاحبه فقد أنعم الله عليه ، حيث أخرج ما في يديه وأبقى يديه ،

(١) سورة الأنفال الآية ٧١ .

والمال غادر ورائح ، والمال بالحقيقة هو العمل الصالح ، وإن اجتمع موصولها
بمحضرته فهو ينهي ما عندي ، ويؤدي حقيقة ودي ، ورأيه الموفق .
نهاية الأرب للتویری ج ٥ ٢٢٤ - ٢٢٥

٦٦ - مخاطبة صلاح الدين لقواده لما حاصر الصليبيون عكا وحاصر
المسلمون الصليبيين ، وذلك بعد استرجاع صلاح الدين عكا من الصليبيين
وقدوم الحملات الصليبية الثالثة .

جمع صلاح الدين قواده واستشارهم في معالجة أمر الصليبيين الذين تجمعوا
حول عكا ، وذلك إثر معركة ضارية ضدهم ، وقدفق الإمدادات عليهم
فقال :

بسم الله ، والحمد لله والصلاة على رسول الله : اعلوا أن هذا عدو الله
وعدونا وقد وطئ أرض الإسلام ، وقد لاحت لوائج النصر عليه إن شاء
الله تعالى ، وقد بقي في هذا الجمع اليسير ، ولا بد من الاهتمام بقلعه ، والله
قد أوجب علينا ذلك . وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا ليس وراءنا
نجدة تنتظرها سوى الملك العادل وهو واصل . وهذا العدو إن بقي وطال
أمره إلى أن يفتح البحر جاءه مدد عظيم . والرأي كل الرأي عندي
مناجزته : فليخبرنا كل منكم بما عنده من ذلك .

فقر رأيهم على تأخير العسكر إلى الخروبة ، وإراحة العسكر
هذه أيام حتى يصل الملك العادل ثم يعاود المسلمون الهجوم على
الأعداء (١) .

كتاب الروضتين لأبي شامة ج ٢ - ١٤٦

(١) أورد ابن شداد في « النواذر السلطانية » ص ١١٤ نصاً قريباً كل القرب من
النص أعلاه .

٦٧ - رسالة صلاح الدين إلى الخليفة الناصر يخبره بوصول ملك
الألمان والقتال الذي دار مع الصليبيين حول عكا ويطلب النجدة
بالبحاح ويشرح الوضع الصعب حول عكا ، وهي من إنشاء القاضي
الفاصل :

أدام الله ظل الديوان العزيز النبوي الإمامي الشريف الناصري ، ومدد
على الأمة ظليلاً ، وجعل الأنوار عليه دليلاً ، وحاطه بلطفه وتقبل أعماله
بقبول حسن وأنبأها ، وأرغم أعداءه وكبتها ، ومسها بمذاب من عنده
وسعتها ، ولا زالت رايته السوداء بيضاء الخبز ، حمرة الخبز في العداة ،
مسودة الأثر .

ورد على الخادم ما كوتب به من الديوان العزيز رائداً في استخلاصه ،
مبرهننا عن اختصاصه ، مطلقاً في الشكر للسانه ، وفي الحرب لعنانه ،
ومقتضياً لأمنية كان يتهيبها ، ومضيفاً لمكرمة لو سمحت نفسه إليها كان
يتمها ، فله هو : من كتاب كأنه سورة ، وكل آية منه سجدة ، قابله
بالخشوع كأنما قلب السكاتب القضيبي وطرسه البردة ، وتلاه على من قبله
من الأولياء مسترفهاً به لعزائمهم ، مستجيزاً به لغائهم ، مستثبناً به لملازمهم ،
مستدعياً به الخدمة للوازمهم ، مرهفاً به طلبهم في القتال ، فاسحاً به خطاهم
يوم النزال ، فائر فيهم كالاقتداح في الزند ، وكالانبجاس من الصلد ، وكالاستلال
من الغمد ، فشم من كان قد أسبل ، وانتهى من كان قد أجبل ، وكأنما
أعطوا كتاباً من الدهر بالأمان ، أو سمعوا منادياً ينادي للإيمان ، وقالوا :
سمعنا وأطعنا ، وعلينا من الخدمة ما استطعنا . هذا مع كونهم أنضاء
زحوف ، وأشلاء حتوف ، وضرائب سيوف ، وقد رسمت وجوههم علامات
الكفاح ، وأحالت عرضهم أقلام الرياح ، صابرين مصابرين مكاثرين مكابرين ،

مناضلين مناظرين ، قد قاموا عن المسلمين بما قعد عنه سائرهم ، ونزلوا بقارعة القراع ، فلا يسير عليها سائرهم ، وسدت كموب الرماح أنفهم ، وأثبتوا في معترك الموت أرجلهم . كل ذلك طاعة لله ولرسوله ولخليفتهما ، وإذا رموا فأصابوا قالوا : ولكن الله رمى .

ومن خبر الكفار أنهم إلى الآن على عكا يدمم البحر بمراكب أكثر عدة من أمواجه ، ويخرج للمسلمين منهم أمر من أجابه . قد تعاضدت ملوك الكفر على أن ينهضوا اليهم من كل فرقة منهم طائفة ، ويقعدوا لهم من كل قرن يعجز بالكرّة واصفه ، فإذا قتل المسلمون واحداً في البر بعث البحر عوضه ألفاً ، وإذا ذهب بالقتل صف منهم أخلف بدله صفاً ، فالزرع أكثر من الجيداد ، والثمرّة أنقى من الحصاد ، وهذا العدد المقاتل - قاتله الله - قد زر عليه من الخنادق أدرعاً متينة ، واستجن من الجنويات بحصون حصينة ، مصعراً وممتنعاً ، وحاسراً ومتدرعاً ، ومواصلاً ومنقطعاً ، وكلما أخرج رأساً قد قطعت منه رؤوس ، وكلما كشف وجهاً كشفت أجسادها نفوس . فكم من يوم أرسلوا أعنة السوابق فذاقوا عقبى إرسالها ، وكم من ساعة فضوا فيها أقفال الخنادق ، فأفضى بهم البلاء عند فض أقفالها ، إلا أن عددهم الجم قد كثر القتل ، ورقابهم الغلب قد قطعت النصل لشدة ما قطعها النصل . ومن قبل الخادم من الأولياء قد أثرت المدة الطويلة والكلف الثقيلة في استطاعتهم لاطاعتهم ، وفي أجوالهم لاني شجاعتهم ، فالبرك قد أنفوه ، والسلاح قد أخفوه ، والدرم قد أنفوه ، وكل من يعرفهم من أهل المعرفة ويرام بالعين فمام مثل مايرام بالصفة ، يناشد الله المناشدة النبوية في الصيحة البدرية في : اللهم إن تهلك هذه العصابة ، ويخلص الدعاء ويرجو على يد أمير المؤمنين الإجابة . هذا والساحل قد تماسك وما تهالك ، وتجد وما تبدل ،

وشجعتهم مواعيد النجدة الخارجة ، وأسلمته عن مصارع العدة الدارجة فكيف به إذا خرج داعية الألمان وملوك الصليبان وجوع ما وراء البحر وحشود أجناس الكفر ؟ وقد حرم بابهم - لعنة الله عليهم وعليه - كل مباح ، واستخرج منهم كل مذخور ، وأغلق دونهم الكنائس ، ولبس وألبسهم الحداد ، وحكم عليهم أن لا يزالوا كذلك أو يستخلصوا المقبرة ويمعيدوا القمامة : وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جاز لكم (١) .

اللهم أخفر جواره ، واصرف جوره ، وأخلف وعده ، واكسر ضمانه وانكصه على عقبه ، وعجل في الدنيا والآخرة منهم تبابه ، وما بدلتنا به من نعمتك فلا تقطعه ، وما وهبتنا من نصرك فلا تسلبه ، وما سقرته من عجزنا فلا تهتكه ، وفي دون ما الدين مستقبله ، وعدوه - خذله الله - يؤمله ، ما يستفرغ عزائم الرجال ويستنفد خزائن الأموال ، ويوجب لإمام هذه الدولة أن يحفظ عليها قبلتها ، ويزيح في قتل عدوها عليها . ولولا أن في التصريح ما يعود على عدائته بالتجريح ، لقال ما يبكي العين ، وينكي القلوب ، وتلشق له المرائر ، وتشق الجيوب . ولكنه صابر محتسب ، منتظر لنصر الله مرتقب ، قائم من نفسه بما يجب : رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي ، وهما قد هاجرا إليك هجرة يرجوها عندك مقبولة ، وولدي ، وقد أبرزت لعدوهم صفحات وجوههم وهان عليّ محبوبك بكروهي فيهم ومكروهم . ونقف عند هذا الحد ، والله الأمر من قبل ومن بعد ، وإن لم يشتك الدين إلى « ناصره » والحق إلى من قام بأوله إلى اليوم الآخر يقوم بآخره ، فإلى من

(١) سورة الأنفال الآية ٤٨ .

يشتكي البث ؟ وعند من يتفرج بالنفث ؟ ومنفعة الفوت قبل العطب ،
والنجاء قبل أن يصل الحزام الطيبين ، والبلاغ قبل أن يصل السيل الزبي .
فيا عصابة محمد ﷺ أخلفه في أمته بما تظمن به مضاجعه ، ووقفه
الحق فينا ؛ فإننا وإن المسلمين عندك ودائعهم . ومماثل الخادم نفسه في
هذا القول إلا بحالة من وقف بالباب ضارعا ، وناجى بالقول صادعا .
ولورفعت عنه العوائق لهاجر ، وشافه طيبب الاسلام بل مسيحه بالداء
الذي خامر ، ولوأمن عدو الله أن يقول : فرأى لساقر . وبعد ففيه ،
وإن عض الزمان بقيمة ، وقبلة وإن تدارأت الشهاد درية ، فلا يزال
قائما حتى ينصر أو يعذر ، فلا يصل إلى حزم ذرية أحمد ﷺ ومن
ذرية أيوب واحد يذكر .

أنجز الله لأمير المؤمنين مواعد نصره ، وتم مساعدة دهره ، وأصفي
موارد إحسانه ، وأرسي قواعد سلطانه ، وحفظه وحفظ به ، فهو خير
حافظا ، ونصر على يديه فهو أقوى ناصرا إن شاء الله تعالى .

صبح الأعشى للقلشندي

٦٨ - رسالة القاضي الفاضل إلى صلاح الدين ، والقاضي مقيم في
مصر يدبر الأمور عن السلطان ، والسلطان محاصر لعا . والرسالة
تذكير للسلطان وتحريض على الجهاد والثبات وتخويف من ارتكاب
الذنب :

المملوك ينهي أن الله تعالى لا ينال ما عنده إلا بطاعته ولا تفرج الشدائد
إلا بالرجوع إليه والامتثال لأمر شريعته . والمعاصي في كل مكان بادية ،
والمظالم في كل موضع فاشية ، وقد طلع إلى الله تعالى منها ما لا يتوقع
بعدها إلا ما يستعاذ منه . وقد أجرى الله تعالى على يد مولانا مسن

فتح البيت المقدس ما يكون له بمشيئة الله له حجة في رضاه ، ونعوذ بالله أن يكون حجة عليه في غضبه . بلغ الملوك من كل وارد منه مكاتبة ومخاطبة بأنه على صفة تقشعر منها الأجساد وتتصدع بذكرها الأكباد . والملوك لا يتعرض لتفصيل ما بلغه من ظهور المنكرات في أتباعه وشيوع المظالم في ضياعه وخراب البلد وعدم القدرة على الرمة لقبة الصخرة والمسجد الأقصى ، وبالغلة عن مرمتها وبفقدتها في أشبه القدس العظيمة الجليلة المثلجة لا يؤمن سقوطها وافتضاح القدرة في العجز هن إعادتها ، والمرة أقرب تناولاً من الإنشاء والتجديد . ولا شبهة أن مولانا - عز نصره - في أشغال شاغلة وأمور متشعبة وقضايا غير واحدة ولا متعددة ، ولكن قد ابتلي الناس فصبروا ، وأضجرتهم الأيام فماضجروا ، وأي عبادة أعظم من عبادته التي قام بها والناس عنها قعود ، وصبر في طلب جنتها على ناري الحرب والوقت ذواتي الوقود . غير أن مولانا إذا ذكر نصيبه من الإقدام فلا ينسى نصيبه من الحزم ، ولا يهمل في الأمور الخطيرة ، ولا يقدم بالعدد القليل على العدة الكثيرة . فالأولى إذا أقبل كان واحداً ، وإذا أدبر كان مقوماً بجميع الخلق ولا يطمع بأن يقوم به الألف . وليذكر المولى نوبة الرملة التي كان وقوعها من الله سبحانه أدباً لاغضباً وتوفيقاً لاتفاقاً ، ولا يكره المولى أن تطول مدة الابتلاء بهذا العدد ، فتوايه يطول وحسناته تزيد وأثره في الإسلام يبقى ، وفتوحاته بمشيئة الله يعظم موقعها ، والعاقبة للتقوى ، ولينصرون الله من ينصره . والله تعالى يشكر لمولانا جهاده بيده وبرأيه وبولده وبخاصته وبعامته جنده ، وبإعداد أعدائه بصاحب صيدا في الفرنج ، فهو جهاد قد أربى فيه رأي المولى ، والحديد بالحديد يفلح ، وأكد ما قبل به العدو سلاحه ،

وأسرع جناح طار لقصه جناحه ، ودولا مولانا كالبهر كرمًا وظهور
عجائب ، وكالسما مطراً وأسنة كواكب (١) .

كتاب الروضتين لأبي شامة ج ١٦٥٢ - ١٦٦

٦٩- رسالة أخرى من القاضي الفاضل إلى صلاح الدين حول
نفس الموضوع السابق من الوعظ والزجر والتذكير .

إنما أتينا من قبل أنفسنا ، ولو صدقنا ، لعجل الله لنا عواقب
صدقنا ، ولو أطمئنا لما عاقبنا بصدقنا ، ولو فعلنا ما نقدر عليه من
أمره لفعل لنا ما لا نقدر عليه إلا به ، فلا يختصم أحد إلا نفسه وعمله ،
ولا يرج إلا ربه ، ولا يفتقر بكثرة العساكر والأعوان ، ولا فلان الذي
يعتمد عليه أن يقاتل ولا فلان ، فكل هذا مشاغل عن الله ليس النصر
بها ، وإنما النصر من عند الله ، ولأننا أن يكلنا الله إليها . والنصر به
واللطف منه ، واستغفر الله تعالى من ذنوبنا ، فلولا أنها تسد طريق دعائنا لكان
جواب دعائنا قد نزل ، وفيض دموع الخاشعين قد غسل ، ولكن في
الطريق عائق ، خار الله لمولانا في القضاء السابق واللاحق .

البداية والنهاية لابن كثير ج ١٢ - ٣٣٩ .

٧٠- رسالة أرسلها القاضي الفاضل لصلاح الدين جواب رسالة
أرسلها له صلاح الدين ، والقاضي في مصر والسلطان حول عكا :

ورد على المملوك - أدام الله أيام المجلس العالي الملبي الناصري
ونصره على أعدائه وملكه أرضه بعدل حكم سمائه ، ولا أخلى من

(١) أتى ابن كثير في « البداية والنهاية » ج ١٢ - ٣٣٩ بنص غاية في الإيجاز لهذه
الرسالة المذكورة آنفاً .

نعمتي خيره ونظره قلوب وعيون أوليائه ، وأعز الإسلام ورفع عن
أهله البلوى بلوائه - الكتب القديمة التي تقرأ الناظرين من شعارها
الأصفر ، وتبشر الأولياء ، إن كانوا غائبين مع الغيب ، بأن حظهم
حاضر مع الحاضر . وقد كانت الفترة قد طالت أيامها ، واستطالت آلامها
والطرق قد سبق إلى الأنفس إليها . فالحمد لله الذي أذهب عنا
الحزن ، وأولى من النعمة ما اشترى الحمد بلائنا ، ذلك من فضل الله
علينا وعلى الناس ، ووعده الله سبحانه منتظر ، إذ يقول في كتابه :
وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما
استخلف الذين آمنوا من قبلهم ، وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم
وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ^(١) . وصدق ﷺ في قوله : إن
اختبار الله للمؤمن خير من اختياره . وإن مواضع الأمل للعبد خير
منها مواضع أقضية الله وأقداره . فقد كانت حركة احتاجت إليها
البلاد التي انفصل عنها والبلاد التي قدم عليها . أما المصرية منها فبكونها
على عدة من نجدته آجلاً ، وأما الشامية فبكونها على ثقة من نصره
عاجلاً ، فقد تماسكت من المسلمين الأرماء ، وقد انقطعت من المشركين الأعناق
مهاب بك البلاد تحل فيها ولولا اللبث ماهيب العرب

وعرض المملوك ما وصل إليه من مكاتبات المولى على العلم العادلي
وأدركها تحصيلاً وأحاط بها جملة وتفصيلاً . والمولى - خلد الله ملكه -
فكل ما أشار إليه من عزيمة أهداها ، ونية أمضاها ، فهو الصواب الذي
أوضح الله له مسالكه ، والتوفيق الذي قرب الله عليه مداركه . ومن
أطاع الله أطاعه كل شيء ، ومن استخاره بين له الرشد من الغي .

(١) سورة النور الآية ٥٥ .

والله تعالى يجعل له من كل حادثة نخوة^(١) ، ويكتب أجره في كل حركة ونفس وخطوة ، إن شاء الله تعالى .
صبح الأعشى للشقندي ج ٧ / ١١١-١١٢

٧١- رسالة من القاضي الفاضل إلى صلاح الدين أثناء حصاره للصليبيين حول عكا يشجعه ويحثه عليه . مقتطفات :

... وما تجدد للمدوم من الشروع في آلات الحصار لكما ، وما أرجف به من النجدتين الفرنجيتين الواسلة والبعيدة ، وافتراق المساكر في هذا الوقت للضرورة ، والتماس المسكر الشرقي الدستور للضجر ، وحاجة المولى من الإنفاق إلى ما لا يسهه التدبير ويضيق عنه الإمكان ، ومطالبة الغني بالزيادة مع الغنى ، والضعيف بأكثر مما يحتاج إليه ، وضياح فرصة واختلاف رأي بين المتشاورين من الجماعة ، وجود الألسنة بالأراء وبخل الأيدي بالمعونة ، وانفراد المولى بالتعب واشتراك الناس في الراحة ، وما ابتلي به المسلمون من مرض أظهروه ليكون لهم عذراً في القعود ، وكنتم المولى على نفسه لثلاً يجلب لأصحابنا ضعف النفوس ، فهذه الأمور وإن كانت شدائد وزائدات على الموائد فقد ألهم الله مولانا فيها سعة الصدر وحسن الصبر ليشعره أن صبره يعقبه النصر وحسبته يعقبها الأجر. ولولم ير الله تعالى أن قوة مولانا أكمل القوى وعروة عزمه أوثق العرى ، لما أهله لأن ينصر ملة لا يعرف المملوك غير الله ينصرها وغير مولانا يبأسر النصرة ويحضرها ، فليس إلا التجرد للدعاء والتجهد للقضاء ، فلا بد من قدر مفعول ودعاء مقبول ، ومن الأمثال المنظومة :

(١) النخوة : المظمة .

نحن الذين إذا علوا لم يبطروا يوم الهياج وإذا علوا لم يضجروا
ومعاذ الله أن يفتح علينا البلاد ثم يغلقها ، وأن يسلم على يدينا
القدس ثم ينصره ، ثم معاذ الله أن تغلب على النصر ، ثم معاذ الله
أن تغلب على الصبر . وإذا كان ما يقدم الله إليه المالميك قبل المولى لابد منه ،
وهو لقاء الله سبحانه ، فلأن نلقاه والحجة لنا خير من أن نلقاه والحجة علينا ،
فلا تعظم هذه الفتوق على مولانا فتتبر صبره وتملأ صدره ، فلا تنهوا أو تدعوا
إلى السلم وأنتم الأعلون ، والله معكم . وهذا على دين ماغلب بكثرة
ولانصر بثروة ، إنما اختار الله تعالى له أبواب نيات وذوي قلوب معه
وحالات ، فليكن المولى نعم الخلف لذلك السلف ، لقد كان لكم في
رسول الله أسوة حسنة (واشتدي أزمة تنفرجي) والغمرات تذهب ثم
لا تجمي . والله تعالى يسمع الأذن مايسر القلب ، ويعرف عن الإسلام
وأهله غاشية هذا الكرب ، وأستغفر الله العظيم فإنه ما ابتلى إلا بذنب .
كتاب الروضتين لأبي شامة ج ٢ / ١٦٦ - ١٦٧

٧٢ - رسالة القاضي القاضى إلى صلاح الدين يستفسره صحة إشاعة
انتشرت كل الانتشار مفادها أن ملك إنكلترا قتل في إحدى المعارك
معد المسلمين .

كثير الإرجاف بهلاك ملك الإنكليزية ، فإن كان كذلك ، فجواب
كل من قصر في يافا عن أخذه عن السلطان : إلا تنصروه فقد نصره
الله . وجواب السلطان لهم عن ملك الإنكليزية : إلا تقتلوه فقد قتله
الله . ولم يزل لطيفاً ، ولم يزل مولانا يحمل الثقل ثقبلاً وخفيفاً . ومن كان
الله عليه لم يكن قوياً ، ومن كان الله معه لم يكن ضعيفاً .

كتاب الروضتين لأبي شامة ج ٢ / ٢٠٢

٧٣ - رسالة صلاح الدين إلى الديوان العزيز يشرح تدفق الإمدادات
الفرنجية إلى عكا وحولها والوضع حولها وداخلها :

قد تقدمت المطالبة بمنازلة العدو المنازل بالنوازل ، ومجادلة أهل
الغواية بالغوائل ، ومقاتلة طواغيت الكفر الواصلة في البحر بمعد
أمواله إلى الساحل . وقد نزلوا على عكاه المحروسة براياتهم المنكوسة ،
وآرائهم المعكوسة ، وحشودهم المجموعة وجمعهم المحشودة ، وظلال الضلال
المدودة ، وإقدام الأقدام المصدودة المسدودة .

وقد مضت ثلاثة أشهر شهر بها التثليث على التوحيد سلاحه ، وبسط الكفر
جناحه ، وحصل الشرك على قروحه وعدم اقتراحه ، وقتل من الفرنج وعدم
في الوقعات التي روعت ، والروعات التي وقعت ، أكثر من عشرين ألف مقاتل ،
من فارس وراجل ، ورامح ونابل ، فما أثر ذلك في نفعهم ، ولا أرت^(١)
إلا نار صرحهم ، وما قلل حد حديثهم الحادث ، ولا قلل عدد كثيرهم
الكارث ، ولا غصوا عيون أطماعهم ، ولا فضوا خدوم اجتماعهم ، ولا ردوا
وجوههم عن مواجهة الردى ، ولا قطعوا أملهم عن الوصول إلى لدى ،
ولو قطعوا بالمدي ، وهم لمواضعهم ملازمون ، وفي مصارعهم جاثقون ،
وعلى الموت صابرون ، وإلى الحمام صائرون ، وبالختصادق من البوائق
محتمون ، وبالطوارق من الطوارق معتمضون ، وعندما أنهم للبلد محاصرون ،
وهم على الحقيقة ، وإن كانوا لكثرتهم غير محصورين ، محصورون ، وإن
جندنا لهم المنصورون .

وللعساكر الإسلامية فيهم كل يوم نكايه شديدة وفتكة مبيدة
ووقعة نايكية ، وجرمة ذاكية ، وصدمة صادعة ، وخدمة رادعة .

(١) أرت : أوقد .

ولما امتنع الدخول إليهم ، وتمنر الوصول إليهم : جمع راجل البلاد وحشد إلى حشودهم ذوو الاستعداد ، حتى نقاتل الراجل بالراجل والفارس بالفارس ، ونفترع بجمع جمعهم بكسر الفتح العانس ، وقد وصل الأخ العادل - وفقه الله للمراقي الشريفة - بالجموع الكثيرة الكثيفة ، ولعل الله أن يجعل حتف هؤلاء الفرنج فتحاً لأبواب الفتح ، ويعجل لليالي آمال المسلمين بطلوع صبح النجى ، وليس هذا العدو بواحد فينجمع فيه التدبير ، ويأتى عليه التدمير ، وإنما هو كل من وراء البحر ، وجميع من في ديار الكفر ، فإنه لم يبق لهم مدينة ولا بلدة ولا جزيرة ، ولاخطة صغيرة ولا كبيرة إلا جهزت مراكبها وأنقضت كتائبها ، وتحرك ساكنها وبرز كامنها ، ونقضت خزائنها وانقضت معادنها وحملت ذخائرها ، وبذلت أخايرها وثار نائرها وسار سائرها وطار طائرها ، ونثلت كنائنها كنائسها ، واستخرجت دفائن نقائسها .

وخرج بصلبانها أساقفها وبطاركها ، وغصت بالأفواج فجاجها ومسالكتها ، وتصلبت للصليب السليب وتغضبت للمصاب المصيب ، وقادوا في نواديهم بأن البلاد دم بلادهم ، وأن إخوانهم بالقدس أبارهم الاسلام وأبادهم ، وأنه من خرج من بيته مهاجراً وبحرب الإسلام مجاهراً ولتعبده مسترداً ، ولجده في المنخوة لدينه مستجداً فقد وهبت له ذلوبة وذهبت عنه عيوبه . ومن عجز عن السفر سفر بعدته وثروته من قدر ، وبذل البدر لمن بدر ، فجاءوا لابسين للحديد بعد أن كانوا لابسين للحداد ، وتواصلت منهم الأمداد بالإمداد ، وتوالت أنجاد الإنجاد ، وهم على النقص يزيدون وعلى الأيد يبيدون ، وبالمهج يهودون ، وعن اللجاج في خوض اللجج لا يعودون .

وهؤلاء هم الواصلون في البحر القاطعون أثباجه الكاثرون أمواجه .

فاما ملوكهم إواصلون في البر، فقد تواترت أخبارهم ، بأن خلت منهم ديارهم
ورمتهم إلى أغراضهم البعيدة أوتارهم ، وبهم يستفحل الشر ويعضل الأمر
ويصول الكفر ويحول ويتطاول الشرك ولكنه لا يطول ، فإن لدين الله
من خليقته ناصراً لا يسلمه ورازقاً لا يحرمه ، وما تمسك بجبل طاعته إلا من
فاز قدحه ، وحاز السناء قدحه وأسفر صبحه ووقر نجحه ، وبدا علوه وباد
عدوه . والخدام ، بقوة رجائه بالعوارق الإمامية والعواطف النبوية وشدة
استظهاره بالنصرة الظاهرة الناصرية آن أن يفرق الجمع ، ويجمع للطريقين
القمعين ويعيد البر بجرأ من دماء وأفدى البر والبحر ، ويقطع دابرهم
دابر الكفر (١) .

الفتح القسي للعماد الأصفهاني ٣٣٧ - ٣٣٨

٧٤ - فصل من رسالة أرسلها صلاح الدين إلى الديوان العزيز يشرح
حالة الجيش الإسلامي المتعبة وفناء الخيل والعدد والسادح والجراح التي
أصابته الجند :

قد نهك المساك طول البيكار ، وأنضاه قتال الكفار بالليل والنهار ،
لاسيما في هذه السنين الأربع ، فإنه لم يعرج فيها عن مباشرة الحروب
ومغامرة الكروب على مصيف ولا مربع ولاشتا ولا صاف ، إلا حيث صف
العدو و صاف ، وقد تكررت عليه الزخوف وتعاثرت به الحتوف ، وتفلفت
منه السيوف وتحلحلت به الصفوف ، وتمخضت بأحاده الألوف ، وتمخضت
لجني بيضه وسحره من ورق الحديد الأخضر القطوف ، حتى ستم ومل
وضجر وكل ، وكل عقد عزمه وحل ، وانهل نصله من دم الكفار وعل ،
وامثل النصر فقال عسى ولعل .

(١) أورد كل من أبي شامة في كتاب « الروضتين » ج ٢ / ١٤٩ وابن راصل في
« مفرج الكروب » ج ٢ / ٣٠٦-٣٠٧ نصوصاً أكثر اختصاراً من النص المذكور أعلاه.

وأما خيوله فقد أجهدتها الجهاد وأنضاضها الطراد وفري جلودها الجلود ، وعزت منها لكثرة الجراح الجياد ، وأعادت شهبها كمتاً حدود البيض الحداد حيث داخلها الرعب من خروج الجروح للجروح وتفريق السهام منها بين الجسم والروح ، صارت تنفر من رنة الحنية وأنة الميرية ، كأن عندها للأوتار أوتاراً ، ولطائرات النصال في لباتها أوكاراً ، أو كأنها لما رأت أنها تباريها في المطار ، وتجاريها في المضمار ، ثارت لإدراك الثار . وهذا سبب ما حدث من النفار ، وما عادت الآن تدخل على راجل الكفار .

وأما العدد فقد فقدت بالسكينة وعُدمت ، وتكسرت وتحطمت وتقصفت وتقصبت وتقصمت ، وقتلت قبل المقاتل بها ، وفي يـد من استشهد استشهدت .

وأما النشاب فإنه قد فني ، بعد أن اتخذ من أخشاب جميع ما وجد واقتني ، وقد عدمت أشجاره في منابها ، وأعوزت أخشابها من منابها ، ونفضت الكنائس ، وانفضت منه ومن كل ما يذخر الخزائن ، وما تخرج الصناعات في الممالك مصر والشام ، وما يجري معها في بلاد الإسلام ، يبرون ويريشون وينصلون ويعملون ، ويكلمون ويحملون .

واحتيج في هذه السنين التي استمر فيها القتال إلى أحمال كثيرة لا يفي بها الصنائع ولا يرفعها العمال ، وحسبها أن نصولها أعدمت من حديدتها المعادن ، وخلت من ذخائرها الأماكن .

هذا والخادم قائم بأزاء هذا الفرض وحده ، مستهدف في قطع دابر المشركين غرب عزمه وحده ، وما استمر على مساعدته وموازرتة ومعاقدته إلا صاحباً الموصل وسنجار ، وكلاماً عن سنن الإسعاف والإسعاف ما جاء ، فهو يحضر قارة بنفسه ، وآونة بولده ، ويستمر من جد الموازنة على جده ، ويواظب بعهده وعهده ومدده في مطاولة مدده .

الفتح القسي للهاد الأصفهاني ٥٥٣ - ٥٥٤

٧٥ - رسالة صلاح الدين إلى الخليفة الناصر يشرح الوضع حول عكا وتدفق المدد الصليبي عليها ، وهي من إنشاء القاضي العاضل :

... ومن خبر الفرنج أنهم الآن على عكا يدمم البحر بمراكب أكثر
عدة من أمواجه ، ويخرج منه للمسلمين ما هو أمر من أجاجه ، وقد تعاضدت
ملوك الكفر على أن ينهضوا إليهم من كل فرقة طائفة ، ويرسلوا إليهم من كل
سلاح شوكة فإذا قتل المسلمون واحداً في البر بمشوا ألفاً عوضه في البحر ،
فالزرع أكثر من الحصاد والثمرة أنى من الجذاذ . وهذا العدو المقاتل - قاتله
الله - قد زر عليه من الخنادق دروعاً متينة ، واستجن من الجنبايات
بمحسون حصينة فصار محصوراً متمناً ، حاسراً ومتدرباً ، مواصلاً ومنقطعاً ،
وعدهم الجهم قد كثر القتل ، ورقابهم الغلب - قد قطعت النصل لشدة
ما قطعها النصل . واصحابنا قد أثرت فيهم المدة الطويلة والكلف الثقيلة
في استقطاعهم لاطاعتهم ، وفي أحوالهم لا شجاعتهم ، وكل من يعرفهم يناشد
الله فيهم المناشدة النبوية في الصبيحة البدرية : اللهم إن تملك هذه العصاة ،
ويخلص الدعاء ويرجو على يد سيدنا أمير المؤمنين الإجابة ، وقد حرم
بابهم - لعنة الله عليه وعليهم - كل مباح ، واستخلص منهم كل مذخور ،
وأغلق دونهم الكنائس ، ولبس وألبسهم الحداد ، وحكم عليهم أن لا يزالوا
كذلك أو يستخلصوا المقبرة ، فيا عصابة محمد عليه السلام أخلفه في أمته
بما قطعته به مضاجعه ، ووفه الحق فينا ، فإنا والمسلمون عندك ودائع .
وما مثل الخادم نفسه في هذا القول إلا بحالة عبد لو أمكنه لوقف بالعتبات
ضارحاً وقبل ترابها خاشعاً ، وناجها بالقول صادعاً . ولو رفعت عنه العوائق
لهاجر وشافه طبيب الإسلام بل مسيحه بالداء الذي خامر . ولو أمن عدو
الإسلام أن يقول قولاً آخر لسافر ، ولولا أن في التصريح ما يعود على العدالة
بالتجريح ، لقال ما يبكي العميون ويتكفي القلوب ، ولكنه صابر محتسب

منتظر لنصر الله مرتقب قائم من نفسه بما يجب: رب إني لأملك
إلا نفسي وهاهي في سبيلك مبذولة ، وأخي ، وقد هاجر إليك هجرة
يرجوها مقبولة ، وولدي ، وقد بذلت لعدوك صفحات وجوههم ، وهان
علي "محبوبك بمكروهم فيهم ومكروهم ونقف عند هذا الحد ، والله الأمر
من قبل ومن بعد (١) .

كتاب الرؤيتين لأبي شامة ج ٢ / ١٥٧ - ١٥٨

٧٦ - رسالة من صلاح الدين إلى الديوان العزيز سنة ٥٨٦ هـ يشرح
الوضع الصعب حول عكا :

• وقد بلى الإسلام منهم (يقصد الفرنج) يقوم قد استطابوا الموت
واستجابوا الصوت ، وفارقوا المحبوبين : الأوطان والأوطار ، وهجروا
المألوفين : الأهل والديار ، وركبوا اللجج وهبوا المهج ، كل ذلك طاعة
لقسيسهم ، وامثالاً لأمر مركيسهم ، وغيره لمتعبدهم ، وحمية لمتقدمهم ،
وتهاكماً على مقسبرتهم وتخوفاً على قناتهم ، لا يطلبون مع شدة الإملاق
مالاً ، ولا يحدون مع كثرة المشاق مللاً ، بل يتساقطون على النيران تساقط
الفراش ، ويقتحمون الردى متدريعين الصبر ، متبئين الجأش ، حتى خرجت
النساء من بلادهن متبرزات ، وسرن إلى الشام في البر والبحر متجهزات ،
وكانت منهن ملكة ، استتبت خمسمائة مقاتل ، رامح ونابل ،
والتزمت بؤنثهن ، فصودف مركبها بقرب الإسكندرية فأخذت برجالها
وأراح الله من شر احتفالها ، ومنهم ملكة وصلت مع ملك الألمان في
ذوات المقانع من الفرنج ، مقنعات دارعات يحملن إلى الطعان الطوارق

(١) ورد جزء من هذه الرسالة ضمن رسالة أرسلها صلاح الدين إلى الخليفة الناصر في
« صبح الأعشى » للقلقشندي ج ٧ ، ١٢٧ - ١٣٠ . انظر الوثيقة رقم ٦٧ في هذا الكتاب .

والقنطاريات ، وقد وجدت في الوقعات التي جرت ، عدة منهن في القتلى ، فما عرفن حتى سلبن .

وإن البابا الذي لهم برومية قد حرم عليهم مطاعمهم ومشاربهم وقال : من لا يتوجه إلى القدس مستخلصاً فهو عندي محرم ، لا منكح له ولا مطعم ، فلأجل هذا يتهافتون على الورود ، ويتهاككون على يومهم الموعود . وقال لهم : إني واصل في الربيع ، جامع على الاستغفار شمل الجميع . وإذا نهض هذا الملعون فلا يقعد عنه أحد ، ويصل معه بأهله وولده ، كل من يقول لله أهل ولد .

فهذا شرح حال هؤلاء وتعصبتهم في ضلالتهم ، ولجاجتهم في غوايتهم ، بخلاف أهل الإسلام فإنهم يتضجعرون ولا يصبرون ، بل يتفللون ولا يجتمعون ، ويتسللون ولا يرجعون ، وإنما يقيمون ببذل نفقة ، وإذا حضروا حضروا بقلوب غير متفقة . ليعلم أن الإسلام من عند الله منصور ، وأن الكفر بإرادة الله محسور مدحور . والله أعلم^(١) .

تاريخ ابن الفرات ج ٤ / ٢٢٩ - ٢٣٠

٧٧ - رسالة أخرى من صلاح الدين إلى الخليفة الناصر يشرح الوضع حول عكا وتدفق الإمداد إلى الصليبيين وخصوصاً وصول ملك الإنكليز ، من إنشاء القاضي الفاضل سنة ٥٨٧ هـ . مقتطفات :

ما قطع الخادم الخدم إلا لأنه قد ضجر وسأم من المطالعة بخبر هذا العدد الذي قد استفحل أمره واستشرى شره ، فإن الناس ما رأوا ولا سمعوا عدواً حاصراً منحصراً ، غامراً مغموراً ، وقد تحصن بخنادق تمنع الجائز من الجواز ، وتغوق الفرص عن الانتهاز ، ولا تقتصر عدتهم عن خمسة آلاف فارس ومائة ألف راجل قد أفنأهم القتل

(١) أورد أبو شامة في كتاب « الروضتين » ج ٢ ، ١٦١ - ١٦٢ نصاً قريباً كل القرب مع النص أعلاه .

والأسر ، وأكلتهم الحرب ولفظهم النصر . وقد أمدم البحر بالبحار
وأعان النار أهل النار ، واجتمع في هذه المجموع الجيوش الغربية والألسنة
الأعجمية من لا يحصر معدوده ولا يتصور في الدنيا وجوده ، فما أحقهم
بقول أبي الطيب المتنبي .

تجمع فيه كل لسن وأمة فما تفهم الحداث إلا التراجم

حق إنه إذا أسر الأسير أو استأمن المستأمن احتيج في فهم لفته إلى
عدة تراجم ينقل واحد عن آخر ، ويقول ثانٍ ما يقول أول ، وثالث
ما يقول ثانٍ . والأصحاب كلوا أو ملوا ، وصبروا إلى أن ضجروا
أو تجلدوا .

والمساكر التي تعمل من المكان البعيد لا تصل إلا وقد كل ظمها
وقل وقمرها ، وضاق بالبيكار صدرها ، ولا تستفتح إلا بطلب الدستور ،
ويضر ضجرها بالسمعة عند العدو المخدول . ولهم - لعنهم الله -
تنوع في المكائد ، فإنهم قاتلوا مرة بالأبرجة وأخرى بالمنجنيات ، ورادفة
بالدبابات ، وتابعة بالكباش ، وآونة بالوالب ، ويوما بالنقب وليلاً
بالسرايات ، وطوراً بطم الخنادق ، وآناً ينصب السلاط ، ودفعة بالزحف
بالليل ، وحالة في البحر بالمراكب . ثم شرهوا فأقاموا في وسط
خيامهم حائطاً مستطيلاً يشبه السور من التراب ، وتلاً تشبه الأبرجة
مدورة ، ورفعوها بالأخشاب وعلوها بالحجارة ، فلما كملت أخذوا التراب
من ورائها ورموه قدامها ، وهم يتقدمون أولاً فأولاً ، وترتفع حالاً بعد
حال حتى صارت منه كنصف غلوة سهم . وقد كان الحجر والنار يوقدان
في أبراج الخشب ، وهذه أبراج وستائر للرجال ومنجنيات من العطب

لاتؤثر فيها الحجارة الرامية ولا تعمل فيها النار الحامية ... (١)
تاريخ ابن الفرات ج ٤ ، ق ٢ ٩١-١١

٧٦ مكرر - فقرات من رسالة أرسلها صلاح الدين إلى الديوان العزيز
حول حصار الفرنج لعكا ، وكيف تمكن المسلمون من إحراق الأبراج
الثلاثة التي نصبها الفرنج لضرب عكا :

ولما كان يوم السبت ظهر أهل الجمعة على أهل الأحد ، ورمى الأصحاب
المحصرون المنصورون عدة العدو وأبراجه بقذور النفط من البلد فخطبت
السنة النيران على تلك الأعواد ، بل على تلك الأطواد ، وألحقتها رداء
الردى وألحقتها بالوهاد ، وفرشت رمادها لما تم أولئك المراد .

فكانت تلك النار على الكفر ضراماً ، وعلى الإسلام برداً وسلاماً ، واحترقت
الأبراج الثلاثة على معتقدي التشليث ، ودبت النار إلى الدبابات بصدمة
التأثير وحدمة التأثير . وما أطول ألسن النار وأفصحها بالدعاء على أهلها
بالتباعد ، وقد أبدت إلى الإسلام بتضرعها وتضرعها وجه الاستبشار .
وما أحسنها وهي ترمي بشرر كالقصر ، ويكسو سنى لها وجوه المؤمنين
بشر النصر .

وما أقطعها لدابر المشركين . وقد خُصِّصَتْ بإحراق تلك الآلات عن
البلد أجنحة الحصر ، وبسم بعد عبوس البوس باسم الله ثغر الثغر ، وقد
بفتت هذه الفجيمة فجأة من حوته تلك البروج ، ودخل إلى طبقاتها قوم
لإطفاء النار فتعذر عليهم الخروج ، وهلك فيها أكثر من ثمانمائة دارع ،
وخرج من أهل البلد لما 'حق' الفرنج كل مسابق إلى الفنيمة مسارع ،

(١) أورد كل من أبي شامة في كتاب « الروضتين » ج ٢ ، ١٨٥-١٨٦ وابن راضل
في « مفرج الكروب » ج ٢ - ٣٥٢ نصاً مشابهاً لنصنا هذا مع بعض الخلافات الثانوية .

وكسبوا من الدروع والمناسل والسيوف على ما وجدوه خلل رماد تلك
الحتوف .

وكان القوم قد اعتصموا بالأبراج وثوقاً بوثاقها ، واشتدوا بشدتها فيما
علق بهم من علاقتها ، ووصلوا بها أجنتهم ، وذخروا فيها أسلحتهم فاخفقت
ظنونهم وسخت عيونهم ، وخسر هنالك البطلون ، فوقع الحق وبطل ما
كانوا يعملون ^(١) .

الفتح القسي للهاد الأصفهاني ٣٧٦

٧٧ مكرر - رسالة من صلاح الدين إلى أخيه الملك العادل نائبه في مصر
بشان انتصار الأسطول الإسلامي في مياه البحر الأحمر على أسطول
صليبي حاول غزو سواحل الحجاز فدمره الأسطول المسلم بقيادة حسام
الدين لؤلؤ وذلك سنة ٧٨ هـ ، والرسالة من إنشاء القاضي الفاضل :

وصل كتابه المورخ بخامس ذي القعدة المسفير من الأخبار ، المبتسم عن
المبتسم من الآثار ، وهي نعمة تضمنت نعماً ، ونصرة جعلت الحـرم
حرماً ، وكفاية ما كان الله ليؤخر معجزة نبيه - ﷺ - بتأخيرها ، وعجوبة
من عجائب البحر التي يحدث عن تسييرها وتسخيرها ، وما كان الحاجب
لؤلؤ فيها إلا سهماً أصاب وحمده ممدده ، وسيفاً قطع وشكر مجرد ،
ورسولاً عليه البلاغ ، وإن لم يحل ما أقرته يده . وقد غبطناه بأجر
جهاده ونجح اجتهاده ، ركب السبيلين برأ وبجرأ ، وامتنى السابقين مركباً
وظهراً ، وخطاً فأوسع الخطو ، وغزا فألجج الغزو ، وجند العنان الذي
في هذه الغزوة أطلق ، والمال الذي في هذه الكرة أنفق .
وهؤلاء الأسارى فقد ظهوروا على عورة الإسلام وكشفوها ، وتطرقوا بلاد

(١) سورة غافر : الآية ٧٨ .

القبلة وتطوفوها ، ولو جرى في ذلك سبب ، والعبادة بالله ، لضاقت
الأعذار إلى الله والخلق ، وانطلقت الألسن بالمسئمة في الغرب والشرق ،
ولا بد من تطهير الأرض من أرجاسهم ، والهواء من أنفاسهم بحيث لا يعود
منهم مخبر يدل الكفار على عوارث المسلمين . وإن هذا العدو القليل قد
قال ذلك المنال الجليل ، وهذا مقام إن روعي فيه حراسه الظاهرة والوفاء
للكافر ، حدث الفتق الذي لا يمكن في كل الأوقات سده ورتقه ، ولدغ
المؤمن مرتين ، والأولى تكفي لمن له في النظر تفقه .

٧٨ - قطعة من خطاب ثان أرسله صلاح الدين إلى أخيه العادل
بأمره بقتل الأسرى الذين مر ذكركم في الخطاب السابق :
ونحن نهنيء المجلس السامي بظفره ، ولم لا يكلمه وينصره ، ولم لا يعجبه
ويشكره ، وليس في قتل هؤلاء الكفار مراجعة ، ولا للشرع في إبقائهم
فسحة ولا في استبقاء واحد منهم مصلحة ، ولا في التفاوضي عنهم عند الله عذر
مقبول ، ولا حكم الله في أمثالهم عند أهل العلم بمشكل ولا مجهول ، فليمض العزم في
قتلهم لتناهي أمثالهم عن فعلهم . وقد كانت عزيمة ما طرق الاسلام
بمثلها ، وقد أتى الله بعدها بلطفه أجراها على يد من رآه من أهلها .

٧٩ - قطعة من خطاب ثالث أرسله صلاح الدين إلى أخيه الملك
العادل يخبره بضرورة قتل الأسرى المذكورين في الخطاب السابق .
وقد تكرر القول في معنى أسارى بحر الحجاز ، فلا تذر على الأرض
من الكافرين دياراً ، ولا توردهم بعد ماء البحر إلا تاراً . فأقلهم إذا
بقي جنى الأمر الأصعب ، ومتى لم تعجل الراحة منهم وعدت العاقبة
بالأشقى الاتعب .

كتاب الروضتين لأبي شامة ج ٢ ٣٦-٣٧

٨٠ - قطعة من خطاب أرسله صلاح الدين إلى الديوان العزيز في بغداد يخبره بغزوة البحر الأحمر سالفة الذكر ،

...وسارت المراكب الإسلامية طالبة شوكة المراكب الحربية المعارضة للمراكب الحجازية واليمنية ، وكانت مراكب العدو قد أوغلت في البحر ، ودلها على عورات الساحلين من العرب من أشبه ركبها في الكفر ، فوصلت إلى عيذاب ، فلم ينسـل منها مراداً ، غير أن ما وجدته في طريقها أو في فريضة عيذاب نالت منه وشعثت ، وأفسدت فيه وعثت ، وتمادت في الساحل الحجازي إلى رابع إلى سواحل الحوراء ، وهناك وقع عليها أصحابنا وأوقعوا بها أشد إيقاع ، وأخذوا المراكب الفرنجية على حكم البدار والإسراع ، ففر فرنجها إلى الساحل ، فركب أصحابنا وراهم خيول العربان التي وجدوها ، وأخذوا الكفار من شعاب وجبال اعتصموا بها وقصدوها ، وكفى المسمون أشد فساد في أرضهم ، وأقطع قاطع لفرضهم ، وانبسطت آمالهم بقبضهم ، وعميت على الكفار هذه الطريق التي لو كشف لهم غطاؤها قدماً ، ولو أحاطوا بها علماً لاشتطت نكايتهم ، واشتدت جنائيتهم وعز على قدماء ملوك مصر أن يصرعوا هذه الأقران ويطفئوا هذه النيران ، ويركبوا غوارب اللجج ويرخصوا عوالي المهج ، ويقتنصوا هذا الطائر من جوه الذي لا يدرك لوحه ، ويدركوا هذا العدو الذي لا يدرك ألا أن يستنجد عليه ملائكة الله وروحه .

كتاب الروضتين لأبي شامة ج ٢ ٣٦ - ٣٧

٨١ - قطعة من خطاب ثان أرسله صلاح الدين إلى الخليفة الناصر حول نفس الموضوع السابق :

كان الفرنج قد ركبوا من الأمر نكراً ، وافترضوا من البحر

بكراً ، وعمرؤا مراكب بحرية شحنوها بالمقاتلة والأسلحة والأزواد ،
 وضربوا بها سواحل اليمن والحجاز ، واثخنوا وأوغلوا في البلاد ،
 واشتدت مخافة أهل تلك الجوانب ، بل أهل القبلة لما أومض إليهم من
 خلل العواقب وما ظن المسلمون إلا أنها الساعة ، وقد نشر مطوي أشرافها
 والدنيا وقد طوي منشور بساطها ، وانتظر غضب الله لفناء بيته
 المحرم ومقام خليله الأكرم وراث أنبيائه الأقدم ، وضريح نبيه الأعظم
 ﷺ ، ورجوا أن تشهد البصائر آية كآية هذا النيت إذ قصده أصحاب
 الفيل ، ووكلوا إلى الله الأمر ، وكان حسبيهم ونعم الوكيل . وكان
 للفرنج مقصدان : أحدهما قلعة أيلة التي هي على فوهة بحر الحجاز
 ومداخله ، والأخرى الخوض في هذا البحر الذي تجاوره بلادهم من
 سواحل ، وانقسموا فريقين وسلكوا الطريقين : فأما الفريق الذي قصد
 قلعة أيلة فإنه قدر أن يمنع أهلها من مورد الماء الذي به قوام الحياة ،
 ويقابلهم بنار العطش المشبوب الشباه . وأما الفريق القاصد سواحل
 الحجاز واليمن فقدر أن يمنع طريق الحاج عن فجه ، ويحول بينه وبين
 ثجه ، ويأخذ تجار اليمن وأكارم عدن ، ويلم بسواحل الحجاز ، فيستبيح
 والعياذ بالله المحارم ، ويهيج جزيرة العرب بعظيمة دونها العظام .
 وكان الأخ سيف الدين بمصر قد عمر مراكب وفرقها على الفرقتين ،
 وأمرها بأن تطوي وراءهم الشقتين . فأما السائرة إلى قلعة أيلة فلأنها
 انقضت على مرابطي منع الماء انقضا الجوارح على بنات الماء ، فقدفتها
 قذف شهب السماء مسترقي سمع الظلماء ، فأخذت مراكب العدو برمتها
 وقتلت أكثر مقاتلتها ، إلا من تعلق بهضة وما كاد ، أو دخل في
 شعب وما عاد ، فإن العربان اقتصوا آثارهم والتزموا إحضارهم ، فلم
 ينج منهم إلا من ينهى عن المعارده ، ومن قد علم أن أمر الساعة واحدة .

وأما السائرة إلى بحر الحجاز ؛ فتأدت في الساحل الحجازي إلى رابع إلى سواحل الحوراء ، فأخذت تجاراً وأخافت رفاقاً ، ودلها على غوارب البلاد من الأعراب من هو أشد كفراً ونفاقاً ، فهناك وقع عليها أصحابنا وأخذت المراكب بأسرها وفرفرنجها بعد إسلام المراكب ، فسلكوا في طريق الجبال مهاوي المهالك ، ومعاطن المعاطب ، وركب أصحابنا وراءهم خيل العرب فشلوم شلاً ، واقتنصوم أسراً وقتلاً ، وما زالوا يتبعونهم خمسة أيام خيلاً ورجلاً ، نهراً ولبلاً ، حتى لم يتركوا منهم غبراً ولم يبقوا لهم أثراً . وسبق الذين كفروا إلى جهنم زمراً ، وقيد منهم إلى مصر مائة وسبعون أسيراً . وسير هذا الكتاب إلى الديوان العزيز ببغداد (١) .

مفرج الكروب لابن واصل ج ٢ - ١٢٩ - ١٣١

٨٢ - قطعة من خطاب أرسله صلاح الدين إلى بفسداد مبشراً بانتصار أسطوله في البحر المتوسط وانتصار جيشه في المغرب :
ومن جملة البشائر الواصلة من مصر عود الأسطول مرة ثانية كامراً كاسباً غانماً غالباً ، بعد نكايته في أهل الجزائر ، وإخراجه ما وجده فيها من الأعمال والعمائر ، ومن جملة ما ظفر به في طريقه : بطشة من مراكب الفرنج تحمل أخشاباً منجورة إلى عكا ، ومعهم نجارون لبنوا منها شواني ، فأسر النجارون ومن معهم ، وهم نيف وسبعون . وأما الأخشاب فقد انتفع بها المجاهدون ، وكفي شرها المؤمنون . وللخادم في المغرب عسكر قد بلغت أقصى أفريقية فتوحه ، وعادود به شخص الدين في تلك البلاد روحه .

كتاب الروضتين ج ٢ - ٣٧

(١) أورد أبو شامة في كتاب «الروضتين» ج ٢ - ٣٧ نصاً يكاد يطابق نصنا أعلاه .

٨٣ - رسالة من صلاح الدين إلى صاحب الموصل يشكره لإرسال ولده على رأس جيش ليقاتل مع المسلمين حول عكا ، ويصف الوضع الصعب حولها :

قدم علاء الدين - دام علاؤه - في مقدمي الجنود الأنجاد ، ووقف اجتواده على موقف الجهاد ، وما أكرمه قائماً في المقام الكريم ، وعظيماً خاطباً دفاع الخطب العظيم ، ووصل فوصل جناح النجاح ، وأنشر الصدور بما صدر به لها من نشر الانشراح ، وجاء والكريمة ذاهبة بالأرواح ، والحرب ساقية طلاء الطلى في صحاف الصفاح ، وقد برزت بنات الأغمد الذكور على أكف أكفاء الكفاح لنكاح الهام بالسفاح ، وشارك في الجهاد وشد الأزر وسدد الأمر ، وآزر وعضد ، وظاهر وأسعد . ولاخفاء عن العلم بحال الفرنج في هذه السنة واجتماع ملوكهم وكنودهم ، وتوافد إمداد حشودهم ، وقد استشرى شرهم ، واستفري ضرهم ، وأعضل خطيهم واستفحل أمرهم ، واشتغلوا منذ وصلوا بنصب منجنيقات وتركيب آلات ودبابات ، وزحفوا إلى بلد عكا يجمعهم ، ووقدوا يجرهم ، وأخذوا فيه نقوباً ، وحكوا في الأسوار من الأسواء بضرب المجانيق ضروباً . والثغر الآن قد أشرف ، والمدو قد أسرف وكلما زحف إلى الثغر زحفت العساكر الإسلامية إليه وهجمت عليه . والمدو بخندقه محتجز ، والفرصة الغفلة عنه منتهز ، ومن جثوم الموت عليه في مجشمة محتوز ، ولم يبق إلا أن يتدارك الله الثغر بلطفه ، ويجريه على المعروف من عادة نصره وعرفه .

والجاهدون فيه قد هانت عليهم المهج ، ووضح لهم من ثبات جناتهم المنهج ، وفي كل يوم يسدون بأشلاء الهاجين عليهم الثلم ، ويجلون عنهم بما يشبونه من نيران الغطاء الظلم .

والعدو قد لج ، والحديد من قرع الحديد قد ضج ، والبلد مشف
والبلاء عليه موف . والمأمول من الله أن يأتي من نصره بما ليس في
الحساب ، وأن يعيد ما جمع من أمر الأصحاب إلى الأصحاب ،
ويكفي هذه النوبة الصعبة ، فهو كافي النوب الصعاب .
الفتح القسي للهاد الأصفهاني ٤٩٨

٨٤ - رسالة صلاح الدين إلى صاحب إربل مظفر الدين يشرح
الوضع الصعب حول عكا وداخلها :

لما عاين أصحابنا بالبلد ما هم عليه من الخطر وأنهم قد أشفوا على
الفر ، فر جماعة من الأمراء بمن قل بالله وثوقه وأعى قلبه فجوره
وفسوقه ، ولقد خانوا المسلمين في ثغرهم ، وباؤوا بوبال عذرهم ،
وما قوى طمع العدو في البلد إلا هربهم ، وما أرمب قلوب الباقيين
من مقاتلتهم إلا رهيبهم ، والمقيمين من أصحابنا الكرام قد استحلوا
أمر الحمام وأجمعوا أنهم لا يسمون حتى يقتلوا من الأعداء أضعاف
أعدادهم ، وأنهم يبذلون في صون ثغرهم غاية اجتهدهم . وكانوا تحدثوا
مع الفرنج في التسليم ، فاشتطوا واشتطوا ، فصبروا بعد ذلك وصابروا ،
ومدوا أيديهم في القوم وبسطوا ، فتارة يخرجونهم من الباشورة وتارة
من النقيب . والله تعالى يسهل تنفيس ما هم فيه من الكروب .

كتاب الروضتين لأبي شامة ج ٢ - ١٨٧

٨٥ - رسالة صلاح الدين إلى أخيه سيف الإسلام في اليمن عن
وضع المسلمين المحصورين في عكا :

كان كتب إلينا أصحابنا بمكاه أننا حبسنا ، وإلى ليلة نصف شعبان

لا يبقى لنا شيء نفقاته ، وبقاؤنا ببقاء القوت ، وفواتنا فواته . فبينما نحن في هذا المهم مفكرون ، ومن هذا المهم متنكرون ، إذ ظهر للعيون بالقرّة ، وللقلوب بالقرار والمسرة ، ثلاث بطس على ثبج البحر مستقرة يبعثها لطف الله بعثاً ، وتحشها الريح القوية حشاً كأنها جبال بإقبالها تروع ، ونسور أجنتها القلوع . وشعر الفرنج بها فضاقت مذاهبها وبرزت مراكيها ودبت عقاربها ، وقربت من البطس شوانبها وقويت في البطس أمانبها ، وحي ما فيها من فيها من الرجال ، وهي تجري بهم في موج كالجبال ، وكأن جواربها عرائس بما لهن من الجهاز ، وكأن البحر المتموج ثوب بتلك الأعلام المنشآت معلم الطراز ، بل كأنها تجار تحمل الصدقات إلى ذوي الإعواز ، فجاءت فجأة متسقة موسقة ، وأتى الآتي بها موافقة موفقة ، فلم يقدر على مقاربتها ومقارنتها شئني شانيء ، وكانت كلاءة الله وعصمته لها خيراً من كل كاليء .

وجازت والكفر خزيان ينظر ، وفازت بالعز والعدو بذيل الذيل يعثر ، وكان وصولها أوان انفضاض الأزواد وإنفادها ، فملأت المدينة بفلاتها وأزوداها ، وعصمت أرماقها ودسمت أمارقها وقسمت أرزاقها وأشبعمت جوعها ، وشعبت صدوعها ، وأثالت آرابها ، وأزالت أحداها وخصتها بخصبها ، وصحت لها بسجعها .

فأفاقت من الفاقة ، وأفرقت من الفرق ، وسكنت بعد الفلق ، وعاد إليها بعد الغسق إسفار الفلق والحمد لله المغني بعد الإعدام ، المولي السني بعد الإظلام ، والمغني بأوليائه أعداء الإسلام .

الفتح القسي للمهاد الأصفهاني ٤٢١ - ٤٢٢

٨٦- رسالة أهل عكا إلى السلطان صلاح الدين لما ضاق بهم الحصار
كل الضيق :

لما بلغ منا العجز إلى غاية ما بعدها إلا التسليم . ونحن في الغد -
يعني يوم الأربعاء ثامن جمادى الآخرة - إن لم تعملوا معنا شيئاً نطلب
الأمان ونسلم البلد ونشتري مجرد رقابنا .

النوادر السلطانية لابن شداد ١٦٧

٨٧- رسالة ثانية من أهل عكا إلى السلطان صلاح الدين :

لما قد تبايعنا على الموت . ونحن لانزال نقاتل حتى نقتل ، ولانسلم
هذا البلد ونحن أحياء ، فأبصروا كيف تصنعون في شغل العدو عنا
ودفعه عن قتالنا . فهذه عزائنا ، وإياكم أن تخضعوا لهذا العدو أو
تلينوا له ، فأما نحن ، فقد فات أمرنا .

النوادر السلطانية لابن شداد ١٦٩ - ١٧٠

٨٨- رسالة أهل عكا الأخيرة للسلطان :

ضايق الفرنج عكا كل المضايقة ، ولم يتمكن السلطان صلاح الدين من إنقاذها
أو التخفيف عن المحصورين ، وحاول الاتفاق مع الفرنج فتعنتوا كل
التعنت ، وعلم أهل عكا تعنت الفرنج ، فأرسلوا إلى السلطان يقولون قبيل
سقوط البلد بيد الفرنج .

يامولانا : لانتضع لهؤلاء الملاحين الذين قد أبوا عليك الإجابة إلى
مادعوتهم فينا ، فإنا قد بايعنا الله على الجهاد حتى نقتل عن آخرنا ،
وبالله المستعان .

البداية والنهاية لابن كثير ج ١٢ - ٣٤٤

٨٩- رسالة صلاح الدين إلى الديوان العزيز يشرح ما تم وحصل
بعد رحيله عن عكا :

... وساروا [يقصد الجيش الصليبي] في مواضع ما للنيك عليهم
فيها سبيل ، ولا لقدام القراع في مجالها بجبل ، وعساكرنا تضايقتهم
كل مضيق ، وقطرتهم بالبلاء بل المنايا في كل طريق ، وهم على البحر
لا يفارقونه ، ومن المورد إلى المورد في كل مرحلة لا يتجاوزونه ، فإن
المياه قريب بعضها من بعض ، ومسيرهم بمقدار مسافة ما بين المنهين ،
وإذا لزوا لم يبعدوا بين المنزلتين . وكانت لنا إلى هذه الغاية معهم في
كل بقعة وقعة ، وفي كل مرحلة مقتلة ، وفي كل منزلة منازل ، وأوردناهم
الردى في كل مورد ، وقصدناهم بالشدائد في كل مقصد ، وسببنا
حماهم للحمام في كل سبيل ، وساء صبايحهم منافي كل مغدى ومقيل ،
وطريقهم على البحر كلها مضايق وأجم ورمال ومواضع لا يتسع فيها مجال
ولا يتهاى قتال .

وكلما وجدنا فسحة ضايقناهم ، وأرهننا حدود العزائم والصوارم
وأرهنناهم ، وجرت معهم عدة وقعات كاد الكفر فيها يبور ، ودائرة
السوء على أهل بنا تدور ، وماء أهل النار بفيض بأسنا عليهم يغور ،
ولولا أن الله تعالى قد أخر مواعده في نصر أوليائه وقهر أعدائه لوقع
الفرار من شغلهم ، وشملت نعمته لنا بتبديد شملهم .

فمنها :

يوم رحيلهم عن عكا أرهنهم الزكية الزكية ونكأت فيها منهم
الرمية بل المنية ، وكان الولد الأفضل يومئذ متولي اليك ، فتولى
إسعار لهب المعترك ، ووقف لهم في المضيق على الطريق ، وباشر جمعهم
بالتفريق وقطع آخرهم عن أولهم ، وعاق الساقة عن الوصول إلى منزلهم

وبتر وتبك ، وفتك وهتك ، وقتل وسفك وطلب وأدرك .
وعبر الفرنج نهر حيفا لما دهمهم من الأمر ، واحتموا بالمنزل الوعر ،
ووصل عسكرينا وقد قنعوا بالنزول ، وتجمعوا في الوعر عن السهل ،
ولم يبق إليهم نهج للوصول ، وأقام الفرنج في تلك المئذنة أياماً ، وقد
ثالت معاطسهم لإرغاماً ، حق استجدوا عدداً واستنجدوا مدداً ،
واستجدوا بمن وراءهم عدداً ، وأحكموا التدبير واستأنفوا المسير .
ومنها :

يوم انفصلهم عن قيسارية بارتهم الرماة وبرتهم بالمبرية وأنفذت إليهم
رسل النية ، وقتلت منهم مقتلة جيدة ، ولم تزل السهام إلى مقاتلتهم
مصبوبة مسددة ، إلى أن احتموا بالنزول ، وحلوا عقد تلك البليسة
عنهم بالحلول ، وقد قتلت من خيلهم عدة ألف رأس ، لم ينفصل
راكبها إلا وهو من ثوب النجيع كاسر ، ثم كانت المياه في طريقهم
متقاربة المناهل والمسافات غير متباعدة المنازل ، فإذا لزوا بالمنازلة
ارتزوا^(١) إلى المئذنة ، ولاذوا - وهم أهل النار - بالماء ، وقادم المجز
عن الاحتمال إلى الاحتاء .

ثم استقلوا ، منتصف شعبان ، سائرين على البحر بمادتهم وعاديتهم ،
شاكين في منعتهم ، ممتنعين بشوكتهم وشكيتهم ، والحبل تجري بهم
جريان السيل ، والراجل يلتف عليهم في مثل سواد الليل ، والعساكر
الإسلامية جائلة في عراضهم ، مائلة إلى اعتراضهم ، موفقة في مرامها ،
مفوقة لسهامها ، محرقة أهل الجحيم بضرارها .

ولما نشب فيهم النشاب وأعجزهم وأزعجهم وأخرجهم بكثرة النكابة

(١) ارتزوا : ثبتوا .

فيهم وأرهجمهم ، كابرُوا وصابروا إلى أن وصلوا أرسوف وقد شارفوا الخسوف وقاربوا الحتوف ، فحملوا يميلتهم حملة واحدة . وجاؤوا كالسحاب بارقة وراعدة .

واندفعت الأطلاب الإسلامية أمامها ، ولم تثبت قدامها حتى أبعدوا . يميلتهم في حملتهم ، وبحركتهم في معركتهم ، وظنها السلطان هزيمة ، وبانت بالعاقبة أنها كانت عزيمة ، فإن القلب المنصور ثبت فئة للمتحمزة ومؤثلاً للمتفزز المتحرز . ووقف الأخ العادل ثابتاً قلبه ، ثابتاً طلبه ، وكر عليهم في حزبه ذوي الحمية والأنوف الأبية ، والههم العليسة ، كرة ردتهم وأردتهم وصرفتهم عن بلوغ الغاية وصدتهم ، فاستدركت مافوط في النوبة من النبوة ، واستمسكت بما استأنفته في العزمة من القوة ، وقتلت منهم كنداً كبيراً ، وعدداً كثيراً ، وعاد نظم هامهم بالعراء نشيراً ، ونزلوا بأرسوف راغمي الأنوف ، قد قل جندهم وقتل كندهم .

وهذا طاغوتهم المهالك بسيف سيف الدين ، كان مطاع أولئك الملاعين وإيليس تلك الشياطين ، والمعروف بسير جاك ، واستمر حكمه قبل وصول ملك الاشراك ، وتحت حكمه عدة كثيرة من القواقص والبارونية ، ونفذ أمره على الداوية والاستبارية وكان من عظم شأنه وفخامة مكانه أنه يوم صرع قاتل دونه جماعة من المقدمين المحتمسين ، فما قتل حتى قتلوا ، ولا بذل روحه حتى بذلوا ، وجزع ملك الإنكليز لمصرعه وفزع من ورود مشرعه .

ونزلت المساكر الإسلامية على الماء ، وهو بعيد عن نعيم الكفار ، وخيمت عليهم بحكم الاضطرار ، ثم رحلوا وقصدوا المسكر فصادفهم بقرب يافا ، وكل منهم استدرك بقصده إياها تلفه وتلافي ، فجال دونهم

أفدح منونهم بحيلة ، ومن جمعهم بقمهم مديلا ، وعلى قومهم بوقهم بحيلة ، حتى بأسطهم في ميادينها وخالطهم في بساينها ، ورابطهم بالأسود في عرينها ، وأسرى الحين إلى صراحينها .

فما وصلوا المدينة إلا وقد تخطفوا من حولها ، واستولى الرعب على قلوبهم من بأس الحرب وهولها ، وخافوا من قريضة مسألة النكابة وعولها ، وما صدقوا كيف نجوا وأفلتوا ، وسكنوا فيها بنية الاستيطان وتثبتوا ، وعلموا أنهم إن خرجوا أخرجوا ، وإن سلكوا هلكوا ، وزعموا أنهم إذا صبروا ملكوا .

الفتح القسي للهاد الأصفهاني ٥٤٦ - ٥٤٨

٩٠ - رسالة صلاح الدين إلى قطب الدين بن نور الدين قره أرسلان صاحب حصن آمد يخبره بسقوط عكا :

قد أحاط علم المجلس بما حشده الكفر في هذه السنة من مدد ملوكه وكثر على نهار الإسلام بإظلام ليل الكفر وحلوكه ، فالإسلام ينشد ظهيره ، ويطلب الدين لكشف الغمة من (ابن نوره) نوره .

وهذه عكا التي كنا عنها ندافع وعن ثغرها نمانع ، ونجري دماء الواردين في البحر لقصدها في بحرها ، ونرد للرد عنها مكابدة العداة في نحرها ، قد تمكن منها الكفر على كره من الإسلام ، واحتاج من أبي إسلامها بعد أن صابر وصبر إلى الإسلام .

وكانت مودودة فأصبحت مؤودة ، وصارت مفصوبة بمد أن كانت عارية من الكفر مردودة ، وإذا أفكر من خذلها ، وما أخذها ، وغاب عنها وما حضرها ، علم أنها أسيرة إهماله وأخيدة إغفاله . وحاشى أن يكون المجلس بالقبية عنا راضياً ، وعن النجدة عند تحقق الحاجة إليها متغاضياً .

وما بقي للفرنج مع استيلائها على الموضع ، إلا زائد قوة في المطمح والمطمع
وقد هزمنا على المصاف ، ومن صدمة الكافر بالجد الكافي الكاف . والله كافل
دينه بالنصر ، والمردى بكفره أهل المكر . وما هذا أوان الونى ، بل هو
زمان استنجاح المني ، فإن العدو الخادر قد آن أوان أن يصحر ، وليل الهدى
قد قرب أن يسفر .

الفتح القسي للعباد الأصفياني ٥٢٠

٩١ - رسالة صلاح الدين إلى صاحب سنجار يخبره بما تم بعد سقوط

عكا وخراب عسقلان

قد تقدم الإعلام بما جرى عند رحيل العدو على قصد عسقلان ،
وما تم عليه منا في طريقه من النكابة والخذلان ، وأنه قطع في سبعة عشر
يوماً مسافة يومين لما لبسه وغامر في الحين ، وما صدق كيف وصل
إلى يافا فأظهر بها الاستيطان وأقام بها يعمر المكان . وهذه مدينة يافا
متوسطة بين القدس وعسقلان ، ومنها إلى كل واحدة منها مسافة نصف
نهار ، وكلتاهما من العدو على خوف وحذر ، وكل واحد من الموضعين
يحتاج في تحصينه إلى ثلاثين ألف مقاتل ، وتعدر الجمع بين حفظ الشغرين
وتحصين البلدين : وتمينت في تخريب عسقلان عمارة القدس وتحصينه
وعصمته من العدو وثأمينه .

كتاب الروضتين لأبي شامة ج ٢ - ١٩٣

٩٢ - رسالة صلاح الدين إلى شمس الدولة بن منقذ رسوله إلى سلطان

الموحدين يشرح له سقوط عكا ويستحثه على شرح الوضع للسلطان
الموحدي والعودة بالنجدة . وهو من إنشاء القاضي الفاضل .

أقد تجاوزت عدة من قتل على عكا - يعني من الفرنج - الخمسين ألفاً ،

قولاً لا يطلقه التسمح ، بل يجوز التصفح ، فأنبرى في هذه السنة إفرنيس
وإنكليس وملوك آخرون في مراكب بحرية وحمالة حملوا فيها الخيول
والخيالة والمقاتلة والآلة ، ووصلت كل سفينة تحمل مدينة ، فأحدثت
بالثغر ، فمنعت الناقل بالسلاح إليه ، والداخل بالميرة إليه .

فصل :

وأخذوا البلد على سلم كالحرب ، ودخله العدو ، ولو لم يدخله من
الباب لدخله من النقب ، وما وهننا لما أصابنا في سبيل الله وما ضعفنا
وما رجفنا وراءنا ولا انصرفنا ، بل نحن مكاننا ننتظر أن يبرزوا فنبارزهم ،
أو يخرجوا فنناجزهم أو ينشروا فنطويهم ، أو ينبشوا فنزويهم ، وأقمنا على
طريقهم وخيمنا على مخنقهم وأخذنا بأطراف خندقهم ، وأحوج ما كنا
الآن للى النجدة البحرية والأساطيل المغربية ، فإن عاريتنا بها ترد ، وعاديتنا
بها تشتد .

والأمير يبلغ ما بلغه من خطب الإسلام وخطوبه ، ويقوم في البلاغ
يوم الجمعة مقام خطيبه ، ويمجل العودة وقبلها الإجابة ، ويستصحب
السهم ويسبق بشرى الإصابة ، ويشمر بأن الراية قد رفعت لنصر تقدم
به عرابه ، فإن للإسلام نظرات إلى الأفق القريني يعلوها ، وخطرات من
اللطيف الخفي يقربها ، ويكفي من حسن الظن أنها نظرة ردت الهوى
الشرقي غرباً ، وخطرة أوهمت أن تلك الهمة لو تلم بالسيف لأخذت كل
سفينة غصباً .^(١)

تاريخ ابن الفرات ج ٤ ، ق ٢ - ٢٥

(١) أورد كل من أبي شامة في « الروضتين » ج ٢ ، ١٨٨ - ١٨٩ وابن راصل في
« مفرج الكرب » ج ٢ - ٣٦١ نصاً قريباً كل القرب من النص أعلاه .

٩٣ - مخاطبة صلاح الدين لجنوده لما اقترب الفرنج من القدس
تقدم الفرنج بعد احتلالهم عكا ، باتجاه القدس يريدون استرجاعها ،
وصلاح الدين موجود فيها مع جنوده ، ووصلته الأنباء بذلك فجمع قواده
وقال لهم مايلي :

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله . اعملوا أنفسكم جند الإسلام
اليوم ومنعته ، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذرائعهم في ذمكم
معلقة ، والله عز وجل سائلكم يوم القيامة عنهم .
وإن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه عن العباد والبلاد غيركم . فإن وليتم
- والعياذ بالله - طوى البلاد وأهلك العباد وأخذ الأموال والأطفال والنساء ،
وعبد الصليب في المساجد وعزل القرآن عنها والصلاة ، وكان ذلك كله
في ذمكم فإنكم أنتم الذين تصديتم لهذا كله وأكلتم بيت مال المسلمين
لتدفعوا عنهم عدوهم وتنعصروا ضعيفهم ، فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون
بكم : والسلام .

٩٤ - جواب كبير القواد ابن المشطوب للسلطان على قوله ماألف
الذكر .

يا مولانا : نحن عبيدك ، وأنت الذي أعطيتنا وكبريتنا وعظمتنا ،
وليس لنا إلا رقاينا ، ونحن بين يديك ، والله لا يرجع أحد منا
عن نصرك حتى يموت (١) .

البدايه والنهاية لابن كثير ج ١٢ ٣٤٨ - ٣٤٩

(١) ورد نص هذه المحاوره بين صلاح الدين وقواده في عدد من المصادر مثل « تاريخ
ابن الفرات » ج ٤ ، ق ٢٩ - ٦٩ وكتاب « الروضتين » لأبي شامة ج ٢ - ١٩٨ ر والنوادر
السلطانية لابن شداد ٢١٦ ؛ وإن يكن هناك خلافات ثانوية بين نصريها لا تغبر المعنى
العام لها .

٩٥ رسالة أبي الهيجاء إلى صلاح الدين ،

قدمت جنود كثيرة من الأتراك لنصرة صلاح الدين ومنع الصليبيين من أخذ القدس ، وقرر صلاح الدين تحصين البلد والدفاع عنها ، ويبدو أن هذا التدبير لم يعجب الأتراك ومقدمهم أبا الهيجاء ، فأرسل إلى السلطان يقول :

اجتمع عنده جماعة المماليك والأمراء ، وأنكروا علينا موافقتنا لك على الحصار والتأهب له ، وقالوا: لا مصلحة في ذلك ، فلما تخاف أن تحصر ويحري علينا ما جرى على أهل عكا ، وعند ذلك تؤخذ بلاد الإسلام أجمع ، والرأي أن نلقى مصافاً ، فإن قدر الله تعالى أن نهزمهم ملكنا بقية بلادهم ، وإن تكن الأخرى سلم العسكر ومضى القدس ، وقد احتفظت بلاد الاسلام بمساكرها مدة بغير القدس . إنك إن أردتنا فتكون معنا أو يهض أهلنا ، حتى نجتمع عنده وإلا فالأكراد لا يدينون للأتراك ، والأتراك لا يدينون للأكراد .
النوادر السلطانية لابن شداد ٢١٦ - ٢١٧

٩٥ مكرر - رسالة صلاح الدين إلى الصليبيين حول تسليم الأسرى :

اتفق أهل عكا المحاصرون مع الفرنج على أن يسمح لهم الفرنج بالخروج منها سالمين مع أموالهم ودوابهم وفزارهم ونساءهم على أن يسلموا لهم البلد بما فيه ومائتي ألف دينار وألفاً وخمسمائة أسير مجاهيل ومائة أسير معينين . ثم طالت المفاوضات وتعثرت بينهم وبين الفرنج وصلاح الدين حتى تم الاتفاق أخيراً على إطلاق سراح أهل عكا لقاء مائة ألف دينار تدفع على ثلاث دفعات : كل شهر دفعة ، وصليب الصليبوت وستائة أسير . ولكن لم يف الفرنج بإطلاق سراح أهل عكا،

وإنما أرسلوا إلى صلاح الدين يطلبون منه القسط الأول فأجابهم :
 إما أن ترسلوا إلينا أصحابنا وتتسلموا الذي عـين لكم في ذلك
 النجم ، ونعطيك رهائن على الباقي ، تصل إليكم في نجومكم التالية ،
 وإما أن تعطونا رهائن على ما نسلمه إليكم حتى تخرجوا إلينا أصحابنا .

٩٦ - جواب الصليبيين لصلاح الدين على رسالته سالفه الذكر :
 لا نفعل شيئاً من ذلك ، بل تسلمون ما يقتضيه هذا النجم
 وتقنعون بأمانتنا حتى نسلم إليكم أصحابكم فأبى السلطان ذلك لعله
 بفدريه (١) .

تاريخ ابن الفرات ج ٤ ، ق ٢٦ - ٢٧

٩٧ - رسالة جوابية من صلاح الدين إلى ملك الإنكليز الذي
 حضر إلى الشرق وحاصر عكا وحارب صلاح الدين ، ثم أرسل بعد
 فترة يطلب الاجتماع به ، فأجابه السلطان بما يلي :

المالك لا يجتمعون إلا عن قاعدة ، وما يحسن منهم الحرب بعد
 الاجتماع والمؤاكلة ، وإذا أراد ذلك فلا بد من تقرير قاعدة قبل هذه
 الحالة ، ولا بد من ترجمان تثق فيه في الوسط ، يفهم كل واحد منا
 ما يقوله الآخر . فليكن الرسول بيننا ذلك الترجمان . فإذا أسفرت
 القاعدة وقع الاجتماع بعد ذلك إن شاء الله تعالى .

النوادر السلطانية لابن شداد ١٦٣

(١) ذكر ابن الأثير في « الكامل » ج ١٢ - ٦٨ نصين يختلفان بمض الاختلاف عن
 النصين المشتهين أعلاه .

٩٨ - رسالة ملك إنكلترا إلى صلاح الدين حول الصلح ، وقد أرسلها إلى الملك العادل ليوصلها إلى السلطان :

لا قطنن تأخري بسبب ما قيل ، فإن زمام قيادي مفوض إلي ، وأنا أحكم ولا يُحكم عليّ ، غير أنني في هذه الأيام اعترى مزاجي التيمات منعي من الحركة ، فهذا كان العذر في التأخر لا غير . وعادة الملوك إذا تقاربت منازلهم أن يتهادوا ، وعندني ما يصلح للسلطان ، وأنا أستخرج الاذن في إيصاله .

النوادر السلطانية لابن شداد ١٦٥

٩٩ - رسالة ملك إنكلترا للعادل حول الصلح :

طالت المفاوضات بين ملك إنكلترا والعادل حول الصلح ، وأخيراً أرسل ملك الإنكليز إلى العادل يقول :

إنه قد طال بيننا القتال ، ونحن قد جئنا في نصره أصحاب الساحل ، فاصطلحوا أنتم وهم ، وكل منا يرجع إلى مكانه (١) .

١٠٠ - جواب العادل :

على ماذا يكون الصلح ؟

١٠١ - جواب ملك الإنكليز :

على أن يسلم إلى أهل الساحل ما أخذتم منهم من البلاد .
فأبى الملك العادل وأخبره أن دون ذلك قتل كل فارس ورجل .
تاريخ ابن الفرات ج ٤ ، ق ٢ - ٣٣

(١) ورد نص هذه الرسالة بشكل قريب من النص أعلاه في « النوادر السلطانية »

لابن شداد ١٨٦ .

١٠٢ - رسالة صلاح الدين إلى أخيه الملك العادل من أجل
الاجتماع بملك الإنكليز :

طلب ملك الإنكليز الاجتماع بالملك العادل من أجل الصلح ، وأرسل
السلطان إلى العادل يقول :

إن قدرت أن تطاول الفرنج في الحديث ، فلعلمهم يقومون اليوم
حتى يلحقنا التركان فإنهم قد قربوا منا .
النوادر السلطانية لابن شداد ١٨٢

١٠٣ - رسالة ملك الإنكليز الموجهة إلى صلاح الدين عن طريق
أخيه الملك العادل :

إنك تسلم عليه وتقول له : إن المسلمين والفرنج قد هلكوا ، وخربت
البلاد وخرجت من يد الفريقين بالكلية ، وقد تلفت الأموال والأرواح
من الطائفتين ، وقد أخذ هذا الأمر حقه ، وليس هناك حديث سوى القدس
والصليب والبلاد ، والقدس فمتعبتنا ما فنزل عنه ولو لم يبق منا واحد ، وأما
البلاد فيعاد إلينا منها ما هو قاطع الأردن ، وأما الصليب ، فهو خشبة
لامقدار له عندكم وهو عندنا عظيم ، فيمن به السلطان علينا ونصطليح ونستريح
من هذا العناء الدائم .

١٠٤ - جواب صلاح الدين لملك الإنكليز على الرسالة السابقة .

القدس لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم ، فإنه مسرى
نبينا ومجتمع الملائكة ، فلا يتصور أن ننزل عنه ولا نقدر على التلفظ بذلك
بين المسلمين ، وأما البلاد فهي أيضاً لنا في الأصل ، واستيلاؤكم كان طارفاً
عليها لضعف من كان بها من المسلمين في ذلك الوقت ، وما أقدركم الله على
عمارة حجر منها مادام الحرب قائماً ، وما في أيدينا نحن منها نأكل بحمد
الله مفلسه وننتفع به ، وأما الصليب فهلاكه عندنا قربة عظيمة ، ولا يجوز

أن نفرط فيها إلا لمصلحة راجعة إلى الاسلام هي أوفى منها (١) .
النوادر السلطانية ١٩٤

١٠٥ - رسالة أخرى من ملك الإنكليز إلى صلاح الدين من أجل

الصلح :

إني أحب صداقتك ومودتك ، وإنك ذكرت أنك أعطيت هذه البلاد
الساحلية لأخيك فأريد أن تكون حكامي بيني وبينه ، ولابد وأن يكون لنا
علقة بالقدس الشريف ، ومقصودي أن تقسم البلاد بحيث لا يكون عليه لوم
من المسلمين ، وتقسم البلاد بيني وبينه ، ولا علي لوم من الإفرنجية .
النوادر السلطانية لأن شداد ٢٠٢

١٠٦ - رسالة أخرى من ملك الإنكليز إلى صلاح الدين حول
الصلح وحول تزويج أخته من الملك العادل ، وهو مشروع الزواج
الذي اقترحه ريشارد قلب الأسد وكاد يتم لولا أن البابا عارض في
ذلك ،

إن معاصر دين النصرانية أنكروا عليّ وضع أخي تحت مسلم بدون
مشورة البابا ، وهو كبير دين النصرانية ومقدمه . وها أنا أسير إليه رسولاً
يعود في ثلاثة أشهر ، فإن أذن فيها ونعمت* ، وإلا زوجتك ابنة أخي
وما أحتاج في إذنه في ذلك .

النوادر السلطانية ٢٠٣

١٠٧ - رسالة أخرى من ملك الإنكليز إلى صلاح الدين حول

الصلح .

(١) أورد ابن الفرات في « تاريخه » ج ٤ ، ق ٢ - ٣٩ نصين قريبين كل القرب من
النصين أعلاه .

إنا قد وافقنا على مقاسمة البلاد وإن كل من في يده شيء فهو له
فإن كان مافي أيدينا زائداً ، أخذتم في مقابلته مايقابل الزيادة مما
يخصنا ، وإن كان مافي أيديكم أكثر فعلنا كذلك ، ويكون القدس
لنا ، ولكم فيه الصخرة .

النوادر السلطانية لابن شداد ٢٠٠

١٠٨ - رسالة أخرى من ملك الإنكليز إلى صلاح الدين أرسلها له
شفهية مع رسول خاص :

تقول لصاحبك بأنا قد هلكنا نحن وأنتم ، والأصلح حقن الدماء ،
ولا ينبغي أن تعتقد أن ذلك عن ضعف مني ، بل للمصلحة ، ويكون
هو الوسطة بيننا وبين السلطان ، ولا تغتر بتأخري عن منزلي ،
فالكبش يتأخر لينطرح .

١٩ - رسالة أخرى من ملك الإنكليز إلى صلاح الدين حول نفس
الموضوع أرسلها له مع رسول آخر :

تقول له : إله راغب في مودتك وصداقتك ، وإنه لا يريد أن
يكون فرعون يملك الأرض ، ولا يظن ذلك فيك ، ولا يجوز لك أن
تهلك المسلمين كلهم ، ولا يجوز لي أن أهلك الفرنج كلهم ، وهذا ابن
أختي الكندھري قد ملكته هذه الديار وسلمته إليك يكون هو وعسكره
بحكمك ، ولو استدعيتهم إلى الشرق سمعوا وأطاعوا .
ويقول :

إن جماعة من الرهبان والمنقطعين قد طلبوا منك كنائس فما بخلت
عليهم بها ، وأنا أطلب منك كنيسة ، وتلك الأمور التي كانت تضيق
صدرك بما كان تجري المراسلة مع الملك العادل قد قلت بتركها وأعرضت
عنها ، ولو أعطيتني مقرعة أو قرية لقبلتها وقبلتها .

١١٠ - جواب صلاح الدين لملك الانكليز عن الرسالة السابقة :

إنك إذا دخلت معنا هذا الدخول فما جزاء الإحسان إلا الإحسان
ابن أختك يكون عندي كبعض أولادي ، وسيلفك ما أفعل في حقه
من الخير ، وأنا أعطيك أكبر الكنائس وهي القمامة ، وبقية البلاد
نقسمها ؛ فالساحلية التي بيدك تكون بيدك ، والتي بأيدينا من القلاع
الجبليّة تكون لنا . وما بين العمليّن تكون مناصفة ، وعسقلان وما وراءها
تكون خراباً لانا ولا لكم ، وإن أردتم قراها تكون لكم ، والذي
كنت أكرمه حديث عسقلان (١) .

النوادر السلطانية لابن شداد ٢١٨ - ٢١٩

١١١ - رسالة من ملك الانكليز إلى صلاح الدين حول الصلح والقدس:

الذي أطلبه منك أن يكون لنا في قلعة القدس عشرون نفرأ ،
وأن من سكن من النصاري والفرنج في البلد لا يتعرض لهم . وأما
بقية البلاد فلنا منها الساحليات والوطاة ، والبلاد الجبلية لكم .

١١٢ - جواب صلاح الدين لملك الانكليز عن الرسالة السابقة :

إن القدس ليس لكم فيه حديث سوى الزيارة ، وأما البلاد
فمعسقلان وما وراءها فلا بد من خرابه .

النوادر السلطانية لابن شداد ٢٢٠

١١٣ - رسالة أخرى من ملك الانكليز إلى صلاح الدين حول الصلح:

إن الملك يسألك ويخضع لك في أن تترك له هذه الأماكن الثلاثة

(١) يذكر ابن الفرات في تاريخه المسمى « تاريخ ابن الفرات » ج ٤ ، ق ٢ ، ٧٢ - ٧٣
نصاً قريباً كل القرب من نصنا أعلاه .

عامرة ، وأي قدر لها عند ملكك وعظمتك ؟ وما سبب إصراره عليها
إلا أن الفرنج لم يسمحوا بها . وهو قد ترك القدس بالكلية ، لا يطلب
أن يكون فيه رهبان ولا قسوس إلا في القيامة وحدها ، فتترك له
أنت هذه البلاد ويكون الصلح عاماً ، فيكون لهم كل مافي أيديهم
من الداروم إلى أنطاكية ، ويسلم مافي أيديكم ، وينتظم الحال ويروح ،
وإن لم ينتظم الصلح فإن الفرنج لا يمكنونه من الرواح ولا يمكنه مخالفتهم .

١١٤ - جواب صلاح الدين لملك الإنكليز على رسالته السابقة :

إن أهل أنطاكية لنا معهم حديث ورسلا عندهم ، فإن عادوا بما
نريد أدخلناهم في الصلح ، وإلا فلا . وأما البلاد التي يسألها فلا يوافق
المسلمون على دفعها إليه ، وإلا فلا قدر لها ، وأما سور عسقلان فيأخذ
في مقابله ما خسر عليه لدا في الرطاة .

١١٥ - جواب ملك الإنكليز إلى صلاح الدين عن الرسالة السابقة :

لا يمكننا أن نخرب من عسقلان حجراً واحداً ولا يسمع عنا في
البلاد مثل ذلك وأما البلاد فحدودها معروفة لا مناصرة فيها^(١) .
النوادر السلطانية لابن شداد ٢٢١

١١٦ - رسالة أخرى من ملك الإنكليز إلى صلاح الدين يستعجدي الصلح .

هاجم صلاح الدين يافا وأوشك على أخذها ، ثم أرسل ملك الإنكليز ،
مع رسول إلى السلطان رسالة يطلب الصلح ويقول :
تسلم على السلطان وتقول له :

(١) وردت نصوص هذه الرسائل بشكل مشابه لنصوصنا أعلاه في «تاريخ ابن الفرات»

بالله عليك أجب سؤالي في الصلح ، فهذا أمر لابد له من آخر ،
قد هلكت بلادني وراء البحر ، وما دام هذا مصلحة لالنا ولالكم .

١١٧ - جواب صلاح الدين إلى ملك الانكليز على الرسالة السابقة:
إنك كنت طلبت الصلح أولاً على قاعدة ، وكان الحديث في يافا
وعسقلان . والآن قد خربت هذه يافا ، فيكون لك من قيسارية
إلى صور .

١١٨ - جواب ملك الانكليز إلى صلاح الدين عن الرسالة السابقة :
يقول الملك :

إن قاعدة الفرنج أنه إذا أعطى واحد لواحد بلداً صار تبعه وغلामه .
وأنا أطلب منك هذين البلدين يافا وعسقلان ويكون عساكرهما في خدمتك
دائماً ، وإذا احتجت إليّ وصلت إليك في أسرع وقت وخدمتك كما
تعلم خدمتي .

١١٩ - جواب صلاح الدين لملك الإنكليز :
حيث دخلت هذا المدخل فأنا أجيبك إلى أن تجعل هذين البلدين
قسمين : أحدهما لك وهو يافا وما وراءها ، والثاني لي وهو عسقلان
وما وراءها .

١٢٠ - جواب ملك الانكليز لصلاح الدين مع رسول بلغه للسلطان :
يشكر الملك ويقول : انه إن وقع الصلح في هذه الأيام الستة
سار الى بلاده ، والا احتاج أن يشقي هنا .

١٢١ - جواب صلاح الدين لملك الانكليز :
أما النزول عن عسقلان فلا سبيل اليه . وأما تشتيته في هذه

البلاد فلا بد منها ، لأنه قد استولى على هذه البلاد ويعلم أنه متى غاب عنها أخذت بالضرورة ، وإذا أقام أيضاً ان شاء الله تعالى . وإذا سهل عليه أن يشقي ههنا ويبعد عن أهله ووطنه مسيرة شهرين وهو شاب في عنقوان شبابه ووقت اقتناص لذاته ، ما يسهل عليّ أن أشقي وأصيف وأشقي وأصيف ، وأنا في وسط بلادتي وعيند أولادي وأهلي ، ويأتي إليّ ما أريده ومن أريده . وأنا رجل شيخ قد كرهت لذات الدنيا وشبعت منها ورفضتها عني . والعسكر الذي يكون عندي في الشتاء غير العسكر الذي عندي في الصيف . وأنا أعتقد أنني في أعظم العبادات ، ولا أزال كذلك حتى يعطي الله النصر لمن يشاء^(١).
النوادر السلطانية لابن شداد ٢٢٨

١٢٢ - جواب ملك الانكليز لصالح الدين عن الرسالة السابقة :
لكم أطرح نفسي على السلطان وهو لا يقبلني ، وأنا كنت أحرص حتى أعود إلى بلادتي ، والآن فقد هجم الشتاء وتغيرت الأنواء ومابقي بيننا حديث .

تاريخ ابن الفرات ج ٤ ، ق ٢ - ٨١

١٢٣ - رسالة ملك الانكليز إلى الملك العادل حول الصلح .
مرض ملك الإنكليز فأرسل له صلاح الدين فأكفه وثلجاً ، فأرسل ملك الإنكليز إلى الملك العادل مع رسول يقول له :
قل لأخي - يعني الملك العادل - يبصر كيف يتوصل إلى السلطان

(١) وردت نصوص مشابهة لهذه الرسائل في «تاريخ ابن الفرات» ج ٤ ، ق ٢ ، ٨٠ - ٨١ كما وردت نصوص مشابهة لها في كل من كتاب «الروضتين» ج ٢ ، ١٩٣ - ٢٠٤ أي شامة وابن واصل في «مفرج الكروب» .

في معنى الصلح ويستوهب لي منه عسقلان وأمضي ويبقى هو هاهنا مع هذه الشرذمة اليسيرة ويأخذ البلاد منهم ، فليس غرضي إلا إقامة جاهي بين الفرنجية ، وإن لم ينزل السلطان عن عسقلان فليأخذ لي عوضاً عن خسارتي على عمارة سورها .

١٢٤ - رسالة صلاح الدين إلى أخيه الملك العادل حول عرض ملك الانكليز الأخير .

إن نزلوا عن عسقلان فصالحهم ، فإن المسكر قد ضجروا من ملازمة البيكار والنفقات قد نفدت .

تاريخ ابن الفرات ج ٤ ، ق ٢ ٨٣ - ٨٤

١٢٥ - رسالة حاكم صور الماركيس إلى ملك إنكلترا

احتل ملك الانكليز عكا وأراد احتلال عسقلان ، ولكن صلاح الدين سبقه إليها وأخربها ، فاختلف ملك الإنكليز مع الماركيس حاكم صور ، فترك الماركيس الملك ولجأ إلى بلده صور ، ومن هناك أرسل له هذه الرسالة :

مثلك لا ينبغي أن يكون ملكاً وتقدم على الجيوش ، تسمع أن صلاح الدين قد خرب عسقلان وتقيم مكانك؟ يا جاهل : لما بلغك أنه قد شرع في تخريبها كنت سرت إليه مجدداً فرحلته وملكته صفواً بغير قتال ولا حصار ، فإنه ما أخربها إلا وهو عاجز عن حفظها ، وحق المسيح لو أنني مكانك كانت عسقلان اليوم في أيدينا لم يخرب منها غير برج واحد .

الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ١٢ - ٧١

١٢٦ - رسالة كند هري إلى صلاح الدين

أصبح كند هري ابن أخت ملك الإنكليز جاكماً على الساحل الفلسطيني

- ٢٣٧ -

الصليبي ، فأراد أن يتقرب من صلاح الدين فأرسل اليه يطلب منه خلعة ويقول :

أنت تعلم أن لبس القباء والشربوش عندنا عيب وأنا ألبسها منك بحبة لك .

فأفخذ إليه خلعة سنية فيها قباء وشربوش

الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ١٢ - ٧٩

١٢٧ - رسالة صلاح الدين إلى خليفة بغداد يشرح أحواله بعد استرجاعه

يافا من الصليبيين :

الخدام حاله على ما أنهاه غير مرة في مرابطة أهل الكفر مستمرة ، وأفارق النصر على حقلها تارة وبكثها أخرى مستمرة ، والحرب سجال ، وللإسلام في مضمار الظفر سجال . وقد تجاوزت القصة عن حد الإنهاء ، وكلما شارفت القضية الانتهاء عادت إلى الابتداء ، والحادثة متصلة والواقعة مستقبلة ، والنعمة من الله في إجراء أوليائه على أجل عاداته بإنجاز عياداته في قمع عُدائهم مؤملة . وما ينقضي يوم إلا عن نصرته تتجدد ونعمة تتمهد وجمع للعدو يتبدد ، وجر لنكاته فيه يتوقد ، وحاد لل سيف من حده بدم الشرك يتورد ، وفتح بكر من الحرب الموان بلفاح البيض الذكور يتولد . وآخر ما تم في هذه الأيام من مرهجات الكفر ومبهجات الإسلام خطوة حلوة ولوبة مالهانوبة ، وهي أن الفرنج لما أعجزهم قصد البيت المقدس ، ولم يستقم لهم ما سولوه في الأنفس ، عكسوا زعمهم ونكسوا عزمهم وعادوا خائبين ونكصوا هائبين ، واستأنفوا مكيدة أخرى وشرعوا في شر ، خلفه الشرك فيه يمري ، وأجمعوا على قصد مدينة بيروت ، وقامر على الاتجاء نحوها أعداء الله أولياء الطاغوت .

فسارت العساكر الإسلامية على مباراتهم لمضايقتهم في مضايق طرقاتهم ،
وتجرد الخادم في خواصه ووافي يافا ، موقنا من الله تعالى أن مدد نصره إليه
يتوافي ، وحمل إليها من معتقلي بنات الأسل ومشتلي بنات الخلل الأسد
والعرين . فلإذا نزل بساحتهم فساء صباح المئذرين ، فأخذها بالسيف
عنوة ، وأعاد ضرام النيران بها جنح الليل ضحوة . وأتى القتل والنهب
على من وجد فيها من الكفار ، واستخرج ما بها من الأموال والعدد والأذخار ،
وخلص من المسلمين من كان بها في الإسرار ، وأضحت الفرنج فيها تبارى
بالتبار .

وطلب من بالقلعة الأمان على أن يسلموا من القتل ويستسلموا للأسر ، ونزل
البطرق والقسطلان والمرشان وجماعة من المقدمين خرجوا ودخلوا تحت
القهر ، فبينما هم مشغولون بالنزول ومنقطعون إلى الوصول ، جاءهم الفوت
في البحر وظهرت منهم أماراة القدر ، ورجع العدو عن مقصده ، وردده
الله وخذله ، ونصر الإسلام وأخذ له ، وسره بما يسره له وأجذله ، ونال سيف الدمار
من سيب دمائهم على ونهله .

وكان المقصود ردهم عن موردكم وصدكم عن مقصدهم ، فأربنى ما قبضه الله
من فتح الهدى وحلف العدا على الأرب ، واهتزت أعطاف البيض والسمر
والمنتشية من كأس نجيحها للطرب . والقوم الآن اشتغلوا بمصائبهم ، واجتمعوا
لضم ما انتشر من أسبابهم ، وراسلوا في الصلح على أن تخلص لهم عسقلان فما
أجيبوا ، وعلموا يجهلهم أنهم ما أصابوا فيا دبروه لإدبارهم فأصيبوا . والعساكر
الإسلامية اليوم عليهم بجمعة ، ومسالك المهالك لضافتهم ومضايقتهم متسعة .
وقد آن أن تحل معاهد معاقلم التي هي ممتعة .

وكل ما يحده الله من علو يظهر ، وعدو يقهر ، ونصر يزهر ، ونصل
بالظفر يشهر ، فهو بركات الاستمسك بطاعة المواقف الشريفة الإمامية

الناصرية ، وبحمد الله ويمن أيامها وفضل إنعامها دلائل النصر ظاهرة ،
وأسباب الظهور متناصرة ، ووجوه الآمال بنشر نجاحها ويسر ما في
اقتراحها سافرة .

الفتح القسي للهاد الأصفياني ٦٠١ - ٦٠٢

١٣٨ - رسالة ثانية من صلاح الدين إلى الديوان العزيز يشرح
نوبة يافا والهدنة العامة التي عقدت مع الفرنج :

قد سبقت مطالعة الخادم بإنهاء حاله ، وما هو لا يزال مستمراً عليه
من جهاد العدو وقتاله ، وما كان عليه الكفر من الجمع الملتهم ، والجر الملتب
والحشر والحشد المضطرم المضطرب ، وأنهم قد اجتمعوا على قصد البيت
المقدس ، وعزموا على بذل المصونين من النفائس والأنفس ، وسلكوا
في القصد كل طريق ، وتوافوا وتوافدوا من كل فج عميق ، ودنوا على
ظن أن جنى الفتح لهم دان ، وأن شبا الحنف عنهم وان ، ولما قربوا
عرفوا أن المرمى بعيد المرام ، وأنهم لا يستطيعون مقاومة عسكر
الإسلام ، فنكسوا على أعقابهم ، ونكسوا ماضربوه من آرائهم وآرائهم ،
وعلموا عقبى ماجهلوهم ، وقطعوا من أسباب العزم ما وصلوه ، ونكثوا
من عقد القصد ما أبرموه ، وشرعوا في أمر آخر توهموه .

ومضوا واستأنفوا الاستعداد واستنهضوا الأمداد ، وحصنوا بلادهم
وجمعوا فيها طرافهم وتلادهم ، وشحنوا عسقلان ويافا بالقوة الجامعة
والعدة النافعة والشوكة الرادعة والشكة القاطعة ، واستظهروا فيها
بكل ماقدروا عليه من المنعة الحامية ورجال الصبر على النار الحامية .
ثم ساروا بحشودهم المجموعة وجموعهم المشودة ، وظلال الضلال الممدودة
وضلال الصلادم المقسودة ، مستطري شآبيب الأنابيب ، مستنفري

سراحين السراحيب ، وتوجهوا على سمت ثغر بيروت بنينة الحصر ،
وغفلوا عما أجراه الله لأوليائه على أعدائه من عوائد النصر .

ولما نفي خبرهم وطار شررم وخيف ضررم ، أنهض الخادم المساكر
المنصورة إلى مقابلتهم ومباراتهم ومقاتلتهم ، ونزل في مماليكه وخواصه
ورجال الإقدام ذوي استخلاصه على مدينة يافا فأخذها بالسيف عنوة ،
وجب بها من سنام الكفر ذروة ، وحل منه بفزوته إليها عروة ،
واستكمل للإسلام بتملكها حظوة ، وقتل كل من حوته وسبى وناب
المشركين بما نبي مجده ومضى حده فيه . وغنم من أموالها المسلمون
ما خف وثقل ، وأسر من وجد فيها وقتل ، ونهب من آلات الحصر
ما خرج عن الحصر ، وابتذل كل ماصين من الغلال والعهد والمال
الدثر للذخر .

وطلب أهل القلعة الأمان من القتل خاصة دون الأسر ، وشرطوا
أنهم لا يمكنون من الدخول إليهم من جاءهم للنجدة من البحر ، وأخرجوا
على سبيل الرهينة مائة رجل من محتشمهم وكنودهم ومقدمهم مثل البطرك
الكبير والقسطلان والمرشان ومن يجري مجرام من الفرسان . فلما
أصبحوا جاءهم ملكهم في البحر فغدروا ، وامتنعوا بعد انقيادهم للمعجز
حين قدروا ، وخيم العدو هناك في جوعه ، وندب إلى عسكره من
يأمره برجوعه ، ووافت في البر جماعلة حافلة ، وتواردت في الاسراع
إلى الصريح ظلمانا جافلة .

فأجرى الخادم على الرهائن حكم الاسترقاق وسيرهم إلى دمشق في
أقياد الوثاق ، ورجع إلى القوم فهزمهم وردم إلى عكا بعدما نكس
فيهم ، وأضعك من دمائهم البيض وأبكى وعاد إلى العدو ونزل
عليه ، وكدر الموارد لديه حين زحف إليه ، واجتمعت من أهل الاسلام

العساكر واتسعت على المشركين في المضايقة الدوائر ، ورجا المؤمن
وخاب الكافر ، وجالت بأوجالها الضمائر لما جالت عليهم الضوامر ،
وعاينوا العذاب الواقع وعدموا الدوافع وشاهدوا المصارع ، فما زالت رسلمهم
تتردد بالغرابة وبذل الطاعة والنزول عن الاشتطاط والدخول تحت
الاشتراط ، والغبطة بما هز له الإسلام عطف الاغتباط واحتوى عليه بيد
الاحتياط .

وكانوا لا يحايون إلا بالإباء ، ولا تلقى رسلمهم إلا بتصميم عزم اللقاء ،
حتى حضر أكابر الدولة وأمرأؤها ، وأولياء الطاعة وألباؤها ، وأشاروا
بمقد الهدنة والانهاز فيها لفرصة المكنة ، واستقرت المهادنة على ما أعز
للإسلام الأنوف وأذل من الكفر الرقاب ، ورجح وأنجح من أهل الإيمان
الآراء والآراب ، بعد أن نزلوا عن البلاد والمعاقل التي تملكوها وبعدوا [عن]
الطرق التي سلكوها وسألوا الأمان على الأمان التي استدركوها وما أدركوها ،
وسلموا عسقلان وغزة والداروم ويُسبُنى ولدوقل الصافية وغير ذلك من
الأعمال والأماكن الوافرة الوافية .

واقتنعوا بيفاقا وعكاء وصور ، واستبدلوا من قطاولهم وقدرتهم العجز
والقصور ، ورأوا عزمهم في ذلمهم ، وصونهم في بذلمهم ، وسلاصتهم في سلمهم
وغنهم في عدمهم ، ولانوا بعد الاشتداد ودانوا للانقياد ، وهانوا بعد الاعتزاز ،
وهاجوا بعد الاغتراب وأقروا بعد الإنكار لتعود جفونهم إلى الفرار وأمورهم
إلى القرار ، وخلوا ديارهم وأخلوها ، وما سألوا عن حب الأوطان والأوطار
وسلوها ، مدة الهدنة التي أخذوا بها اليد وأعطوا اليمين : ثلاث سنين
وثمانية أشهر ، أولها أول أيلول يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من شعبان
سنة ثمان وثمانين ، ووضعت الحرب أوزارها ورحضت بماء السلم أوضارها
وأخذت من أهل النار ثأرها ، وقصدت الفرنج من وراء البحر ديارهم ،

ولاشك أنهم يستمدون في هذه المدة ويستمدون ما يستطيعونه من القوة والعدة ، ويستجدون عزمة العودة .

وقد شرع الخادم في تحصين الثغور وإمرار الأمور وإبرام معاهد المماقل وإحكام قواعد الحق بتعفية آثار الباطل ، وإتمام أسوار القدس وخناده حق يبقى على الدهر آمناً من طروق العدو وطوارقه ، وإعادة الأعمال والأحوال إلى عادة عمارتها وحلية نضارتها ، وإجسام المسار وإراحتها ليوم تعبها الذي هو عين راحتها .

ولقد كان الخادم للسلم متكرها ، ولا يرى أن يكون كشيمة ملوك المصر عن الغزو مترفها ، لكنه أجمع من عنده من الأمراء وذوي الآراء على أن المصلحة في المصالحة راجعة ، وأن صفقة الكفر فيها خاسرة وصفقة الإسلام رابحة .

وأن في إطفاء هذه الجرة ، وقد وقدت ، سكوناً عاماً وامنأ تاماً ، وتقريباً لجمع الكفار بشمل النصر عليهم ضاماً ، فهي سلم أنكى من الحرب فيهم ، وأنها تقصيم من هذه الديار يل تفهيم ، وإلى متى تجتمع هذه الأعداد الهائلة هؤلاء الأعداء ، وتتفق هذه الأمداد المتواصلة من أهل النار في الماء . وماصح لهم هذا الجمع على التكسير إلا في خمس سنين ، وماوافي إليهم مددم من ألوفهم سوى مئين . وكل ماكان لهم من أموالهم في بلادهم نقلوه وأنفقوه ، وأيقنوا أن مرامهم صعب وتحققوه ، فمضى انفضوا انفضوا ، وقد آن أن يُرفضوا ويرفضوا . وإلى أن يتفق مثل هذه الجموع ويعزم ذاهبهم على الرجوع يكون الإسلام قد استظهر بقوة واستكثر من لجذته ومن جدته ، فرأى موافقة الإجماع وقبل مناصحة الأشياع وتفرق جمع الكفر وبأخ جره وأمن نكاه ومكره ، وانشرح صدر الإسلام وتضوع نشره ، وتوضح بسني النصر فجزره .

الفتح القسي للمعاد الأصفهاني ٦٠٦ - ٦٠٩

دور الانبياء الصليبي

آ - بقايا الايوبيين :

١٢٩ - رسالة أرسلها نيابة عن الملك العادل وباسمه إلى الملك المنصور صاحب حماة صاحب حماة صفي الدين بن سكر يخبره فيها أن الملك العادل أرسل إلى صاحبي بعلبك وحمص يطلب منهما لإنقاذ الملك المنصور في حربه ضد الفرنج في بعين سنة ٥٩٨ هـ .

علم المملوك حركة المولى ونزوله قبالة حصن الأكراد ، وما عزم عليه من المصاهرة والجهاد . وقد كتب السلطان - أعز الله أنصاره - إلى صاحب حمص وبعلبك - أبقاهما الله - بمقتضى ما أشار المجلس ونبه عليه من إنفاذ عسكرهما إليه .

وقد علم الله أن المملوك لا يألو جهداً في خدمته التي يعدها من السعادة ، والمبادرة إلى امتثال أمثلته التي صارت له كالعادة (١) .

مفرج الكروب لابن واصل ج ٣ - ١٤٢

١٣٠ - رسالة أخرى من صاحب صفي الدين إلى الملك المنصور صاحب حماة يخبره أن الملك العادل عتب على صاحبي حمص وبعلبك تأخرهما في إنجاده وأنه طلب من صاحب حلب لإنجاده :

كن كيف شئت من العباد فأنت من قلبي قريب
عرض المملوك كتاب المولى على السلطان - خلد الله ملكه - وقد كتب إلى الملك الظاهر والملك الأشهد والملك المجاهد - عز نصرم -

(١) أورد ابن الفرات في « تاريخه » ج ٤ ، ق ٢ / ٢ نصاً قريباً كل القرب من النص أعلاه .

بتسيير عساكرهم إليه وورودها عليه ، وإعانتته على جهاده ومرابطته والإنقياد إلى آرائه وطاعته . فجزاه الله عن الإسلام مجزاء ، فقد أوتي من الفضل ما لم يؤت أحد سواه ، وقد قام بأمور الجهاد لما قعد عنه عداه ؛ وقد اقتنى الأجرب وحاز الشكرين وقام بالحقين وأدى ما يجب عليه من الفرضين ، فشكره بخلد في صحائف الأيام ، وحمده تنطق به السنة الأقدام ، وقد أهل له في الآخرة عن هذا السعي المشكور دار السلام ^(١) .

تاريخ ابن الفرات ج ٤ ، ق ٢ - ٢٥١

١٣١ - رسالة الملك العادل إلى الملك المنصور صاحب حماة لما تحارب

مع الفرنج سنة ٥٩٩ هـ وكسرهم :

وردت مكتبة المجلس ووقف الخادم عليها ، وعلم ما أشار فيها : من عمن حركته وسعادة وجهته وبركة نصرته ، ودخوله إلى بلاد الكفار وما أثره فيها وفيهم من جميل الآثار ، فاستبشر بمادلت عليه من هذه النعم الراهنة والعوارض الظاهرة والباطنة ، والله يحازيه أحسن الجزاء ويضاعف له من الحسنات أوفر الأجزاء ، ويرحم سلفه الكريم ويحسن له في الحديث والقديم ، ويؤيده في كل حركة بأحزاب الملائكة ^(٢) .

تاريخ ابن الفرات ج ٤ - ق ٢ - ٢٥٥

١٣٢ - رسالة أخرى من الملك العادل إلى الملك المنصور صاحب حماة

حارب المنصور الاستبارية فكسرهم فطلبوا الصلح فأرسل إلى العادل

يستشيريه فأجابه بما يلي :

(١) ورد في «مفرج الكرب» لابن واصل ج ٣ - ١٤٢ نص يكاد يطابق نصنا أعلاه

(٢) ورد في «مفرج الكرب» لابن واصل ج ٣ - ١٤٥ نص يكاد يطابق نصنا أعلاه .

الذي يراه المجلس من الصواب يعتمده ، والمصلحة - إن شاء الله -
 فيما يقصده . وأما الفرنج - خذلهم الله - فإن مادتهم قليلة ، ونجدتهم
 متأخرة . وقد وصلت الكتب من كل جهة تخبر بضعفهم ، ولم يتجدد
 سوى مضميهم إلى أنطاكية للصالح بين الأبرنس وابن لاون . والثغور -
 بحمد الله - قد تحصنت ، والأمراء والمساكر إليها قد جردت ، وهي
 بهم قد ملئت وشحنت .

والله تعالى يوزع شكر المجلس فقد بلغ الغاية في الإحسان وأتى بما
 يزيد على الإمكان في هذا الشأن .

ويوزع المجلس بأن يقوي عليهم القول ويشدد عليهم الطول (١) .
 مفرج الكروب لابن واصل ج ٣/١٥٢ - ١٥٣ .

١٣٣ - رسالة من القاضي الفاضل إلى الملك العادل يحثه على
 الجهاد والمرابطة :

هذه الأوقات التي أنتم فيها عرائس الأعمار ، وهذه النفقات التي
 تجري على أيديكم مهوور الحور في دار القرار . وما أسعد من أودع يد
 الله ما في يديه فتلك نعم الله عليه وتوفيقه الذي ما كل من طلبه وصل
 إليه . وسواد المعجاج في هذه المواقف يباطن ما سودته الذنوب من
 الصعائف . فما أسعد تلك الوقفات ، وما أعود بالطمأنينة تلك الرجفات !

١٣٤ - رسالة أخرى من القاضي الفاضل إلى الملك العادل حول
 نفس الموضوع السابق :

أدام الله ذلك الاسم تاجاً على مفارق المنابر والطروس ، وحياه

(١) يروي ابن الفرات في « تاريخه » ج ٤ ، ق ٢ - ٢٦٠ فصاً قريباً كل القرب من
 النص أعلاه .

الدنيا وما فيها من الأجساد والنفوس ، وعرف الملوك من الأمر الذي اقتضته المشاهدة وجرت به العافية في سرور ، ولا يزيد على سببه الحال بقوله :

ألم تر أن المرء تزدى يمينه فيقطعها عمداً ليسلم سائره
ولو كان فيها تدبير لكان مولانا سبق إليه ، ومن قلم من الأصبع
ظفراً فقد جلب إلى الجسد بفعله نفعاً ، ودفع عنه ضرراً . وتجشم
المكروه ليس بضائر إذا كان ماجلبه سبباً إلى الحمود ، وآخر شتوة
أول كل غزوة ، فلا يسأم مولانا نية الرباط وفعلها ، وتجشم الكلف
وحملها ، فهو إذا صرف وجهه إلى وجه واحد وهو وجه الله صرف
الوجوه إليه كلها ، والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله
لمع المحسنين (١) .

البداية والنهاية لابن كثير ج ١٣ - ١٤

١٣٥ رسالة الامبراطور فريدريك الثاني إلى الملك الكامل لما
أتى إلى سورية سنة ٦٢٦ هـ من أجل القدس :

تراسل الملك الكامل مع الإمبراطور وأطلعه على مكاتبة ملوك الفرنج
إليه بأن عزمهم أن يسكوه فبعث إلى الكامل يقول :
إني عتيقك ، وتعلم أني أكبر ملوك الفرنج ، وأنت كاتبتي بالجهي ،
وقد علم البابا والملوك باهتامي ، فإن رجعت خائباً انكسرت حرمتي .
وهذه القدس فهي أصل دين النصرانية . وأنتم قد خربتوها ، وليس
لها طائل ، فإن رأيت أن تنعم عليّ بقصبة البلد ليرتفع رأسي بين

(١) سورة المنكيات الآية ٦٩ .

الملك ، وأنا التزم بجمل دخلها إليك^(١) .
كتاب العبر في خبر من عبر للذهبي ج ٥ - ١٠٢

١٣٦ - رسالة أخرى من الامبراطور للكامل :

بعد وصول الإمبراطور فريدريك الثاني إلى عكا أرسل إلى الكامل
يقول مع رسول :

الملك يقول لك : كان الجيد والمصلحة للمسلمين أن يبذلوا كل شيء
ولا أجيء إليهم . والآن ، فقد كنتم بذلتهم لنائي - في زمن حصار
دمياط - الساحل كله ، وإطلاق الحقوق بالاسكندرية ، وما فعلنا .
وقد فعل الله لكم ما فعل من ظفركم وإعادتها لكم . ومن نائي ؟ إن
هو الا أقل غلاني ، فلا أقل من اعطائي ما كنتم بذلتموه له .

كتاب السلوك للمقرئ ج ١ ، ق ٢ ، ٢٢٨ - ٢٢٩

١٣٧ - رسالة أحمد بن عبد السيد صلاح الدين الإريلي إلى الملك
الكامل بعد أن تفاوض مع الامبراطور فريدريك الثاني الذي وصل
إلى عكا سنة ٦٢٦ هـ وقرر معه القواعد .

زعم الزعيم الأنبرور بأنه سلم يدوم لنا على أقواله
شرب اليمين فإن تعرضنا ككثاً فليأكلن لذك لحم شمهاله

وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ - ١٨٦

١٣٨ - رسالة فرنج دمياط إلى الملك الكامل حول رد صواري أخذها
منهم قائده شجاع الدين :

(١) أورد ابن العماد في « شذرات الذهب » ج ٥ - ١٩٨ نصاً يسكاد يطابق
نصنا أعلاه .

حاصر المسلمون دمياط سنة ٦١٨ هـ وتغلبوا على الفرنج واستلموا دمياط منهم ، وعهد الكامل الى شجاع الدين أن يستلم البلد منهم ، وكان في البلد صواري عظام جداً ، فأراد الفرنج أخذها فمنعهم من ذلك شجاع الدين فكتب الفرنج الى الكامل يقولون :

إن هذه الصواري لنا ، وإن مقتضى الصلح أن ترد إلينا .

١٣٩ - جواب شجاع الدين الى الكامل الذي أمره بإعطائهم الصواري فامتنع ، وكتب إليه يقول :

إن الفرنج أخذوا منبر جامع دمياط وكسروه وأهدوا كل قطعة منه الى ملك من ملوكهم ، فيأمرهم السلطان أن يردوا اليها المنبر لنرد عليهم الصواري .
فكتب السلطان اليهم وذكر لهم مذكروه شجاع الدين فمجزوا عن رد المنبر .

مفرج الكروب لابن واصل ج ٤ ٩٩-١٠٠

١٤٠ - رسالة الملك المعظم عيسى الى نائبه في دمشق أبي الظفر جول أخذ الفرنج دمياط سنة ٦١٦ هـ ويطلب منه تخريض الناس على الجهاد :

قد علم الأخ العزيز بأنه قد جرى على دمياط ماجرى . وأريد أن تخرض الناس على الجهاد وتعرفهم ما جرى على اخوانهم أهل دمياط من الكفرة أهل العناد . واني كشفت ضياع الشام فوجدتها ألقى قرية ، منها ألف وستائة أملاك لأهلها ، وأربعمائة سلطانية ، وكل مقدار مائة يوم به هذه الأربعمائة من المساكن ؟ وأريد أن تخرج الدماشقة ليدبوا عن أملاكهم ، الأصغر منهم والأكبر ، ويكون لقائنا وهم صحبتك الى نابلس . . . في وقت سماء .

النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج ٦ - ٢٣٩

١٤١ - رسالة ملك فرنسا لويس التاسع إلى الملك الصالح نجم الدين الأيوبي لما أتى إلى مصر محارباً له :

أما بعد : فإنه لم يخف عنك أني أمين الأمة العيسوية ، كما أني أقول إنك أمين الأمة المحمدية . وإنه غير خافٍ عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا ، ونحن نسوقهم سوق البقر ونقتل الرجال ونرمل النساء ونستأمر البنات والصبيان ، ونخلي منهم الديار ، وقد أبديت لك ما فيه الكفاية وبذلت لك النصيح إلى النهاية . فلو حلفت لي بكل الأيمان ، ودخلت على القسوس والرهبان ، وحملت قدامي الشمع طاعة للصليبان مارديني ذلك عن الوصول إليك وقتلك في أعز البقاع عليك ، فإن كانت البلاد لي فيما هدية حصلت في يدي ، وإن كانت البلاد لك والغلبة عليّ فيميك العليا ممتدة إليّ . وقد عرفتكم وحذرتكم من عساكر قد حضرت في طاعتي تملأ السهل والجبل ، عددهم كعدد الحصى ، وهم مرسلون إليك بأسيايف القضا .

١٤٢ - جواب الملك الصالح نجم الدين إلى الملك الفرنسي لويس التاسع وهي من إنشاء القاضي بهاء الدين زهير بن محمد كاتب الإنشاء :

بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين .

أما بعد : فقد وصل كتابك وأنت تهدد بكثرة جيوشك وعدد أبطالك ، فنحن أرباب السيوف ، وماقتيل منا قيرن إلا جددناه ، ولا بغي علينا باغ إلا دمرناه ، فلورأت عيناك ، أيها المغرور ، حد سيوفينا وعظم حروبنا ، وقتحننا منكم الحصون والسواحل ، وإخربنا منكم ديار الأواخر

والأوائل ، لكان لك أن تعض على أظلمك بالندم ، ولا بد أن تزل بك القدم ، في يوم أوله لنا وآخره عليك ، فهناك تسيء بك الظنون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون . فإذا قرأت كتابي هذا فكن فيه على أول سورة النحل : أتى أمر الله فلا تستعجلوه ، وكن على آخر سورة ص : ولتعلمن نبأه بعد حين . ونعود إلى قوله تعالى وهو أصدق القائلين ، كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين (١) . وإلى قول الحكماء : إن الباغي له مصرع ، وبغيك يصرك ، وإلى البلاء يقلبك ، والسلام (٢) .

كتاب السلوك للمقريزي ج ١ ، ق ٢ ، ٣٣٤ - ٣٣٥

٤٣ - رسالة الملك المعظم تورانشاه بن الملك الصالح إلى نائبه في دمشق جمال الدين يغمور يبشره باستسلام الصليبيين وظفر المنصورة .

الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ، وما النصر إلا من عند الله ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله . وأما بنعمة ربك فحدث ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها . نبشر المجلس السامي الجمالي بل نبشر المسلمين كافة بما من الله به على المسلمين من الظفر بعدو الدين ؛ فإنه كان قد استكمل أمره واستحكم شره ويثس العباد من البلاد والأهل والأولاد ، فنودوا ألا تأسوا من روح الله .

ولما كان يوم الإثنين مستهل السنة المباركة وهي سنة ثمان وأربعين وستائة ، تم الله على الإسلام بركتها ، فتحنا الخزائن وبذلنا الأموال وفرقنا السلاح وجمعنا العربان والمطوعة وخلقاً لا يعلمهم إلا الله جاؤوا من كل فج عميق

(١) سورة البقرة الآية ٢٤٩ .

(٢) ورد نص مشابه كل المشابهة للنص اعلاه في « الخطط المقرزية » ج ١ - ٣٨٦ .

ومكان سحيق . فلما رأى العدو ذلك أرسل يطلب الصلح على ما وقع الاتفاق بينهم وبين الملك الكامل فأبينا . ولما كان ليلة الأربعاء تركوا خيامهم وأموالهم وأثقالهم وقصدوا دمياط هاربين ، فسرنا في آثارهم طالبين ، ومازال السيف يعمل في أديبارهم عمامة الليل ، وقد حل بهم الخزي والويل . فلما أصبحنا يوم الأربعاء قتلنا منهم ثلاثين ألفاً غير من ألقى نفسه في اللجج . وأما الأسرى فحدث عن البحر ولا حرج ، والتجأ الفرنسيس إلى المنية وطلب الأمان فأمناه وأخذناه وأكرمناه ، واستلمنا دمياط بعون الله تعالى وقوته وجلاله وعظمته (١) .

كتاب الخطط للمقريزي ج ١ - ٣٩١

ب - المماليك -

١ - الملك الظاهر بيبرس ٦٥٨ هـ - ٦٧٦ هـ / ١٢٦٠ م - ١٢٧٧ م .

١٤٤ - رسالة صاحب طرابلس الفرنجي إلى الملك الظاهر بيبرس .
أغار الملك الظاهر بيبرس على ضواحي طرابلس فأرسل إليه صاحبها يقول :

مامراد السلطان في هذه الأرض ؟

١٤٥ - جواب السلطان عن الرسالة السابقة إلى صاحب طرابلس
جئت لأرعى زروعكم وأخرب بلادكم ثم أعود إلى حصاركم في العام الآتي .
البداية والنهاية لابن كثير ج ١٣ - ٢٥٩

(١) أورد المقريزي نفسه في كتابه « السلوك » ج ١ ، ق ٢ / ٣٥٦ - ٣٥٧ نصاً آخر لهذه الرسالة لا يختلف عن النص أعلاه ، كما أورد ابن قنبري بردي في « النجوم الزاهرة » ج ٩ - ٣٦٧ نصاً مشابهاً لنصنا هذا .

١٤٦ - رسالة السلطان الملك الظاهر بيبرس إلى فرنج عكا .

نقض فرنج الساحل الهدنة الموقودة بينهم وبينين بيبرس ولم يفوا بشروطها ، فزحف السلطان على بلادهم يبيشه . فلما اقترب منهم خافوا وراسلوه في استمرار الهدنة وادعوا أنهم لم يعملوا بقدمه ، فأرسل إليهم كتاباً يقول فيه :

من يريد أن يتولى أمراً ينبغي أن يكون فيه يقظة ومن خفي عليه خروج هذه المساكر وجهل ما علمته الوحوش في الفلاة والحيثان في المياه من كثرتها التي لعل بيوتكم ما فيها موضع إلا ويكنس منه التراب الذي أثارته خيل هذه المساكر ، ولعل وقع سنايكها قد أصم أسماع من وراء البحر من الفرنج ومن في موقان^(١) من التتر . فإذا كانت هذه المساكر تصل جميعها إلى أبواب مدينتكم ولا تدرن ، فأى شيء تعملون ؟ وماذا تحيطون به علماء ؟ ولم لا أعطيتكم لوالي غزة الكتاب الذي كنا سيرناه لكم بتمكين رسولكم إذا حضر ؟

كتاب السلوك للمقريزي ج ١ ، ق ٢ - ٤٨٣

١٤٧ - رسالة شارل ملك صقلية إلى الملك الظاهر بيبرس .

كان شارل دوق أنجو وأخو ملك فرنسا لويس التاسع ملكاً على صقلية ، فأراد عقد معاهدة تجارية مع دولة المماليك ، فأرسل إلى السلطان الظاهر هدية مع رسالة من استاداره هذا نصها :

بأن مخدمه أمره أن يكون أمر الملك الظاهر نافذاً في بلاده ، وأن أكون نائب الملك الظاهر كما أنا نائبه .

كتاب السلوك للمقريزي ج ١ ، ق ٢ - ٥١٣

(١) موقان : إحدى اقسام أذربيجان .

١٤٨ - رسالة السلطان الملك الظاهر بيبرس إلى ملك قبرص :

أرسل بيبرس أسطولاً مؤلفاً من إحدى عشرة سفينة إلى قبرص لغزوها فكسرتها الرياح وأسر من فيها ، وأرسل ملك قبرص يخبر السلطان بذلك ويعيره ، فأجابه السلطان بما يلي :

إلى حضرة الملك اوك : ذكر يبابي ، جعله الله بمن يوفي الحق أهله ، ولا يفتخر بنصر إلا إذا أتى قبله أو بعده بخير منه أو مثله . نعلمه أن الله إذا أسعد إنساناً دفع عنه الكثير من قضاائه باليسير ، وأحسن إليه بالتدبير فيما جرت به المقادير . وقد كنت عرفتنا أن الهوا كسر عدة من شوانينا ، وصار بذلك يتبجح وبه يفرح . ونحن الآن نبشروه بفتح القرين ، وأين البشارة بتملك القرين من البشارة بما كفى الله ملكنا من العين . وما العجب أن يفخر بالاستيلاء على حديد وخشب . الاستيلاء على الحصون الحصينة هو العجب . وقد قال وقتلنا ، وعلم الله أن قولنا هو الصحيح . واتكل واتكلنا ، وليس من اتكل على الله وسيفه كمن اتكل على الريح . وما النصر بالهواء مليح . إنما النصر بالسيف هو المليك . ونحن نشئ في يوم واحد عدة قطايح ، ولا ينشئ لكم من حصن قطعة ، ونجهز مائة قلع ، ولا تجهز لكم في مائة عام قلعة . وما كل من أعطي مقدافاً قذف وما كل من أعطي سيفاً أحسن الضرب به أو غرف . وإن عذمت من بحرية المراكب آحاد فعندنا من بحرية المراكب آلاف . وأين الذين يطعنون بالمقاذيف في صدر البحر من الذين يطعنون بالرماح في صدر الصفوف . وأنتم خيولكم المراكب ونحن مراكبنا الخيول ، وفرق بين من يجرها كالبحار ومن تقف به في الوصول . وفرق بين من يتصيد على الصقور من الخيل

العرب ، وبين من إذا افتخر قال تصيدت بغراب . ولئن كنتم أخذتم
لنا قربة مكسورة ، فكم أخذنا لكم من قرية معمورة وان استوليتم على
سكان فكم أخيلنا بلادكم من سكان ، وكم كسبت وكسبنا ، فيرى أيننا
أغنى . ولو أن في الملك سكوتا كان الواجب عليه أنه سكت وما تكلم .

كتاب السلوك للمقرئزي ج ١ ، ق ٢ - ٥٩٤ حاشية رقم ٣

١٤٩ - رسالة جوابية من الملك الظاهر بيبرس إلى مقدم الاستبارية؛
حصلت عدة مراسلات بين الملك الظاهر بيبرس ومقدم الاستبارية
حول نقضهم الهدنة المعقودة بين الطرفين ، وخالف الاستبارية شروط
الهدنة فحاصروا عكا ، وأرسل السلطان إلى مقدمهم عدة رسائل مستفسراً
وأرسلوا له عدة أجوبة لم يطمئن إليها ، وأخيراً أرسل إلى مقدمهم يقول:
أما تجديد الرض لحفظ الصعاليك ، فالبلاد ما تحفظ بالأسوار ،
ولا تحفظ الرعية ولا بالحنادق^(١) ، ولا تحفظ إلا بأحد أمرين : إما بالسيوف
والعزائم ، وإما بإحسان الجيرة وكف الأذى . ومن يخاف من اللصوص
لَمْ لا يخاف من غيرهم ؟ وأما أمر التتار فقد علم كل أحد أنا عندما
تحصنتم بالأسوار والحنادق خرجنا نحن إلى التتار . وما جعلنا حصوننا
الآخيلونا ، ولا خنادقنا إلا سيوفنا ، ولا أسوارنا إلا رجالنا . وأما
قولكم إن قلاعكم ما تخاف إلا الله ، ولا يجر أحد أن يصل إليها ،
فسوف ترون كيف يكون الوصول إليها إن شاء الله تعالى ولا يفرج من أخبار
التتار إلا مثلكم . وإلا هذه عساكري أولها في الفرات وآخرها في
عذيب وهاهي متواصلة .

كتاب السلوك للمقرئزي ج ١ ، ق ٢ - ٩٦٥

(١) كذا بالأصل .

١٥٠ - رسالة الملك الظاهر بيبرس إلى فرنج عكا من أجل ملكة

بيروت :

احتال صاحب قبرص وحاكم عكا على صاحبة بيروت وجعلها تترك
ملكها وتذهب إلى قبرص ، وبقيت بيروت بدون سلطان ، فأرسل
بيبرس إلى صاحب عكا يقول :

هذه الملكة بيبي وبينها هدنة ، وما سافر زوجها حتى أودعها عند
جاهي . وعادتها إذا سافرت تستودعني بلادها . وفي هذه المرة
ما سرت لي رسولا ، ولا بد من حضورها وأن تتوجه رجلي وتشاهدها
وإلا أنا أحق ببلادها .

تاريخ ابن الفرات ج ٧ - ٣٥

١٥١ - رسالة الملك الظاهر بيبرس إلى القاضي ابن خلكان يبشره

بفتح قيسارية وأرسوف عنوة سنة ٦٦٣ هـ . وهي من إنشاء فتح
الدين عبد الله بن القيسراني :

جدد الله البشائر الواردة على المجلس السامي القضائي وأسره بما
أسمعه وأبطل ببركته كيد العدو ودفعه ، وجاء بها سبب الخير وجمعه .
ولا زالت التهاني إليه واردة والمسرات عليه وافدة ونعم الله وبركاته
لديه متزايدة . هذه المكاتبة تبشر بنصر من الله وفتح قريب ، وهناء
يأخذ له المجلس منه أوفر نصيب . ونوضح لعله الكريم أنه لما كان
يوم الاثنين التاسع من رجب المبارك قدمنا خيرة الله تعالى وزحفنا على
مدينة أرسوف بعساكرنا المنصورة ، وأدركنا بها الأطلاب للزحف ،
وكانت مرتبة على أحسن صورة وتناولناها مناولة القادم إذا ضم ضمة
المشتاق ، واستولينا على جميع أهلها فأضحى كل منهم من القيد في

وثاق ، وأضرمتنا بها النيران ، فمجل الله لهم بها في الدنيا قبل الآخرة
الإحراق ، وجرعناهم غصص الموت فتجرعوها مرة المذاق . وكانت
مدة القتال ثلاثة أيام آخرها يوم الخميس ثاني عشر شهر رجب المبارك
فلم يفلت منهم أحد ، وعاجلناهم في هذه المدة القريبة فلم يغنهم
ما فعلوه في تحصين البلد ، ولم يس أحد منهم في ليلة الجمعة وقد نجا
من القتل إلا وهو أسير ، واحتطنا بهم فما نجا منهم بحمد الله صغير
ولا كبير . وعجلنا للمجلس بهذه البشارة ليأخذ منها حظاً وافراً ويقراً
آيات نصر الله على أصحابه من الفقهاء والعدول . ويحدث بها فيكون
تالياً لها بين الأنام وذاكراً ، ويكتب مضمون ذلك إلى نوابه من الحكام
ليشهر هذا الخبر السعيد بين الأنام ، ويواصلنا بدعائه فإننا نرجو به
الزيادة . والله تعالى يحزينا ويحزيه من الطافه على أجل عادة ، بمنه
وكرمه إن شاء الله تعالى .

كتب ثاني عشر شهر رجب المبارك وبين الأسطر وبين الأسطر وعدة
الأسرى ألف أسير ، وأما القتل فكثير لأن القلعة أخذت بالسيف .
ذيل مرآة الزمان للبونيني ج ٢ ٣١٩ - ٣٢٠

١٥٢ - رسالة السلطان الظاهر بيبرس إلى القاضي ابن خلكان
سنة ٦٦٤ هـ لما أخذ صفد من إنشاء كمال الدين أحمد بن المعجمي :
سر الله خاطر المجلس السامي وأطلع عليه وجوه البشائر سوافر ،
وأمتع نواظره باستجلاء محاسنها النواضر ، وواصلها إليه متوالية تواجبه
كل يوم بمراتها الزواهي الزواهر ، وأماثلها لديه متضاهية الجمال متناسبة
في حسن المبادي والأواخر ، ولم تزل وجوه البشائر أحسن وجوه
تستجلى ، وألفاظه أعذب ألفاظ تستعاد وتستعلى . وإذا كررت على
الوثائق - ١٧

المسامع أحاديث كتبها لا ثقل بل تستملى ، لا سيما إذا كانت بإعزاز الدين وتأييد المسلمين ، ونبأ فتح نرجو أن يكون طليعة فتوحات كل فتح منها هو الفتح المبين ، فإن أنباءها تجل وقماً وتعظم في الدنيا والآخرة نفماً ، وتود كل جارحة عند حديثه أن تكون سمعاً لحديث هذا الفتح الذي كرم خبراً وحسن أثره في الإسلام ورداً وصدرأ ، وطابت أخبار ذكره فشغل به السارون حياءً والسامرون سمرأ . وهو فتح صفد واستنقاذه من أسرهِ واسترجاعه إلى الإسلام ، وقد طال عليه في النصرانية مدة من عمره ، وأقرار عين الدين بفتحه ، وكان قذى في عينه وشجى في صدره . وقد كنا لما وصلنا الشام بالعزم الذي فقرته دواعي الجهاد ، وأنقذته عوالي الصفاد وقربته أيدي الجياد ملنا على سواحل العدو المخدول ، ففرقناها ببحار عساكرنا الزاخرة ، وشطينا بها من الغارات ما ألبسها ذلاً رفل بها الإسلام في ملابس عزه الفاخرة . وهي وإن كانت غارة عظيمة شنت في يوم واحد على جميع سواحله واستولى بها النهب والتخريب على أمواله ومنازله ، واستبيح من حرمه وحرمه مصونات معاقله وعقائله ، إلا أنها كانت بين يدي عزائنا المنصورة نشيطة نشطنا بها الغازين واسترهفنا بها هم المجاهدين ، وقدمناها لهم كاللينة قبل الطعام للساغبين ، وابعقنا ذلك بما رأيناه أولى بالتقديم وأحرى ، وتبيناه أشد وطأة على الإسلام وأعظم ضرأ ، وهي صفد التي باء بإثمها حاملها على النصرانية ومسلطها بالنكاية على البلاد الإسلامية ، حتى جعلها للشرك مأسدة آساده ومراد مراده ومجر رماحه ومجرى جياده ، كم استبيح بسببها للإسلام من حمى ، ومك استرق الكفار بواسطتها مسلمة من الأحرار ومسلماً ، ومك تسرب منها جيش الفرنج إلى بلاد المسلمين فعازوا مغنماً وقوضوا معلماً ، فنارلناها

منازلة الليل بانعقاد القسائل ، وطالعناها مطالمة الشمس بـبريق
 المرهفات وأسنة الدوابل ، وقصدناها يحفل لم يزحم بلداً إلا هدمه ولا قصد
 جيشاً إلا هزمه، ولا أمّ متمناً طفى جبارَه إلا سهل وقصمه، فلما طالعنا أوائل
 طلائعنا منازلة ، وقابلتها وجوه كاتنا المقاتلة اغتر كافرنا فبرز للمبارزة
 والقتال ، ووقف دون المنازلة داعياً للزال . فتقدم إليه من فرساننا كل
 حديد الشبا حديد الشباب يهوي إلى الحرب فيرى منه ومن طرفه أسد
 فوق عقاب ، ويخف نحوها متسرعاً فيقال : إذا لقاء أعداء أم لقاء
 أحباب ؟! فهم فوارس كمناسلهم رونقاً وضياء ، تجري بهم جياد
 كدوابلهم علاناً ومضاءً ، إذا مشوا إلى الحرب مزجوا المرح بالتيه
 فيظن في أعطافهم كسل ، وهزوا قاماتهم مع الذوابل فجعلت الحرب من
 منهم الأسل . فحين شاهد أعداء الله آساد الله تصول من رماحها
 بأسودها ، وتبدي ظمأً لا ينقعه إلا أن ترد من دماء الأعداء بحمر
 مواردها ، وأنها قد أقبلت لنحوهم يحافل تضيق رحب الفضاء، وتحقق
 بنزولها وزالها كيف نزول القضاء ، وأنه جيش بعثه الله بإعزاز الجمعة
 وإذلال الأحد ، وعقد برايته منذ عقدها أن لا قبل بها لأحد ، وأن
 الفرار ملازم أعدائه ولاقرار على زار من الأسد ، ولوا مديرين وأدبروا
 على أعقابهم ناكسين ، ولجأوا إلى معقلهم معتقلين لامتعقلين . فعند
 ذلك زحفنا إليه من كل جانب حتى صرنا كالنطاط بخصره ، ودنا
 به حتى عدنا كاللثام بشغره ، وأمطرنا عليه من السهام وبلا سحبت ذبول
 سحبه المتراكمة ، وأجرينا حولها من الحديد بجرأ غرقه أمواجه المتلاطمة
 وضايقناها حتى لو قصد وقد النسيم وصولاً إليه لما تخلص ، أو رام
 ظل الشمس أن يعود عليه فينا لمجز لأخذنا عليه أن يتخلص . ثم
 وكلنا به من المجانيق كل عالي الفوارب عاري المناكب ، عبل الشوى

سامي الذرى ، له وثبات تحمل إلى الحصون البوائق ، وثبات نزول
دونه ولايزول . الشواهي ، ترفع لمرورها الستائر فتدخل أحجاره بغير
استئذان ، وتوضح لنزوله رؤوس الحصون فتخر خاضعة للأذقان فلم
يزل يصعد بثبات أركانه حتى هدمها ، وتقبل ثنيات ثغره حتى أبدى
رمها . وفي ضمن ذلك لصق الحجارون بحداره وتعلقوا بأذيال أسواره
ففتحوها أمراباً ، وأججوها إجماعاً يستعر جبرها التهاباً ، فصلى
أهل النار بنارين من الحريق والقتال ، ومنوا بمعذابين من حر الضرام
وحسد النصال ، هذه تستعر عليهم وقوداً ، وهذه تجعل هامهم للسير غموداً .
فعند ذلك جاءهم الموت من فوقهم ومن أسفل منهم ، وأصبح ثغورهم
الذي ظنوه عاصماً لا يغني عنهم ، ومع ذلك فقاتلوا قتالاً مستقلاً لا يرى
من الموت بداً ، وثبتوا متحايين ^(١) يقدون ببيضهم البيض والأبدان
قدماً ؛ فصبر أولياء الله على ما عاهدوا الله عليه ، وقدموا نفوسهم قبل
إقدامهم رغبة إليه ، ورأوا الجنة تحت ظلال السيوف فلم يروا دونها
مقيلاً ، وتحققوا ما أعدده الله لأهل الشهادة فاستحلوا وجه الموت على
جهامته جيلاً . فعند ذلك خاب ظن أعداء الله وسقط في أيديهم
وصار رجاء السلامة برؤوسهم أقصى قنهم ، فعدلوا عن القتال إلى
السؤال ، وجنحوا إلى السلم وطلب النزول بعد النزال ، وتداءوا
بالأمان صارخين وجاؤوا بدهاء التضرع لاجين ، فأغمد الصفح عنهم
بيض الصفاح ، وقاتلوا من التوسل بأحد سلاح ، واستدعوا راياتنا
المنصورة فشرعوا بها الشرقات ونزلوا على حكمنا فأقالت القدرة لهم العثرات .
وتسلم الحصن المبارك وقت صلاة الجمعة ثامن عشر شوال ، وتحكم نوابنا

(١) كذا بالأصل .

على ما بها من الذخائر والأموال ، ونودي في أرجائها بالواحد الأحد ، واستديل للجمعة يوم الجمعة من يوم الأحد . ونحن نحمد الله على هذا الفتح الذي أعاد وجه الإسلام جيلاً ، وأنام عين الدين في ظل من الأمن مدة ظليلاً . وألان من جانب هذا الثغر مالا يُظن أن سيلين ، وذل من صعبه ماشرح به صدر الملك والدين ، فإنه حصن مر عليه دهر لم يمر فتحه بالأوهام ، ولاتطاولت إليه يد الخطب ولاهمة الأيام ، وربما كان يجد منفساً فيدعو الملوك إلى نفسها فيصاموا ، وتخطيهم وممرها أدنى حرب فيدربوا في العزلة والمسألة فيسالموا ، ألهمهم عن فخر فتحها الرغبة في رفاهة عيشة ظنوها راضية ، ووقف بهم دون السعي فيه همة لنزول الدنايا متفاضية . وجنح بهم مراد السلم وإرادة السلم كانت عليهم القاضية والمجلس - أيده الله - يأخذ حظه من هذه البشرية ويقربها عيناً ويشرح بها صدرأ ويملئ وجوه بشارتها من هذه المكاتبة على عيوت الناس من كل حاضر وبادٍ ، ويستنطق بها ألسن المحدثين وفي كل محفل وتنادٍ . والله يحرم المجلس ويسهل بهتته كل مراد إن شاء الله تعالى في التاريخ المذكور وقت الفتح .

ذيل مرآة الزمان لليونيني ج ٢ ٣٣٨ - ٣٤٣

١٥٣ - نص الهدنة المعقودة بين السلطان الملك الظاهر بيبرس وبين الاسبتارية المتغلبين على حصن الأكراد والمرقب وعكاً ، وذلك سنة ٥٦٥ هـ .

استقرت الهدنة المباركة الميمونة بين مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدين أبي الفتح بيبرس الصالح النجمي ، وبين المقدم الكبير ألهم فلان مقدم بيت الاسبتاري الفلاني بعكا والبلاد الساحلية وبين فلان مقدم حصن الأكراد وبين فلان مقدم حصن المرقب وجميع الأخوة الاسبتار لمدة عشرين متواليه وعشرة

أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات أولها يوم الاثنين رابع رمضان سنة خمس وستين وستائة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام الموافق لليوم الثلاثين من أيام ١٠٠٠ سنة ألف وخمسمائة وتسعة وسبعين سنة للإسكندر بن فيليبس اليوناني - على أن جميع المملكة المحمية والشيزرية والحوية وبلاد الدعوة المباركة واقع عليها الاتفاق المبارك ومستقرة لها هذه الهدنة الميمونة بجميع حدود هذه الممالك المعروفة وبلادها الموصوفة وقراتها وضياعها وسهلها وجبلها وعامرها وغامرها وقرورها ومعطلها وطرقاتها ومياها وقلاعها وحصونها - على ما يفصل في كل مملكة ويشرح في هذه الهدنة المباركة للمدة المعينة إلى آخرها .

وعلى أن المستقر بمملكة حمص المحروسة أن جميع المواضع والقرى والأراضي التي من نهر العاصي وتغرب إلى الحد المعروف من الغرب لبلد المناصفات ، عامراً ودائراً ، وبما فيها من الغلات صيفياً وشتوياً ، والعداد وغيرها من الفوائد ، تقرر أن يكون النصف من ذلك للسلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين أبي الفتح بيبرس ، والنصف لبيت الأستار .

وعلى أن كلا من الجهتين يجتهد ويجرص في عمارة بلد المناصفات المذكورة بجهده وطاقته ، ومن دخل إليها من الفلاحين بدواب ، أو من التركان أو العرب ، أو من الأكراد أو من غيرهم ، أو الفئاة ، كان كان عليهم العمد كجاري العادة ، ويكون النصف للسلطان والنصف لبيت الأستار .

وعلى أن الملك الظاهر يحمي بلد المناصفات المقدم ذكرها من جميع

(١) بياض بالأصل .

عسكره وأتباعه ومن هو في حكمه وطاعته ، ومن جميع المسلمين الداخلين في طاعته كافة . وكذلك مقدم بيت الاستتار وأصحابه يحمون بلاد مولانا السلطان الداخلة في هذه الهدنة .

وعلى أن جميع من يتعدى نهر العاصي مغرباً لرعي دوابه ، سواء أقام أو لم يقيم ، كان عليه العداد سوى قناة البلد ودوابه ، ومن يخرج من مدينة حصص ويعود إليها ، ومن غرّب منهم ومات كان عليه العداد .

وعلى أن يكون أمّـر فلاحى بلد المناصفت في الحبس والإطلاق والجباية راجعاً إلى نائب مولانا السلطان ؛ باتفاق من نائب بيت الاستتار ، على أن يحكم فيه بشريعة الإسلام إن كان مسلماً ، وإن كان نصرانياً يحكم فيه بمقتضى دولة حصن الأكراد . وأن يكون الفلاحون الساكنون في بلاد المناصفت جميعها مطلقيين من السخر من الجانبين .

وعلى أن الملك الظاهر لا يأخذ في بلد المناصفت المذكورة : من تركمان ولا عرب ولا أكراد ولا غيرهم عداداً ولا حقاً من حقوق بلد المناصفت إلا ويكون النصف منه للملك الظاهر والنصف الآخر لبيت الاستتار .

وعلى أن الملك الظاهر لا يتقدم بمنع أحد من الفلاحين المعروفين بسكنى بلاد المناصفت من الرجوع إليها والسكن فيها إذا اختاروا العودة ، وكذلك بيت الاستتار لا يمنعون أحداً من الفلاحين المعروفين بسكنى بلاد المناصفت من الرجوع إليها والسكن فيها إذا اختاروا العودة .

وعلى أن الملك الظاهر لا يمنع أحداً من العربان والتركمان وغيرهم : ممن يؤدي العداد من الدخول إلى بلد المناصفت ، إلا أن يكون محارباً لبعض الفرنج الداخلين في هذه الهدنة . فله المنع من ذلك ، وأن تكون خشارات الملك الظاهر وخشارات عساكره وغلمانهم وأهل بلده ترعى في

بلد المناصفات آمنة من الفرنج والنصارى كافة ، وكذلك خشارات بيت الاسبتار وخشارات عسكرهم وغلماهم وأهل بلدهم ترعى آمنة من المسلمين كافة في بلد المناصفات . وعند خروج الخشارات من المراعي وتسليمها لأصحابها ، لا يؤخذ فيها حق ولا هدا ولا تعارض من الجهتين .

وعلى أن تكون مصيدة السمك الرومية ، مهما تحصل منها ، يكون النصف منه للملك الظاهر والنصف لبيت الاسبتار ، وكذلك المصايد التي في الشط الغربي من العاصي يكون النصف منه للملك الظاهر والنصف لبيت الاسبتار ، ويكون لبيت الاسبتار في كل سنة خمسون ديناراً صورية عن القش ويكون القش جميعه للملك الظاهر يقصرف نوابه فيه على حسب اختيارهم ، ويكون اللينوفر مناصفة ، النصف منه للملك الظاهر ، والنصف لبيت الاسبتار . وتقرر أن الطاحون المستجد المعروف بإنشاء بيت الاسبتار الذي كان حصل الحرب فيه ، والبستان الذي هناك المعروف بإنشاء بيت الاسبتار أيضاً يكون مناصفة ، وأن يكون متولي أمرهما نائب من جهة نواب السلطان ونائب من جهة بيت الاسبتار ، يتوليان أمرهما والتصرف فيهما وقبض متحصلهما . وتقرر أن مهما يجدد بيت الاسبتار على الماء الذي تدور به الطاحون ويسقى البستان من الطواحين والأبنية وغير ذلك يكون مناصفة بين الملك الظاهر وبين بيت الاسبتار .

وأما المستقر بملكة شيزر المحروسة فهي : شيزر وأبو قبيس وأعماله ، وعينتاب وأعمالها ، ونصف زاوية بغراس المعروفة بحماية بيت الاسبتار وأعمالها ، وجميع أعمال المملكة الكسروية والبلاد المذكورة بحدودها المعروفة بها وقراها المستقرة بها وسهلها وجبلها وعامرها وغامرها .

وما استقر بملكة الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر أبي الفتح محمود بن الملك المنصور محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب

فهي : حاة المحروسة وقلاعها ومدنها ، والمعرة وقراها وسهلها وجبلها
وأنهارها ، ومنافعها وثمارها وعامرها وغامرها ، وبلاد رقيية وبلاد بارين
بحدودها وتخومها وعامرها ودائرها وجميع من فيها . على أن الملك المنصور
لا يرخص للتركمان ولا للعرب أن ينزلوا بلد رقيبهم وبارين سوى ثلاثين بيتاً
يحملون الغلة لقلعة بارين ، وإن أرادوا الزيادة يكون بمراجعة الأخوة الاسبتارية
والاتفاق معهم على ذلك .

وعلى أنه إن تعدى أحد من أصحابه بأذية أو تعدى أحد من الفرنجة في بلاده
بأذية ، كانت المهلة في ذلك خمسة عشر يوماً ، فإن انكشفت الأخذة
أهيدت ، وإلا تحلف الجهة المدعى عليها أنها ما علمت ولا أحست . وكما
لهم كذلك عليهم .

والمستقر لمملكة الصاحبين : نجم الدين وجمال الدين ، والأمير صارم
الدين نائب الدعوة المباركة وولد الصاحب رضي الدين وهي : مصيف
والرصافة وجميع قلاع الدعوة وحصونها وسهلها ووعرها وعامرها ودائرها
ومدنها وبلادها وضياعها وطرقاتها ومياهها ومنابعها وجميع بلاد
الإسماعيلية يجلي بهرا واللكام ، وكل ما تشتمل عليه حدود بلاد الدعوة
وتخومها ، أن يكون الجميع آمنين من على الرصيف الذي يشير إلى
نهاية الأراضي التي بحصون الدعوة وبلادها . وحماية القرية المعروفة
بمرطمار^(١) يكون له أسوة الإسماعيلية . وإن علم الأصحاب أن أحداً
من الإسماعيلية قد عبر إلى بيت الأسبتارية لأذية أعلموا بيت الأسبتار
قبل أن تجري أذية ، وما لم يُعلموا به عليهم اليمين أنهم ما علموا به ،
وإن لم يحلفوا يردوا الأذية التي تجرى .

(١) كذا بالأصل .

وتقرر أن يكون فلاحو بيت الأسبتار رائحين وغادين ومنصرفين في بيومهم وشرائهم مطمئنين لا يتعدى أحد منهم ، وكذلك جميع فلاحى بلاد الإسماعيلية لا يتعدى أحد عليهم ، وأن يكونوا آمنين مطمئنين في جميع بلاد الاسبتارية ، وإن تعدى أحد من الجهتين في سوق أو طريق في ليل أو نهار تكون المهلة خمسة عشر يوماً ، فإن ردت الشكوى كلها فما يكون إلا الخير بينهم ، ومن توجهت عليه اليمين حلف ، ومن لم يفعل يحلف وإلا يرد الأذية . وتكون الضيعة السقي رهنها عبد المسيح رئيس المرقب الاسبتار ، وهي المشيقة تكون آمنة إن كان الحال استقر عليها إلى آخر وقت عند كتابة هذه الهدنة المباركة بين الأصحاب وأصحابهم ، ويحمل الأمر في الحقوق .

ويبطل ما هو على بلاد الدعوة المباركة من جميع ما لبيت الاسبتار على حماية مصياف والرصافة وهو في كل سنة ألف ومائتا دينار قومصية وخمسون مداً حنطة وخمسون مداً شعيراً ، ولا تبهى قطعة على بلاد الدعوة جميعها ، ولا يتعرض بيت الاسبتار ولا نوابهم ولا غلمانهم إلى طلب قديم من ذلك ولا جديد ، ولا منكسر ولا ماضي ولا حاضر ولا مستقبل على اختلافه .

وتقرر أن تكون جميع المباحات من الجهتين مطلقه بما يختص بالملكة الحصية ، يستزق بها الصماليك ، وأن نواب الملك الظاهر يحمونهم من أذية المسلمين من بلاده المذكورة ، وأن نواب بيت الاسبتار يصونونهم ويحرسونهم ويحمونهم من النصارى والفرنج من جميع هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة ، ولا يتعرض أحد من المسلمين كافة من هذه البلاد الداخلة في [هذه] الهدنة [إلى البلاد الاسبتارية] بأذية ولا إغارة ، ولا يتعرض أحد من جميع الفرنجة من هذه البلاد الداخلة

في هذه الهدنة بحدودها الجارية في يد نواب الاسبتار وفي أيديهم ، إلى بلاد الملك الظاهر بأذية ولا إغاره .

وعلى أنه متى دخل في بلاد المناصفت أحد من يجب عليه العداد وامتنع من ذلك ، وكان عداد إحدى الجهتين حاضراً . أما عداد ديوان الملك الظاهر ، وأما عداد بيت الاسبتار ، فلنائب العداد الحاضر من إحدى الجهتين أن يأخذ من ذلك الشخص الممتنع عن العداد أو الخارج من بلد المناصفت رهناً بمقدار ما يجب عليه من العداد ، بحضور رئيس من رؤساء بلد المناصفت ، ويترك الرهن عند الرئيس وديعة إلى أن يحضر النائب الآخر من الجهة الأخرى ، ويوصل إلى كل من الجهتين حقه من العداد .

وإن خرج أحد من يجب عليه العداد ، وعجز النائب الحاضر عن أخذ رهنه : فإن دخل بلداً من بلاد الملك الظاهر ، كان على النواب إيصال بيت الاسبتار إلى حقهم مما يجب على الخارج من العداد . وكذلك إن دخل الخارج المذكور إلى بيت الاسبتار ، كان عليهم أن يوصلوا إلى نواب الملك الظاهر حقهم مما يجب على الخارج من العداد . وكذلك يعتمد ذلك في المملكة الحموية وبلاد الدعوة المحروسة .

وعلى أن التجار والسفار والمترددین من جميع هذه الجهات المذكورة يكونون آمنين من الجهتين : الجهة الإسلامية ، والجهة الفرنجية والنصرانية ، في البلاد التي وقعت هذه الهدنة عليها - على النفوس والأموال والدواب وما يتعلق بهم ، يحميهم السلطان ونوابه ، ويتعاهدون البلاد الداخلة في هذه الهدنة المباركة الواقع عليها الصلح وفي بلد المناصفت - من جميع المسلمين ، ويحميهم بيت الاسبتار في بلادهم الواقع عليها الصلح وفي بلد المناصفت - من الفرنج والنصارى كافة .

وعلى أن يتردد التجار والمسافرون من جميع المترددين على أي طريق اختاروه من الطرق الداخلة في عقد هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة المباركة المختصة بالملك الظاهر ، وبلاد معاهديه وبلاد المناصقات ، وخاص بيت الاسبتار والمناصقات ، يكون الساكنون والمترددون في الجهتين آمنين مطمئنين على النفوس والأموال ، تحمي كل جهة الجهة الأخرى .

وعلى أن ما يختص بكل جهة من هذه الجهات الإسلامية والفرنجية الأسبتارية ، لا يكون عياداً على مالها من المناصقات : من الدواب والغنم والبقر والجمال وغيرها ، على العادة المقررة في ذلك .

وعلى أن إطلاق الرؤساء يكون باتفاق الجهتين : الإسلامية والفرنجية الأسبتارية ، ومتى وقعت دعوى على الجهة الأخرى ، وقف أمرها في الكشف عنها أربعين يوماً ، فإن ظهرت أعيدت إلى صاحبها ، وإن لم تظهر حلف ثلاثة نفر من يختارهم صاحب الدعوى على ما يعلمونه في تلك الدعوى . وإن ظهرت بعد اليمين أعيدت إلى صاحبها ، وإن كان قد تعوض عنها أعيد التعويض .

وعلى أن يكشفوا على الأخيذة يهدم وطاقتهم ، ومتى تحققت أعيدت إلى صاحبها ، فإن حلفوا يبرؤون من الدعوى ، وإن ظهرت بعد اليمين أعيدت إلى صاحبها ، وإن امتنع المدعى عليه من اليمين حلف المدعي ، ولا يستحق "عوض ما عدم من كل شيء مثله . وكذلك يجري الأمر في القتل عوض الفارس فارس ، وعوض الراحل راجل ، وعوض البركيل بركيل ،

(١) كذا بالأصل . ولعل الصواب إسقاط « لا » ليستقيم المعنى فتصبح « ويستحق » وبذلك يتسق المعنى .

وعوض التاجر تاجر ، وعوض الفلاح فلاح . وإذا انقضت الأربعون يوماً المذكورة لكشف الدعوى ولم يحلف المدعى عليه للمدعي وجب عليه العوض حتى يرد ، وإن رد اليمين على المدعي ومضى على ذلك عشرة أيام ، ولم يحلف صاحب الدعوى بطلت دعواه وحكمها ، وإن حلف أخذ العوض .

ومتى هرب من إحدى الجهتين إلى الأخرى أحد ، ومعه مال لغيره أعيد جميع ماله ، وكان الهارب خيراً بين المقام والعود ، وإن هرب عبد وخرج عن دينه أعيد ثمنه ، وإن كان باقياً على دينه أعيد . وعلى أن لا يدخل أحد من القاطنين في بلد المناصفات : من الفلاحين والعرب والتركمان وغيرهم إلى بلاد الفرنج والنصارى كافة لإغارة ولا أذية بغير علم الملك الظاهر وبلاد معاهديه ، [ولا يدخل أحد] بلاد المسلمين لإغارة ولا أذية بعلم بيت الأستار ولا رضام ولا إذنه .

وعلى أن الدعوى المتقدمة على هذا الصلح يحمل أمرها على شرط المواصفة التي بين الملك الظاهر وبين معاهديه وبين بيت الأستار .

وعلى أن هذه الهدنة تكون ثابتة مستقرة : لا تنقضي بموت أحد من الطرفين ولا وفاة ملك ولا مقدم إلى آخر المدة المذكورة وهي : عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات ، أولها يوم تاريخه .

وعلى أن نواب الملك الظاهر ومعاهديه لا يتركون أحداً من التركمان ولا من العربان ولا من الأكراد ، يدخل بلد المناصفات بغير اتفاق من بيت الأستار أو رضاه ، إلا أن يكفلوه على نفوسهم في هذه الطوائف المذكورة ويعلموا حاله ، لئلا تبدو منهم أذية أو ضرر أو فساد ببلد المناصفات وببلد النصارى ، ولنواب مولانا السلطان أن تتركهم على شرط أنهم يعلم بهم بيت الأستار في غد نزولهم المكان ، إن كان المكان قريباً ، وإن ظهر منهم فساد كان النواب يحاوبون بيت الأستار .

وعلى أن المهادنة بحدودها يكون الحكم فيها كما في المناصفت ، والحدود في هذه البلاد جميعها تكون على ما تشهد به نسخ الهدن ، أو ما استقر الحال عليه إلى آخر وقت .

وعلى أن تخلى أمور المملكة المحصية على ما كان مستقراً في الأيام الأشرفية على ما قرره الأمير علم الدين « سنجر » .

هذا ما وقع الاتفاق والتراضي عليه من الجهتين ، وبذلك جرى القلم الشريف السلطاني الملكي الظاهري : حجة بمقتضاه ، وتأكيدها لما شرح أعلاه . كتب في تاريخ كذا كذا .

صبح الأعشى للقلقشندي ج ١٤ ، ٣١ - ٣٩

١٥٤ - رسالة الملك الظاهر بيبرس إلى القاضي ابن خلكان يبشره بفتح حصن الشقيف سنة ٦٦٥ هـ من إنشاء كمال الدين بن المعجمي :

صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس السامي القضائي ، لازالت البشائر تحمل به ربما ، وتصنع لديه في الإبلاغ حسناً وتحسن صنماً ، وتسرى بالإفهام والإمام والإعلام له قلباً وبصراً وسمعاً ، نعلمه بفتح أمست وجوه البشائر ببشره متمثلة وأسماع المنابر لوعيه متبثلة ، وفروض الجهاد به مؤداة ، ولكنها مشفوعة بالسيوف المسنونة والغزوات المتنفلة . وهو فتح الشقيف الذي جاء بتناوب الإتحاف إلى القلوب ، ويتناسب أنباؤه كالرمح أنبوب على أنبوب ، ويتعاقب مسراجه إلى الإسلام كما تتعاقب الأنواء لنقع الثرى المكروب . وأقبل بعد فتح يافا كما تقبل البكر التي لا بد لها بعد سهولة الهواء من الامتناع عند الافتراع ، وتهادي تهادي الغيث الذي لا بد له عند نزوله من الرعد المزعج والبرق اللامع . وكان نزولنا عليها في تاسع عشر شهر رجب المبارك سنة ست وستين وسثمائة ،

بعد أن سلكنا إليها في أوعار تتمثر بها ذبول الرياح ، وهبطنا في
أودية لا يأنس فيها إلا بمجاوبة الصدى لقعاقع السلاح . وصعدنا في
جبال لا يرى الأشباح منها إلا كالذر والذرى إلا كالأشباح . وهذه القلعة
من وجه هذه الشواحق بمكان الغرة ، ومن كتابها بمنزلة الطرة ، كأنها
سمع تناجيه النجوم بأسرارها ، أو راحة بما بسطته من أصابع شرفاتها
وتلك البواشير فيها بمنزلة سوارها ، يكاد الطرف ينقلب عنها خاسماً
وهو حسير ، وكل ذي جناح يفتدو دون منالها يطير . وقد أحكم
بناؤها فلا أيدي المعاول لأطراف أسوارها مجاذبة ، وحصن فناؤها
فلا غير الغنائم لها مجاورة ولا غير الرعود لها مجاورة . وقد تحصن بها
من الكفر كل مستعقل ، وتوطنها منهم كل جاهل يرجع في التحصن بها
إلى منعها وكيف لا وهو لها مستعقل ، وقد انتخبهم الفرنج من بينهم
انتخاب المناضل بسريع سهامه والمفاضل ببديع كلامه ، وحلوا منه
ذروة بعيدة المنال ، وتوقلوا صهوة لانتخطى إليها الآمال . وكنا ،
كما قد علم المجلس السامي أعزه الله ، قد سيرنا إليها العساكر الشامية تمسك منها
الحناق ، وتأخذ منها بمجامع الأطواق ، فحفت بها كما حفت الخواتم
بالتناصر ، أو كما حفت بالعيون الأهداب ، ودارت حولها سوراً مساله
غير الخوذ من شرفات وغير فواهد الخيل من أبراج وغير حنايا السيوف
من أبواب ، وأحدقت بشعرها كما تحديق الشفاه بالثغور ، وأطافت بها
قبل لإطافتنا كما يطوف البند قبل المنطقة بالحصور ، وأقامت السميرية
ترمقهم بزرق عيونها والمشرقية تتناعس لاستناعتهم بتغميض جفونها . وبقيت
السنة الصناجق في أفواء غلفها صامئة لسماح الزحافات مصغية ، وكواسر الآساد
في آجامها من الرماح السميرية مقعية ، وصارت السهام في كنانها تقلق ،
وأخشاب الجمانيق لتفرق أجزائها تفرق ، إلى أن بعثنا الله من فتحها إلى المقام

المحمود ، وانقضت مدة إرجائها في يد الكفر ، وما كان تأخيرها إلا لأجل
معدود ، ونزلنا ربعا بالعساكر التي سيوفها مفاتيح الحصون ورماحها
أرشية المنون . فما نزلنا من ظهر جوادنا إلا على ظهر جبلها الذي حرته
عن يمينها جنيباً ، ولا ألقينا عصي التسيار حتى حملنا أعواد المجانيق على
عاتقنا لنقدمها إلى الله تقرباً وإليهم تقریباً . ولوقت نفخ أمرنا في صور
الإيعاز بالمضابفة ، ونشر العالم في صعيد وأخذ المسابقة إلى صعودها
والمساوقة . وفي الوقت الحاضر اجتمعت أعضاء المجانيق المنفصلة ، وتخطت
في الهواء كفالها المنتعلة ، واعتزلت كل فرقة من أولياتنا بمنجنيق يقيمه ،
وأعجب شيء أنها الظاهرية وأصبحت المعتزلة ، وعن قريب أهوت إلى
الأعداء محلقة صقور الصخور وتتابعت حجارتها إليهم عندما حصلت من
المجانيق في الصدور ، فبعثت من أجسادهم المرسومة في القلعة مسا في
القبور ، وكانت هذه القلعة المذكورة قد قسمها العدو قسمين ، وخاصم
الإسلام منها بخصمين ، وجعلها قلعة دون قلعة ، وصيرها ملكاً مقسوماً
حتى لا تكون فيه شقعة ، وجعل أحدها مهبط قبالة ومحط نزاله ومأوى
رجالها ، والأخرى مستودع نفسه وماله . فلما أحسوا بأسنا ورأوه شديداً ،
وشاهدوا حزمنا عنيداً وعزمنا مييداً ، واقتحموا الأسوار يتسورها
الرجال ، والمجانيق تحف بهم عن اليمين وعن الشمال ، وضعفوا عن أن
يحموا من تلك القلل جهتين ، أو أن يفتسموا بهما فئتين ، أو يجمعوا مع كفرهم ،
إلا ما قد سلف ، بين الأختين ، أو أن يغدو نجس شرهم إلا وهو فيما دون
القلتين حرقوا ما بالقلعة من مضمون ، وأضرموها نيراناً أعجب شيء
كونها لم تطف بما أجروه من الجفون ، وغالبتهم اليد الإسلامية قبل تركها ،
ودخلتها عليهم قبل الخروج عن ملكها . وذلك يوم الأربعاء السادس
وعشرين شهر رجب المذكور ، وكانت المجانيق ترمي عليها [فصارت]

ترمى منها ، وتصدر حجارتها إليها فصارت تصدر عنها . وتلكناها معلقة
شيده لنا العدو وبناء ، وحصنا منيعاً دافع عنه حتى تعب فلما تعب أخلاه
وخلاه ، وأصبح بحمد الله شك فتوحها لنا يقيناً ، وما كان من خنادقها
وأسوارها بقي الكفار وغدا يقي عساكرنا ويقينا . وصارتا جارتين تتعاسدان
على قربنا ، وما زال يغري بين الجيرة الحسد ، ورأساً وجسداً فرق بينهما
النصر ولا يقاء للرأس بعد زوال الجسد . ولما أمكن الله من القلعة الواحدة ،
لم نر أن نبشر بالأولى حتى نبشر بالأخرى ، ولا أن يقصر الإعلام على
الإعلان بالبطشة الصغرى حتى نجتمع إليه الإعلام بالبطشة الكبرى ، ولما
'جاز القصر والجمع في الفروض المؤداة في هذه السفرة المباركة قصرنا
وجمعنا في أداء هذه البشرى . وكتابنا هذا وقد من الله بهما علينا . وقال
الإسلام : هذه بضاعتنا ردت إلينا ، وذلك في سابعة يوم الأحد سلخ شهر
رجب المبارك . وبحمد الله قد أصبحت تلك الضالة التي فقدتها الإسلام
منشودة ، وتلك العارية التي استولت عليها يد الكفر مردودة ، فشكر السيف
رد الضالة وأردى الضلالة ، ومضى لا يكل حتى استغنى في الكلالة ، وأحاله فرض
الجهاد على الكفر بحق ما استخلص بحول الله وقوته تلك الحوالة . فليأخذ
الجلس السامي حظه من هذه البشرى بما جعله الله للمؤمنين من عقبى
الدار ، وبما قدره من انقياد الكافرين صاغرين في قبضة الإسماعيل ، وبما
سهله من عتق من كان فيها من الحرم والأطفال والصغار ، وليلأ بحسن
هذا الخبر المسامح ، وليعمر بذكره الجامع والجوامع ، فطالما اشتاقت إليه
أعواد المنابر ، وانتظرت إيداعه في سرائر السيرة الأعلام وأفواه المنابر ،
والله تعالى يوفق المجلس فيما يحاول ويجاوز إن شاء الله تعالى .

ذيل مرآة الزمان لليونيني ج ٣ ٣٧٧ - ٣٨١

١٥٥ - رسالة الملك الظاهر بيبرس إلى القاضي ابن خلكان بفتح

يافا سنة ٦٦٦ هـ من إنشاء محي الدين عبد الله بن عبد الظاهر .

هذه المسكاتبة إلى المجلس السامي - أسمع الله من البشائر أجملها ،
ومن التهاني أشملها ، ومن تحيات النصر أفضلها ومن سور الإنخاف بالظفر
منزلها - تعلن ببشرى بفتح حسن استفتاحه وتساوي في الجلالة غرره
وأوضحه ، وأتى بسملة لهذه الغزاة المباركة التي بها تتبرك المهارق ،
ومفتاحاً لمغلق الحصون التي إن فتحها الله فلا مغلق ، وإن سهلها فلا
عائق . وذلك لأن يافا كانت قد كثر عدوان من فيها وحصل من إضرارهم
مالا يقدر أحد على تدارك تحيفاتها ولا تلافئها ، وصارت لمكا - يسر الله
فتحها - طليعة مكر ومادة كفر ، منها يتارون من كل ممنوع وربما
يأمنون من خوف ويشبعون من جوع ، ويتطلعون إلى دار الإسلام
منها من وراء زجاجة ، ويحعلونها لهم باباً يتوصلون منه عند الحاجة
إلى مافي نفوسهم من حاجة . فلما توجهنا هذه الوجهة المباركة وتعوضنا
منها عن إنجاد الملوك باللائكة ، صرفنا إليها العنان يسيراً ، وعرجنا
عليها تعريج مستروح ثم يستأنف سيراً . وطرقناها بكرة يوم الأربعاء
العشرين من جمادى الآخرة ، فما مضى إلا بقدر ماجردت السيوف من
الأنغام ، أخذت المعاول في العويل على أهل الإنخاد ، ونطقت ألسن
الأعلام بالنصر المبين ، وتلقى النصر رايتنا باليمين ، وطفنا بها طواف
المناطق بالحضور والشفاء بالثغور . وإذا بأهلها يطلبون الأمان على
النفوس خاصة وأنهم يبذلون لنا كل ما لهم من مال وغلال وسلاح وغير
ذلك فأجبناهم إلى ذلك . وما فتعوا الأبواب إلا والرجال قد فتحت
التقوب ولا جيبوا الأطواق إلا والسيوف قد فتقت الجيوب . ولا خرجوا

من قلعته إلا والأبطال عليها قد علت ، ولاطلعوا منها إلا والأولياء إليها
 [قد دخلت] ، وما حصلوا خارجها إلا والمقاتلة بها قد حصلت .
 وتسلمناها وقلعتهما فتحاً قريباً ، وتسلمناها مرتعاً مربعاً ومربعاً خصيباً ، وسطرها
 في الساعة التي قام لسان العلم قبل لسان القلم على منبرها خطيباً .
 فيأخذ حظه من بشرى جاءت طليعة لما بعدها من البشائر ، وأقبلت مفهمة
 بأن لا بد بعدهم من فتوحات تتبع الأوائل منها الأواخر . والله تعالى
 يوفقه في الموارد والمصادر ، إن شاء الله تعالى .

ذيل مرآة الزمان لليونيني ج ٢ ٣٧٥-٣٧٦

١٥٦ - رسالة الملك الظاهر بيبرس إلى القاضي ابن خلكان مبشراً
 بفتح أنطاكية سنة ٦٦٦ هـ من إنشاء يحيى الدين بن عبد الظاهر .

أدام الله سعادة المجلس السامي القضائي ، ولا يرح يؤثر البشائر حشاي
 المنابر ، ويحري من السرور الهاجم عيون الحابر ، ويسجد لها قلم
 الناظم والنائر ، ويتلقاها ببشر إذا تأمل قادمه قال كم ترك الأول
 للآخر . هذه المكتوبة تتحدث بنعمة الله التي تهلل لها وجه الإيمان ،
 وهلل بها من أهله كل لسان ، وجاءت بحمد الله حلوة الجتنى حافة
 بالنصر من هنا ومن هنا ، وذاك بفتح أنطاكية التي لم تتطرق إليها
 الحوادث والخطوب ، ولا خرق حديث فتحها الأسماع ولا هجس في
 القلوب ، وادخرها الله لنا ليخصنا بفتحها الوجيز ، ويجعلها باباً لما
 يليها من بلاد الكفر نلج منه بمشيئة الله وما ذلك على الله بعزيز . وهو
 أننا لما فرغنا من فتوحاتنا التي سبق بها الإسلام ، وإشاراتنا التي خصت
 وحصت طرابلس الشام ، ثنينا العنان إلى هذه الجهة ، فشاهدنا منها
 ما يروق النواظر ، ورأينا مدينة يجتمع داخل سورها الأنس والوحش

الطائر للاستيطان والبادي والحاضر ، تحف بها أسوار لا يقطعها الطائف
في يوم سيرا ، ولا يدرك الناظر من أولها لها أخيراً ، وبها رجال غدوا
إليها من كل حذب ينزلون ومن كل هضبة ينزلون ، وفي ظلال كل مطهم
يتقبلون . وكان نزولنا عليها في يوم الأربعاء غرة شهر رمضان المعظم ،
فلم يكن إلا بقدر ما نزلنا إلا ورسلمهم قد حضروا ليمسحوا أطراف
الرضا ويتقاضوا من العفو أحسن ما يقتضى . فما ألقى عليهم حملنا
ولاعرج ، ولانفس عنهم كربة ولا فرج . فزحفنا إليها في يوم السبت
بكرة وهو رابع الشهر ، فلم يلبثوا إلا ساعة من نهار وقد دخلت
عليهم من أقطارها ، وتسور العسكر المنصور من أسوارها ، وامتدت
السنة الصوارم وأسنة الرماح ، وشهت البيض الصفاح ، واريقت
الدماء واستعجبت النساء ، وغنمت الأموال وجدلت الأبطال . ووجد
العالم من التحف والنعم ما لا كان ير في خلد ولا يخطر في بال . وكتابنا
هذا واليد الإسلامية لها متساسة وفيها متحركة . فالمجلس يأخذ حظه
من هذه البشرية ويرى فيها هذه الآلة الكبرى . وما نرى من آية
إلا وهي أكبر من الأخرى . ويتلقاها ببشر فقد بعثنا بها الله في أحسن
رونق من النصر ، وأقبلت بحمد الله كما بدأت أول مرة . فليشعها
المجلس في كل باد وحاضر ، ولينشر خبرها على أكباد المنابر . والله
يكرمه يجعل سعاده من أتم الذخائر ، إن شاء الله تعالى . كتب رابع
شهر رمضان المعظم سنة ست وستين وسبعمائة .

ذيل مرآة الزمان لليونيني ج ٢ ٣٨٢ - ٣٨٤

١٥٧ - نص الهدنة التي عقدها السلطان الملك الظاهر بيبرس سنة
٦٦٧ هـ مع ملكة بيروت .

استقرت الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس

وبين الملكة الجليلة المصونة الفاخرة فلانة ابنة فلان ، مالكة بيروت
وجميع جبالها وبلادها التحتية مدة عشر سنين متوالية أولها يوم الخميس
سادس رمضان سنة سبع وستين وستائة الموافق لتاسع أيار سنة ألف
وخمسمائة وثمانين يونانية ، على بيروت وأعمالها المضافة إليها ، الجاري
عادتهم في التصرف فيها في أيام الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، وأيام
ولده الملك المعظم عيسى وأيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن
الملك العزيز ، والقاعدة المستقرة في زمنهم إلى آخر الأيام الظاهرية ،
بمقتضى الهدنة الظاهرية ؛ وذلك مدينة بيروت وأماكنها المضافة إليها :
من حد جليل إلى حد صيدا ، وهي المواضع الآتي ذكرها : جونية
بحدودها ، والعذب بحدودها والعصفورية بحدودها ، والراوق بحدودها
وسن الفيل بحدودها ، والرح والشويف بحدودها ، وأنطلياس بحدودها ،
والحديدة بحدودها ، وحسوس بحدودها ، والبشرية بحدودها ، والدكوانة
وبرج قراجار بحدودها ، وقرينة بحدودها ، والنصرانية بحدودها ،
وجلدا بحدودها والناعمة بحدودها ، ورأس الفيقة والوطاء المعروف
بمدينة بيروت ، وجميع ما في هذه الأماكن من الرعايا والتجار ، ومن
سائر أصناف الناس أجمعين ، والصادرين منها والواردين إليها من جميع
أجناس الناس والمتردين إلى بلاد السلطان فلان وهي : الحيرة وأعمالها
وقلاعها وبلادها وكل ما هو مختص بها ، والمملكة الأنطاكية وقلاعها وبلادها ،
وجبله واللاذقية وقلاعها وبلادها ، وحصن الحروسة وقلاعها وبلادها وما هو مختص
بها ، ومملكة حصن عكا وما هو منسوب إليه ، والمملكة الحموية وقلاعها وبلادها
وما هو مختص بها ، والمملكة الرحبية وما هو مختص بها من قلاعها
وبلادها ، والمملكة البعلبكية وما هو مختص بها : من قلاعها وبلادها ،
والمملكة الدمشقية وما هو مختص بها : من قلاعها وبلادها ورعاياها

وممالكها ، والمملكة الشقيفية وما يختص بها : من قلاعها وبلادها ورعاياها ،
والمملكة القدسية وما يختص بها والمملكة الحلبية وما يختص بها ، والمملكة الكركية
والشوبكية وما يختص بها من القلاع والبلاد والرعايا ، والمملكة النابلسية والمملكة
الصرخدية ، ومملكة الديار المصرية جميعها : بثغورها وحصونها وممالكها وبلادها
وسواحلها وبرها وبحرها ورعاياها وما يختص بها ، والساكين في جميع هذه الممالك
المذكورة ما لم يذكر من ممالك السلطان وبلاده ، وما سيفتحه الله تعالى
على يده ويد نوابه وغلماؤه يكون داخلاً في هذه الهدنة المباركة ومنتهزاً
في جملة شروطها ، ويكون جميع المترددين من هذه البلاد وإليها آمنين
مطمئنين على نفوسهم وأموالهم وبضائعهم ، من المملكة فلانة وغلماؤها ،
وجميع من هو في حكمها وطاعتها : برأً وبحراً ، ليلاً ونهاراً ، ومن
مراكبها وشوانها . وكذلك رعية المملكة فلانة ، وغلماؤها يكونون
آمنين على أنفسهم وأموالهم وبضائعهم من السلطان ومن جميع نوابه
وغلماؤه ومن هو تحت حكمه وطاعته : برأً وبحراً ، ليلاً ونهاراً : في
جبلّة واللاذقية وجميع بلاد السلطان ومن مراكبه وشوانه .

وعلى أن لا يحدد على أحد من التجار المترددين رسم لم تجر به
عادة ، بل يحرون على العوائد المستمرة والقواعد المستقرة من الجهتين ،
وإن عُدِم لأحد من الجانبين مال أو أُخِذت أختصة وصحت في الجهة
الأخرى ردت إن كانت موجودة ، أو قيمتها إن كانت مفقودة ، وإن
خفي أمرها كانت المدة للكشف أربعين يوماً ، فإن وجدت ردت ،
وإن لم توجد حلف وإلى تلك الولاية المدعى عليه ، وحلف
ثلاثة نفر ممن يختارهم المدعي ، ويرثت جهته من تلك الدعوى ، فإن
أبى المدعى عليه عن اليمين حلف الوالي المدعي وأخذ ما يدعيه . وإن
قتل أحد من الطرفين ، خطأ كان أو حمداً ، كان على القاتل في جهته

العوض عنه نظيره : فارس بفارس وبركيل ببركيل وراجل براجل وفلاح بفلاح . وإن هرب أحد من الجانبين إلى الجانب الآخر بمال رد من الجهتين هو والمال ولا يعتذر بعذر ، وعلى أنه إن تاجر فرنجي صدر من بيروت إلى بلاد السلطان يكون داخلا في هذه الهدنة ، وإن عاد إلى غيرها لا يكون داخلا في هذه الهدنة .

وعلى أن الملكة فلانة لا تمكن أحداً من الفرنج على اختلافهم من قصد بلاد السلطان من جهة بيروت وبلادها ، وتمنع من ذلك وتدفع كل متطرق بسوء . وتكون البلاد من الجهتين محفوظة من المنجمرين المفسدين .

وبذلك انمقدت الهدنة للسلطان ، وتقرر العمل بهذه الهدنة والإلتزام بعهودها والوفاء بها إلى آخر مدتها من الجهتين : لا ينقضها مرور زمان ولا يغير شروطها حين ولا أوان ، ولا تنقض بموت أحد من الجانبين . وعند انقضاء الهدنة تكون التجار آمنين من الجهتين أربعين يوماً ، ولا يمنع أحد منهم من العود إلى مستقره . وبذلك شمل هذه الهدنة المباركة الحظ الشريف حجة فيها . والله الموفق . في تاريخ كذا وكذا .

صبح الأعشى للقلقشندي ج ١٤ - ٤٠ - ٤٢

١٥٨ - رسالة الملك الظاهر بيبرس إلى بوهمند السادس أمير أنطاكية وطرابلس وذلك بعد فتحه أنطاكية سنة ٦٦٧ هـ .

قد علم القومص الجليل المبجل ، الممزز الهام ، الأسد الضرغام ، بيمند فخر الأمة المسيحية ، رئيس الطائفة الصليبية ، كبير الأمة العيسوية ، المنتقلة مخاطبته بأخذ أنطاكية منه من البرنسية إلى القوموصية ، ألهمه الله رشده ، وقرن بالخير قصده ، وجعل النصيحة محفوظة عليه

ما كان من قصدنا طرابلس وغزونا له في عقر الدار ، وماشاهده بعد رحيلنا من إخراج المائر وهدم الأعمار ، وكيف كنست تلك الكنائس من بساط الأرض ، ودارت الدوائر على كل دار ، وكيف جعلت تلك الجزائر من الأجساد على ساحل البحر كالجزائر ، وكيف قتلت الرجال واستخدمت الأولاد وتملكت الحرائر ، وكيف قطعت الأشجار ولم يترك إلا ما يصلح لأعواد المجانيق إن شاء الله والسمائر . وكيف نُسبت لك ولرعيته الأموال والحرير والأولاد والمواشي ، وكيف استغنى الفقير وتأهل العازب واستخدم الخديم وركب الماشي . هذا وأنت تنظر نظير الغشي عليه من الموت ، وإذا سمعت صوتاً قلت فزعاً : عليّ بهذا الصوت . وكيف رحلنا عنك رحيل من يعود ، وأخركنا وما كان تأخيرك إلا لأجل معدود . وكيف فارقنا بلادك وما بقيت ماشية إلا وهي لدينا ماشية ، ولاجارية إلا وهي في ملكنا جارية ، ولا سارية إلا وهي من أيدي المعاول سارية ، ولا زرع إلا وهو محصود ، ولا موجود لك إلا وهو منك مفقود ، ولا منعك تلك المغاير التي هي في رؤوس الجبال الشاهقة ، ولا تلك الأودية التي هي في التخوم مخترقة ، وللعقول خارقة ، وكيف سقنا عنك ولم يسبقنا إلى مدينتك أنطاكية خبر ، وكيف وصلنا إليها وأنت لا تصدق أننا نبعد عنك ، وإن بعدنا فسنعود على الأثر .

وهنا نعلمك بما تم ، ونفهمك بالبلاء الذي عم : كان رحيلنا عنك عن طرابلس يوم الأربعاء رابع عشرين شعبان ، وغزولنا أنطاكية في في مستهل شهر رمضان . وفي حال النزول خرجت عساكرك للعبادة فكسروا ، وتناصروا فما نصروا ، وأمر من بينهم كندا سطيلى (١) ،

(١) كندا سطيلى : لفظ لاتيني معناه حاكم القلعة .

فسأل مراجعة أصحابك فدخل إلى المدينة ، فخرج هو وجماعة من
 رهبانك وأعيان أعوانك ، فتحدثوا معنا فرأيناهم على رأيك من إتلاف
 النفوس بالفرض القاسد ، وإن رأيهم في الخير يختلف وقولهم في الشر
 واحد . فلما رأيناهم قد فات فيهم الفوت ، وأنهم قد قدر الله عليهم الموت ،
 رددناهم وقلنا : نحن الساعة لكم نحاصر ، وهذا هو الأول في الإنذار
 والآخر ، فرجعوا متشبهين بفعلك ، ومعتقدين أنك تدرّكهم بخيلك ورجلك ،
 ففي بعض ساعة مرّة شأن المرشان^(١) وداخل الرهبان ، ولان للبلاء
 القسطلان^(٢) ، وجاءهم الموت من كل مكان وفتحناها بالسيف في الساعة
 الرابعة من يوم السبت رابع شهر ومضان ، وقتلنا كل من اخترته لحفظها
 والمهاماة عنها ، وما كان أحد منهم إلا وعنده شيء من الدنيا ، فما بقي
 منا إلا وعنده شيء منهم ومنها .

فلو رأيت خيالتك وهم صرعى تحت أرجل الخيول ، وديارك والنهاية
 فيها تصول والكسابة فيها تجول ، وأموالك وهي توزن بالقطار ، وداماتك
 وكل أربع منهم تباع فتشترى من مالك بدينار . ولو رأيت كنائسك
 وصلبانها قد كسرت ونشرت ، وصحفها من الأناجيل المزورة قد نشرت ،
 وقبور البطارقة قد بعثرت . ولو رأيت عدوك المسلم وقد داس مسكان
 القدس والمذبح ، وقد ذبح فيه الراعب والقسيس والشماس ، والبطارقة
 وقد دموا بطارقة ، وأبناء المملكة قد دخلوا في المملكة . ولو شاهدت
 النيران وهي في قصورك تحترق ، والقنلى بنار الدنيا قبل نار الآخرة
 تحترق ، وقصورك وأحوالك قد حالت ، وكنيسة بولص وكنيسة القسيان
 وقد زلت وزالت ، لكنت تقول : ياليتني كنت تراباً ! ياليتني لم أوت بهذا

(١) المرشان : لفظ لاتيني معناه منظم الحفلات والمجالس .

(٢) القسطلان : لفظ لاتيني معناه حارس القصر .

الخبر كتاباً ، ولسكانت نفسك تذهب من حسرتك ، ولكنت تطفئ تلك النيران بماء عبرتك ولو رأيت مغانيك وقد أقفرت من معانيك ، ومراكبك وقد أخذت في السويدية بمراكبك فصارت شوانيك من شوانيك ، لتيقنت أن الإله الذي أعطاك أنطاكية منك استرجعها والرب الذي أعطاك قلعها منك قلعها ، ومن الأرض اقتلعها .

ولتعل أنا قد أخذنا بحمد الله منك ماكنت أخذته من حصون الإسلام ، وهو دبركوش وشقيف تليس وشقيف كفر دنين وجميع ما كان في بلاد أنطاكية ، واستنزلنا أصحابك من العصاوي ، وفرقتهم في الداني والقاصي ، ولم يبق شيء يطلق عليه اسم العصيان إلا النهر ، فلو استطاع لما سمي بالعاصي . وقد أجرى دموعه ندماً وكان يذرفها عبرة صافية ، فما هو أجراها بما سفكتاه فيه دماً .

وكتابتنا هذا يتضمن البشرى لك بما وهبك الله من السلامة وطول العمر^(١) بكونك لم يكن لك في أنطاكية في هذه المدة إقامة ، وكونك ماكنت فيها فتكون إما قتيلاً وإما أسيراً ، وإما جريحاً وإما كسيراً ، وسلامة النفس هي التي يفرح بها الحي إذا شاهد الأموات ، ولعل الله ما أخرك إلا لأن تستدرك من الطاعة والخدمة ما فات ، ولما لم يسلم أحد يخبرك بما خبرناك ، ولما لم يقدر أحد يشارك بالبشرى بسلامة نفسك وهلاك ما سواها بشارتك بهذه المفاوضة وبشرناك لتحقيق الأمر على ما جرى .

وبعد هذه المسكوبة لا ينبغي لك أن تكذب لنا خبراً ، كما أن بعد هذه المخاطبة يجب أن لا تسأل غيرها خبراً^(٢) .

(١) أورد القلقشندي في « صبح الأعشى » ج ٨ / ٢٩٩-٣٠٢ نصاً قريباً من نصنا أعلاه ، ولكن النص المذكور أعلاه أكمل وأوضح وفيه زيادات لا بأس بها .

قال : ولما وصل إليه هذا الكتاب اشتد غضبه ولم يبلغه خبر أنطاكية إلا من هذا الكتاب .

•
كتاب السلوك المقريري ج ١ ، ق ٣ - ١٦٦ - ١٦٩

١٥٩ - نص الهدنة التي عقدها الملك الظاهر بيبرس وولده الملك السعيد بركة مع الاسبتارية في قلعة لد سنة ٦٦٩ هـ .

استقرت الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظاهر وكن الدين بيبرس الصالحي قسم أمير المؤمنين وولده الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة خاقان خليل أمير المؤمنين ، وبين المباشر المقدم الجليل افريز اولدكال مقدم جميع بيت الاسبتار سرجوان بالبلاد الساحلية وبين جميع الأخوة الاسبتارية لمدة عشر سنين كوامل متواليات متتابعات وعشرة أشهر أولها مستهل رمضان سنة تسع وستين وستائة للهجرة النبوية المحمدية الموافق للثامن عشر من نيسان سنة ألف وخمسة واثنتين وثمانين للإسكندر بن فيليبس اليوناني - على أن تكون قلعة لد بكماها وربضها وأعمالها وما هو منسوب إليها ومحسوب منها ، بحدودها المعروفة بها من ققادم الزمان ، وما استقر لها الآن ، و يتعلق بذلك : من المواضع والمصايد والملاحات والبساتين والمعاصر والطواحين والجزائر : سهلها وجبلها وعامرها ودأثرها ، وما يجري بها من أنهار وينبع بها من عيون وما هو مبني بها من عمائر ، وما استجد بها من القراح ، وكل ما عمر في أراضي المناصفت على دورها وأنهارها ، وما بحدود ذلك من نهر بدرة إلى جهة الشمال ، وما استقر لبلدة من هذه الجهات إلى آخر الأيام الناصرية من الحدود المعروفة بها والمستقرة لها ، وحصن برغين وما ينسب إلى ذلك من البلاد والضياح والقرى التي كانت مناصفة ،

تكون جميع بلدة وهذه الجهات خاصاً إلى آخر الزائد للملك الظاهر ، ولا يكون لبيت الاسبتار ولا للمرقب فيها حق ولا طلب بوجه ولا سبب إلى حين انقضاء مدة الهدنة وما بعدها إلى آخر الزائد ، ولا لأحد من جميع الفرنجة فيها تعلق ولا طلب بوجه ولا سبب . وكذلك مهما كان مناصفة ، كقلمة العليقة في بلادها لبيت الاسبتار ، يكون ذلك جميعه للديوان المعمور والخاص الشريف ولا يكون للمرقب فيها شيء ولا لبيت الاسبتار .

وكذلك كل ما هو في بلاد الدعوة المباركة جميعها وقلاعها من القرى - لا تكون فيها مناصفة لبيت الاسبتار ولا للمرقب ولا حق . ولا رسم ولا شرط ولا طلب في جميع بلاد الدعوة : مصياف المحروسة والكهف والمنيفة والقدموس والخوابي والرصافة والعليقة ، وكل ما هو في هذه القلاع وفي بلادها من مناصفة ، يكون ذلك 'خاصاً' للملك الظاهر ، وليس لبيت الاسبتار ولا للفرنجية فيه حديث ولا طلب

وعلى أن تكون بلاد المرقب وحدودها من نهر لدومقرباً ومغرباً إلى حدود بلاد مرقية المعروفة بها ، الداخل جميعها في الفتوح الشريف ، واستقرارها بحكم ذلك في الخاص المبارك الشريف ، وحد البيوت المحاذية لسور الرض ، تستقر جميعها مناصفة بين السلطان وبين بيت الاسبتار نصفين بالسوية ، وما في جميع هذه البلاد : من بساتين وطواحين وعمائر ومصايد وملاحات ووجوه المين والمستغلات الصيفية والشتوية والقطاني والحقوق المستخرجة ، وما هو مزروع من الفسدن لأهل الرض وبيادرها : يكون ذلك مناصفة بين السلطان وبين بيت الاسبتار سرجوان بالسوية نصفين .

وما هو داخل الرض وداخل المرقب فإنه مطلق من الملك الظاهر

المقدم الكبير افريز أولدكال مقدم الاسبتار مرجوان وخيالته ، ورجاله وحمالته ورجاله ورعيته ، برسم إقامتهم وسكناهم من داخل الأسوار ، وعن سور الربض المحاذية للسور تكون مناصفة جميعها بما فيه من حقوق طرقات واحكار ، ومراعي المواشي على اختلاف أصوافها وأوبارها وجميع السخريات ، وكل أرض مزروعة أو غير مزروعة منها أخذ منه من حق أو عداد يكون مناصفة .

وكل ما هو من المواشي والمراسي البحرية المعروفة جميعها بمحصن المرقب : من ميناء بلدة إلى ميناء القنطرة المجاورة لحدود مرقية ، تكون هي وما يتحصل منها من الحقوق المستخرجة من الصادرين والواردين والتجار ، وما ينعقد عليه ارتفاعها ، وتشهد به الحسابات - جميعه مناصفة ، وما يدخل في ذلك من أجناس البضائع على اختلافها يؤخذ الحق منه مناصفة على العادة الجارية من غير تغيير لقاعدة من حين أخذ بيت الاسبتار المرقب إلى تاريخ هذه الهدنة المباركة مناصفة .

ويُعتمد ذلك في كل ما يصل للمتريدين والمقيمين بالقلعة والربض : من عامة وغير عامة ، وخيالة وغير خيالة على اختلاف أجناسهم ، خلا ما يصل للأخوة ولعلمائهم المعروفين بالأخوة الاسبتارية من الحبوب والمثونة والكسوة والخيل التي هي برسم ركوهم خاصة ، لا يكون عليها حق بشرط أنه لا يكون فيها للتجار شيء من ذلك وما خلا ذلك جميعه يؤخذ الحق منه مناصفة على ما شرحناه .

وعلى أنه لا يحمي أحد من الأخوة الخيالة والوزراء والكتاب والنواب والمستخدمين شيئاً على اسم بيت الاسبتار ليستطلق الحق وينع من استبدائه ، ولو أنه أقرب أخ إلى المقدم أو ولد المقدم . إذا ظهر

منه خلاف ما وقع عليه الشرط أخذ جميع ماله مستهلكاً للجهتين :
للدیوان السلطاني المعمور ولييت الاسبتار ، إن كان خارجاً من البحر
أو نازلاً إلى البحر ، صادراً ووارداً ، وكذلك في البر صادراً ووارداً
بعد المحافظة على ذلك وصحته .

وعلى أن نواب المباشر المقدم الكبير لبيت الاسبتار ، وولاته وكتابه
ومستخدميه وغلماؤه يكونون آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم وجميع
ما يتعلق بهم . وكذلك غلماننا وولاتنا ونوابنا ومستخدمونا وكتائبنا
ورعايا بلادنا يكونون آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم ،
متفقين على مصالح البلاد وأخذ الحقوق وسائر المقاسمات والطرق
والبساتين والطواحين والحقوق المقررة على الفدن على اختلاف أجناسها،
وكذلك الرأسة واستخراج وجوه العين والحبوب والتصاريف الجاري
بها العادة المقررة على الفدن من جميع ما يتعلق بها .

وعلى أن جميع الضمانات يكون نواب السلطان ونواب بيت الاسبتار
متفقين جملة على ذلك لاينفرد أحد منهم بشي إلا باتفاق وتنزيل في
دفاتر الديوان المعمور وديوان بيت الاسبتار ، ولايطلق ولايحبس إلا باتفاق
من الجهتين ، ولاينفرد واحد دون آخر .

وعلى أن أي مسلم تصدر منه أذية يحكم فيه بما يقتضيه الشرع الشريف
في تأديبه ، يعتمد ذلك فيه فائبنا ، من شئق يجب عليه أو قطع ،
وأدب يحكم الشرع الشريف : من شئق وقطع وكحل أعين ، بحيث
لايعمل ذلك إلا بحضور نائب من جهة بيت الاسبتار حاضريعين ذلك
بعينه ، ويكون قد عرف الذنب وتحققه . وإن كان ذنبه يستوجب
جناية أو غرامة درام أو ذهب أو مواشٍ أو غير ذلك على اختلاف

أجناسه ، يكون ما يستأدى مناصفة للديوان المعمور لبیت الاستبصار
وصاحب المرقب . فإن كان فيها قماش وبضائع على اختلاف أجناسه ،
وصاحبه مسلم ، يأخذ بضاعته من غير اعتراض من الجهتين بعد أداء
الحق للديوان المعمور لبیت الاستبصار ، وإن لم يُعرف صاحب البضاعة وكانت لمسلم أعيدت
للخزانة السلطانية ولا يكون لبیت الاستبصار . تعلق وإن كان صاحب البضاعة نصرانياً
على اختلاف أجناس النصارى : تؤخذ بضاعته من غير اعتراض من جهتنا بعد أداء
الحق ، وإن لم يعرف صاحب البضاعة ، وكانت لنصراني ، تبقى تحت يد
بیت الاستبصار ، خلا ما كان من بلاد مملكة السلطان على اختلاف دينه :
إن كان نصرانياً أو ذمياً ، على اختلاف جنس دينه ، ليس لبیت الاستبصار
عليهم اعتراض ، ويحمل ذلك جميعه على اختلاف أجناس البضائع للديوان
المعمور .

وعلى أنه متى انكسر مركب ، وظهر إلى بر الموانئ بضاعة ، وقصد
صاحبه شيله إلى جهة يختارها في البر والبحر ، ولا يتبع ، فيؤخذ الحق
منه : إن باع يؤخذ الحق ، ويكون الحق للجهتين ، وهو الحق المعروف الجاري
به العادة .

وعلى أن التجار السفارة والمترددين بالبضائع من بلاد المسلمين والنصارى
متى ما خرجوا من الموانئ المحدودة في أعلاه ، يتوجهون بخفارة الجهتين من
غير حق : لا يتناول من الخفارة شيء منسوب إلى نفوسهم إلى أن
يخرجهم ويحضرهم إلى بر حدود المرقب آمنين مطمئنين تحت حفظ الجهتين .
ومتى وصل التجار من مملكة السلطان إلى بلاد المرقب وموانئها ، فالترتيب
على الخفارة من الجهتين مع تدرك الرؤساء الحفظ للطرقات صادراً ووارداً ،
بحيث إنهم يحضرون إلى بلاد المرقب وإلى الموانئ بالمرقب المحدودة أعلاه ،
طبيين آمنين على أرواحهم وأموالهم بالخفارة من الجهتين على ما شرحناه .
وعلى أن غلمان المباشرة المقدم لبیت الاستبصار والأخوة والحياله والرعية

المقيمين بقلمة المرقب والربض يكونون آمنين مطمئنين على أنفسهم وأموالهم ومن يلوذ بهم ويتعلق في حال صدورهم وورودهم إلى بلادنا الجارية في مملكتنا في البر ، منا ومن نوابنا بالملكة والبلاد الجارية في حكمنا . ومن ولدنا الملك السعيد ومن أرائنا وعساكرنا المنصورة ، وإن قتل قتيل أو أخذت أخيدة في حدود المناصف ببلاد المرقب فيقع الكشف عن ذلك عشرين يوماً ، فإن وجد فاعل ذلك يؤخذ الفاعل بذنبه ، وإن لم يظهر فاعل ذلك مدة عشرين يوماً فيمسك رؤساء مكان قطع الطريق وأخذ الأخيدة وقتل القتيل ، إن كان أخذ وقتل - مكان من قتل القتيل أو أخذ الأخيدة - أقرب القرباء إلى الذي قطع عليه الطريق أو قتل قتيلًا ، فإن خفي الفاعل لذلك وعجز عن إحضاره بمدة عشرين يوماً ، يلزم أهل نواب الجهتين من القرباء الأقرب لذلك المكان بألف دينار صورية : للديوان السلطان النصف ، ولييت الأسبتار النصف ، ولا تتكاسل الولاة في طلب ذلك . ويكون طلبه يبدأ واحدة ولا يختص الواحد دون الآخر ، ولا يجازي أحد منهم لأخذ الفلاح في هذا أو غيره في مصلحة عمارة البلاد واستخراج الحقوق ومقاومة الغلال وطلب المفسدين ليلاً نهاراً .

وعلى أن لا تغيّر الهدنة المباركة بأمر من الأمور ، لا من جهتنا ولا من جهة ولدنا الملك السعيد إلى انقضاء مدتها المهيئة أعلاه وفروعها ولا تتغير بتغير المقدم المباشر لبيت الأسبتار الحاكم على المرقب وغيره . وإذا جرت قضية في أمر من الأمور يعرفهم نوابنا ، ويحقق الكشف إلى مدة أربعين يوماً ، فمن يكون للبداية يخرج منها على من شغب^(١) ، ويكون قد عرف دَبْنَتَهُ الذي بدأ من جهة كل واحد . وإذا تغير

(١) كذا بالأصل والمعنى غير مفهوم .

النواب بالمرقب وحضر نائب مستجد يعتمد ما تضمنته هذه الهدنة ، ولا يخرج عن هذه المواصفة . وإذا تسحب أحد من المسلمين على اختلاف أجناسه ، إن كان مملوكاً أو غير مملوك ، أو معتوقاً أو غير معتوق ، أو كائناً من كان من المسلمين على اختلاف منازلهم ، وإن كان غلاماً أو غير غلام - يرد بجميع ما يوجد معه ، إن كان قليلاً أو كثيراً يرد ، ولو أن المنسحب دخل الكنيصة وجلس فيها يسك بيده ويخرج ويسلم لنوابنا بجميع ما معه ، وإن كان خيلاً أو قشاً أو دراهم أو ذهباً وما يتعامل الناس به يسلم بما معه إلى نوابنا على ما شرحناه . وكذلك إذا تسحب أحد من جهتهم من الفرج أو النصراري إلى أبوانا الشريفة ، أو وصل إلى جهة نوابنا يسك ويسلم بما حضر معه : من الخيل والأقمشة والعدة وجميع ما يصل إن كان قليلاً أو كثيراً يسكه لنوابنا ويسلمون ذلك بما معه لنائب المقدم الماستر المقيم بالمرقب ، وأخذوا الخطوط بذلك بتسليمه بما حضر معه .

وعلى أنهم لا يكون لهم حديث مع قلعة العليقة ولا الرعية الذين فيها ، ولا مع نواب ابن الرديني المقيمين فيها : لا بكتاب ولا بمشاهدة ولا برسالة ولا بقول ، ولا يطلع أحد من جهتهم إليهم ، ولا يمكن أحد من الحضور إليهم والوصول إلى جهتهم من القلعة المذكورة ، ولا تسيّر إليهم مئونة ولا تجارة ولا جلب على اختلاف أجناسه ، ولا تكون بينهم معاملة ، وإن حضر أحد من جهة قلعة العليقة إليهم يسكون ويسلمون لنوابنا ويأخذوا بذلك خطوطهم .

وعلى أنهم لا يحددون عمارة قلعة ، ولا في القلعة عمارة ، ولا في البدنة ولا في أبراجها ، ولا يعتمدون إصلاح شيء منها إلا إذا عاينه نوابنا أو أبصروا أنه يحتاج إلى الضرورة في ترميم يرمونه بعد أن يعاينه نوابنا

من هذا التاريخ ، ولا يحددون عمارة في ربضها ولا في سورها ولا في أبراجها ، ولا يحددون حفر خندق وعمارة خندق ، أو تجديد بناية خندق أو قطع جبل أو تحصن عمارة ، أو تحصن بقطع جبل ، منسوباً لتحصين يمنع أو يدفع ، ولم نأذن لهم بسوى البناية على أثر الدور التي أحرقت عند دخول العساكر صحبة الملك السعيد ، وقد أذنا لهم في عمارة باطن الربض على أثر الأساس القديم .

وعلى أن صهيون وأعمالها ، ولرومة [؟] وأعمالها ، والقلعة وأعمالها وعيدوب وأعمالها الجارية تحت نظر الأمير سيف الدين محمد بن عثمان صاحب صهيون - يجري حكم هذه البلاد المختصة به حكم بلادنا في المهادنة ، بحكم أن بلادنا المذكورة جارية في ممالكنا الشريفة .

وعلى أنه لا يمكن بيت الاستتار من دخول رجل غريبة في البر ولا في البحر إلى بلادنا بأذى ولا ضرر يعود على الدولة وعلى بلادنا وحضوننا ورعيتنا ، إلا أن يكونوا أيداً غالبية صحبة ملك متوج .

وعلى أن البرج الداخل في المناصفة ، وهو برج معاوية الذي عند المحاسة الداخلة في مناصف المرقب الآن ، يخرب ما يخصنا منه ، وهو النصف من البرج المذكور أعلاه ، وأن الجسر المعروف بجسر بلدة لم يكن لبيت الاستتار فيه شيء من البرين ، وأنه خالص للسديوان الممور دون بيت الاستتار ، وأن الدار المستجدة عمارتها بقلعة المرقب برسم الماستر المقدم الكبير الذي هو عايز تكميل عمارة سقف القبة بالحجارة والكلس لاتكمل عمارتها ويبقى على حاله ، وهو وسط القلعة الظاهر منه قليل إلى البر الشرقي وهو المذكور أعلاه .

وعلى أن نواب الاستتار بالمرقب لا يخفون شيئاً من مقاسمات البلاد

ولاشيئاً من حقوقها الجاري بها العادة أن بيت الاسبتار يستخرجونه ولا يخفون منه شيئاً ، وكل ما كان يستأدى من البلاد في أيدي الاسبتار قبل هذه الهدنة يظلمون نوابنا عليه ولا يخفون منه شيئاً قليلاً ولا كثيراً من ذلك .

وعلى أن السلطان يأمر نوابه بحفظ مناصفات بلاد المرقب الداخلة في هذه الهدنة من المفسدين والمتلصصين والحرامية ممن هو في حكمه وطاعته . وكذلك الماستر المقدم افريز أولد كال يلزم ذلك من الجهة الأخرى . وحتى وقع - والعياذ بالله - فسح بسبب من الأسباب ، كان التجار والسفار آمنين من الجهتين إلى أن يعودوا بأموالهم ، ولا يمنعون من السفر إلى أماكنهم من الجهتين . وتكون النهاية لهم أربعين يوماً . وتكون هذه الهدنة منعقدة بشروطها المذكورة ، مستقرة بقواعدها المسطورة للدة المعينة وهي عشر سنين وعشرة أشهر كوامل : أولها مستهل رمضان سنة تسع وستين وستائة إلى آخرها متتابعة متوالية ، لا تفسخ بموت أحد من الجهتين ولا بعزل والٍ وقيام غيره موضعه ، ولا زوال رجلٍ غريبة ولا حضور يد غالبية ، بل يلزم كلا من الجهتين حفظها إلى آخرها . ومن تولى بعد الآخر حفظها إلى آخرها بالشروط المشروطة فيها أولاً وآخرها . والخط أعلاه حجة بقتضاه إن شاء الله تعالى . في تاريخ كذا وكذا .

صبح الاعشى للفلقشندي ج ١٤ ٤٢ - ٥٠

١٦٥ - رسالة من الملك الظاهر بيبرس باسم ولده الملك السعيد إلى القاضي ابن خلكان مبشرة بفتح حصن الأكراد سنة ٥٦٩ هـ من إنشاء يحيى الدين بن عبد الظاهر .

هذه البشرية إلى المجلس السامي القضائي ، لازالت التواني عنده

سراً

وثيقة الأواخي حسنة التواخي عجلة لإرضاء أهل الإيمان فلا يرعى له
أعنة التراخي ، تعلمه بفتوحات شملت بشايرها وتعرفت بالنصر أمارتها
واستطعم الإيمان حلاوتها من أطراف المران ، واستنطق الإسلام عبارتها
من ألسنة الخرصان ، وذلك بفتح حصن الأكراد الذي كان في حلق
البلاد الشامية غصة لم تسخ بيماء السيوف المجردة ، وشجأ في صدورهم
لم تقاومه أدوية العزائم المفردة . طالما أكسبت البلاد رعباً ورهباً .
وطالما استمرى من أخلاف الاستتار حلباً . وكم صان كفرأ في بلاد
الإسلام وحماه ، وكم ابتنى منها ببكر أساء صحبتها فما خشي معرة
ولاخاف حماة . قد سما في السماء فلا أمل إليه يمتد ، وعلا في الهواء
فلا بصر يلمحه إلا وينقلب خاسئاً عنه ويرتد . ما كان بأكثر مما قدمنا
الاستخارة وشننا على البلاد الإغارة ، وعللنا بالمكاسرة عنه نفسه الأمانة
وأبجنا العساكر من الغنائم كل ما أربح لهم من التجارة ، فكم أحضروا
من بادية وأبادوا من حاضر ، وتخولوا ما يعقد على حسابيه أصابع اليمين
التي تدخل في جملتها عقد الخناصر . ولساعة نزلنا بساحته ومصافحتنا
بالصفاح مبهبوط راحته ، إذا صافيتنا بذلت نفسها في فدائه ، وتعلقت
بذيول المسكر المنصور بأخذ الحسب من أمرائه ، فقبل فداؤها ولكن
بشرط فتوحه وتملكه ، وتكفل نصر الله على من فيه ، فوجدت
أرباضه جميعها من الذعر خاوية على عروشها ، صائلة سخالها على وحوشها
مرخصة للمساوم ، مرخصة في اغتنام الغنائم ، فلكت العساكر حمى تلك
الأموال وحى تلك القلل الموال ، وتفتتوا من هذه ما يصلح الأحوال
وتبوؤا من هذه ما يغدو مقاعد للقتال . وأخذنا عليها من النقوب كل ساري
الجراحة في ذلك الجثمان ، سارب في ضمائرهم كما يسرب الميل بين
الأجفان . ونصبنا عليه من المجانيق كل مثبتة في مستنقع الموت رجلها ،

حاملة في الهواء رحلها جاثمة جنوم الهرم ، هادية هداية العلم ، تحلق تحليق الصقور ،
وتحني الصخور بالصخور ، ومازالت بها حتى هدمت منها الأركان . وما برح
النقابون حتى سروا في ضمايرها سريان الدم في مفاصل الإنسان ، وفصدوا
بباضع قطاعاتهم عروق تلك الأبدان ، واستكنوا بها داء مفضلاً لا يجد
العدو إليه من فتكاته دواء موصل ، تنمو بتنقيص المواد أخلاطه ،
ولا يرجى ببحار من الأمطار المرسلة المخطاطه حتى تحلت من الحصن
المذكور قواه ، واحترقت حماة من النيران الموقدة بأحشاء حماه ،
فحينئذ بلغت روحه التراقي ، وعجلت عليه الجانيق المذكورة التي
أصابته بعين ما لها من راق ، من كل ذات أعضاء وأعضاء وأعصاب
من السرياقات وعروق تتخلل تلك الأجساد ، وذات زمانة كم لها خطوة
في الهواء بعيدة المنال ، وأمانة كم ردت إلى الجبال ما عجزت عن حمله
الجبال . لها كف متسمة وأعطاف لا تبرح حتى تجود مترنحة ، مازالا:
هذا يعويل معاوله وهذا بأفين سهامه ينعبان الكفر مساء صباحاً ،
ويترغان بما يظنه المسلم له غناء وتحسبه للكفر عليه نواحاً ، حتى تسلمناه
في يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من شعبان المبارك ، فيأخذ حظه من
هذه البشارة الحسنة ويحمل الأصوات بها على الأدعية الصالحة مؤمنة .
والله يتمتع الشريعة بمساعيه المستحسنة بمنه وكرمه . كتب في التاريخ أعلاه .
ذيل مرآة الزمان لليونيني ج ٢ - ٤٤٥ - ٤٤٧

١٦١ - رسالة الملك الظاهر بيبرس باسمه واسم والده الملك السعيد
إلى القاضي ابن خلكان يبشره بفتح حصن عكار سنة ٦٦٩ هـ من
إنشاء يحيى الدين بن عبد الظاهر

هذه المسكوبة إلى المجلس السامي القضائي ، لازالت البركات نخيمة

بفنائنه ، والتوفيق منوطاً بجمع آرائه ، وقلوب الناس متفقة على محبته وولائه ، ولا زالت البشائر إليه تتهادي وتزد على محله مثنى وفرادى ، تنضم ما من الله به علينا وعلى المسلمين من المواهب العظيمة الموقع الجليلة المطلع ، وهو أنه لما كان بتاريخ يوم الاثنين التاسع والعشرين من شهر رمضان المعظم سنة تسع وستين وستائسه تسلمنا حصن عكار بعد أن رتبنا عليه المجانيق من كل جانب ، وأذقنا من فيه العذاب الراسب ، ولم يزل الجاليل بسهامه يرشقهم والجهانيق تشدخهم والنبايا تتخطفهم ، فعندما شاهدوا مصارع بعضهم زلوا من الحصن المذكور خاضعين ، وعفروا جاجهم بالذل متضرعين . فعندما شاهدناهم على هذه الصورة رحنناهم وأمنناهم على أنفسهم خاصة وتسلمنا الحصن المذكور بحواصله وجميع ما فيه وانتظم في سلك ممالكنا ودخل في جملة حصوننا وقلاعنا . فليأخذ المجلس بحظه من هذه البشرى بأوفر نصيب ، ويذمها بين القضاة والعلماء والفضلاء بين كل بعيد وقريب ، فإنها من النعم التي يجب على كل مسلم شكرها ويتمين بشها بين الأنام وذكرها ، فيحيط علمه الكريم بذلك . والله يؤيده ويعضده ويمجسه في سائر التصرفات والمسالك إن شاء الله ، كتبت في التاريخ المذكور أعلاه .

ذيل مرآة الزمان لليونيني ج ٢ - ٤٤٨ - ٤٤٩

١٦٢ - رسالة الملك الظاهر بيبرس الثانية إلى بوهيموند السادس صاحب طرابلس بعد فتحه عكار سنة ٦٦٩ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم . قد علم القومص بيمند - جعله الله بمن ينظر لنفسه ، ويفكر في هاقبة يومه من أمسه . نزولنا بعد حصن الأكراد على حصن عكار ، وكيف نقلنا المنجنقيات إليها في جبال تستصعبها الطيور

لاختيار الأوكار، وكيف صبرنا في جرها في مناكدة الأوحال ومكابدة الأمطار، وكيف نصبنا المنجنقيات على أمكنة يزلق عليها النمل إذا مشى، وكيف هبطنا في تلك الأودية التي لو أن الشمس من الغيوم ترى بها مساكن غير جبالها رشا، وكيف صارت رجالك الذين ما قصرت في انتعابهم، وحسنت بهم استعانة نائبك الذي انتعجى بهم .

وكتابتنا هذا يبشر بأن علمنا الأصفر نصب مكان علمك الأحمر، وأن صوت الناقوس صار عوضه الله أكبر، ومن بقي من رجالك أطلقوا ولكن جرحى القلوب والجوارح، وسلموا ولكن من ندب السيوف إلى بسكاه النوائح . وأطلقناهم ليحدثوا القومص بما جرى، ويحذروا أهل طرابلس من أنهم يفترون بحدثك المفترى، وليروم الجراح أرايناهم بها نفاذاً، ولينذروهم لقاء يومهم هذا، ويفهموك أنه ما بقي من حياتكم إلا القليل، وأنهم ما تركونا إلا على رحيل، فتعرف كنائسك وأسوارك أن المنجنقيات تسلم عليها إلى حين الاجتماع عن قريب، وتعلم أنجساد فرسانك أن السيوف تقول إنها عن الضيافة لاتغيب، لأن أهل عكار لمسدوا لها جوعاً ولاقضت من ريشاً بدمائهم الوطر، وما أطلقوا إلا لما عاقب شرب دمائهم، وكيف وثلاثة أرباع عكار عكر . يعلم القومص هذه الجملة المسرودة ويعمل بها . وإلا فيجهز مراكبه ومراكب أصحابه ، وإلا فقد جهزنا قيودهم وقيوده .

كتاب السلوك للمقريزي ج ١ ، ق ٣ ٩٧٢ - ٩٧٣

٢- الملك المنصور قلاوون ٦٧٨-٦٨٩ هـ ١٢٧٩ - ١٢٩٠م

١٦٣ - رسالة الملك المنصور قلاوون إلى صاحب اليمن مبشراً بفتح صافيتا من إنشاء محي الدين بن عبد الظاهر

أعز الله تعالى نصرة المقام العالي المولوي السلطاني المظفري الشمسي ،
وأشركه في كل بشرى تشد الرحال لاستماعها ، وتحتل الحبي لاستطلاعها ،
وتتأفت التواريخ والسير على استرفادها .

وتتنافس الأقلام والسيوف على الأفهام بأجناسها وأنواعها . ولا خلا
موقف جهاد من اسمه ، ولا مصرف أجبر من قسمه ولا غرض هناء من
سهمه ، ولا فاق ابتهاج من بزوغ شمسهِ وطلوع نجمه . سطر المملوك هذه
البشرى والسيف والقلم يستمدان : هذا من دم وهذا من نقس ، ويمضيان :
هذا في رأس وهذا في طرس ، ويتجاوبان : هذا بالصيل وهذا بالصرير ،
ويتناوبان : هذا يستميل وهذا يستمير ، وكل منهما ينافس الآخر على
المشافة بخبر هذا الفتح الذي ما سمع إليه مم المملوك الأوائل ، ولا
وسمت به سيرهم التي بدت أجيادها من حيله عواطل ، ولادار في
خلده أن مثله يتها في المدد الطويلة ، ولا تشكل في ذهن أنه سيدرك
بحول ولا حيلة ، وهو النصر المرتب على حركتنا التي طوى الله لركابنا
فيها المراحل ، وألقى بدرر عساكرنا من بحر الحديد المالح إلى الساحل ،
وهجومنا على البلاد الفرنجية وهي طرابلس وصافيتا وأنطربطوس ومرقية
والمرقب ، كما يهجم الفيث ، ومصادمتنا صدورها كما يصدم الليث ، وسلوكتنا
منها حيث لم يبق حيث . وما جرى في هذه الوجهة من اغارات أحسنت متقلب
الأعنة ، ومتعلق السيوف ومخترق الأسنة ، وما تها منها من فتوح
صافيتا التي هي أم البلاد ومنتجع الحاضر والباد ، وكونها قدمت نفسها
في جملة ما يقرى به الضيف ، وقالت : هذا فتوح حضر على هذا
الفتوح لهذا السيف ، وتلطف في مسح أطراف الأمان ، وطلبت شكراً
ومنا شكران ، وأحضرت إلينا من أهلها الوقت ، ومدت السيوف
في أعناقهم قتشيت بها الأغلال . وأنفت آيمان أهل الايمان من مصافحتهم

لأنهم أصحاب الشمال . فاطلقهم سيفنا وأمله يمتد إلى من هو أعز منهم
مالاً وأكثر احتفالاً وأبرز مالا وأهزه سيوفنا قصاراً ورماحاً طوالاً ،
واستطار منها شرار نار الحرب الموقدة إلى غيرها من القلاع واستطال
إلى سواها من الحصون منهم الباع ، فلا حصن إلا وافترت ثيابه عن نصر
مسهل ، وفتح معجل ومؤجل .

فمن ذلك حصن الأكراد الذي تاه بعطفه على الممالك والحصون ،
وشجع بأنفه أن تمتد إلى مثله يد الحرب الزبون ، وغدا جاذباً بضبع
الشام ، وأخذاً بمخانتى بلاد الإسلام ، وشلاً في يد البلاد ، وشجاً في
صدر العباد ، تنقض من عشه صدور الأعداء السكاسرة ، وترتاع من
سلطتها قلوب الجيوش الطائرة ، وتريض بأرباضه آساد تحمي تلك
الآجام ، وتفوق من قسمه سهام تصمي مفوقات السهام ، تعطيه الملوك
الجزية عن يد وهم صاغرون ، ويصطفى كرام أموالهم وهم صابرون
لامصابرون ، كم شكت منه حماة تثنى بنكرها قلة الإنصاف ، وكم خافته
معرة ومامن معرة خاف . وما زالت أيدي الممالك تمتد إلى الله بالدعاء
عليه تشكو من جور جواره تلك الحصون الصياصي ، وتبكي بدمع
نهرها من تأثير آثاره مع عصيانها وناهيك بدمع العاصي . حق نبيه
الله إليه ألاحظ سيوف الإسلام من جفونها ، وفي النصر ما وجب من
ديونها . وذاك بأننا قصدنا فسيح ربه ، ونزلنا ونازلنا محمي صقعه وختمنا
بنصائلنا على قلبه وسمعه . وله مدن حوله خمس هو كالراحة وهي
كالأنامل ، وتكاد بوجهه ترى كالمطايا المقطرة وهي منها بمنزلة الزوامل .
ماخيمنا به حق استبحنا محشى تلك المدائن المكفى عنها بالأرباض ،
وأسمنا بساحاتها بجرأ من الحديد ما اندفع حق فاض ، وأخذنا النقب
في أسوار لا تنقض ولا ينقض بنيانها المرصوص . ولا تقرأ المعاول ما لحواتم

أبراجها من نقوش الفصوص ، ونصبنا عليها عدة مجانيق حملت شواهد الجبال على رؤوس الأبطال ، ففبطت السميرية أن الذي تقوم به هذه تلك به لا تقوم ، وأن ما منها إلا وله من الأيدي والرؤوس مقام معلوم . وصار يرمي بها كل كسي مختلس ، وأروع منتهس ، وكل ليث غابة يحميها وتحميها . فشكراً لأسود حق غاباتها تفتس ، إلى أن جثت أسوارها على الركب ، وكانت سهام مجانيقها تميل من العجب فصار تيمد من المَجَب . وكانت تطلب قصارت تهرب من الطلب . واشتد الأمر على الكفار فقاتلوا قتالاً أقض مضاجع الأسلحة ، وأطار حجارة مجانيقهم بغير أجنحة ، وأشجى بشجو النصال المترنحة على غصون السهام المترنحة . هذا وأهل الإيمان يتلقون ذلك كله بصبر يستطعمون منه شهداً ، وإقدام يتلقى صدى الحديد بأكباده تمازالت إلى موارده قصداً ، يقتحمون نار الحرب التي كلما أوقدوها تطفأها الله وقال : ياتر كوني برداً . وبلاد الفرنجية قد غضت منها الأبصار وخشعت القلوب . واعتقد كل منها في نفسه أنه بعد هذا الحصن المطلوب . فهذه تود لو أكتنتها البحار تحت جناح أمواجها . وهذه لو أسبلت الرياح العواصف عليها ذبول عجاجها . وهذه لو اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار . وهذه لو خسف بها الثرى وعفت منها الآثار . وذلك لما بلغهم وشاهدوه من ويل حل بأهل هذا الحصن المنيع ، ومن فتك أحل ربه المريع وضيق مجاله الوسيم ، وقراع أضجر الحديد من الحديد والأبطال لم تضجر ، ونضال أسهر كل جفن حتى جفون السيوف لأنا عودناها مثل جفوننا أن تسهر . فكم شكت النقوب من مناكبهم زحاما ، والشرفات من ترقبهم التزاماً ، والرقاب من سيوفهم اقتساماً وكم حصدت التجارب من رأيهم شيخاً وحده الإقدام من ثبوتهم غلاماً .

قد دوخوا البلاد فلا مرطن إلا لهم به معركة ، وأرملوا الحلائل فلا
مشرك إلا وقد أرمل من مشركة ، وأزعجوا الكفر فلا قلب إلا به
منهم خوف ، ولا سمع إلا لهم به حركة ، وملأوا الأرض كثرة وكيف
لا يكثر الله جمعاً للإسلام جعل الله فيه بركة .

وكتابتنا هذا والمولى بحمد الله أحق من هُنْئى بهذا الفتح الذي
تثني على كتاب بشائره الحقائق ، وتجري إلى سماع أخباره الركائب ،
وتتزاحم على المسير تحت البرد الواصلة به متون الصبا وظهور الجنائب ،
وإذا ذكرت ملاحه قال كل : هذا كتاب أم كتيبة تلوح . وإذا
شوهدت حمرة طرسه قيل : وهذا ما صنعت في الد المعلة عليه دم
الكفر المسفوح ، وينعم - أعز الله نصره - بالإعلان بهذا النبأ الحسن الذي
قستروح إليه الأسماع . وتسرى بالإفهام به أخوات هذا الحصن من مدنه
ومن قلاعه العظيمة الامتناع ، فإنه مابرح الأخ يفرح بأخيه . وإذا كان
الهناء عظيماً اشترك فيه كل شيء فيه ، إن شاء الله تعالى .

صبح الأعشى للقلقشندي ج ٧ ٣٥٣ - ٣٥٧

١٦٤ - نص الهدنة المعقودة بين الملك المنصور قلاوون وبين ممتلك
طرابلس الشام سنة ٦٨٠ هـ .

... وتقررت الهدنة مع ممتلك طرابلس الشام بيميند بن بيميند ملك
الفرنج لمدة عشر سنين كوامل متتاليات أولها السابع والعشرين [كذا
بالأصل] من شهر ربيع الأول سنة ثمانين هذه السنة الموافق للخامس
من شهر تموز سنة ألف وخمسة واثنتين وتسعون للإسكندر اليوفاني ،
وذلك على بلاد الملك المنصور والملك الصالح ولده : قريها وبعيدها
سبلها وجبلها غورها ونجدها قديمها ومستجدها ، وما هو مجاور لطرابلس

ومحاذدها من المملكة البعلبكية وجبالها وقراها الرحلية والجبلية وجبال
 الفينيين والمقيين ، وما هو من حقوق ذلك ، وعلى الفتوحات
 المستجدة وهي حصن الأكراد وانليس والقليعات وصافيتا وميمار
 واطليعا وحصن عكار ومرقية ومدينتها وبلادها ومناصفاتها ، وهي بلاد
 الملكية وجميع بلاد هذه الجهات التي ذكرناها ومناصفات المرقب التي
 دخلت في الصلح مع بيت الأستار وبلده ومدينته ، وما هو محسوب
 منها ومعروف بها من حصون وقرى وبلادطنس وبلادها وقصرقص
 وبلادها ، وجبله ولاذقية وأنطاكية والسويدية وبلادذلك وحصن بغراس
 وحصن ديركوش وصهيون وبرزية وحصون الدعوة وغير ذلك من ساير
 الممالك الإسلامية وما سيفتحه الله تعالى على يد الملك للنصور ويدولده،
 وعلى الموائء والسواحل والأبراج وغير ذلك . وعلى بلاد الإبرنس وعلى
 طرابلس وما هو داخل فيها وأنفة والبترون وجبيل وبلاد ذلك وعرقا
 وبلادها المعينة في الهدنة وعدتها إحدى وخمسون ناحية . وما هو للخيالة
 والكنائس وعدتها إحدى وعشرون بلداً ، وما هو للفارس روجار ولا
 لولاي من قبلي طرابلس يكون مناصفة ، وعلى أن يستقر برج اللاذقية
 ومينائها في استخراج الحقوق والجبايات والغلات وغيرها مناصفة ، ويستقر
 مقامهم باللاذقية على حكم شروط الهدنة الظاهرية الركنية ، وعلى أن
 يكون على جسر أرتوسية من غلمان السلطنة لحفظ الحقوق ستة عشر
 نفرأ وهم المشد والشاهد والكتائب وثلاث غلمان لهم وعشر رجالة في
 خدمة المشد . ويكون لهم في الجسر بيوت يسكنوها ولا يحصل منهم
 أذية لرعية الأبرنس وإنما ينعوا ما يجب منعه من المنوعات ، ولا ينعوا
 ما يكون من عرقا وبلادها من الغلات الصيفية والشتوية وغيرها لا يعارضهم
 المشد فيه . وما عدا ذلك فما يعبر من بلاد السلطان يؤخذ عليه الحقوق

ولا يدخل إلى طرابلس غلّة محمية للأبرنس ولا غيره إلا ويؤخذ الموجب عليها . وعلى أن البرنس لا يستجد خارج ما وقعت الهدنة عليه بنساء يدفع ولا يمنع . وكذلك السلطان لا يستجد بناء قلعة ينشئها من الأصل في البلاد التي وقعت الهدنة عليها . وعلى الشواني من الجهتين أن تكن آمنة كل طائفة من الأخرى ، ولا ينقض ذلك بموت أحدهما ولا بتغييره ، وأن لا يحسن لأحد من أعداء السلطان ولا يتفق عليه برمز ولا خط ولا مراسلة ولا مكاتبة ولا مشافهة وتقررت الحال على ذلك (١) . . .

تاريخ ابن الفرات ج ٢٠٥٢ - ٢٠٦

١٦٥ - رسالة أرسلها الأشرف خليل بن السلطان الناصر قلاوون باسم والده وباسمه إلى الملك المظفر صاحب اليمن يبشره بفتح طرابلس الشام سنة ٦٨٨ هـ من إنشاء محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر .

أعز الله نصرته المقام وأوفد عليه كل بشرى أحسن من أختها ، وكل تهنئة لا يحلها إلا هو لوقتها ، وكل مبهجة يعجز البيان والبنان عن ثبتها ونعتها ، وتتبلج فتود الدرر والدراري لوزفت هذه إلى تراقيا ، وصمت هذه إلى سمها ، وصبحه منها بكل هائف أسجع من هواقف الهائم ، وبكل عارفة أسرع من عوارف الزهر عند عزائم النسائم ، وبكل عاطفة أعنة الإنحاف بالإيجاف الذي شكرت الصفاح منه أعظم قـادر والصعائف أكرم قادم ، والغزو الذي لانتخص تهامة ببشراه بل جميع

(١) أورد المقرئ في كتابه « السلوك » ج ١ - ق ٣ / ٩٧٤-٩٧٧ نصاً مقارباً كل المقاربة لنصنا أعلاه ، مع اختلافات يسيرة . كما نجح أن تنوه أن الأخطاء النحوية والإملائية الموجودة في النص هي من الأصل .

النجود والتهائم ، وذو الصوارم والصرائم ، وأولو القوى والقوائم ،
 وكل ثغر عن ابتهاج أهل الإسلام بامم ؛ وكل برّ برّ بتوصيل
 ماترب عليه من ملاحم ، وكل بحر عذب يمّون كل غازي لا يخبس عن
 جهاد الكفار في عقر للدار الشكائم ، وكل بحر يطيح كم تغيط من مجاورة
 أخيه لأهل الشرك ومشاركتهم فيه فراح وموجه المقلطم . المملوك
 يحدد خدمته يقتني فيها أثر والده ، ويجري في تبليغها على أجل عوائده ،
 ويستفتح فيها استفتاحاً تحف به من هنا ومن هنا تحف بحامده ، ويصف
 ولاء قد جعله أجل عقوده وأكمل عقائده ، ويشفعها بإخلاص قد
 جعله حيله أحسن وسائله وقلبه أزين وسائله ، ويطلع العلم الكريم ان
 من سجايا المتعرضين إلى الإعلان بشكر الله في كل ما يعرض للمسلمين من
 نصر ، ويفرض لهم من أجر غزوكم قعد عنه ملك فيما مضى من عصر ،
 أن يقدروا تلك النعمة حق قدرها من التحدث بنعمتها والتنبية لسماع
 نعمتها ، وإرسال أعنة الأقلام إلى مبادين الطروس ، وإدارة حرباء
 وصف خير حرب إلى مواجهة خير الشمس . ولما كانت غزوات مولانا
 السلطان ملك البسيطة الوالد - خلد الله سلطانه - وقد أصبحت ذكرى
 للبشر وموافقة للنصر ، فكم جاءت هي والقدر على قدر . وقد صارت
 سيرتها وسيرها هذه شدو الأسرار ، وهذه جادة يستطيب منها حن
 الحدو السفار . فكم قاتلت من يليها من الكفار ، وكم جعلت من
 يواليها وهو منصورها - منصوراً بالمهاجرين والأنصار . ولما أذل الله
 ببأسها طوائف التتار في أقاصي بلاد المعجم ، وجعل حظ قلوبهم الوجد
 من الخوف ونصيب وجوهم الوجم ، وأخلى الله من نسورم الأوكار ،
 ومن أسودم الأجم ، وقصرت بهم همهم حق صاروا يخافون الصبح
 إذا هجم والظن إذا رجم . وصارت رؤية الدماء تفزعهم ، فلو احتاج

أحبيهم لتنقيص دم المريض لأحجم من خوفه وما احتجم . وأباد الله الأرمن . فحل بالنَّيْل منهم الويل ، وما شمر أحد من الجنود الإسلامية عن ساعد إلاّ وشمر هو من الذل الذليل . ولا أثارت الجياد من الخيل عتيراً منعقداً إلاّ وظنوه مساءً قد أقبل أوليل . وانتهت نوبة القتل بهم والإسار إلى التكفور « ليفون » ملك الأرمن الذي كان يحمي سرهم ويمرر صرحهم ويستنطق هتف التتار ويسترجع صدحهم . وتغتر طرابلس الشام بأفه خال إبرنسا الكافر ولسان مشورته ووجه تدبيره السافرة . وطالما غر وأغرى ، وجر وأجرى ، وضر وأضرى . فلما توكل مولانا السلطان وعزم وغرم فتوكل وتحقق أن البلاء به قد نزل ، وما تشكك أن ذلك في ذهن القدر قد تصور وتشكل ، وأن يومه في الفتك سيكون أعظم من أمسه ، وأعظم منها معاداة غده ، وأن نصر الله لن يخلفه صادق مواعده ، أكل يده ندامة على ما فرط في جنب الله وساق الحنف لنفسه بيده فممر الله بروحه الخبيثة الدرك الأسفل من النار ، وسقاء الحنف كأساً بعد كأس لم يكن لها غير الهلك من خمار . وكانت طرابلس هي ضالة الإسلام الشريفة وإحدى آبقاته من الأجوام العديدة ، وكلما مرت شمخت بأنفها وتأنقت في تحسين منارة منازلها وتزيين ريجانها وعصفها ، ومرت وهي لا تفازل ملكاً بطرفها . وكلما تقادم عهدا تكثرت بالأفواج والأمواج من بين يديها ومن خلفها إذ البحر لها جلباب والسحاب لها خمار وليس بها من البر إلا بمقدار ساحة الباب من الدار ، كأنها في سيف ذلك البحر جبل قد انحط أو ميل استواء قد خرج عن خط ، ما قصد أحد شطها بنكاية إلا شط واشتط . قدر الله أن صرف مولانا السلطان إليها العنان ، وسبق جيشه إليها كل خير وليس الخبر كالبيان ، وجاءها بنفسه النفيسة ، والسعادة قد حرسه

عيونها وقلبك المخاوف كلهن أمان ، وقد اتخذ من إقدامه عليها خير
 حبال ومن مفاجاته لها أمد عنان . وفي خدمته جنود لاتستبعد مغازة ،
 وكم راحت وغدت وفي نفوسها للأهداء حزازة ، فامشطوا بخيولهم من
 جبال لبنان تيجاناً لها صاغتها الثلوج ، ومعارج لاترافق بها غير الرياح
 الهوج . انحطت تلك الجيوش من تلك الجنادل انحطاط الأجادل ،
 واندفعوا في تلك الأوعار اندفاع الأوعال ، ولم يحفل أحد منهم بسرب
 لاصق ولايجبل شائق فقال : هذا منخفض أوعال . وشرعوا في
 التحصيل لما يوهي ذلك التحصين وابتداء كل سور أمام أسوارها من
 التدبير الحسن والرأي الرصين ، فلما لبثوا إلا بمقدار ما قيل لهم : دونكم
 والاحتطاب ونقل المجانيق على الخيل وعلى الرقاب ، حق جروها
 بأسرع من جر النفس ، وأجروها على الأرض سفائن . وكم قالوا :
 السفينة لاتجري على ييس وفي الحال نقلت إليها فرأوا من مقولها من
 يمشي على رجلين ، ومنهم من يمشي على أربع ووجهت سهامها وجوها
 إلى منافذها ، فلما شوهدت منها عين إلا وكان قدامها منها أصبع ، وألقيت المداوة
 بين الحجارة من المجانيق وبين الحجارة من الأسوار ، فكم نقت ونقت من فلذة
 كبدها عن أسرار . وأوقدت نيران المكاييد ثم فكم حولها من صافن وصافر .
 وكم رمتهم بشرر كالقصر ، فوق الحافر كما يقال على الحافر . وما برحت
 سوق أهل الإيمان في نفاق أهل النفاق ، وأكبرهم تساق أرواحهم
 الخبيثة إلى السياق . وكان أهل عكاء قد أنجدوم من البحر بكل بر ،
 ورموا الإسلام بكل شر وكل شر ، فسكان السهم الذي يخرج منها
 لا يخرج إلا مقترناً بسهم ، وشرفات ذلك الثغر كالثنايا ، ولكنها لكثرة
 من بها لاتفتقر عن ابتسام . وما زالت جنود الإسلام كذلك ومولانا السلطان
 لاثرى جماعة مقدمة ولا متقدمة إلا وهو يرى بين أولئك . واستمر ذلك

من مستهل شهر ربيع الأول إلى يوم الثلاثاء رابع شهر ربيع الآخر ،
 فزحف عليها في بكرة ذلك النهار زحفاً يقتحم كل هضبة ووهدة ،
 وكل صلبة وصلدة حتى أنجز الله وعده وفتحها المسلمون مجازاً ، وفي
 الحقيقة فتحها وحده . وطلعت سناجق الإسلام الصفرة على أسوارها ،
 ودخلت عليهم من أقطارها ، وجاست الكأبة خلال ديارها . فاحتازها
 مولانا السلطان لنفسه ملكاً ، وما كان يكون له في فتحها شريك وقد
 نفى عنها شركاً . وكلما قيل : هذه طرابلس فتحت قال النصر بـ . من
 قتل فيها من النجد الواصلة وأكرم عكا وأهل عكا^(١) . وأعاد الله قوة الكفر
 بها أنكاثاً ، وكان أخذها من مائة وثمانين سنة يوم ثلاثاء واستردت في
 يوم الثلاثاء . ولما عمت هذه البشائر [و] كل بها مولانا السلطان إلى كل
 من يستجلى حسان هذه العرائس ويستحلي نفيس هذه النفائس . وسـ . ير
 مولانا السلطان إلى مولانا بشرى فقمقع بها البريد ، لتتلى بأمر مولانا
 على كل من ألقى السمع وهو شهيد . وكما عم السرور بذلك كل قريب ،
 قصد أن يعم الهناء كل بعيد . وأصدر المملوك هذه الخدمة يتحجب بين
 يدي نجواها ، ويتوثب بعد هذه الفاتحة لكل ساحجة يحسن لدى المولى
 مستقرها ومثواها . لا برج المقام يستبشر لكماة الإسلام بكل فضل
 وبكل نعمى ، ويفرح لصرح الكفر إذا انتك ، ولسفح الملك إذا يحمى
 ولسمع الشرك إذا يصم ولقلبه إذا يصمى^(٢) .

نهاية الأرب للنويري ج ١٥٦ - ١٦٠

(١) كذا بالأصل والجملة قلقة مضطربة غير مفهومة المعنى .

(٢) أورد القلقشندي في «صبح الأعشى» ج ٧ / ٣٦٦-٣٧٠ نصاً لا يختلف كبير
 اختلاف عن نصنا أعلاه ، على حين يورد كل من ابن قفري بردي في «النجوم الزاهرة»
 ج ٧ - ٣٢٣ والسيوطي في «تاريخ الخلفاء» ج ١ - ٤٨٢ نصاً موجزاً كل الإيجاز ومختلفاً
 كل الاختلاف عن النص أعلاه .

١٦٦ - رسالة الأمير بدر الدين بيدرا إلى الأمير حسام الدين طرناطي يبشره ويهنئه بفتح طرابلس الشام من إنشاء يحيى الدين ابن عبد الظاهر .

المملوك حقاً بهذا الفتح الذي كادت به هذه الغزوة تزو على غيرها من الغزوات وتتيه ، وأشرقت الأرض بنور ربها ابتهاجاً بما أمضاه الله منه وما سيمضيه ، وبما سيعطيه حتى يرضيه ، وذلك أن فتح طرابلس التي طالما شمتحت بأنفها على المملوك . وكما أبت على مستفتح فما قال لغيره أبواها : الله أبوك . وآخر الله مدتها إلى خير الأزمان ، وفتحها على يـد سلطاننا الذي حقق الله به آمالاً لا تنفذ منه إلا بسلطان . فالحمد لله الذي عضد هذا الملك من مولانا بخير من دبره ، وحماه منة بأقطع حسام جرده الله لنقض ما أمره . وما من فتوح ولا أمر ممنوح إلا ومولانا منضد عقوده ومجهز بريده ومطلع سعوته ورافع علمه ؛ وممضي سيفه ومرضي قله . فأمتع الله الأمة من مولانا السلطان بسلطان يسترد لهم الحقوق ويتقاضى الديون ، وأمتع الله سلطانها من مولانا بن آراؤه أقال الممالك وسيوفه مفاتيح الحصون .

نهاية الأرب للنويري ج ٥ - ١٦١

١٦٧ - نص الهدنة التي عقدت بين السلطان الملك المنصور قلاوون وولده وولي عهده السلطان الملك الصالح وبين مملكة عكا من إنشاء يحيى الدين بن عبد الظاهر كاتب الإنشاء .

استقرت الهدنة بين مولانا السلطان الملك المنصور وولده السلطان الملك الصالح علاء الدنيا والدين علي - خلد الله سلطانها - وبين الحكام بمملكة عكا وصيدا وعثليت وبلادها التي انعقدت عليها هذه الهدنة وهم : السنجال (١)

(١) السنجال Sénéchal من أصل لاتيني ومعناها النائب أو الكفيل . والمقصود نائب المملكة في عكا في تلك الفترة أودر بولشير Odo Poilechier .

أو دكفيل المملكة بعكا ، والمقدم أفيرير كليم ديباجوك مقدم بيت الداوية
والمقدم أفيرير نيكول للورن^(١) مقدم بيت الاستتار والمرشان أفيرير
كورات نائب بيت مقدم استتار الأمن لمدة عشر سنين كوامل وعشرة
شهور وعشرة أيام وعشر ساعات أولها يوم الخميس خاصس شهر ربيع
الأول سنة اثنتين وثمانين وستائة للهجرة النبوية ، الموافق الثالث من حزيران
سنة ألف وخمسمائة وأربعة وتسعين لغلبة الإسكندر بن فيليبس اليوناني ،
على جميع بلاد مولاة السلطان الملك المنصور وولده الملك الصالح علاه
الدنيا والدين علي ، على جميع القلاع والحصون والبلاد والممالك والأعمال والمدن
والقرى والمزارع والأراضي وهي مملكة الديار المصرية وما بها من الثغور والقلاع
والحصون الإسلامية وثغر دمياط وثغر الإسكندرية ونسترو وسنترية وما ينسب
إليه ذلك من المواني والسواحل والبرور ، وثغر قوة وثغر رشيد والبلاد
الحجازية وثغر غزة المحروس وما معها من المواني والبلاد ، والمملكة الكركية
والشوبكية وأعمالها والصلت وأعمالها ويعرى وأعمالها ، ومملكة الخليل
- صلوات الله وسلامه عليه - ومملكة القدس الشريف وأعمالها ، والأردن
وبيت لحم وأعمالها ، وبلادها وجميع ما هو داخل فيها وحسوب منها ،
وبيت جبريل ومملكة نابلس وأعمالها ، ومملكة الأطرون وأعمالها ، وعسقلان
وأعمالها وموانئها وسواحلها ومملكة يافا والرملة ومينائها وأعمالها وأرسوف وأعمالها
ومينائها ، وقيسارية ومينائها وسواحلها وأعمالها وقلعة قاقون وأعمالها وبلادها ، ولُدَّة
وأعمالها وأعمال العوجاء وما معها من الملاحة وبلاد الفتوح السعيدة وأعمالها ومزارعها ،
وبيسان وأعمالها وبلادها ، والطور وأعماله واللجون وأعماله وجنين وأعمالها
وعين جالوت وأعمالها والقيمون وأعماله وما ينسب إليه ، وطبرية وبحيراتها وأعمالها
وما معها ، والمملكة الصفدية وما ينسب إليه ، وتبنين وهونين وما معها
من البلاد والأعمال ، والشقيف المعروف بشقيف أرنون^(٢) وما معه

(١) Fr. Nicholes Le'Lorgne .

(٢) من أعمال دمشق بينها وبين الساحل قرب بانياس .

من البلاد والأعمال وما هو منسوب إليه ، وبلاد القزن وما معه خارجاً
 عماين في هذه الهدنة ، ونصف مدينة اسكندرونة ، ونصف قرية مارن
 بقراها وكرومها وبساتينها وحقولها . وما عدا ذلك من أعمال اسكندرونة
 المذكورة ويكون جميعه بحدوده وبلاد ملوانا السلطان ولولده ، والنصف
 الآخر للملكة عكا ، والبقاع العزيزي وأعماله ، ومشغرا وأعمالها ، وشقيف
 قثرون وأعماله ، والعامر جميعها في لايا وغيرها وبانياس وأعمالها ، وقلعة
 الصببية وما معها من البحيرات وأعمالها ، وكوكب وأعمالها ، وما معها ،
 وقلعة عجلون وأعمالها ، ودمشق والمملكة الدمشقية وما لها من القلاع
 والبلاد والممالك والأعمال ، وقلعة بعلبك وما معها وأعمالها ، ومملكة
 حصص وما لها من الأعمال والحدود ، ومملكة حماة ومدينتها وقلعتها وبلادها
 وحدودها ، وبلاطلس وأعمالها ، وصهيون وأعمالها ، وبرزية وأعمالها
 وفتوحات حصن الأكراد وأعماله ، وصافيتا وأعمالها ، وميعار وأعمالها ،
 والعريفة وأعمالها ، وقدفيا وأعمالها ، ومرقية وأعمالها ، وحلب وأعمالها ، وحصن
 عكار وأعماله وبلاد ، والقلعة وأعمالها ، وقلعة شيزر وأعمالها ، وأقامية
 وأعمالها ، وجبله وأعمالها ، وأبو قبيس وأعماله ، والمملكة الحلبية
 وما هو مضاف إليها من القلاع والمدن والبلاد والحصون ، وأنطاكية
 وأعمالها ، وما دخل في الفتوحات المباركة ، وبغراس وأعمالها ،
 والدريساك وأعماله ، والراوندان وأعمالها ، والجازم^(١) وأعمالها ،
 وعينتاب وأعمالها ، وتيزين وأعمالها ، وسبخ الحديد وأعماله ، وقلعة
 نجم وأعمالها ، وشقيف ديركوش وأعمالها ، والشفر وأعماله ، وبكاس
 وأعماله ، والسويداء وأعمالها ، والباب وبزاعا وأعمالها ، والبيزة وأعمالها ،
 والرجية وأعمالها ، وسلمية وأعمالها ، وشميميس وأعمالها ، وقدمر

(١) لعل الصراب حارم ، وهي بلدة تقع الآن في شمال غربي سورية .

وأعمالها وما هو منسوب إلى جميع ذلك ما عين وما لم يعين [وعلى جميع المساكر وعلى جميع الرعايا من سائر الناس أجمعين على اختلافهم وتفاير أنفارهم وأجناسهم وأديانهم القاطنين فيها والمترددين إليها ومنها من سائر بلاد المسلمين وعلى جميع التجار والسفار والمترددين في البر والبحر والسهل والجبل في الليل والنهار يكونون آمنين مطمئنين في حالتي صدورهم وورودهم على أنفسهم وأموالهم وأولادهم وحريمهم وبضائعهم وغلانهم وأتباعهم ومواشيهم ودوابهم وعلى جميع ما يتعلق بهم ، وكل ما تحوي أيديهم من سائر الأشياء على اختلافها] (١) ، من الحكام بملكة عكا وهم كفيل المملكة والمقدم أفرير كليام ديباجوك مقدم بيت الداوية ، والمقدم أفريرنيكول للورن مقدم الاستتار ، والمرشان فريركورات نائب مقدم بيت استتار الأمن ، ومن جميع الفرنج الأخوة والفرسان الداخلين في طاعتهم وتحويه مملكتهم الساحلية ، ومن جميع الفرنج على اختلافهم الذين يستوطنون عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة من كل واصل إليها في بر وبحر على اختلاف أجناسهم أو أنفارهم لا ينال بلاد مولانا السلطان الملك المنصور وبلاد ولده السلطان الملك الصالح ولا حصونهما ولا قلاعهما ولا بلادهما ولا ضياعهما ولا عساكرهما ولا جيوشهما ولا عربها ولا تركانها ولا أكرادها ولا رعاياها على اختلاف الأجناس والأنفار ، ولا ما تحويه من المواشي والأموال والفلال وسائر الأشياء منهم ضرر ولا سوء ولا غارة ولا تعرض ولا أذية أيديهم . وكذلك كل ما يستفتحه مولانا السلطان الملك

(١) إن الزيادة الموجودة بين المعوفين مأخوذة من « صبح الأعشى » للقلقشندي

المنصور وولده السلطان الملك الصالح على يدهما ويد عساكرهما ونوابهما من بلاد وحصون وقلاع وملك وولايات برأ وبحراً ، سهلاً وجبلاً ، وكذلك جميع بلاد الفرنج التي استقرت عليها هذه الهدنة من البلاد الساحلية وهي : مدينة عكا وبساتينها وأراضيها وضواحيها وما يختص بها من كرومها وما لها من حقوق حولها وما تقرر لها من بلاد في هذه الهدنة ، وعدتها بما فيها من مزارع ثلاثة وسبعون ناحية خاصاً للفرنج ، وكذلك حيفا والكروم والبساتين ، والعدة بحيفا سبع نواحي وكذلك ما رسا بها بأرضها المعروفة بها تكون للفرنج ، وكذلك دير السياج ودير مارلياس يكون للفرنج . ويكون لمولانا السلطان من بلاد الكرمل خاصاً عفا والمنصورة وباقي بلاد الكرمل ، وهي ثلاث عشرة ناحية للفرنج ، وعثليت القلعة والمدينة ، والبساتين التي قطعت والكروم وفلاحتها وأراضيها تكون لها ، ويكون لها من البلاد ست عشرة ناحية وتكون خاصاً لمولانا السلطان ما يذكر ، وهو : قرية الهراميس بكاملها ، وعما لخاص عثليت يكون مناصفة وهي ثمان نواحي وفلاحة الاسبتار بعمل قيسارية يكون خاصاً للفرنج بما فيها . ونصف مدينة اسكندرونة ونصف قرية مارون بما فيها للفرنج ، وما عدا ذلك يكون خاصاً لمولانا السلطان . ومما كان في اسكندرونة وقرية مارن من الحقوق والقلعة يكون مناصفة . وصيدا القلعة والمدينة والكروم وضواحيها وجميع ما ينسب إليها يكون خاصاً للفرنج ، ويكون لها من البلاد خاصاً خمس عشرة ناحية . وما في الوطاة من أنهار ومياه وعيون وبساتين وطواحين وقنى ومياه جارية وسكور لهم بها عادة قديمة تسقي أراضيهم يكون خاصاً بهم . وما عدا ذلك من البلاد الجبلية جميعها تكون لمولانا السلطان وولده بكاملها .

وتكون هذه البلاد العكاوية وما عين في هذه الهدنة آمنة من مولانا السلطان ومن ولده ومن عساكره وجيوشه [وتكون هذه البلاد المشروحة الداخلة في هذه الهدنة المباركة] ما هو خاص وما هو مناصفة آمنة مطمئنة ومن بها . وليس للفرنج أن يحددوا في غير عكا وعثليت وصيدا بما هو خارج عن الأسوار في هذه الجهات الثلاث سوراً ولا قلعة ولا برجاً ولا حصناً قديماً ولا مستجداً . وعلى أن شواني مولانا السلطان وشواني ولده متى عمرت وخرجت لاتتعرض لأذية البلاد الساحلية التي انعقدت الهدنة عليها .

وإذا قصدت الشواني المذكورة جهة غير هذه الجهات وكان صاحب تلك الجهة معاهداً للحكام بمملكة عكا ، فلا تدخل إلى البلاد التي انعقدت الهدنة عليها ولا تزود فيها ، وإن لم يكن صاحب تلك الجهة التي تقصدها الشواني معاهداً للحكام بمملكة عكا فلها أن تدخل إلى بلادها وتزود منها .

وإذا انكسر شيء من هذه الشواني - والعياذ بالله - في ميناء من المواني التي انعقدت الهدنة عليها وسواحلها ، فإن كانت قاصدة إلى من له مع مملكة عكا عهد أو مع مقدمها فيلزم كفيل المملكة بعكا ومقدمي البيوت حفظها ويمكن رجالها من الزوادة وإصلاح ما انكسر فيها والعود إلى البلاد الإسلامية ، ويبطل حركة ما ينكسر فيها أو يرميه للبحر ، فإن لم يكن للذي تقصده الشواني معهم عهد وانكسرت ، فلها أن تزود وتممر رجالها من البلاد المنعقدة عليها الهدنة ، وتوجهه إلى الجهة المرسوم بقصدها ، ويعتمد هذا الفصل من الطرفين ، وعلى أنه متى تحرك أحد من ملوك البحر الفرنجية وغيرهم من جوار البحر لقصد الحضور لحضرة مولانا السلطان أو حضرة ولده في بلادها المنعقدة عليها هذه الهدنة فليلتزم نائب المملكة والمقدمون بعكا تعريف مولانا السلطان بحركتهم

قبل وصولهم إلى البلاد بمدة شهرين ، وإن وصلوا بعد انقضاء مدة شهرين فيكون كفيل المملكة بعكا والمقدمون برآء من عهدة اليمين في هذا الفصل . وإن تحرك عدو من جهة البر من التتار وغيرهم فأبي من سبق إليه من الجهتين فيعرف الجهة الأخرى . وعلى أنه إن قصد البلاد الشامية - والعياذ بالله - عدو من التتار وغيرهم في البر والحازت العساكر قدامهم ووصل العدو إلى القرب من البلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة وقصدها بمضرة فلكفيل المملكة بعكا والمقدمين بها أن يداروا من نفوسهم ورعيتههم وبلادهم بما تصل قدرتهم إليه .

فإن حصل جفل - والعياذ بالله - من البلاد الإسلامية إلى البلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة فيلزم كفيل المملكة بعكا والمقدمين حفظهم والدفع عنهم ومنع من يقصدهم بضرر ويكونون آمنين مطمئنين بما معهم ، وعلى أن نائب المملكة بعكا والمقدمين يوصون في سائر البلاد الساحلية التي وقعت الهدنة عليهم أنهم لا يملكون حرامية البعير من الزوادة من عندهم ولا من حمل ماء ، وإن ظفروا بأحد منهم يسكوه ، وإن باعوا عندهم بضائع يسكوا حتى يحضر صاحبها وتسلم إليه . وكذلك يعتمد مولانا السلطان في أمر الحرامية هذا الاعتماد ، وعلى أن تكون كنيسة الناصرة وأربع بيوت من أقرب البيوت لزيارة الحجاج وغيرهم من دين الصليب كبيرهم وصغيرهم على اختلاف أجناسهم وأنفارهم من عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة ، ويصلي في الكنيسة الأقساء والرهبان وتكون البيوت لزوار كنيسة الناصرة خاصة ويكونون آمنين مطمئنين في توجهم وحضورهم إلى حدود البلاد الداخلة في هذه الهدنة ، وإذا نقتب الحجارة التي بالكنيسة ترمى برأ ولا يحط منها حجر على حجر لأجل بناء ،

ولا يتعرض إلى الأقساء والرهبان في ذلك على وجه الهبة بغير حق . . . (١)

كتاب تشريف الأنام والعصور لابن عبد الظاهر ٣٤ - ٤٢

١٦٩ - نص اليمين الذي أقسم بموجبه حكام عكا الفرنج من أجل احترام الهدنة التي عقدت بينهم وبين السلطان الملك المنصور قلاوون .

والله والله والله وبالله وبالله وبالله وبالله وبالله ، وحق المسيح وحق المسيح وحق المسيح ، وحق الصليب وحق الصليب وحق الصليب ، وحق الأقانيم الثلاثة في جوهر واحد المكثي بها عن الأب والابن والروح القدس إله واحد ، وحق اللاهوت المكرم الحال في الناسوت المعظم ، وحق الإنجيل المطهر وما فيه ، وحق الأناجيل الأربعة التي نقلها متى ومرقس ولوقا ويحنا ، وحق صلواتهم وقديساتهم ، وحق التلاميذ الاثني عشر والاثنتين وسبعين والثلاثمائة وثمانية عشر المجتمعين بالبيعة ، وحق الصوت الذي نزل من السماء على نهر الأردن فزجره ، وحق الله منزل الإنجيل على عيسى بن مريم روح الله وكلمته ، وحق الست مارية أم النور مارت مريم ويوحنا المعموديين ومرثان ومرثاني وحق الصوم الكبير ، وحق ديني ومعبودي وما أعتقده من النصرانية وما تلقيته من الآباء والأقساء المعمودية ! أني من وقتي هذا وساعتي هذه قد أخلصت نيتي وأصفيت طوبتي في الوفاء لاسلطان المنصور ولولده الملك الصالح ولأولادهما بجميع

(١) ورد نص هذه الهدنة بشكل متقارب كل القرب مع النص اعلاه ، في كل من كتاب « السلوك » للمقرئبي ج ١ ، ق ٣ / ١٨٥ - ١٩٧ و « صبح الأعشى » للقلقشندي ج ١٤ ٥١ - ٦٣ و « تاريخ ابن الفرات » ج ٧ / ٢٦٢ - ٢٧٠ .

ما تضمنته هذه الهدنة المباركة التي انعقد الصلح عليها على ملكة عكا وصيدا وعثليت وبلادها الداخلة في هذه الهدنة المسماة فيها التي مدتها عشرة سنين كوامل وعشرة أشهر وعشر أيام وعشرة ساعات ، وأولها يوم الخميس ثالث حزيران سنة ألف وخمسمائة وأربعة وتسعين للإسكندر بن فيليبس اليوناني ، وأعمل بجميع شروطها شرطاً شرطاً ، وألتزم الوفاء بكل فصل في هذه الهدنة المذكورة إلى انقضاء مدتها . وإني والله والله وحق المسيح وحق الصليب وحق ديني لا أتعرض إلى بلاد السلطان وولده ولا إلى من حوته وتحويه من ساير الناس أجمعين ، ولا إلى من يتردد منها إلى البلاد الداخلة في هذه الهدنة بأذية ولا ضرر في نفس ولا في مال ، وإني والله وحق ديني ومعبودي أسلك في المعاهدة والمهادنة والمصافاة والمصادقة وحفظ الرعية الإسلامية والمترددين من البلاد السلطانية والصادرين منها وإليها طريق المعاهدين المتصادقين الملتزمين كسف الأذية والعدوان عن النفوس والأموال ، وألتزم الوفاء بجميع شروط هذه الهدنة إلى انقضائها مادام الملك المنصور وافيًا باليمين التي حلف بها على الهدنة ، ولا انقض هذه اليمين ولا شيئاً منها ولا استثنى فيها ولا في شيء منها طلباً لنقضها ، ومتى خالفها أو نقضتها فأكون برياً من ديني واعتقادي ومعبودي وأكون مخالفاً للكنيسة ويكون عليّ الحج إلى القدس الشريف ثلثين حجة حافياً حاسراً ، ويكون عليّ فك ألف أسير مسلمين من أسر الفرنج وإطلاقهم ، وأكون برياً من اللاهوت الحال في الناسوت ، واليمين يميني وأنا فلان والنية فيها بأسرها نية السلطان الملك المنصور ونية ولده الملك الصالح ونية مستخلص لها بها على الإنجيل المكرم لانية لي غيرها والله والمسيح على ما نقول وكيل .

١٦٨ - نص اليمين التي حلف بها الملك المنصور قلاوون على
الوفاء بالهدنة المعقودة بينه وبين حكام مملكة عكا الفرنج

أقول وأنا ... (١) والله والله والله ، وبالله وبالله وبالله ، وتالله وتالله
وتالله ، والله العظيم الطالب الغالب الضار النافع ، المدرك المهلك ، عالم ما
بدا وما خفا ، عالم السر والعلانية ، الرحمن الرحيم ، وحق القرآن ومن
أنزله ومن أنزل عليه وهو محمد بن عبد الله ﷺ ، وما يقال فيه من
سورة سورة وآية آية ، وحق شهر رمضان أنني أفي بحفظ هذه الهدنة
المباركة التي استقرت بيني وبين مملكة عكا والمقدمين بها على عكا وعثليت
وصيدا وبلادها التي تضمنتها هذه الهدنة التي مدتها عشرة سنين وعشرة
أشهر وعشرة أيام وعشرة ساعات أولها يوم الخميس خامس شهر ربيع
الأول سنة اثنتين وثمانين وستائة للهجرة من أولها إلى آخرها ، وأحفظها
وألتزم بجميع شروطها المشروحة فيها ، وأجري الأمور على أحكامها إلى انقضاء
مدتها ، ولا أأول فيها ولا في شيء منها ، ولا استفتي فيها طلباً لنقضها
ما دام الحاكمون بمدينة عكا وصيدا وعثليت وهم : كافل المملكة لكما
ومقدم بيت الديوية ومقدم بيت الاستبار ونائب مقدم بيت استبار الأمن
الآن ومن يتولى بعدهم في كفالة مملكة أو تقدم بيت بهذه المملكة المذكورة
وافين باليمين التي يملفون بها لي ولولدي الملك الصالح ولأولادي على
استقرار هذه الهدنة المحررة الآن عاملين بها وبشروطها المشروحة بها إلى
انقضاء مدتها ملتزمين بأحكامها . وإن نكثت في هذه اليمين فيلزمني
الحج إلى بيت الله الحرام بمكة المشرفة حافياً حاصراً ثلاثين حجة ،
ويلزمني صوم الدهر كله إلا الأيام المنهي عنها - ويذكر بقية شروط اليمين -

(١) بياض في الأصل .

والله على ما نقول وكيل^(١) .

تاريخ ابن الفرات ج ٧ ٢٧٠ - ٢٧٢

١٧٠ - نص الهدنة التي عقدت بين الملك المنصور قلاوون وملكة صور سنة ٦٨٤ هـ من إنشاء ابن عبد الظاهر .

بسم الله الرحمن الرحيم : استقرت الهدنة المباركة بين مولانا السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين ، قسيم أمير المؤمنين وولده وولي عهده المولى السلطان الملك الصالح علاء الدنيا والدين عليّ خليل أمير المؤمنين ، وولده الملك الأشرف صلاح الدين خليل - خلد الله سلطانها وأدام في دولتهم - وبين الملكة الجليلة دام مراريت بنت سير هري بن الأبرنس يميند^(٢) .

مالكة صور حال استقرار هذه الهدنة وثائقها بملكة صور وهو القومص الجليل سير ريمون يسكند^(٣) ، لمدة عشر سنين كوامل متواليات متتابعات أولها يوم الخميس الرابع عشر من جمادى الأول سنة أربع وثمانين وستائة للهجرة النبوية - صلوات الله على صاحبها وسلامه - الموافق الثامن عشر تموز سنة ألف وخمسمائة وستة وتسعين للإسكندرية بن قيليبيس اليوناني ، وآخرها الرابع عشر من جمادى الأول من سنة أربع وتسعين وستائة الموافق للثامن عشر من تموز سنة ألف وستائة وخمسة للاسكندر ، يتبع بعضها بعضاً على حكم ما استقر عليه الحال

(١) اررد كل من القلقشندي في «صبح الأهرى» ج ١٣ - ٣١٢ وابن عبد الظاهر في «تاريخ الأمان والمصور» ٢١٣-٢١٥ نصاً مشابهاً للنص اهلاه .

(٢) هي: dame Marguerite fille de Air Henri, file du Princ Boemond

(٣) Le Comte illustre Air Raimond - Jaskend

إلى آخر أيام الملك الظاهر - رحمه الله - متتاليات الساعات والأيام والشهور والسنين إلى آخرها على جميع البلاد الإسلامية الداخلة في ممالك بلاد مولانا السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحى قسم أمير المؤمنين ، وبلاده وقلاعه ومدنه وحصونه وما اشتملت عليه مملكة الديار المصرية وما فيها من الثغور والسواحل والقلاع والمدن ، والمملكة الشامية وما اشتملت عليه من الثغور والقلاع والحصون والمدن، والثغور الساحلية وما اشتملت عليه من الحصون ومن برور ومن موانى ومن بلاد .

والبلاد البعلبكية والحمصية والحوية والفتوحات الشريفة بحصن الأكراد وحصن عكار وما يضاف إليها ودخل في جملتها من ثغور وبلاد معاهده وحصون وبرور وسواحل . والمملكة الحلبية والفتوحات الأنطاكية ، وما هو مجاور لصور من المملكة الصفدية والشقيفية وغيرها من القلاع والحصون والبلاد ، على كل ما هو داخل في مملكة مولانا السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين من ممالك وحصون وقلاع وثغور ومدن وقرى وسواحل وموانى وبرور قريها وبعيدها ، سهلها وجبلها ، عامرها ودائها ، غورها ونجدها ، شرقها وغربها ، يمنها وحجازها ، شاميها ومصريها ، وما تشتمل عليه من قرى ومزارع وأنهار وطواحين وأبراج وبساتين ، وعلى من حوته هذه الممالك وتقويه من عساكر وجنود ورعايا وعرب وتركمان وأكراد وفلاحين وسائر أجناس الناس أجمعين على اختلاف أجناسهم وتغاير أشكالهم وأديانهم ، وعلى أموالهم ومواشيهم على تغاير أصوافها وأوبارها ، والأموال على تغاير أجناسها . تكون هذه الممالك المذكورة وما اشتملت عليه ، ومن فيها من سائر الناس أجمعين الساكنين بها والقاطنين والمترددن إليها ، ومنها وفيها من التجار

والسفار آمنين مطمئنين على أنفسهم وأموالهم ومواشيهم ، في حالتي صدورهم وورودهم وسفرهم وإقامتهم ، وما لمعاهديه من البلاد والجهات ، وما سيفتحة الله على يد مولانا السلطان الملك المنصور ، وعلى يد أولاده ويد عساكرهم وجنودهم وجيوشهم من الحصون والبلاد والقلاع يجري عليها وعلى من فيها وما فيها حكم هذه الهدنة المباركة إلى آخر مدتها ، وعلى بلاد الملكة دام مراريت بنت سرهري بن الأبرنس بيميند المعينة لها خاصاً ومناصفة في هذه الهدنة : وهي مدينة صور ومادارات عليه أسوارها وضواحيها خاصة ، وما فيها من الأراضي التي تزرع فيها البقول والأقصاب والمعاصر التي لادمنة لها وهي : المعوقة ورشمون - أراضي الزيتون - من الضواحي التي لادمنة لها ، وبستان العوجا الذي لادمنة له ، والحكورات والطواحين التي حول مدينة صور تكون هذه الضواحي المذكورة بما فيها من أراضي الأقصاب ومزارع البقول والمعاصر التي من جملة الضواحي خاصة لصور . وذلك بشرط أن تكون رشمون والمعوقة وبستان العوجا أراضي من ضواحي صور بغير دمن ولا قرى ، وعلى أن يكون لمولانا السلطان الملك المنصور ولأولاده السلطان الملك الصالح والملك الأشرف - نصرهم الله - خاصاً لهم الخمس الضياع من ضياع صور من أجودها وأكثرها متحصلاً من عين وغلة ، التي استقرت في الخاص الشريف السلطاني من الأيام الظاهرية وهي : قانا ومزرعتها ، القروية ، اصريفيا ومزرعتها ، حانا يخن وما بكمالها (١) ، المجادل بكمالها ، كلدوبين بكمالها على ما استقر عليه الحال إلى آخر الأيام الظاهرية .

تكون هذه الخمس قرى خاصاً جميعها بأراضيها وحدودها وحقوقها وكل

(١) كذا بالأصل .

ما هو داخل فيها ومنسوب إليها ، لمولانا السلطان الملك المنصور ولأولاده من غير مشاركة لهم في ذلك . وتكون للملكة مراريت مالكة صور من ضياع صور عشر ضياع من قرايا مرج صور خاصاً لها على ما هو مستقر في الهدنة الظاهرية ، إن هذه العشر ضياع تكون خاصاً للملكة صور جسماً عينت بأسمائها فيها وهي : عين أبي عبد الله ، القاسمية ، سدس ، قحلب ، المرفوق ، الجارودية ، الجمادية ، مرفلة ، رأس العين ، برج الاسبتار . تكون هذه العشر ضياع المذكورة بحقوقها وحدودها وأراضيها وما هو داخل فيها خاصاً للملكة صور دام مراريت مالكة صور ، وعلى أن تكون بقية بلاد صور جميعها بما فيها من مزارع وعدتها بما فيها من المزارع ثمان وسبعون ضيعة ومزرعة وهي : الطالبة ، درتية الدهرية ، الفنونية ، العتبة ، وادي الحجاج ، العرتية ، البحتية ، المالكية ، دير عمران ، التعتبية ، الكببية ، بابولية ، الحمسة ، دير فالون ، غرايفال ، الزيادات ، وحيوية ، ربعين ، بني دفع ، مارنين ، عيا ، صديقي ، رسيكبابية ، رفلنة ، عثليت ومزرعتها ، الملاحات ، السحنونية ، الفراخية ، طرقات ، الدير ، المعلقة ، الخيرا ، روتية ، بابوح ، فقعة ، البارورية ، كفر دهثال ، حوبا ومزرعتها ، سرفية ، مجدل ، بيت روح ، طرسا ، فسون ، التفاحية ، أمد ، ركننا ، مارون ، طرسنحات ، كفرناي ، بني باقنة ، معولة ، طفلسة ، أشحور ، الزمر ، الفهرون ، دورديغا ، أبروخية ، هرين ، الصوافي ، حلوسية معروب ، بعليث ، درفانون ، طرديا ، بدياس ، النعمانية ، بدوث ، المحرانية ، طورا ، السرفيات ، بردسيل الجديدة ، العباسة ، الحنيثة ، السفلسة ، اشحور ، الفاه ، شادسة ، المعجلة ، المصرية ، وذلك خلا المعوقة ورشمون وبستان العوجا التي ذكرناها ليست بقراه . وأن

المعوقه اسم المعصرة وبستان العوجا ، غير قرية ، ورشمون غير قرية ، وإن كانت قرى كانت من جملة قرى المناصفت ، وإن لم تكن قرى كانت من جملة ضواحي المختصة بها .

وحدود هذه البلاد جميعها من جهة القبلة مرفلة وقرية دير عمران وبرج وادي الحجاج ، والعربية وريف وبارين ، ومن الشرق عنافة ، سكاسة ومجدل شرقية ، والسحنونية الداخل ذلك المناصفت وقانا ومحروما والمجادل وكفردين الداخل في الخاص الشريف ، ومن الشمال اصريفيا الداخلة في الخاص الشريف ، ونهر القاسمية ، ومن الغرب البحر ، تكون هذه القرايا المذكورة في هذه الهدنة جميعها بزارعها وحقوقها وأراضيها وطواحينها وأنهارها وبساقينها ودمنها ومتحصلات مغللتها من وجوه العين والغلة مناصفة بين مولانا السلطان الملك المنصور وبين الملكة دام مراريت مالكة صور يقسم جميع المتحصل بها من وجوه العين والغلة وحقوق وزكاوات وعداد وحكورات وأجر وضمائمات وخراجات وجبايات ومواريث وغير ذلك من سائر الحقوق قليلها وكثيرها نصفين بين الجهتين بالسوية .

ويستقر الحال في جميع الأشياء ، كما كانت إلى آخر الأيام الظاهرية وعلى أن يكون المباشر لهذه الضياع والمناصفت المذكورة والمستخرج لأموالها وغلاها نواب مولانا السلطان الملك المنصور - عز نصره - باتفاق مع نواب الملكة دام مراريت مالكة صور بحيث لا تنفرد جهة عن جهة باستخراج درهم ولا غيره ، وعلى أن يستمر الشخص بأرض الزهرية في المكان الذي جرت به عادته في الأيام الظاهرية ، وعلى أن تكون هذه البلاد المختصة باللكة صور آمنة مطمئنة هي ومن فيها من عسكرها وخيالها ورجالها ورعياتها وتجارها على أنفسهم وأموالهم وأولادهم ومواسيهم في

حالي صدورهم وورودهم وسفرهم وإقامتهم إلى آخر هذه الهدنة : وعلى أن التجار والسفار والمترددين من الجهتين يترددون ويبيعون ويشتررون ويوردون ويصدرون آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم ، وعلى أنهم لا يحدث عليهم شيء غير ما جرت العوائد به من الجهتين ، وأن المنوعات مستقر حالها في البيع على حالتها ، وعلى أن المراكب من الجهتين المترددة في البحر تكون كل فرقة من الفرقتين آمنة من الفرقة الأخرى مطمئنة في البحور والمراسي والدخول والخروج ، وتلتزم كل طائفة من الجهتين كف الأذية عن الجهة الأخرى . وعلى أنه متى انكسر مركب من الجهتين ، إن كان لمسلم تسلمه له إن كان موجوداً ، وإن كان مولانا السلطان إن كان مفقوداً . وإن كان لنصراني من بلاد مولانا السلطان - عز نصره - فالحكم فيه كحكم المسلم ، وإن كان من أهل صور ومن رعية الملكة مالكة صور يسلم له المال إن كان موجوداً ، ولديوانها إن كان مفقوداً . وإن مات أحد من الجهتين في الجهة الأخرى ، ولم يكن له وارث يجري عليه هذا الحكم من الجهتين ولا يخفى ماله . وعلى أنه متى قتل أحد من الجهتين ووجد القاتل ، فإن كان القاتل مسلماً يحكم فيه نواب مولانا السلطان الملك المنصور - نصره الله - بما تقتضيه سياسة السلطنة الشريفة المطهرة . وإن كان نصرانياً من أهل صور تحكم فيه الملكة دام مراريت مالكة صور ، كل جهة بحضور نائب من الجهة الأخرى يباشر الحكم فيه بما تقتضيه أحكام الجهتين . وذلك يكون الحكم في كل من تمدي وأسرف واختال ، يتولى ذلك نواب مولانا السلطان تأديب المسلم . وتأديب النصراني يتولاه نواب الملكة مالكة صور ، وإن خفي أمر القتل كانت دية الفارس من الجهتين ألفاً ومائة درم سورية ، والتركيلي مائتي درم ، والفلاح مائة دينار ، والتاجر

تكون دينته على قدر جفسه وأصله ومقدرته ، يؤخذ ذلك من أهل القرايا التي يقتل فيها ذلك الشخص جنابة لهم وتأديباً جملة واحدة ؛ يعتمد ذلك من الجهتين . وإن كان المقتول من المناصفات كان متحصلاً الجنابة مناصفة . وعلى أنه متى أخذت أخبذة ترد بعينها إن كانت موجودة أو قيمتها إن كانت مفقودة . وإن خفي أمر القتل أو أمر الأخبذة كانت المهلة في الكشف عن أمره أربعين يوماً ، وإن لم يظهر له خبر مُحلف والي تلك الجهة وثلاثة أنفار ممن تختارهم الجهة الأخرى ، وإن امتنعوا عن اليمين لزمّت الجنابة المذكورة وقيمة الأخبذة . وعلى أنه متى هرب أحد من الجانبين يرد بما معه . ومتى هرب بملوك من أي جنس كان يرد بجميع ماله ذكرراً كان أو أنثى ، عبداً كان أو حراً . ويعتمد ذلك من الجانبين وعلى أن الملكة دام مراريت مالكة صور لا تستجد بناء قلعة ولا تجديد سور ولا حفر خندق ولا ما يتحصن به مما يمنع أو يدفع . وعلى أن مولانا السلطان لا يفسح لأحد من عساكره ولا من جنوده ولا من أهل بلاده من التطرق لبلاد صور المعينة في هذه الهدنة بأذية ولا ضرر ولا سرقة ولا عدوان ولا غدر لافي بر ولا بحر ، ولا يتعرض أحد من عساكر مولانا السلطان وجنوده ومعايديه للملكة دام مراريت مالكة صور لافي نفسها ولا في خيالها وأصعابها ، خلا الإسماعيلية الذين تحت حكم مولانا السلطان .

ولولانا السلطان أن يجهز من شاء منهم إلى مالكة صور بالسوء والضرر متى أراد . وعلى أن الملكة دام مراريت مالكة صور تلتزم حفظ بلاد مولانا السلطان من جهتها من متجرب أو مفسد أو رجل غريبة وسائر الإفرنجية يتطرق من بلادها إلى بلاد مولانا السلطان بأذية أو إغارة أو فساد أو عدوان .

وعلى أن الملكة دام مراريت مالكة صور لاتوافق أحداً من سائر
الفرنجية على أمر فيه أذية لبلاء مولانا السلطان أو ضرر على ممالكه
أو رعاياه وسائر من فيها وما فيها ، ولا تساعد أحداً على ذلك برمز
ولا كتابة ولا إشارة ولا رسالة إلى حين انقضاء الهدنة .

ولها من مولانا السلطان مثل ذلك ، وعلى أنه متى انقضت الهدنة أو
وقع - والعياذ بالله - فسنع من أحد الجهتين كانت المهلة للتجار والسفار
والمترددن أربعين يوماً حتى يمود كل أحد بماله إلى مأمنه ووطنه آمنين
مطمئنين بخيرين من الجهتين .

تستقر هذه الهدنة بشروطها المحررة وقواعدها المقررة ، لا تنقض أحكامها
ولا ينفك نظامها بموت أحد من الجهتين ولا بعزل والي ولا تولية غيره ،
ولا بوجع غريبة ولا بيد غالبية ، بل تستمر مدتها وتوفى هبتها وهي : عشر
سنين كوامل متتاليات أولها الرابع عشر من جمادى الأول سنة أربع
وثمانين وستائة للهجرة النبوية الموافق لليوم الثامن عشر من شهر تموز
من سنة ألف وخمسة ، وآخرها الرابع عشر من جمادى الأول من سنة
أربع وتسعين وستائة الموافق الثامن عشر من تموز من ألف وستائة وخمسة
للإسكندر بن فيليبس اليوناني .

يلتزم كل من الجهتين حفظها إلى آخرها . ومن تولى بعد الآخر
حفظها إلى آخرها . والخط الشريف أعلاه حجة بمقتضاه إن شاء
الله تعالى .

تشریف الأنام والمصور لابن عبد الظاهر ١٠٣ - ١١٠

١٧١ - رسالة الملك المنصور قلاوون إلى ابنه الملك الأشرف يخبره
بفتح حصن المرقب سنة ٦٨٤ هـ وهي من إنشاء تاج الدين أحمد
ابن الأثير .

أعز الله نصرة الجناح العالي الملكي الاشرفي الصلاحي ، ولازالت
جيوشه تفتتح من الممالك حصونها وتبتذل مضمونها ، وتستثمر من العادة
غصونها ، ويطوي لهم الأرض فلا يبعد عليهم مرمى ، يعملون العزائم المهمة
ويصونها ، وتحديث السنة العالم بنعم الله التي يرونها في أيامه ويرونها ،
ويقصون أجنحتها بالشكر ويقصونها ، تهدي له كل ساعة خبر عن
جنوده وما ملكت ، وخيوله وما سلكت ، وسيفه وما قتلت ، ومهابتها
وما أخذت ، ومواهبها وما تركت . هذه البشرية تقص عليه من غزوتنا
أحسن القصص ، وتقتل صورة الفتح التي انتهزنا فرصته ، وقلما تنتهز الفرص ،
وتبدي لعلمه الكريم أن الهمم بها تنال الممالك ، وترتقى المسالك ، وتجتنى
ثمرات النصر ، وتطفأ جمرات الغدر ، وقلما ظفر بالمراد وأودع ، وكل
أنف لا يأنف . . .^(١) فهو أحق الأعضاء أن تجدد . ولم نزل نمثل في
أفكارنا الصورة التي أقدم عليها أهل حصن المرقب في مبدأ الأمر عند
اضطراب النيات وضعف البنيات ، وغرور الآمال الكاذبة ، واشتتالات
الخيالات الجاذبة ، حتى نالوا من عسكرينا بحسن الأكراد ما نالوه ، ونجّلوا
أن عزمنا قد صرفوه عن قصد ، أو أمالوه بأخذ أمرهم في الظاهر
بالرخصة دون العزيمة ، ويعمل على ما لو تمثل لهم صورة لجروا منه
ذيل الهزيمة ، ويفضون من نواميس المحاور ، ويفضي ويمضون بما يسدو
منهم ، وتزل المحاور وتمضي ، ويستمر ما يسدده إلى نحورهم من سهم ،

(١) بياض بالأصل .

ويريهم أنا ندفع في صدر الحقيقة بالوهم ، ونعرض عن مناقشتهم في الحساب ، ونمسك عنهم . وترى الجبال تحسبها ، وهي تمر مر السحاب . ومن لم يؤاخذ المسيء بفعله ، ويعرف مقدار حمله ، استدأ طمعه واستقام طلقه ، وحركته دواعي الشره للشره ، والخيل السلامة في كل مرة . فلم يزل يتربص لهم ريب المتنون ، وينزل ما كان منهم في جنب ما يكون ، ويرتقب فيهم الوقت المنتظر ، ويدب لهم الضراء وتمشي لهم المحر ، إلى أن آن مكان الفرصة ، جمعنا لهم بين الشرقة والغصة ، فأبعدنا إليهم المذنى ، واعتدنا مسعانا في طاعة الله مما إذا كانت مساعي الملوك عزماً ، ووصلنا المسير بالمرى ، وطرقناهم كما يطرق الطيف الكرى ، وأوطأنا بهم حوافر الخيل ، وجشأهم بجيء السيل ، وظللنا عليهم ظلال الغم ، وغشيم منا ما غشي فرعون وجنوده من اليم ، مع كون مكانهم قد جمع له منعة البر والبحر ، وحل منهم بين السحر والنحر . تحامت قصده الملوك ، وحمته الإعادة ، فلم تبق الأماني إليه طريق مسلوكة ؛ ولم يظفر به ملك من الملوك في الإسلام ، ولا طرقته خيلهم في اليقظة ، ولا خيالهم في المنام ، يصد عنه الرياح الهوج غفافة ويرجع عنه الطرف حسيراً لبعده المسافة بأسرع من أن فاجأناه وحلنا بعرضته ، وهاجناه وأحاطت به رجال الحرب ، وشافته به بخطاب كالخطب ، وعسكرنا بحمد الله تعالى مثل البحر إذا طما ، والقيت إذا هما ، والطود إذا سما ، والليث إذا حمى ، قد ملأ الفجاج واستعذب الأجاج ، وقاسمهم الرجاج ، فأعطاهم الأسنة وأبقى له الزجاج . يتعرض أبطاله المنايا ولو كانت عرضاً ، ويقول كل منهم : وعجلت إليك رب لترضى . فلم يزل القتال ينوبهم ، وسهام المتنون تصيبهم وسعاها يصوبهم والسيوف تقعد في الطلى ، والرماح توكف في الكلى ، والمجانيق تسدلك

سورتهم ، وتسلك فورتهم بنجومها ، وتصميمهم برجومها ، وتقذفهم من كل جانب دحوراً ، وتعيد كلا منهم مذموماً مدحوراً ، وتشير إليهم أصابعها بالتسليم لا بالتسلم ، وبينانهم فما تذر من شيء أنت عليه إلا جعلته كالرميم ، إلى أن فتحناها ، والله الحمد عنوة . وحلنا مكايدهم فيها عقدة عقدة ، ونقضنا عروة عروة . وسطرنا هذه البشرية وأعلام النصر قد خفت بنودها ، وذلت لها عروج الكفر وكنودها . والسيف من دماهم يقطر ، والصليب خزيان ينظر ، والأذان مكان الناقوس والقراء موضع القسوس ، والكنيسة قد عادت محراباً ، والجنة قد فتحت للمجاهدين فكانت أبواباً . وكنا نرد أن الولد معنا في هذه المشاهد ، وأن ينظرها بعين المشاهد . ونرجو أن يكون بمن يستكين المرقد ، وإن لم يحضر هذه الفزوة فيتأهب للأخرى ، فكان قدفاً لهم تجعل ثمار النصر دانية القطوف . والسعيد من لا يستظل إلا بسيفه ، فإن الجنة تحت ظلال السيوف .

١٧٢ - رسالة السلطان الملك المنصور قلاوون إلى الأمير علم الدين الشجاعى يخبره بفتح حصن المرقب من إنشاء تاج الدين أحمد بن الأثير :

إذ أمر الله بهائي المجلس العلمي ، وأحل البشائر بساحته ، وسره باستيلائنا على كل ثغر واستباحته ، وأسمعنا من أنبائنا الجميلة ما يعجز عن التعبير عنه لسان القلم على فصاحته ، ولا يزال مهتئاً بآيامنا التي تؤرخ بالفتوح وتنجد في مواقف الحرب بالملائكة والروح ، وتختص بالمدح دون كل مدوح ، وترى ما يطوى يعبوشنا من الأرض ولا يبعد عليها مكان به طروح . قد علم المجلس حركتنا إلى الشام ، ولنا أنشأناها

عجلاً ، وجئنا بها على البديهة . فلو كانت قصيدة لأنشدناها ارتجالاً .
وكانت مبادئها توجد بأطراف الأامل ، ومناديها يعمود بحينة الأمل ؛
ومها ممتلقة بالهمم القاصرة ، وعزائنا فيها كلها توقدت جراتها ،
صادقت نيات ، إن لم تكن باردة فهي قارة . وإذا مر ذكرها بمن
له غرض أو في قلبه مرض ظن الظنون ، وخيل إليه أن أمرها لا يتم
ومرعتها لا تكون . ونحن نوسع للجهال حلماً ، ونزداد بعواقب التدبير
علماً . وكان الباحث عليها أمور مهمة ، ومرأى تستفرغ قوى الأفكار
المستجمة . وكل وقت نصعد النظر ونصوبه ، ونصفح وجه الرأي
ونقلبه ، ونرتاد جهات القصة التي كان منها منشأ الفساد ، وبها لشياطين
النفاق ففاق ، وكل سوق كاسد . فلما أخذت الأناة مأخذها ، ونفذت
الآراء منها منافذها ، وقضيت زبدة الحلب ، وأسفر وجه الطلب ، ولم
يبقى إلا أن تزم الركائب وتسري الكنائب وتشرع الأسنة وتبدو
ضماير النفوس المستكينة ، أخطينا النية لله عز وجل في نصرة الإسلام ،
وتقاضينا ديونه على الأمام ، وجعلنا منهم مقدماً على ما عداه ، وصمنا
على جهاد من نازعه رداء ملكه وعاداه ، تركنا حظ النفس بعزل .
وكان في عزمنا أن نرتاد منزلاً فخرجنا عن ذلك المنزل وقلنا : يا خيل
الله اركبي ، ويا ملائكة النصر اصحي ، ويا أقلام البشرى اكتبي .
وصلنا إلى الشام في جنود تقبل مثل قطع الليل ، وتندفع اندفاع
السيل ، وكلما مررتا بمملكة سالت يجمعنا أوديتها ، وغصت بمساكرنا
أنديتها ، وانضم إلينا جنودها ، وخفقت علينا بنودها . ولم نزل
نطوي المراحل ، ونتجاوز الخصب والماحل ، إلى أن نزلنا بميوث
القصب من عمل حصص ، فوافاهما البشير بما كان من أمر بلاطس التي
تقدمت بها البشرية ، وفنيت في عضد من كان بها قد استطار شرر

طعمه واستثرى . ولم نزل نغذ السير ونود لو استعرقا أجنحة الطير ،
إلى أن وافينا المرقب ، وهي المقصد ومناخ ركائب العزم الذي هو لها
مرصد ، فكانت محط رحالنا وإليها مطارح آمالنا . وأصحابها الذين
بدأوا بالسنان وقمعقعوا لنا بالشنان ، وامتدت لهم الأيدي والألسنة ،
وجعلوا السيئة مكان الحسنة ، وطعموا بالبلاد وارتجاعها ، وارتادوا
موارد الحرب على بعد أشجاعها ، واستلأوا من عسكر حصن الأكراد
جانبا ظنوا به القلب ، وفعلوا أمرا عادوا منه بسوء منقلب ،
وصاروا يتكلمون من رؤوس ملأى من الجهل ، يأخذون في الخرف
إذا أخذتهم إلى السهل . ونحن نعمل على الأمر الذي يلف العياء ،
ويعيرهم أذنا سميعة لا أذنا صماء ، ونرتاد منهم أمكنة الفرص ، ونوحى
لهم جمالة القنص . فلما رجعتهم الظنون وتخفضت لهم المنون ، وثبنا
لهم وثبة الليث المغضب ، وأوردناهم بأسيا فنا [ماء] لا ينزح قلبه
ولا ينضب . وما وردنا حتى قامت جيوش الجو على ساق ، وجاءت
بعوث القيائم من الآفاق ، ورشقت سهام السحائب ، وتغلغل ربح
العبا والحبائب ، ورجفت الرعود يحنودها ، وجردت البروق بيضها
من غمودها ، والقطر يرسل الحجارة إلا أنها من برد البحر إذا مرت
به الريح صار كأنه درع موضوفة الزرد ، فنزلناها ونازلناها ، وأمطنا
سحب المهابة وأزلناها ، واحدقنا بها إحداق السوار وأحطنا بها كما
يحيط باليد السوار . وكانوا يفترون بمنهم ويمتزون بما يحير من سيل
قلعتهم ، ويعتقدون أن المعتصم بكانهم وافق بأن يمس السماء بكفه ،
ويرى النجم دونه إذا لمح بطرفه . فلم نزل نعادهم الفتك ونراوحهم ،
ونناشهم الحرب ونصايحهم ، ونرسل إليهم رسل الناي ، ونوقر سهامهم
إلا أنها من الحنايا ، ونرميهم بعذاب واصب ، ونكلهم إلى هم ناصب .

والمنجنقات تفوق إليهم سهامها قسيها ، وتخيل لهم أنها تسمى إليهم
 جبالها وعصيتها . وهي الحصون من ألد الخصوص ، وإذا أمت معصماً
 لكم أنه ليس بإمام معصوم ، ومثق افترى خلق في آلات الفتوح لم
 يكن فيها أحد من المعتزين . وإذا نزلت بساحة قوم فساء صباح
 المنذرين . تدعى إلى الوغى فتكلم ، وما أقيمت صلاة حرب عند حصن
 إلا كان ذلك الحصن من يسجد لها ويسلم . إلى أن أقوت ربوعهم
 وصبت على مثل جمر النضا ضلوعهم ، وأخذناهم أخذاً وبيلاً ، وأوردناهم
 مهاوي المهالك ، وساءت سبيلاً ، وخسرت صفقة غدوم ورواحهم ،
 وتحللت عقد أجسامهم من أرواحهم ، ووجدوا من أنفسهم حداً كليلاً
 وجدأً عثوراً . وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً ،
 وملكناها بالأمان ، وهو في المعنى بالسيف ، وهجمناها هجوم الطيف .
 وكانت هي التي قد بقيت للأستبار رحلة شتائم وصيف فلم يبق لهم
 رحلة شتاء ولا صيف . وطرنا هذه البشرى والحرب قد وضعت
 أوزارها ، والنفوس قد قضت منهم أوطارها ، والبلاء قد دم بلادهم
 وأقطارها . والعلم يبنى على العلم ، والسيف يلي على القلم ، والثغر قد
 جدد على أيدينا إسلامه ، وأبدلنا به قطوبه ابتسامه والدمر لمن
 عادانا عادي ، ولن والانا والى . وسيوفنا قد أصبحت مفاتيح المعازل ،
 فإذا ملكناها عادت لها أقفالاً ، والبشائر مخترقة الأمصار ، والمساكر
 التي هجرت أوطانها ونصرة الله قد كتبت من المهاجرين والأنصار .

١٧٣ - رسالة الأمير حسام الدين لاجين نائب السلطنة بالشام إلى
 الملك الصالح علاء الدين علي ابن السلطان قلاوون يهنئه بفتح المرقب
 من إنشاء شهاب الدين محمود كاتب الدرج .

لا زالت آيات النصر تتلى على سمعه من صحف البشائر ، ونفائس
الظفر تجلى على سره في أسعد طالع وأمين طائر ، وفواتح الفتح تملى
لديه بما تزهى به الأسرة وتزهو بنوره المنابر . ومحكات التأييد قننى
إليه بما يجد مثل الدجى عليه سواد المحابر . وينهى أنه سطرها والنصر
قد لمت بوارقه ، ونصب بعد النصب على فرق العزق سراقه .
والظفر قد أسفر عن الفتح المبين صباحه ، والتأييد وقد طار به محلق
البشائر ، فحقق في الحافيتين جناحه ، والإسلام ، وقد وطىء هام
الكفر بقدمه ، والدين ، وقد عز بفتكات سيفه فأنف أن يكون الشرك
من خدمه والأفلاك ، وقد علم أنه لهذا الفتح افترقت كواكبها ،
والأملاك ، وقد نزلت لتشبه أخت النصر البدرية في صفوها ومواكبها
وحسن المرقب ، وقد ألفت عليه الملة الإسلامية أشعر سعدا ،
وأنجزت الأقدار التي دلتها للإسلام أن تتناول إليه يد الحوادث من
بعدها ، وقد أحاطت العلوم الثريفة أن هذا الحصن طالما شحت
الأحلام أن تخيل فتحه لمن سلف في المنام ، لما حدثت الملوك أنفسهم
بقصده إلا وتناهى الخجل ، ولا خطبته ببذل النفس والنفائس إلا
وكانت من روعة الحرمان على وجل . وحوله من الجبال كل شامخ يتهيب
عقاب الجوق قطع عقابه ، وتقف الرياح حسرى دون التوقل في هضابه ،
ومن الأولى به خنادق لا تعلم منها الشهور إلا بأنصافها ، ولا تعرف
فيها الآلهة إلا بأوصافها . وهو مع ذلك قد تقرط بالنجوم وتقرط
بالغيوم ، وسما فرعه إلى السماء ورسا أصله في النجوم . وتحال الشمس
إذا علت أنها تنتقل في أبراجه ، ويظن من سها إلى السها أنه ذبالة في
سراجها . فكم ذي جيوش قته أمات بعضه ، وذو سطوات أعمل
الحيل على رؤيته فلم يفز من نظره على البعيد بفرضه ، لا يملوه من الطير

سوى نصر الفلك ومرزومه ، ولا يرمق متبرجات أبراجه غير عين شمس
 والمقل التي تطرق من أنجمه . وقد نصبت عليه من المجانيق ما ساهمه
 أقتل من سهام الجفون ، وخطراته أسرع من لحظات العيون ، لا يخاطب
 إلا بواسطة رسله الصم الصلاب ، ولا يرى لسان سهمه إلا كما يرى
 خطوات البرق إذا تألق في علو السحاب ، فنزلت عليه الجيوش المنصورة
 نزول القضاء ، وصدمته بهمها التي تستعير فيها الصوارم سرعة المضاء
 وروعة الانتضاء ، فنظرت منه حصناً قد رد عليه الجو جيب غمامه ،
 واقترب بعزة كلما حذر عليه البرق فاضل لثامه ، فذلت صعايبه وسهلت
 عقابه وركزت الجنوبات في سفحه . وطالما رامت الطير أدناه فلم يقومها
 القوادم . وكتمت العواصف أن تتنم رباه فأصبحت بحلقة تبكي عليها
 الغمام ، فماد مصفحاً صفاحها مشرقاً بناً علا من أسنة رماحها ، وأرسلت
 إلى أرجائها ما أربى على الممائم ، وزاه في لفحة على النسائم . وكان
 بها مثل الجنوب فأصبحت ، ومن جثث القتلى عليها قائم . ونصبت
 أمامه المجانيق المنصورة فلم ترع حق حبسها وسطت على نظرائها فأصبح
 غدها في التعامل أبعد من أمسها ، واستنهضها العدى ، وأعلمتهم أنها
 لا تطيق الدفاع عن غيرها ، بعد أن عجزت عن نفسها ، وبسطت
 أكفها أمارة على الإذعان ، ورفعت أصابعها ، إما إجابة إلى بذل
 التشهد ، وإما إنابة إلى طلب الأمان ، فخوفوا من ظهور هذا الاستظهار
 وعلموا أن المجانيق المنصورة فحول لا تثبت لها الإثاث التي عريت من
 النفع بأيديهم ، واستعانوا عليهم مع القرى بطول الحذار . فعند ذلك
 غدت تكمن كمن الأساود ، ووثبت وثبات الأسود ، وتبارى بها
 الحصن السماء ، فكلما قذفت هذه بكواكبها الزهر ، قذف هذا بكواكبه
 السود . ولم يكسر لهم منجنيق إلا نصبوا عشراً مكانه ، ولا قطعت

لاحداها أصبح إلا ومد الآخر بنانه ، فتطلب بتجارب مثل الكهنة ،
وتتعايل تحايل الرماة . حتى فتحت وفسحت الرجال مجالاً ، ونالت
ونيل منها . وكذلك الحرب تكون سجلاً . هذا ، والنقوب قد دبت
في بواطنه ديب السقام ، وتمشت في مفاصله كما يتمشى في مفاصل
شاربها المدام . وحشيت أضالعه ناراً تشبه نار الهوى تحرق الأحشاء
ولا يبدو لها ضرام ، فقد أحل من حلة الوجل ، وتحققوا حلول
الأجل ، وأيقن الحصن بالانتظام في سلك بمالك الإسلام ، وكاد يرقصه
بن فيه فرط الجذل ، وزاد شوقه إلى التشريف بوسمها ، وما صباصة
مشتاق على أمل من اللقاء كمشتاق بلا أمل . لكنهم أظهروا الجلد ،
واحفظوا لإضرار نار الكمد . وكيف يخفى وقد انحسروا في أشراك
إشراكهم ، لعلمهم أنه لامناص من يد أهل التوحيد لأهل الأحد . وقدفت
إليهم الجيوش المنصورة فلأت الأفق ، وأحاطت بهم إحاطة الطوق بالعنق ،
ونهضت إليهم مستمدة من عزمات سلطانها ، مستعدة لانتزاع أرواح
العدى على يدها من أوطانها . فانقطعت بهم الظنون ، ودارت عليهم
رحى المنون ، وأمطرت عليهم المجانيق أحجارها ، فوق الحق وبطل
ما كانوا يعملون ، لمن بها من اللهب تلك الأحجار ^(١) ، فهدمت العماثر
والأعمار ، وأجرت في نواحيها أنهار الدماء ، فهلكوا بالسيف والسيول
والنار . ولما ركب مولانا السلطان - خلد الله ملكه وسلطانه - لأول
الزحف في جيوشه التي كاثرت البحر بأمواجه ، وسقت العدى على ريها
بالخوف كؤوساً أمر من أجاجه ، تزلزل الحصن لشدة ركضه ، وتضعضع
من خوف غضبه ، فلحقت سماؤه بأرضه ، وتحملت قواعد ما شيد من

(١) كذا في الأصل . والمعنى غير مفهوم تماماً وفيه شيء من الاضطراب .

أركانها ، فالتحلت وانشتت سماءه من الجزع ، فالقت الأرض ما فيها
وتخلت ، ومشت النار من تحتهم وهم لا يشعرون . ونفخ في الصور يل
في السور فإذا هم قيام ينظرون . وما كان إلا أن قابل مولانا
السلطان - خلد الله سلطانه - ماشمخ من أبراجه حق أهوى يلثم بين
يديه التراب ، وتأدب بأداب الطاعة حين نظرت إليه ، فخرراً راكمأ
وأنا ب . فهاجتهم للجيش المنصورة مهاجمة المحتوف ، وأمرعت المصاف
الانتضاء فلم يدر العدو أم أم الذي في أيديهم السيوف^(١) . فعل بهم
الذل ونزل ، وخافوا فتسكات تلك السيوف التي تسبق العدل . وثبت
من لم يحده وراهه بجالاً وهو يقول : مكره أخوك لا بطل فلجأوا إلى
الأمان وتمسك ذل كفرهم بعد الإيمان ، تشبثوا بساحل العفو حين ظنوا
أنهم أحيط بهم ، وجاءهم الموج من كل مكان ، فسألوا أن يكون عفو
مولانا السلطان من بعض الصنائع ، وتضرعوا في أن يجعل أرواحهم
لسيوفه من بعض الودائع ، فتصدق عليهم بنفوسهم كرمأ ، وظلوا على
معنى الخبر المأثور يرون الموت يقظة والحياة حلمأ . وأطلقتهم اليد التي
لا ينجيب لديها الأمل ، واعتقتهم اليمى التي فجاج الأرض قبضتها ، فمضى
يشاء تجمع عليهم الأنامل ، وخرجوا بنفوس قد تجردت حق من الأجسام
ومقل طلقت الكرى خوفاً من سيوفه التي تسلبها عليهم الأحلام ،
وسطرت والنصر قد تسنم أعلاها ، وشعار الإيمان قد جردها من وحشة
لباس الكفر وأعراها ، والأعلام المنصورة قد سلكت إلى ذلك الترقب
أعلى ترقى ، والسعادة قد بدلت بيعه مساجد ومحاريبه قبلة ، وكانت
شرفاً فأصبح يرفل في حلال الإيمان ، وعاد سهماً مسدداً في كنانة

(١) كذا بالأصل ، والمعنى غير مفهوم تماماً وفيه شيء من الاضطراب .

الإسلام ، وذراً منضداً في عقد المملكة فحسن به فتم النظام . لا يسلك البحر طاغٍ إلا ويقذفه الموج إليه ، لا يختلس أكبر باغٍ إلا وتوقعه ضيق مسالكه في يديه . فهو أحسن من إرم ، وأوضح من علم ، وأنكى في الإصابة على البعد من السهم الذي أصاب وراميه بذئ سلم . فيأخذ مولانا حظه من هذا النصر الذي هو إليه ، وإن بعد ، مضوب ، والفتح الذي إن عدت الفتوح على كثرتها فهو يجمعها محسوب .

١٧٤ - رسالة الأمير حسام الدين لاجين نائب السلطنة بالشام إلى الأمير علم الدين الشجاعى يهنئه بفتح حصن المرقب من إنشاء كمال الدين أحمد بن العطار :

نصر من الله وفتح قريب ، يسره الله بعزائم الجناب العالي ، لازالت عزائمه تسهل من النصر مراداً ، وممه تفسح من الفتح مراداً ، وسطوته تستأصل من الأعداء مراداً ، ومسامحه الكريمة تستعذب معاداً من حديث البشائر إذا كان معاداً معاداً . قد أحاط العلم الكريم بالحركة المباركة ، والنزول على المرقب الذي كم تحته من مرباً زاد علوه على علو الرصد . وماحل أحد بواديه ورام رؤية الهلال في مغربه ، والشمس في مشرقه إلا وصده عما قصد ، فماترى الهلال منه إلا بصداراً ، ولا تشاهد الشمس المنيرة إلا ظهراً . ونازلنا منه القلعة التي سامت السماء ، فزاحمت البروج منها البروج ، وحلت الجوزاء لسوارها الحكمة متى اتصلت بدنائها بمنازل الكواكب وما لها من خروج . وإذا رام القطر سقي أهلها عرج عن قصد النزول ، وأخذ في تعاريج العروج . ولربما حاول منازلها من تقدم من الملوك فصده عنها قسي الرعود ونبل الوبل وأسوار التلوج . وأرخت الشمس غزالها على جيشه وحال بينها

الموج فسكران من المفرقين ، والتفت عليه أشجارها فبات من المدبقيين وأصبح من الموبقين . وعادة كل من قصد الصمود إليها يشي على أربع بعد أن كان يشي على رجلين ، وردته عقابه ناكصاً على عقبيه ، وكان يجعل في حجلين ، فاستدارت عليها جنوباًتنا فشاهدنا منها منطقة البروج ، واستجنت بها الجيوش من سهام الجروح فأبقت كل سريع الولوج . وقامت الجانيق بسفراء من الحجارة عن السهام ، وأشارت إليها بأصابع كفوفها بالانتقال عن ذل الكفر إلى عز الإسلام . وفي أول الحال عجل منجنيق واحد كسر منجنيقتهم الثلاثة ، ونقلن من صورة الحال بسرعة نصر الواحد على من يدين بالثلاثة . ولم تزل مجانيقنا ترقى القلعة بحجارة تطيل حلقة نحوها كالطيور ، وتعلو نسور أحجارها طالبة قبة قلعتها . والجبال الشاهقة ركون النسور ، فما رمت حجراً إلا أثرتها أثراً ، ولا راجعتها ضرباً إلا أسمع وأرى بظاهرها وباطنها ندباً ، لكنها على مراجعة الحرب ومعاودة الضرب ، كأنه يضرب من حجارة أسوارها في حديد بارد ، وهي ، وإن لم تكن حديداً ، فإنها حجارة حديد لا تعمل فيها المماول ولا تؤثر فيها المبادر ، إلا أن نوازله مصيبة فيها نازلة . وما أشبه سهامها بسهام العيون تقضي بالنون ولا تفارق الجفون ، أو بالنجوم في الرجوم تصيب وهي بمكانها المعلوم . ودامت ذمة حسناتها مطالبة المحاصرة بما في يدها للملة الإسلامية من الغتصاب والفرس ، والنقابة تعمل من خوارجها في داخل بنيانها عمل الخلد في الأرض حتى أخذ الله الأرض ، ونقضت النقوب نظام أساساتها فانحلت ، وألقت النار في أحشائها فألقت ما فيها وتخلت . هذا والجانيق منشا ومنهم تارة وتارة ، وأكفها ترمي من النفط أصابعها بشرر كالقصر ، وقودها الناس والحجارة إلى أن تمكن الهد من أحد أبراجها فهدم بناؤه المنظم ،

ولما أراد جداره [أن] ينقض ، سارع إلى تقبيل الأرض ، وبادر إلى الخدمة فسلم ، وزحفت عليها الجيوش المنصورة من جوانبها ، وأحاطت بها إحاطة الأغمد بقواضها ، وضمتهما ضم الأطواق للأعناق ، وأطبقت بها إطباق الجفون على الأحداق . إلا أن الله سبحانه وتعالى سهل أمرها ، وأول للإسلام كفرها ، وسلط المجانيق المسلة على المجانيق الكافرة فكفى المؤمنين شرها ، فلم يزل كل منها يرميهم بأحجاره ، حتى استنزهم على اختياره . وسألوا الإجارة من الحجارة ، وطلبوا الأمان من الإيمان ، وأذعنوا بالاستسلام إلى الإسلام . وكتابنا هذا وقد علت على قلعته أعلام الإيمان ، وصرح بها إعلان الأذان ، ورمى بالحرس جرس الحرس . وأذهب طهر الإيمان منها رجس النجس ، وافترت عن فتحها ثغور الأيام . وغدت مغلفة بمسك المداد أصداغ الأقلام . فيأخذ حظه من هذه البشرية التي شرحت للإسلام صدرأ ، وجددت لكل صباح من تباشيره بشرأ ، وخلدت لأيام هذه الدولة فخراً ، يبدو في صبيحة كل نهار فجرأ . وهذا الفتح المبين وإن [لم] يكن الجناب من حضار حصارها ، ولا تضيغ درعه برده ، ولا تمسك ذيله بعشاره ، فإنه مجهز جيش كتائبه التي فتح الله على يدها ، وأجراها من النصره على جميل عوائدها . فله أجر الغازي وهو المقيم . والسهم إذا أصاب الغرض فراميه المصيب وهو بمكانه لا يريم .

ذيل مرآة الزمان لليونيني ج ٢٤٢ - ٢٥٦



القسم الثاني

وثائق الغزو المغولي

١٦٠٣ - ١٨٠٧

١٢٠٦ - ١٤٠٤

١ - الفترة المنتهية بسقوط بغداد سنة ٥٦٥٦ / ١٢٥٨ م

١٧٥ - رسالة سلطان سمرقند خان خانان إلى خوارزم شاه

احتل الخطا بلاد تركستان وأبقوا حكمها تحت سلطتهم بيد سلطان سمرقند ، وهو مسلم ، ولذلك ضجر وأنف من تحكمهم في الإسلام وأهله ، فأرسل إلى خوارزم شاه يقول :

إن الله عز وجل قد أوجب عليك بما أعطاك من سعة الملك وكثرة الجنود أن تستنقذ المسلمين وبلادهم من أيدي الكفار ، وتخلصهم مما يجرى عليهم من التحكم في الأموال والأبشار . ونحن ننتق معك على محاربة الخطا ، ونحمل إليك ما نحمله إليهم ، ونذكر اسمك في الخطبة وعلى السكة .

فوافق على ذلك .

الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ١٢ - ٢٥٩

١٧٦ - رسالة خوارزم شاه إلى سلطان سمرقند

تحالف خوارزم شاه مع سلطان سمرقند وبخارى ضد الخطا وحاربهم وكسروهم ، وعاد ملك سمرقند إلى مكانه ومعه يمثل لخوارزم شاه ، ثم بعد سنة غدر السلطان بالخوارزميين وقتلهم ، فزحف إليه خوارزم شاه وحاصره وأرسل إليه يقول :

قد فعلت ما لم يفعله مسلم ، واستحللت من دماء المسلمين ما لا يفعله عاقل لا مسلم ولا كافر ، وقد عفا الله عما سلف فاخرج من البلاد وامض حيث شئت .

الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ٢٦٨ - ٢٦٩

١٧٧ - رسالة ملك الخطا إلى خوارزم شاه لما هاجمه التتار

أما ما كان منك من أخذ بلادنا وقتل رجالنا فعمو عنه ، وقد أتى من هذا العدو من لا قبل لنا به . وأنهم إن انتصروا علينا وملكونا فلا دافع لهم عنك ، والمصلحة أن تسير إلينا بمساكرك وتنصرفا على قتالهم . ونحن نحلف لك أننا إذا ظفروا بهم لا نتعرض إلى ما أخذت من البلاد ونقتنع بما بين أيدينا (١) .

١٧٨ - رسالة كشلي خان ملك التتار إلى خوارزم شاه يعرض عليه التحالف ضد الخطا :

إن هؤلاء الخطا أعداؤك وأعداء أبائك وأعداؤنا فساعدنا عليهم ، ونحلف أننا إذا انتصروا عليهم لا نقرب بلادك ونقتنع بالمواضع التي ينزلونها .

١٧٩ - جواب خوارزم شاه إلى كل واحد منهما نسخة واحدة . انني معك ومعاضدك على خصمك .

السكامل في التاريخ لابن الأثير ج ١٢ - ٢٧٠

١٨٠ - رسالة ملك التتار كشلي خان إلى خوارزم شاه

هزم الخطا ومن خوارزم شاه على ملك التتار أنه لولا مساعدته لما تمكن من القضاء على الخطا وللهزم . وبعد فترة أرحل ملك التتار إلى خوارزم شاه يقول :

كما أننا اتفقنا على إبادتهم يجب أن نقسم بلادهم .

(١) أتى الذهبي في « المبر » ج ٥ - ١٦ بنس مشابه إلى حد كبير لنصنا هذا وإن يكن أقل منه تفصيلا .

١٨٦ - جواب خوارزم شاه :

ليس لك عندي غير السيف ، ولستم أقوى من الخطا شوكة ولا أعز ملكا ، فإن قنمت بالمساكنة وإلا سرت إليك وفعلت بك شراً مما فعلت ٣٣ .

١٨٧ - رسالة ثانية من ملك التتار كشلي إلى خوارزم شاه .

أدرك خوارزم شاه أنه لا يقف للتتار فكان يحارب أطرافهم إذا رآهم منفردين فأرسل إليه كشلي يقول :

ليس هذا فعل الملوك ، هذا فعل اللصوص . وإلا إن كنت سلطاناً كما تقول ، فيجب أن نلتقي ، فلما أن تهزمني وتملك البلاد التي بيدي ، وإما أن أفعل أنا بك ذلك .

الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ١٢ - ٢٧١

١٨٨ - رسالة خوارزم شاه إلى غياث الدين .

احتلت جيوش غياث الدين وأخيه شهاب الدين الغوريين بلاد خوارزم شاه وغيرها ، فلما رحلت الجيوش عن البلد أرسل خوارزم شاه إلى غياث الدين يماثبه ويقول :

كنت اعتقد أن تخلف عليّ بعد أبي ، وإن تنصرتني عن الخطا وتردم عن بلادي ، فحيث لم تفعل فلا اقل من أن لا تؤذيني وتأخذ بلادي . والذي أريده أن تعيد ما أخذته مني إليّ ، وإلا استنصرت عليك بالخطا وغيره من الأتراك ، إن عجزت عن أخذ بلادي ، فإني إنما شغلني عن منعك عنها الاشتغال بعزاء والدي وتقرير أمر بلادي ، وإلا فما أنا عاجز عنكم وعن أخذ بلادكم خراسان وغيرها .

الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ١٢ - ١٧٣

١٨٤ - رسالة جنكيز خان إلى خوارزم شاه .

أرسل جنكيز خان تجاراً إلى خراسان فقتلهم نائبها من قبل خوارزم شاه فأرسل جنكيز خان إلى خوارزم شاه يستعلمه عن هذا الأمر ، وكان مما قاله :

من المعبود من الملوك أن التجار لا يقتلون لأنهم عمارة الأقاليم ، وهم الذين يحملون إلى الملوك ما فيه التحف والأشياء النفيسة . ثم إن هؤلاء التجار كانوا على دينك فقتلهم نائبك ، فإن كان أمراً أمسرت به طلبنا بدمائهم ، وإلا فأنت قنكره وتقتص من نائبك .

ولكن خوارزم شاه قتل رسول جنكيز خان .

البداية والنهاية لابن كثير ج ١٣ - ١١٩

١٨٥ - رسالة جنكيز خان لخوارزم شاه لما بلغه ما فعل بالتجار والرسول :

تقتلون أصحابي وتجاري وتأخذون مالي منهم ، استعدوا للحرب فإني واصل إليكم يجمع لأقبل لكم به .

الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ١٢ - ٣٦٣

١٨٦ - مفتتح رسائل ابن جنكيز خان الذي كان يفتتح به رسائله الموجهة لملوك الإسلام يدعوم للطاعة :

من نائب رب السماء مساح وجه الأرض ملك الشرق والغرب قات قات .

البداية والنهاية لابن كثير ج ١٣ - ١٥٦

١٨٧ - رسالة تاجر مجهول من الري إلى أصحابه بالموصل سنة ٦٢٧ هـ يتحدثهم عن اعمال المغول في الري وأذربيجان :

إن الكافر - لعنه الله - ما تقدر أن نصفه ولا نذكر جموعه - حتى لا تنقطع قلوب المسلمين فإن الأمر عظيم . ولا تظنوا أن هذه الطائفة التي وصلت إلى نصيبين والخابور ، والطائفة الأخرى التي وصلت إلى إربل ودقوا كان قصدم النهب ، إنما أرادوا أن يعلموا هل في البلاد من يردم أم لا ؟ فلما عادوا أخبروا ملكهم بخلو البلاد من مانع ومدافع ، وأن البلاد خالية من ملك وعساكر فقوي طمعهم وهم في الربيع يقصدونكم وما يبقى عندكم مقام ، إلا إن كان في بلاد الغرب ، فإت عزمهم على قصد البلاد جميعها فانظروا لأنفسكم .

الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ١٢ - ٥٠٣

١٨٨ - كتاب بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل إلى أهل دمشق يفرض عليهم ضريبة اسمها ضريبة التتر :

إني قررت على أهل الشام قطيعة التتر في كل سنة من الغني عشرة دراهم ، ومن المتوسط خمسة دراهم ومن الفقير درهم .

كتاب السلوك للمقريزي ج ١ ، ق ٢ - ٣١٥

١٨٩ - وصية منكوقا أن لأخيه هولوكو لما سلمه قيادة الجيش "الذي أرسله لفتح الغرب (غربي الصين) :
لأنك الآن على رأس جيش كبير وقوات لاحصر لها ، فينبغي أن تسير من توران إلى إيران :

مر من توران إلى إيران مظفرآ
واعل باسمك إلى الشمس الساطعة

وحافظ على تقاليد جنكيز خان وقوانينه ، في الكليات والجزئيات
وخص كل من يطيع أوامرک ويحتسب نواهيک ، في الرقعة الممتدة من
جیحون حتى أقاصي بلاد مصر ، بلطفک وبأنواع عطفک وإنعامک ؛
أما من يعصیک فأغرقه في الذلة والمهانة مع نسائه وأبنائه وأقاربه وكل
من يتعلق به . وابدأ بإقليم قهستان في خراسان ، فخرّب القلاع
والحصون :

اجعل كبردکوه وقلعة لنبيه مر (١)
بحيث يكون رأسها إلى أسفل وجسدها إلى أعلى
ولا تبق في الدنيا قلعة قط
ولا كومة واحدة من التراب

فإذا فرغت من هذه المهمة ، فتوجه إلى العراق ، وأزل من
طريقك اللور والأكراد الذين يقطعون الطرق على سالکيها . وإذا
بادر خليفة بغداد بتقديم فروض الطاعة فلا تتعرض له مطلقاً . أما
إذا تكبر وعصى ، فالجقه بالآخرين من الهالكين . كذلك ينبغي أن
تجعل رائدك في جميع الأمور العقل الحكيم والرأي السديد ، وأن تكون
في جميع الأحوال يقظاً عاقلاً ، وأن تخفف على الرعية التكاليف والمؤن ،
وأن ترفه عنهم . وأما الولايات الخربة فعليك أن تعيد تعمیرها في
الحال . وثق أنك بقوة الله العظيم سوف تفتح ممالك الأعداء حتى يصير
لك فيها مصايف ومشاتي عديدة . وشاور دوقوز خاتون في جميع
القضايا والشؤون .

جامع التواريخ للهمذاني ، ج ٢ ، ق ٢٣٦ - ٢٣٧

(١) قلعتان مشهورتان من قلاع الملاحدة في إيران تأنيان مباشرة بعد قلعة الموت الشهيرة
في الحصانة والمنمة .

١٩٠ - بيان وجهه هولاءكو إلى حكام إيران سنة ١٦٥١ هـ طالباً مساعدتهم في إخضاع قلاع الملاحدة كالموت وغيرها :

بناء على أمر القآن فقد عزمنا على تحطيم قلاع الملاحدة وإزعاج تلك الطائفة . فإذا أسرعتم وساهمت في تلك الحملة بالجيش والعدد والآلات فسوف تبقى لكم ولاياتكم وجيوشكم ومساكنكم وستحمد لكم مواقفكم . أما إذا تهاوتم في امتثال الأوامر وأهملتم ، فإننا حين نفرغ بقوة الله من أمر الملاحدة ، فإننا لانقبل عذرکم ونتوجه إليکم فيجري على ولاياتكم ومساكنكم ما يكون قد جرى عليهم .

جامع التواريخ للهمداني ج ٢ ، ق ١ - ٢٤٠

١٩١ - رسالة هولاءكو إلى المستعصم بالله آخر خلفاء العباسيين يعاتبه ويهدده ويطلب منه الخضوع سنة ١٦٥٥ هـ :

لقد أرسلنا إليك رسالة وقت فتح قلاع الملاحدة وطلبنا مدداً من الجند ، ولكنك أظهرت الطاعة ولم تبعث الجند ، وكانت آية الطاعة والاتحاد أن تمدنا بالجيش عند مسيرنا إلى الطغاة فلم ترسل إلينا الجند والتمست العذر . ومها تكن أسرته عريقة وببيتك ذا نجد تليد فإن لمعان القمر قد يبلغ درجة

يخفي معها نور الشمس الساطعة

ولابد أنه قد بلغ سمعك على لسان الخاص والعام ما حل بالعالم والعالمين على يد الجيش المغولي منذ عهد جنكيزخان إلى اليوم ، والذل الذي حاق بأسر الخوارزميين والسلجوقية وملوك الديالة والآتابكة وغيرهم من كانوا ذوي عظمة وشوكة ، وذلك بحول الله القديم الدائم ، ولم يكن باب بغداد مغلقاً بوجه أية طائفة من تلك الطوائف ، واتخذوا

منها قاعدة ملك لهم ، فكيف يفلق في وجهنا رغم مالنا من قدرة
وسلطان ؟! ولقد نصحنك من قبل . والآن نقول لك : احذر الحقد
والخصام ، ولا تضرب الخصف بقبضة يدك ، ولا تطلخ الشمس بالوحل
فتتعب . ومع هذا فقد مضى ما مضى ، فإذا أطاع الخليفة فليسدم
الحصون ويردم الخنادق ويسلم البلاد لابنه ويحضر لمقابلتنا . وإذا لم
يرد الحضور فليرسل كلاً من الوزير وسلياً نشاء والدواتدار ليبلغوه
رسالتنا دون زيادة أو نقص ، فإذا استجاب لأمرنا فلن يكون من
واجبنا أن نكون له الحقد ، وسنبقي له على دولته وجيشه ورعيته .
أما إذا لم يصنع إلى النصيح وآثر الخلاف والجدل ، فليعجب الجند وليعين
ساعة القتال فإننا متأهبون لمحاربته وواقفون له على استعداد . وحينها
أقود الجيش إلى بغداد ، مندفعاً بسورة الغضب ، فإنك لو كنت مختفياً
في السماء أو في الأرض .

فسوف أنزلك من الفلك الدوار
وسألقيك من عليائك إلى أسفل كالأسد
ولن أدع جيشاً في مملكتك
وسأجعل مدينتك وأقليمك وأراضيك طعمة للنار
فإذا أردت أن تحفظ رأسك وأسرقت فاستمع لنصحي بسمع العقل
والذكاء ، والا فسأرى كيف تكون إرادة الله .

جامع التواريخ للهمداني ج ٢ ، ق ١ - ٢٦٨

١٩٢ - رسالة الخليفة الجوابية حملها لهولاكو شفها شرف الدين

ابن الجوزي وبدر الدين محمود وزنكي النخجواني ؛

أيها الشاب الحديث ! المتمني قصر العمر ، ومن ظن نفسه محيطاً
ومتغلباً على جميع العالم مغترأ بيومين من الإقبال ، متوهماً أن أمره

قضاء مبرم وأمر محكم . لماذا تطلب منا شيئاً لم تجده :

كيف يمكن أن تتحكم في النجم وتقيد

بالرأي والجيش والسلاح

ألا ليعلم الأمير أنه من الشرق إلى الغرب ، ومن الملوك إلى
الشعابين ومن الشيوخ إلى الشباب ممن يؤمنون بالله ويعملون بالدين ،
كلهم عبيد هذا البلاط وجنود لي . إنني حينما أشير بجمع الشتات ،
سأبدأ بحسم الأمور في إيران ، ثم أتوجه منها إلى بلاد توران ، وأضع
كل شخص في موضعه ، وعندئذ سيصير وجه الأرض جميعه مملوءاً بالقلق
والاضطراب ، غير أنني لا أريد الحق والخصام ، ولا أن أشتري ضرر
الناس وايداءهم . كما أنني لا أبغي من وراء تردد الجيوش أن تلهج
السنة الرعية بالمدح أو القدح ، خصوصاً وأنني مع الخاقان وهولاكو خان
قلب واحد ولسان واحد . وإذا كنت مثلي تزرع بذور المحبة فما
شأنك بخنادق ريعتي وحصونهم ، فاسلك طريق الود وعد إلى خراسان ،
وان كنت تريد الحرب والقتال :

فلا تتوان لحظة ولا تعتذر

إذا استقر رأيك على الحرب

إن لي ألوفاً مؤلفة من الفرسان والرجال

وهم متأهبون للقتال

ولأنهم ليثيرون الغبار من ماء البحر وقت الحرب والطمان

جامع التواريخ للهمذاني ج ٢ ، ق ١ ٢٦٩ - ٢٧٠

١٩٣ - رسالة جوابية من هولاكو إلى الخليفة المستعصم بالله وقد

امتأذ غضباً للرسالة السابقة :

ان الله الأزلي رفع جنكيزخان ومنحنا وجه الأرض كله من الشرق

إلى الغرب ، فكل من سار معنا وأطاعنا واستقام قلبه ولسانه ، تبقى له أمواله ونساؤه وأبنائه ، ومن يفكر في الخلاف والشقاق لا يستمتع بشيء من ذلك .

ثم عاتب الخليفة بشدة قائلاً :

لقد فتنتك حب الجاه والمال والمعجب والفرور بالدولة الفانية ، بحيث لم يعد يؤثر فيك نصيح الناصحين بالخير . وإن في أذنيك وقرأ فلا تسمع نصيح المشفقين ، ولقد انحرفت عن طريق آباءك وأجدادك ، وإذن فعليك أن تكون مستعداً للحرب والقتال ، فإني متوجه إلى بغداد بجيش كالنمل والجراد . ولو جرى سير الفلك على شاكلة أخرى فتلك مشيئة الله العظيم .

جامع التواريخ للهمذاني - ٢ ، ق ١ - ٢٧١

١٩٤ - رسالة ثانية من الخليفة إلى هولاكو أرسلها له على يد بدر

الدين قاضي بغداديجان :

لو غاب عن الملك فله أن يسأل المطلعين على الأحوال ، إذ أنت كل ملك - حق هذا العهد - قصد أسرة بني العباس ودار السلام بغداد كانت عاقبته وخيمة . ومهما قصدتم ذور السطوة من الملوك وأصحاب الشوك من السلاطين ، فإن بناء هذا البيت بحكم للغاية ، وسيبقى إلى يوم القيامة . وفي الأيام السالفة قصد يعقوب بن الليث الصفار الخليفة وتوجه بجيش لجب إلى بغداد فلم يبلغ أربه ، إذ مات بعلة الزحار ، والأمر كذلك مع أخيه عمرو ، إذ قبض عليه إسماعيل بن أحمد الساماني وكيله وأرسله إلى بغداد ، لكي يجري عليه الخليفة ما حكم به القضاء . وكذلك جاء البساسيري بجيش عظيم من مصر إلى بغداد

وقبض على الخليفة وسجنه في الحديقة (١). وفي بغداد جعل الخطبة والسكة مدة عامين باسم المستنصر الذي كان خليفة الإسماعيلية في مصر . وفي النهاية علم طفرل بك بذلك فأمرع من خراسان وقصد البساسيري في جيش جرار وقبض عليه وقتله ، وأخرج الخليفة من السجن وأعادته إلى بغداد وأجلسه على عرش الخلافة . وكذلك قصد السلطان محمود السلجوقي بغداد فعاد منهزماً وهلك في الطريق . وجاء محمد خوارزمشاه بجيش عظيم قاصداً استئصال هذه الأسرة فابتلى في روابي أباد بالثلج والمواصف بسبب غضب الله عليه وهلك أكثر جنده ، وعاد خائباً خائراً ثم لاقى ما لاقى من جدك جنكيز خان في جزيرة أبكسون . فليس من المصلحة أن يفكر الملك في قصد أسرة العباسيين ، فاحذر عين السوء من الزمان الغادر

جامع التواريخ للهمداني - ٢٠ ، ١٩ ق ٢٧٥ ، ٢٧٦

١٩٥ - رسالة قائد طلائع الجيش المغولي الزاحف على بغداد سلطان جوق إلى قبجاق قراسنقر قائد طلائع جيش الخليفة ، وذلك لما زحف المغول على بغداد وتبياً الطرفان للحرب الفعلية :

إنني وإياك من جنس واحد [ذلك أن الاثنين كانا من أصل خوارزمي] وبعد البحث والتدقيق التحقت بخدمة هولاء بسبب الفقر والاضطرار ، ودخلت في طاعته ، وهو الآن يعاملني معاملة طيبة ،

(١) ورد في نص هذه الرسالة بعض الأخطاء التاريخية ومن الواجب تصحيحها :
فالبساسيري لم يأت يمحش قط من مصر وإنما اعتاده على جيشه الخاص وحليفه الأمير البدوي قريش . كذلك التبعاً الخليفة العباسي القائم إلى مدينة الحديثة وهناك استقر في إحدى قلاعها ولم يسجن وإنما لجأ إلى أمير بدوي اسمه مهارش بن مجلي فأجاره وسماه . كما أن البساسيري خطب في بغداد للخليفة الفاطمي مدة تقرب من السنة فقط .

فأنفذ أنت أيضاً حياتك وترفق بها ، واشفق على أولادك وقدم الطاعة
حقى تأمن على دارك وأولادك ومالك وروحك من هؤلاء القوم .

١٩٦ - جواب قراسنقر على رسالة سلطان جوق السابقة :

من يكون هؤلاء المغول حقى يقصدوا أسرة العباسيين . لقد شاهدت
هذه الأسرة الكثير من أمثال دولة جنكيز خان التي تترنج من كل ريج
عاصف . ثم إن العباسيين قد استمروا حكماً أكثر من خمائة سنة ،
وكل مخلوق قصدهم بسوء قضى عليه الزمان . وإذن فليس من العقل
والكياسة أن تدعوني لأنضم إلى جانب الغصن الغض لدولة جنكيز
خان . وكان الأولى بالود والمسألة ألا يتجاوز هولاكو خان الري بعد
فراغه من فتح قلاع الملاحدة ، وأن يعود إلى خراسان وتركستان ،
لأن قلب الخليفة متأثر وساخط بسبب زحف هولاكو يجيوشه . فإذا
كان هولاكو نادماً حقاً على فعلته فعليه أن يعيد الجيش إلى همدان ،
لكي نجعل الدواقدار شقيماً فيتفرغ بدوره إلى الخليفة على يزول ألمه
ويقبل الصلح فيغلق بذلك باب القتال والجدال .

جامع التواريخ للهمذاني - ٢ ، ق ١ - ٢٨٣ - ٢٨٤

١٩٧ - رسالة هولاكو للخليفة قبل الهجوم النهائي على بغداد
مباشرة :

إذا كان الخليفة قد أطاع فليخرج ، وإلا فليأتأهب للقتال . وليحضر
إلينا قبل كل شيء الوزير وسليمانشاه والدواقدار ليسمعوا ما نقول :

جامع التواريخ للهمذاني - ٢ ، ق ١ - ٢٨٤

١٩٨ - رسالة الخليفة النهائية لهولاكو وذلك بعد أن أيقن بالبوار
بعد هزيمة جيشه وبدء بغداد بالسقوط في يد هولاكو ، فأرسل

الخليفة هذه الرسالة مع الجاثليق والوزير ليقولا هولوكو ما يلي :
إن الملك قد أمر أن أبعث إليه بالوزير ، ها أنذا قد لبيت طلبه
فينبغي أن يكون الملك عند كلمته .

١٩٩ - جواب هولوكو للخليفة عن الرسالة المباشرة :

إن هذا الشرط قد طلبته وأنا على باب همدان . أما الآن فنحن
على باب بغداد . وقد ثار بحر الاضطراب والفتنه ؛ فكيف أقنع بواحد
ينبغي أن ترسل هؤلاء الثلاثة
يعني بالثلاثة الدواتدار وسليمانشاه والوزير .

جامع التواريخ للهمذاني ج ٢ ، ق ١ - ٢٨٧

٢ - في العصر المملوكي بعد سقوط بغداد

٢٠٠ - رسالة هولوكو إلى الناصر الأيوبي صاحب حلب بعد سقوط
بغداد وقبل زحفه على سورية وقد كتبها له بالعربية نصير الدين
الطوسي :

أما بعد : فقد نزلنا بغداد سنة ست وخمسين وستائة فساء صباح
المنذرين ، فدعونا ملكها فأبى فحق عليه القول فأخذناه أخذاً وبيلاً .
وقد دعوناك إلى طاعتنا ، فلما أتيت فروج وريحان ، وإن أبيت
فخزي وخسران ، فلا تكن كالباحث عن حقه بظلمه والجادع مارن
أنفه بكفه فتكون من الأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة
الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، فما ذلك على الله بعزير والسلام على
من اتبع الهدى .

جامع التواريخ للهمذاني ج ٢ ، ق ١ - ٢٩٦

٢٠١ - رسالة أخرى من هولاكو إلى الناصر صاحب حلب ودمشق.

يعلم سلطان مصر ناصر - طال بقاؤه - أنا لما توجهنا إلى العراق
وخرج إلينا جنودهم فقتلناهم بسيف الله . ثم خرج إلينا رؤساء البلد
ومقدموها فكان قصارى كلامهم سبياً لهلك نفوس تستحق الإهلاك .
وأما ما كان من صاحب البلد فإنه خرج إلى خدمتنا ودخل تحت
عبوديتنا فسألناه عن أشياء كذبنا بها فاستحق الإعدام وكان كذبه
ظاهراً ووجدوا ما عملوا حاضراً . أجب ملك البسيطة ولا تقولن قلاعي
المانعات ورجالي المقاتلات . ولقد بلغنا أن شرذمة من المسكر التجأت
إليك هاربة وإلى جنابك لافذة .

أين المفر ولا مفر لهارب ولنا البسيطان الثرى والماء
فساعة وقوفك على كتابنا تجعل قلاع الشام سماءاً لرضها وطولها
عرضها والسلام .

٢٠٢ - رسالة أخرى من هولاكو إلى الناصر :

خدمة ملك ناصر - أطال عمره - أما بعد : فإننا فتحنا بغداد واستأصلنا
ملكها وملكها . وكان ظن ، وقد ضن بالأموال ولم ينافس الرجال ،
أن ملكه يبقى على تلك الحال وقد علا ذكره ونما قدره فخصف في
الكمال بديره .

إذا تم أمر بدأ نقصه توقع زوالاً إذا قيل ثم
ولمحن في طلب الازدياد على مر الآباد ، فلاتكن كالذين نسوا الله
فأنساهم أنفسهم . وأبد ما في نفسك أما إمساك بمعروف أو تسريح
بإحسان . أجب دعوة ملك البسيطة تأمن شره وتتل بره . واسع إليه
برجالك وأموالك ولا تعوين رسولنا والسلام .

٢٠٣- رسالة أخرى من هولاكو إلى الناصر :

أما بعد : فنحن جنود الله بنا ينتقم من عتا وتجبر وطفى وتكبر ،
وبأمر الله ما اتنمر . إن عوتب تنمر ، وإن روجع استمر وتجبر .
ونحن قد أهلكنا البلاد وأبدنا العباد وقتلنا النسوان والأولاد ، فأياها
الباقون أنتم بن مضي لاحقون . ويا أيها الغافلون أنتم إليه تساقون .
ونحن جيوش الملكة لاجيوش الملكة . مقصودنا الانتقام وملكنا
لايرام ، ونزيلنا لايضام ، وعدلنا في ملكنا قد اشتهر ، ومن سيوفنا
أين المفر .

أين المفر ولامفر لهارب ولنا البسيطان الثرى والماء
ذلت لهيبتنا الأسود فأصبحت في قبضي الأمراء والخلفاء
ونحن إليكم صائرون ولكم ظالبون ، ولكم الهرب وعلينا الطلب .
ستعلم ليلي أي دين قداينت وأي غريم بالثقة-اضي غريم-ا
دمرنا البلاد وأيتعننا الأولاد وأهلكنا العباد وأذقناهم العذاب وجعلنا
عظيمهم صغيراً ، وأميرهم أسيراً . أتخسبون أنكم منا فاجون أو متخلصون ؟
وعن قليل سوف تعلمون على ماتقدمون . وقد أعذر من أنذر . والسلام^(١) .
شذرات الذهب للحنبلي ج ٥ ٢٧٢ - ٢٧٣

(١) أورد السيوطي في « تاريخ الخلفاء » ٤٧٣-٤٧٥ نصوصاً مشابهة كل المشابهة
لنصوص هذه الرسائل الثلاث الواردة أعلاه . على حين يورد المقرئ في « السلوك » ج ١ ،
ق ٢ / ٤١٥-٤١٦ نص رسالتين أرسلها هولاكو إلى الناصر ، وكذلك يفعل ابن العبري
في « تاريخ مختصر الدول » ٢٧٧-٢٧٨ . وهي ، وإن اختلفت في نصوصها إلا أنها كلها
تهديد ووعيد وإخبار بما حل ببغداد ودعوة للملك الناصر أن يخضع لهولاكو . مع استشهاد
بآيات قرآنية كثيرة .

٣٠٤ - رسالة هولوكو إلى أهل حلب لما اقترب منها قبيل احتلاله إياها .
نحن إنما جئنا لقتال الملك الناصر بدمشق ؛ فاجعلوا لنا عندكم
شحنة ، فإن كانت النصره لنا فالبلاد كلها في حكمنا ، وإن كانت علينا ،
فإن شئتم قبلتم الشحنة وإن شئتم أطلقتموه .

٣٠٥ جواب أهل حلب هولوكو عن الرسالة السابقة :
مالك عندنا إلا السيف .

البداية والنهاية لابن كثير ج ١٣ - ٢١٨

٣٠٦ - رسالة هولوكو إلى سلطان مصر قطز بعد احتلاله دمشق
وتهيئته للزحف بجيشه على مصر
من ملك الملوك شرقاً وغرباً القان الأعظم .

باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء . يعلم الملك المظفر قطز
الذي هو من جلس المالك الذي هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم
يتنعمون بأنعامه ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك . يعلم الملك المظفر
قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من
الأعمال أنا نحن جند الله في أرضه ، خلقنا من سخطه وسلطانا على من
حل به غضبه . فلکم يجمع البلاد معتبر ، وعن عزمنا مزدجرفاتمظورا
بغيركم واسلموا إلينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم
الخطأ . فنحن مانرحم من بكى ولا نرق لمن شكى . وقد سمعتم أننا
قد فتحنا البلاد وبطهرنا الأرض من الفساد وقتلنا معظم العباد ، فعليكم
بالهرب وعلينا الطلب ، فأبى أرض تأويكم وأي طريق تنجيكم ،
وأي بلاد تنجيكم ؟ فما من سيوفنا خلاص ولا من مهابتنا مناص . فخيولنا
سوابق وسهامنا خوارق وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال وعددها

كالرمال . فالحصون لدينا لا تمنع ، والمساكر لقتالنا لا تنفع ، ودعاؤكم علينا لا يسمع ، فإنكم أكلتم الحرام ، ولاتعفون عند كلام ، وخنتم العمود والأيمان ، وفشا فيكم المقوق والعصيان ، فأبشروا بالمذلة والهوان . فالיום تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون . وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ، فمن طلب حربنا ندم ، ومن قصد أماننا سلم ، فإن أنتم بشرطنا ولأمرنا أطعتم ، فلنكم مالنا وعليكم ما علينا ، وإن خالفتم هلكتم ، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم ، فقد حذر من أذدر . وقد ثبت عندكم أن نحن الكفرة ، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة . وقد سلطنا عليكم من له الأمور المقدرة والأحكام المدبرة . فكثيركم عندنا قليل وعزيزكم عندنا ذليل ، وبغير الإهانة ما ملوكم عندنا سبيل . فلا تطيعوا الخطاب وأسرعوا برد الجواب ، قبل أن تضرم الحرب نارها وترمي نحوسكم شرارها ، فلا تجدون مناجاهاً ولا عزاً ، ولا كافياً ولا حرازاً ، وتدهون منا بأعظم داهية وقصيح بلادكم منكم خالية . فقد أنصفناكم إذ راسلناكم وأيقظناكم إذ حذرناكم . فما بقي لنا مقصد سواكم . والسلام علينا وعليكم وعلى من أطاع الهدى وخشي عواقب الردى وأطاع الملك الأعلى .

ألا قل لمصرها مهلاؤن^(١) قد أتى بجسد سيوف تنفض وبواتر
يصير أعز القوم منها أذلة ويلحق أطفالاً لهم بالأكاب^(٢)
كتاب السلوك للمقرزي ج ١ ، ق ٤٢٧ - ٤٢٩

(١) مهلاؤن صيغة لاسم هولاء ، وقد وردت كثيراً في كتب المؤرخين المعاصرين .
(٢) أورده القلقشندي في « صبح الأعشى » ج ٨ / ٦٣ - ٦٤ وكذلك الحمداني في « جامع التواريخ » ج ٢ ، ق ١ - ٣١٠ نصوصاً تختلف بعض الاختلاف عن نصنا أعلاه ولكن نصنا أكمل وأشمل ، على حين أن نص القلقشندي أكثر اختصاراً . أما نص الحمداني فهو جز كل الإيجاز ويختلف في صياغته .

٢٠٧ - محاوره السلطان قطز مع امرائه وأرباب دولته لما وصلته رسالة هولاكو السابقة :

لما وصلت الرسالة السابقة التي أرسلها هولاكو إلى السلطان قطز صعبة جماعة من الرسل جمع السلطان أمراءه وأركان دولته واستشارهم في الأمر فقال :

لقد توجه هولاكو خان من توران إلى إيران بجيش جرار ، ولم يكن لأي مخلوق من الخلفاء والولاة والملوك طاقة على مقاومته واستولى على جميع البلاد . ثم جاء إلى دمشق ، ولو لم يبلغه نعي أخيه لألحق مصر بالبلاد الأخرى . ومع هذا فقد ترك في هذه النواحي كيتوبوقا نويان الذي هو كالأسد المصور والتنين القوي في الكمين . وإذا قصد مصر فلن يكون لأحد قدرة على مقاومته ، ويجب تدبر الأمر قبل فوات الفرصة .

فقال ناصر الدين قيمي : :

إن هولاكو خان ، فضلاً عن أنه حفيد جنكيزخان وابن تولي وأخو منكوقاآن ، فإن شهرته وهيبته في غنى عن الشرح والبيان . وإن البلاد الممتدة من تخوم الصين إلى باب مصر كلها في قبضته الآن ، وقد اختص بالتأييد الساموي . فلو ذهبنا إليه لطلب الأمان فليس في ذلك عيب ولا عار . ولكن تناول السم بخداع النفس واستقبال الموت أمران بعيدان عن حكم العقل . إنه ليس بالإنسان الذي يطمان إليه ، فهو لا يتورع عن احتزاز الرؤوس وهو لا يفي بعهده وميثاقه ، فإنه قتل فجأة خورشاه والخليفة وحسام الدين عكه وصاحب إربل بعد أن أعطاهم العهد والميثاق ، فإذا ما سرننا إليه فسيكون مصيرنا هذا السبيل .

فقال قطز :

والحالة هذه فإن كافة بلاد ديار بكر وربيعة والشام ممتلئة بالمشاحات والفجائع ، وأصبحت البلاد من بغداد حتى الروم خراباً يباباً ، وقضى على جميع ما فيها من حرث ونسل . فخلّيت من الأزواج والأبقار والبذور فلو أننا تقدمنا لقتالهم وقنا بمقاومتهم فسوف تخرب مصر خراباً تاماً كغيرها من البلاد . وينبغي أن نختار مع هذه الجماعة التي تريد بلادنا واحداً من ثلاثة ؛ الصلح أو القتال أو الجلاء عن الوطن . أما الجلاء عن الوطن فأمر متعذر ذلك لأنه لا يمكن أن نجد لنا مفرّاً إلا المغرب وبيننا وبينه مسافات بعيدة .

فأجاب ناصر الدين قيمي :

وليس هناك مصلحة أيضاً إذ أنه لا يوثق بمهودهم .

فقال بقية الأمراء :

ليس لنا طاقة ولا قدرة على مقاومتهم فمر بما يقتضيه رأيك :
عندئذ قال قطز :

إن الرأي عندي هو أن نتوجه جميعاً إلى القتال ، فإذا ظفرنا فهو المراد ، وإلا فلن نكون ملومين أمام الخلق .

فاتفق الأمراء بعد ذلك . ثم اختلى قطز بالبندقدار^(١) الذي كان أميراً للأمراء وشاوره في الأمر : إنني أرى أن نقتل الرسل ونقصد كيتوبوقا متضامنين فإن اقتصرنا أو هزمنا فسوف نكون في كئيب الحالين معذورين .

فاستصوب قطز هذا الكلام وأمر بصلب رسل المغول في الليل .

جامع التواريخ للهمذاني ج ٢ ، ق ١ ٣١١-٣١٣

(١) المقصود بالبندقدار القائد بيبرس الذي أصبح بعد فترة سلطاناً لسورية ومصر باسم الملك الظاهر بيبرس .

٢٠٨ - رسالة كيتوبوقا الشفهية والأخيرة لهولاكو لما هزم جيشه في عين جالوت وقبل أن يقتل :

حقت الهزيمة على جيش المغول أمام الجيش الإسلامي في عين جالوت وحرص بعض أتباع كيتوبوقا ، الذي كان قائد الجيش المغولي ، على الهرب لإنقاذ حياته فرفض وقال :

لا مفر من الموت هنا . فالموت مع العزة والشرف خير من الهرب مع الذل والهوان . وسيعمل رجل واحد ، صغيراً أو كبيراً ، من أفراد هذا الجيش إلى حضرة الملك ويعرض عليه كلامي قائلاً . إن كيتوبوقا لم يشأ أن يتراجع وقد كلفه الخجل فضحى بحياته الغالية في سبيل واجبه ، ينبغي ألا يشق على الخاطر المبارك نبأ فناء جيش المغول ، ولتصور الملك أن نساء جنوده لم يحملن عاماً واحداً ، وأن جياد قطعانه لم تلد المهور . فليدم لإقبال الملك . وما دامت نفسه الشريفة آمنة وسالمة فإنها تكون عوضاً لكل مفقود ، إذ أن وجودنا وعدمنا نحن المبيد والأتباع أمر سهل يسير .

جامع التواريخ للهمذاني ج ٢ ، ق ١ - ٣١٤

٢٠٩ - رسالة الملك المظفر قطز إلى صاحب اليمن الملك المنصور يبشره بانتصاره العظيم على المغول في معركة عين جالوت ، وهي غالباً من إنشاء القاضي يحيى الدين بن عبد الظاهر .

أهز الله تعالى أنصار المقر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي المنصوري وأعلى مناره وضاعف اقتداره . نعمه أنه لما كان النصف من شهر رجب الفرد فتح الله تعالى بنصر المسلمين على أعداء الدين . من كل من لولا تسمر بأسه لاخضر جوداً في يديه الأسمر

فصدرت هذه التهئة إليه راوية للصدق عن اليوم المجهل الآخر :
 يوم غدا بالنقع فيه يهتدي من ضل فيه بأنجم المران
 ففي أذن الدهر من وقعه صمم ، وفي عرنين البدر من نقه شمم .
 ترفعه رواة الأسل عن الأسنة ، ويسنده مجر العوالي عن مجر الأعنة
 أما النصر الذي شهد الضرب بصحته ، والطمع بنصيحته ، فهو أن
 التتر - خذلهم الله تعالى - استطالوا على الأيام ، وخاضروا بلاد الشام ،
 واستنجدوا بقبائلهم على الإسلام .

سعى الطمع المردى بهم بحتوفهم ومن يئسيكن ذيل المطامع يعطب
 فاعتاضوا عن الصحة بالمرض ، وعن الجوهر بالعرض ، وقد أرخت
 الغفلة زمامهم ، وقاد الشيطان خطامهم ، وعاد كيدهم في نحوهم ،
 ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً . وكفى الله المؤمنين
 القتال ، وكان الله قوياً عزيزاً .

راموا الأمور فذلاحت عواقبها بضد ما أملوا في الورد والصدر
 ظلوا حيارى وكأس الموت دائرة عليهم شرعاً في الورد والصدر
 وأضعف الرعب أيديهم فطعنهم بالسهمرية مثل الوحز بالإبر
 لاجرم أنهم لسن الندم قارعون ، وعلى مقابلة إحساننا بالإساءة فادمون .
 تدرعوا بدروع البغي سابغة والمرء يحصد من دنياه ما زرعها
 فأقلعت بهم طرائق الضلال ، وسارت مراكب أمانهم في بحار
 الآمال ، فتلكت آمال خائبة ومراكب للظنون عاطبة ، وأقلعوا في
 البحر بمراكبه ، والبر بمواكبه ، وساروا وللشيطان فيهم وساوس ، تغرم
 أمنية الظنون الحواس ، فما وسوس الشيطان كفراً إلا وأحرقه الإيمان
 بكوكب ... (١) هذا وعساكر المسلمين مستوطنة في مواطنها ، جاذية

(١) بياض بالأصل .

عقبانها في وكور ظباها ، رابضة آسادهها في غيل إقناها ، ما تزلزل
لمؤمن قدم إلا وقدم إيمانه راسخة ، ولاتثبت لأحد حجة إلا وكانت
الجمعة لها ناسخة ، ولا عقيدت برجة ناقوس إلا رحلها الأذان . ولانطق
كاتب إلا وأخرسه القرآن . ولم تزل أخبار المسلمين تنتقل إلى الكفار وأخبار
الكفار تنتقل إلى المسلمين إلى أن خلط الصباح فضته بذهب الأصيل ، وصار
اليوم كأمس ، ونسخت آية الليل بسورة الشمس ، واكتسحت الأعين
بمرود السبات ، وخاف كل من المسلمين إصدار البيات .

ينام بإحدى مقلتيه ويتقي بأخرى الأعادي فهو يقظان نائم

إلى أن تراءت العين بالعين ، واضطرم نار الحرب بين الطرفين ، فلم
تر إلا ضرباً يجعل البرق نضراً ، ويترك في بطن كل من المشركين شلواً ،
حق صارت المفاوز دلاصاً ، ومراتع الظبيا للظبيا عراصاً ، واقتنصت
أساد المسلمين المشركين اقتناصاً . ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم واقعوها
ولم يحدوا عنها مناصاً . فلا روضة إلا درع ولا جدول إلا حسام ، ولا
غمامة إلا نقع ، ولا وبل إلا سهام ، ولا مدام إلا دماء ، ولا نغم إلا صهيل ،
ولا معربد إلا قاتل ، ولا سكران إلا قتيل حتى صار كافور الدين شقيقاً ،
وتلون الحصباء من الدماء عقيقاً ، وضرب النقع في السماء طريقاً ، وازدحمت
الجنائب في الفضاء فجعلته مضيقاً . وقتل من المشركين كل جبار غنيد ،
ذلك بما قدمت أيديهم وما ربك بظلام للعبيد .

صبح الأعشى للقلقشندي ج ٧ - ٣٦٠ - ٣٦٢

٢١٠ - رسالة أرسلها قواد جيش هولكو وباسمه للملك المعيد
ملك ماردين لما حاصروه في قلعته وقبل أن يبدأ القتال الفعلي بين
الطرفين .

اهبط من القلعة وقدم الطاعة والولاء للملك العالم ابقى لك رأسك ومالك

ونسأوك وأبناؤك.

مها تكن قلعتك محكمة مرتفعة

فلا تغتر بأبراجها وارتفاعها

ولو بلغت رأسك السماء فإنها ستصير تراباً تحت أقدام جيش المغول ،
فإن كان الإقبال والسعادة حليفين لك ، فعليك أن تستمع لنصحي وتعمل
بموجبه . أما إذا لم تستمع وخالفت أوامري ، فالله المتعال أعلم بما
يحدث .

٢١١ - جواب الملك الممعيد .

كنت قد عازمت على الطاعة والحضور إلى الملك ، ولكن حيث أنكم
قد عاهدتم الآخرين ثم قتلتموهم بعد أن اطمأنوا إلى عهدكم ووفائكم ،
فإني الآن لا أثق بكم ، وإن القلعة - بحمد الله تعالى - مشحونة بالذخائر
والأسلحة ومليئة برجال الترك وشجعان الكرد .

جامع التواريخ للهمداني ج ٢ ، ق ١ - ٣٢٤ - ٣٢٥

٢١٢ - رسالة جوابية أرسلها الملك الكامل ملك ميافارقين لأمير
الجيش المغولي الذي أقبل إلى مدينته وحاصرها ، وقبل الحرب الفعلية بين
الطرفين أرسل الأمير المغولي إلى الملك الكامل رسالة يدعوها فيها إلى الاستسلام
فأجابه بما يلي :

ينبغي ألا يضرب الأمير في حديد بارد ، ولا يتوقع الشيء المستحيل ،
إذ لا يوتق بوعدهم . وإنني لن أخذع بكلامكم المعسول ولن أخشى جيش
المغول ، وسأضرب بالسيف ما دمت حياً . إذ كيف أثق بأبن رجل نكث
المهد والميثاق مع خورشاه والخليفة وحسام الدين عكه وتاج الدين إربل ؟
وقد جاء الملك الناصر لدين الله خصيصاً بأمانكم فرأى في نهاية الأمر

ما رأى ، وسوف أرى أنا أيضاً ما سبق أن رأوه .

جامع التواريخ للهمذاني ج ٢ ، ق ١ - ٣١٩

٢١٣ - رسالة بركة خان إلى الملك الظاهر بيبرس يطلب مساعدته
ضد أخيه هولاكو ؛

وقع خلاف بين هولاكو وأخيه بركة خان فأراد بركة خان أن يستعين
بالمملك الظاهر بيبرس ضد أخيه هولاكو فأرسل إليه مع رسله يقول :
قد علمت بحبتي للإسلام ، وعلمت ما فعل هولاكو بالمسلمين . فأركب
أنت من ناحية حتى آتية أنا من ناحية حتى نصطلمه أو نخرجه من البلاد
وأعطيك جميع ما كان بيده من البلاد .
فاستصوب ذلك الملك الظاهر .

البداية والنهاية لابن كثير ج ١٣ - ٣٣٨

٢١٢ - رسالة آباقا خان للظاهر بيبرس

غزا بيبرس بلاد الروم وانتصر انتصاراً عظيماً على المغول وقتل
فرسانهم وقوادهم ، فغضب من ذلك كل الغضب آباقا خان الذي أصبح
ملكاً على المغول بعد وفاة هولاكو وبركة وأرسل إلى بيبرس يقول :
أنكم تنقضون فجأة كاللصوص وتطاردون فرساننا وطلائعنا وتقتلون
بعضهم . فإذا ما بلغتنا الأخبار وتحركنا لصدكم تفرون كاللصوص . فإذا
كنتم تريدون لقاءنا وقتالنا فادخلوا الميدان كالرجال وثبتوا الأقدام :

تعال لكن ترى سناني

وتنظر إلى التواء عناني

فإن كنت جبلاً فستنهار من أساسك

وإن كنت حجراً فلن تستقر في مكانك

فأين شاهدت المقاتلين

يا من لم يسمع عواء الثعالب

وإن لم تأت فإن جيوشنا مستعدة لقتالك في طليعة الشتاء ، وإذا امتدت نار غضبنا إلى بلاد الشام فإنها بلاريب سوف تأتي على كل مالكم من أخضر ويابس ، لأن الله الأزلي قد وهب جنكيزخان وذريته بلاد العالم ، وأدخل السراة المتمردين في ربة طاعتنا . وكل من يخالف أهل الإقبال تكون مخالفته دليلا على الإدبار .

جامع التواريخ للهمذاني ج ٢ ، ق ٢ - ٦٣ - ٦٤

٢١٥ - رسالة تهديد وعرض بالصلح من أبغا ملك المغول بعدد هولاءكو إلى الظاهر بيبرس :

أنت مملوك بعث بيسواس فكيف يصلح لك أن تخالف ملوك الأرض . وأعلم أنك لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلصت مني ، فاعمل لنفسك على مصالحة السلطان أبغا^(١) .

٢١٦ - جواب الملك الظاهر بيبرس على الرسالة السابقة :

اعلموا أي من ورائه بالمطالبة لا أزال عني أنتزع منه جميع البلاد التي استحوذ عليها من بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض .
البداية والنهاية لابن كثير ج ١٣ - ٢٥٤

٢١٧ - رسالة قائد الجيش المصري في حمة إلى شمس الدين سنقر الأشقر :

(١) يذكر القرطبي في « السلوك » ج ١ ، ق ٢ - ٥٧٤ وابن تقيي بردي في « النجوم الزاهرة » ج ٧ - ١٤٥ نصين قريبين كل القرب من نصنا أعلاه .

دم المغول بسلاط الشام بأعداد غفيرة سنة ٦٧٨ هـ زمن السلطان قلاوون فاجتمع الجيش الإسلامى في حماة ، وأرسل قائده إلى شمس الدين سنقر الأشقر الذي كان مخالفاً للسلطان ومقيماً في صهيون الرسالة التالية يدعوه للانضمام إليه لمحاربة العدو :

قد دهمنا هذا العدو ، وما سببه إلا الخلف فيما بيننا . وما ينبغي أن نهلك المسلمين في الوسط ، والمصلحة أننا نجتمع على دفعه ^(١) .
تشریف الأنام والمصور لابن عبد الظاهر ٧٦

٢١٨ - رسالة الملك المنصور قلاوون إلى نائبه في دمشق يبشره بظفره العظيم على المغول في الواقعة التي جرت بين الطرفين ظاهر
حصص سنة ٦٨٠ هـ .

نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين . صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس . فعلمه أننا ضربنا مصافاً مع العدو المخذول على ظاهر حصص في يوم الخميس رابع عشر رجب الفرد سنة ثمانين وستائة . وكان العدو المخذول على ظاهر حصص في مائة ألف فارس أو يزيدون . والتحم القتال من ضحوة النهار إلى غروب الشمس ، ففتح الله ونصر ، وساعدنا بساعفة القدر ، ونصرنا ، والحمد لله ، على أذل الأعداء وكسرهم ، وظفر المسلمون ونصرهم وكتابنا هذا والنصر قد ضربت بشائره وحلق طائره وامتألت القلوب سروراً . وأولى الله الإسلام من تفضله علينا وعليهم خيراً كثيراً . والمجلس فليأخذ حظه من هذه البشري العظيمة ، ويتقلد عقودها التنظيمية . والله تعالى يخصه بنعمه العيمة إن شاء الله تعالى .
ذيل مرآة الزمان لليونيني ج ٤ ٩٥-٩٦

(١) يذكر ابن تفرى بردي في « النجوم الزاهرة » ج ٧ - نصاً مطابقاً للنص أعلاه .

٢١٩- رسالة الملك الصالح بن الملك المنصور قلاوون وولي عهده أرسلها باسمه وباسم والده إلى الملك المظفر صاحب اليمن جواب رسالة تهنئة أرسلها لهما بمناسبة انتصار قلاوون العظيم سنة ٦٢٨ هـ على المغول . وهي من إنشاء محيي الدين بن عبد الظاهر .

أعز الله نصره المقام العالي المظفري الشمسي ، ولا زالت البشائر
تورد على سمعه وتوفد على ريعه ، وتهدى إلى ابتهاجه وتحمى إلى
منهاجه وتجهز إلى منابر ممالكه المحروسة ، وتجز لمخابر مؤرخي السير
النفيسة ، فلا برج يحدد منها صحفاً مكرومة وينضد لها عقوداً منظمة ،
ويخلد منها كل ذكرى تنسي الملاحم المتقدمة ، ويشد بها أركان الهدى
التي لولا دعائم الرماح المقومه لكانت مهدمة . [الملوك] يخدم خدمة
بسنة أبيه فيها يستن ، ويوالى محامداً ما أخذ والده في فن منها إلا
وأخذ المملوك في دراسة ذلك الفن ، ويصف ولاء قد أمسى كل منها
بسمته يكتفي وبذروته يكتن . ويستفتح بذكر نعمى أصبح لطف
الله بها على كل مؤمن في أقاصي الأرض يمتن . وهي النعمة التي عباد
بها عمر الإسلام فتياً وكوكب سعدة مضيئاً ويوم نصره بدرياً ، وأصبح
بها أهل التهايم والنجود في هناء ، وملايكة السماء في شكر لسلطان
الإسلام ودعاء . وكادت قبلها قلوب الجبال أن تتصدع ودموع السحاب
أن تتشرع وأكباد البيد أن تتقطع ، وذلك بأن التتار الخذولين جمعوا
كل من اعتقدوا في ظنهم أنه يهزم الجمع بمفرده ، وانتخبوا كل شجاع
لا يألّف غير ظهور الجياد من يوم ولده ، واحتفلوا احتفالاً استصحبوا
فيه ما ادخروا وما صانوا ، وسمّحوا بأعزة أكابرهم ومقدمي

التمانات (١) الذي ما سمع قط أنهم في معركة هابوا ولا هانوا . وبلغت مولانا السلطان أخبارهم ولمعت لأقتباسه نارهم ، وغيروا عاداتهم في المهاجمة ، وأتوا على تؤدة نوا بها المصادقة والمصادمة ، فلأوا الأقطار رعباً والبلاد سلباً ، وأتوا المنازل كما تأتي الزلازل ، وطلعوا على بلاد الإسلام طلوع القضاء النازل ، وامتدوا معتقدين أنهم مستحقون للمالك والأمصار ، مستخفون بالملوك والأنصار ، واثقون بأنهم لا ينجو منهم سكان البراري ولا الغفار ، ولا المحتجبون بأسوار البحار . ومولانا السلطان وجنوده في غيلهم رابضون ، وعلى سيوفهم قابضون ، يستجرونهم ليقع شركهم من توسط البلاد الإسلامية في شرك ، ويستدرجونهم ليقعوا من أسفل نار الموت في درك . فلما قربوا من حمة المحروسة ، وبينوا بنيانها من قراها ، واستدننهم حمص لقراها ، وثب لهم مولانا السلطان وثبة شيبت منهم الوليد ، وأقدم عليهم إقداماً كان مساوقه فيه مصنفه خالد بن الوليد ، وأردفته الملائكة بنجدها وكأثره الملوك بعددها وعددها . وكان المسلمون في سائر البلاد في تلك الساعة قد طرَقوا أبواب السماء وجردوا سلاح الأنبياء من الدعاء ، ولا مشهد ولا مسجد في تلك الساعة في القاهرة ومصر ودمشق والأقاليم إلا وصفوف المتجهدين في ذلك الوقت قائمة متزاحمة بالمناكب ، كما صفوف المجاهدين ثابتة متساقبة في تلك المواكب . فنظر الله تعالى إلى خلقه ببركة تلك الجباه الركم ، وبين قدم إلى الله به التوسل من الأطفال الرضع فأرسل الله ملايكة النصر ترمي وجرد سيوف الظفر تحمض الرقاب وتدمي . وثبت مولانا السلطان ثبوتاً ما سمع أن سلطاناً ثبتته وأطلع

(١) لعل المقصود بالتمانات كلمة التوماتات جمع تومان وهي الفرقة المؤلفة من عشرة آلاف جندي .

الله على ما نواه من نصر الدين فتقبله بقبول حسن وأنبته . وكانت
العدو في مائة ألف مقابل مقاتل مناضل مصارم مصادم مكالب
مكالم ، فصبروا على حرر العلاقم ، ورأوا أن الموت خير لهم من
الهزيم ، فلم يفلت منهم إلا من استمهل السيف ساعة من نهار . وفر
بعضهم والموت يقول لهم : قل لن ينفعكم الفرار . وكان ذلك في يوم
الخميس رابع عشر رجب . ولم يفلت منهم إلا من تخطفته طيور
الخيول في كل معبر ومضيق ، ومن هوت به الريح في مكان سحيق .
وغزا فيهم كل شيء حتى الغربان والذسور والعقبان ، وتبعهم العساكر
إلى شط الفرات وإلى رايات الرحبة وإلى در بندات سيس ، وخرج
عليهم أهل البيرة بعساكر مستريحة ، وأهل الحصون كلها يجنود مستيحيه
فوضعوا كل السيف على كل من كل ، وعقدوا حلق الإسار على من
حل ، وقتلت ملوكهم من أولاد هولاكو وغيرهم ، فجعل الله بأرواحهم
إلى النار ، وأبت الأرض أن توارى جسداً لهم فقدفتهم في المهامه
والقفار . وانجلت هذه الملحمة عن لطف شامل ونصر كامل وظفر
يتشد أكابر المغل في بلاد ما وراء النهر .

فإن كان أعجبكم عامكم فعودوا إلى حصص في قابل
وثق مولانا السلطان العنان وملوك المغل الأسرى يساقون بين يديه
سكارى وماهم بسكارى ، وقد أثرت رؤوس الرماح بكل بطل كم كان يحسن
رأساً . وجعل على اسم الله في قفول جنوده ما أجرى منهم وما
أرسي بما رد بأساً وكفى بأساً . ووصلت الأخبار السارة بذلك فعمت
بالتهاني الوجود ، وضربت البشائر في كل صوب ، وحلقت الملائكة
حتى الأفق خلق بالبرود ، والسماء ضربت فيها البشائر بالعود . ولما تهاى
هذا النبا العظيم الذي أهل الممالك عنه غافلون ، لم يغفل مولانا السلطان

عن إيهاج المولى بهذه التهاني التي لثملها فليعمل العاملون ، وسير بها بريداً
إليها وعلى يده مبشرة كريمة إلى المولى . فأصدرناها على حالها ، وأصحبناها
هذه الخدمة يتناوبان في شرح هذه الملاحم التي ولد بها الإسلام جديداً ، ولتقرب
للسمع الشريف من هذه الوقايح بعيداً . وقد علم الله والمسلمون أن العيان
في هذه الواقعة ليس كالخبر . ولعمر الله إن هذه النصرة ذكرى للبشر
لأنها كفت الملة الإسلامية عظيماً ، وأخذ الله بها للأئمة والأمة ثأراً قديماً .
ومولانا أحق بأن يسر بها سراير كل منبر ويتقدم بتجويرها فلانها أشرف
ما يحبر وأجل ما به يخبر . لابرح المولى يفرح للمؤمنين بنصر الله ويشكر
مواقف سلطان ليس عن نصر دين الله بغافل ولا لاه . والله الموفق
تاريخ ابن الفرات ج ٢٢٣٧ - ٢٢٥

٣ - المغول المسلمون

١ - السلطان أحمد المغولي أول من أسلم من ملوك المغول

٦٨٠ - ٦٨٣ هـ / ١٢٨١ - ١٢٨٤ م

٢٢٠ - بيان أذيع في بغداد باسم السلطان أحمد بن هادون يعلن

اعتناقه وجلوسه على العرش :

بسم الله الرحمن الرحيم : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله . وإنا جلستنا
على كرسي المالك ونحن مسلمون ، فيتلقون أهل بغداد هذه البشوى ،
ويشعمدون في المدارس والوقوف وجميع وجوه البر ما كان يعتمد أيام
الخلفاء العباسيين ، ويرجع كل ذي حق إلى حقه في أوقات المساجد
والمدارس ، ولا يخرجون عن القواعد الإسلامية . وأنتم ، يا أهل بغداد ،
مسلمون وسمعنا عن النبي ﷺ أنه قال : لا تبرح هذه العصاة الإسلامية

مستظهرة إلى يوم القيامة . وقد عرفنا أن هذا الخبر خبر صحيح ورسول
صحيح ورب واحد أحد فرد صمد ، فتطيبون قلوبكم وتكتبون إلى البلاد جميعها .
تشريف الأنام والعصور لابن عبد الظاهر - ٤

٢٢١ - رسالة أرسلها السلطان أحمد المغولي إلى السلطان الملك المنصور
قلادون مع مبعوثيه لما أشهر إسلامه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، بقوة الله تعالى . بإقبال قآن فرمان أحمد
إلى سلطان مصر .

أما بعد : فإن الله سبحانه وتعالى يسابق عنايته ونور هدايته قد كان
أرشدنا في عنفوان الصبا وريمان الحداثة إلى الإقرار بربوبيته ، والاعتراف
بوحدايته ، والشهادة بمحمد عليه أفضل الصلوات والسلام ، بصدق نبوته
وحسن الاعتقاد في أوليائه الصالحين من عبادته وبريته : فمن يرد الله
أن يهديه يشرح صدره للإسلام ^(١) . فلم نزل نميل إلى إعلاء كلمة
الدين وإصلاح أمور الإسلام والمسلمين إلى أن أفضى بعمد ابننا الجيد
وأخينا الكبير نوبة الملك إلينا ، فأفاض علينا من جلايب ألطافه
ولطائفه ما حقق به آمالتنا في جزيل آلائه وعوارفه ، وجلا هذه المملكة
علينا وأهدى عقيلتها إلينا ، فاجتمع عندنا في قوريلتالي ^(٢) المبارك - وهو
المجمع الذي ينقدح فيه الآراء - جميع الاخوان والأولاد ^(٣) ، والأمراء

(١) سورة الأنعام : الآية ١٢٥ .

(٢) هذا هو الاسم المغولي لمجلس السلطنة الذي يختار الحكام ويدرس المسائل العويصة
التي لا يريد أن يفصل الحاكم فيها برأيه وحده .

(٣) الاخوان تعريب للتعبير المغولي أقاريني Aqawini أي الأخوة الكبار والصغار
أو أمراء البيت المالكة . وفي المغولية أقا Aqa الأخ الكبير أو شيخ القبيلة أو رأس الأسرة .
وإني Ini الأخ الأصغر . أما الأولاد فتعريب للكلمة المغولية « أرغول » أي ولد . وبضيفها
المغول إلى اسم الملك للدلالة على أن المسمى من الأسرة المالكة ، وبذلك يكون معناها هنا
أمراء البيت المالكة

الكبار ومقدمو العساكر وزعماء البلاد ، واتفقت كلمتهم على تنفيذ ما سبق به حكم أخينا الكبير في إنفاذ الجرم الفغير من عساكرنا التي ضاقت الأرض برحبها من كثرتها ، وامتألت الأرض رعباً لعظيم صولتها ، وشديد بطشهم إلى تلك الجهة ، بهمة تخضع لها شم الأطواد ، وعزيمة تلين لها صم الصلاد . ففكرنا فيما تخضعت زبدة عزائمها عنه ، واجتمعت أهواؤهم وآراؤهم عليه ، فوجدناه مخالفاً لما كان في ضميرنا من اقتناء الخير العام الذي هو عبارة عن تقوية شمائر الإسلام ، وألا يصدر عن أوامرها - ما أمكننا - إلا ما يوجب حقن الدماء وتسكين الدماء ، وتجري به في الأقطار رخاء نسائم الأمن والأمان ، ويستريح به المسلمون في سائر الأمصار في مهاد الشفقة والإحسان ، تعظيماً لأمر الله وشفقة على خلق الله ، فألهمنا الله - تعالى - إطفاء تلك النائرة وتسكين الفتن النائرة ، وإعلام من أشار بذلك الرأي بما أرشدنا إليه : من تقديم ما يرجى به شفاء مزاج العالم من الأدوية ^(١) ، وتأخير ما يجب أن يكون آخر الدواء . واننا لانحب المسارعة إلى هذا النصال للنضال إلا بعد إيضاح المحجة ، ولانأذن لها إلا بعد تبين الحق وتركيب الحجة ، وقوى عزمننا على ما رأيناه من دواعي الصلاح وتنفيذ ما ظهر لنا به وجه النجاح أذكار شيخ الاسلام قدوة العارفين كمال الدين عبد الرحمن الذي هو نعم العون لنا في أمور الدين ؛ فأصدرناه رحمة من الله لمن دعاه ، ونقمة على من أعرض عنه وعصاه . وأنفذنا أقصى القضاة قطب الملة والدين ، والأتابك بهاء الدين اللذين هما من ثقات هذه الدولة الزاهرة ليعرفاهم ^(٢) طريقتنا ، ويتحقق ما تنطوي عليه لعموم المسلمين جميل نيتنا ، وبيناهم أننا من الله على

(١) يعني الحرب .

(٢) الخطاب هنا موجه لقلارون بصيغة الغائب الجمع بدلاً من المخاطب الجمع أي ليعرفاهم .

بصيرة . وأن الإسلام يجب ما قبله ، وأنه تعالى ألقى في قلبنا أن تتبع الحق وأهله . ويشاهدون عظيم نعمة الله على الكافة بما دعانا إليه : من تقديم أسباب الإحسان ، ولا يحرموها بالنظر إلى سالف الأحوال ، فكل يوم هو في شأن . فإن نطلعت نفوسهم إلى دليل تستحكم بسببه دواعي الاعتماد ، وحجة يشقون بها من بلوغ المراد ، فليتنظروا إل ماظهر من من مآثرنا ، مما اشتهر خبره وعم أثره . فإننا ابتدأنا - بتوفيق الله تعالى - بإعلاء أعلام الدين وإظهاره ، في إيراد كل أمر وإصداره تقديماً ، وإقامة نوااميس الشرع الحمدي على مقتضى قانون العدل الأحمدي ، إجلالاً وتعظيماً ، وأدخلنا السرور على قلب الجمهور ، وعفونا عن كل من اجتراح سيئة أو اقتراف ، وقابلناه بالصفح وقلنا : عفا الله عما سلف . وتقدمنا بإصلاح أمور أوقاف المسلمين من المساجد والمشاهد والمدارس ، وعمارة بقاع البر والربط الدوارس ، وإيصال حاصلها بموجب عوائدها القديمة إلى مستحقيها بشروط واقفيها ، ومنعنا أن يلمس شيء مما استحدث عليها ، وألا يغير أحد مما قرر أولاً فيها . وأمرنا بتعظيم أمر الحاج وتجهيز وفدها وتأمين سبلها وتيسير قوافلها . وانا أطلقنا سبيل التجار المترددين إلى تلك البلاد ليسافروا بحسن اختيارهم على أحسن قواعدهم ، وحررنا على المساكين والقراغول^(١) والشحاني^(٢) في الأطراف التعرض بهم في مصادرهم ومواردهم . وقد كان صادف قراغولنا جاسوساً في زي الفقراء كان سبيل مثله أن يهلك ، فلم يهرق دمه لحرمة ما حرمه الله تعالى ، وأعدناه لإيهم . ولا يخفى عليهم ما كان في إنفاذ الجواسيس من الضرر العام للمسلمين ، فإن عساكرنا طامسارأوهم في زي الفقراء

(١) كلمة يطلقها المغول على حراس الطرق .

(٢) جمع شحنة .

والنساء وأهل الصلاح ، فسامت ظنونهم في تلك الطوائف فقتلوا منهم من قتلوا وفعلوا بها ما فعلوا . وارتفعت الحاجة ، بحمد الله تعالى ، الى ذلك بما صدر إذنتنا به من فتح الطريق وتردد التجار وغيرهم . فإذا أمعنوا الفكر في هذه الأمور وأمثالها لا يخفى عليهم أنها أخلاق جبيلية طبيعية ، وعن شوائب التكلف والتصنيع عرية . وإذا كانت الحال على ذلك فقد ارتفعت دواعي المضرة التي كانت موجبة المخالفة ، فإنها كانت بطريق الدين والذب عن حوزة المسلمين . فقد ظهر بفضل الله تعالى في دولتنا النور المبين . وإن كانت لما سبق من الأسباب ، فمن تحرى الآن طريق الصواب ، فإن له عندها لزلفى وحسن مأب . وقد رفعنا الحجاب وأتيننا بفصل الخطاب ، وعرفناهم ما عزمنا عليه بنية خالصة لله تعالى على استئناسها ، وحرمانا على جميع عساكرنا العمل بخلافها نرضي بها الله والرسول وتلوح على صفحاتها آثار الإقبال والقبول . وتستريح من اختلاف الكلمة هذه الأمة ، وتنجلي بنور الائتلاف ظلمة الاختلاف والغممة . فتسكن في سابغ ظلها البوادي والخواضر ، وتقر القلوب التي بلغت من الجهد الحناجر ، ويعفى عن سالف الهنات والجرائر . فإن وفق الله سلطان مصر لاختيار ما فيه صلاح العالم وانتظام أمور بني آدم ، فقد وجب عليه التمسك بالعروة الوثقى وسلوك الطريقة المثلى بفتح أبواب الطاعة والاتحاد ، وبذل الإخلاص بحيث تنعم تلك الممالك والبلاد ، وتسكن الفتنة الثائرة وتغمد السيوف البائرة وتحمل الكافة أرض الهوى وروض الهدون (١) ، وتخلص رقاب المسلمين من أغلال الذل والهون . وإن غلب سوء الظن بما تفضل به واجب الرحمة

(١) كناية عن السلم والطمأنينة ،

ومنع عن معرفة قدر هذه النعمة ، فقد شكر الله مساعينا وأبلى عذرتنا ،
وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا (١) .

والله الموفق للرشاد والسداد ، وهو المهيمن على البلاد والعباد ،
وحسبنا الله وحده .

كتب في أواسط جمادى الأولى سنة احدى وثمانين وستمائة بمقام الإطاق (٢) .

٢٢٢- جواب السلطان الملك المنصور قلاوون للسلطان أحمد عن
رسالته سائلة الذكر .

بسم الله الرحمن الرحيم . بقوة الله تعالى ، بإقبال دولة السلطان
الملك المنصور

كلام قلاوون إلى السلطان أحمد :

أما بعد حمد الله الذي أوضح بنا ولنا للعق منهاجاً ، وجاء بنا
فجاء نصر الله والفتح ودخل الناس في دين الله أفواجا ، والصلاة على
سيدنا ونبيينا محمد الذي فضله الله على كل نبي ، نجى به أمته ، وعلى كل
نبي ناجى ، صلاة تنير ما دجا وتبهر من داجى ، فقد وصل الكتاب
الكريم الملتقى بالتكريم ، المشتمل على هذا النبأ العظيم : من دخوله في
الدين وخروجه عن العشيرة والأقربين .

(١) سورة الإسراء : الآية ١٥ .

(٢) الإطاق كلمة تركية تعني غرفة أو خيمة أو مجموعة خيام أو معسكر ، والمراد
هنا معسكر السلطان المغولي .

ورد نص هذه الرسالة في كل من « كتاب السالك » للمقرئ ج ١ ، ق ٣ ، ٩٧٧
و « تاريخ مختصر الدول » لابن العبري ٢٨٩-٢٩٢ ، و « صبح الأعشى » للقلقشندي ج ٨
٦٥-٦٨ . وهناك اختلافات كبيرة بينها ولكن نصنا اكمل .

ولما فتح هذا الكتاب فاتح بهذا الخبر للمعلم المعلم والحديث الذي صحح عند أهل الإسلام إسلامه ، وأصح الحديث ماروي عن مسلم ، وتوجهت الوجوه بالدعاء إلى الله سبحانه في أن يشبته على ذلك بالقول الثابت ، وأن ينبت حب حب هذا الدين في قلبه كما أنبت أحسن النبت من أخشن المنابت .

وحصل التأمل للفصل المبتدئ بذكره من حديث إخلاصه النية في أول العمر وعنفوان الصبا إلى الإقرار بالوحدانية ، ودخوله في الملة المحمدية بالقول والعمل والنية . فالحمد لله على أن شرح صدره للإسلام ، وألهمه شريف هذا الإلهام ، كحمدنا الله على أن جعلنا من السابقين الأولين إلى هذا المقال والمقام . وثبت أقدامنا في كل موقف اجتهد وجهاد تنزل دورنه الأقدام . وأما إفضاء النوبة في الملك وميراثه بعد والده وأخيه الكبير إليه ، وإفاضة جلايب هذه المواقف العظيمة عليه ، وتوقله الأسيرة التي طهرها إيمانه وأظهرها سلطانه ، فلقد أورثها الله من اصطفاؤه من عباده وصدق المبشرات له من كرامة أولياء الله ومعباده .

وأما حكاية اجتماع الاخوان والأولاد والأمراء الكبار ومقدمي العساكر وزعماء البلاد في مجمع قوريلتاي الذي تنقدح فيه زبدة الآراء ، وأن كلمتهم قد اتفقت على ما سبقت به كلمة أخيه الكبير في إنفاذ العساكر إلى هذا الجانب وأنه فكر فيما اجتمعت عليه آراؤهم وانتهت إليه أهواؤهم فوجده لما في ضميره ، إذ قصده الصلاح ورأيه الإصلاح ، وأنه أطفأ تلك النائرة وسكن تلك النائرة فهذا فعل الملاك التقسي المشفق من قومه على من بقي ، المفكر في العواقب بالرأي الثاقب . وإلا فلو تركوا وآراءهم حتى تحملهم العزة لكانت تكون هذه الكرة هي الكرة ، ولكن هو كمن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ،

ولم يوافق قول من ضل ، ولا فعل من عوى . وأما القول منه : إنه لا يجب المسارعة إلى المقارعة إلا بعد إيضاح المحجة وتركيب الحججة ، فبانتظامه في سلك الإيمان صارت حجتنا وحجته المترتبة على من غدت طواعيته عن سلوك هذه المحجة متنكبة ؛ فإن الله تعالى والناس كافة قد علموا أن قيامنا إنما هو لنصرة هذه الملة ، وجهادنا واجتهادنا إنما هو على الحقيقة لله . وحيث قد دخل معنا في الدين هذا الدخول فقد ذهبت الأحقاد وزالت الذخول . وبارتفاع المنافرة تحصل المضافرة ، فالإيمان كالبنيمان يشد بعضه ببعض ، ومن أقام مناره فله أهل بأهل في كل مكان ، وجيران يجيران في كل أرض . وأما ترتب هذا القواعد الجمة على أذكار شيخ الإسلام قدوة العارفين كمال الدين عبد الرحمن - أعاد الله من بركاته - فلم تتركولي قبله كرامة كهذه الكرامة . والرجاء ببركته وبركة الصالحين أن تصبح كل دار الإسلام دار إقامة حتى تتم شرائط الإيمان ويعود شمل الإسلام مجتمعاً كأحسن مما كان . ولا ينكر لمن لكرامته ابتداء هذا التمكن في الوجود ، أن كل حق ببركته إلى العناية يعود .

وأما إنفاذ أقصى القضاة قطب الملة والدين والأتابك بهاء الدين الموثوق بنقلها في ابلاغ رسائل هذه البلاغة فقد حضرا وأعادا كل قول حسن من حوالى^(١) أحواله وخطرات خاطره ومنتظرات ناظره ، ومن كل ما يشكر ويحمد ، ويعنعن حديثهما فيه عن مسند أحمد .

وأما الإشارة إلى النفوس فإن كانت لها تطلع إلى إقامة دليل تستحكم بسببه دواعي الود الجليل ، فليُنظر إلى ما ظهر من مآثره في

(١) حوالى : جمع حالية أي نفائس أحواله .

موارد الأمر ومصادره ، ومن العدل والإحسان بالقلب واللسان ، والتقدم بإصلاح الأوقاف والمساجد والربط وقسبيل السبيل للحج الى غير ذلك فهذه صفات من يريد للملكه الدوام ، فلما ملك عبد ، ولم يمل إلى لؤم من عدا ولا لوم من عدل . على أنها وان كانت من الأفعال الحسنة والمثوبات التي تستنطق بالدعاء الألسنة ، فهي واجبات تؤدي وقربات بمثلها يُبَدَّى ، وهو أكبر من أنه بإجراء أجر غيره يفتخر أو عليه يقتصر أو له يدخر ، بل تفخر الملوك الأكابر برد مالك على ملوكها ، ونظمها على ما كانت عليه من سلوكها . وقد كان والده فعل شيئاً مع الملوك السلجوقية وغيرهم ، وما كان أحد منهم يدينه بدين ولا دخل معه في دين ، وأقرم في ملكهم وما زحزحهم عن ملكهم . ويجب عليه ألا يرى حقاً مفتصباً ويأبى الا رده ، ولا باعاً ممتداً بالظلم ويرضى الا صده ، حتى إن أسباب ملكه تقوى وأيامه تزين بأفعال التقوى .

وأما تحريمه على العساكر والقراغولات والشجاني بالأطراف التعرض الى أحد بالأذى وإصفاء موارد الواردين والصادرين من شوائب القذى ، فمن حين بلغنا تقدمه بمثل ذلك تقدمنا أيضاً بمثله الى سائر نوابنا بالرحبة والبيرة وعينتاب ، والى مقدمي العساكر بأطراف تلك الممالك . وإذا اتحد الإيمان وانعقدت الأيمان تحتم هذا الإحكام ، وترتب عليه جميع الأحكام . وأما الجاسوس الفقير الذي أمسك وأطلق ، وان بسبب من يتزيا من الجواسيس يزي الفقراء قتل جماعة من الفقراء الصلحاء رجماً بالظن . فهذا باب من تلقاء ذلك الجانب كان فتحه ، وزند من ذلك الطرف كان قدسه ، وكمن متزي بفقير من ذلك الجانب سيروه ، والى الاطلاع على الأمور سوره ، وأظفر الله منهم بجماعة كبيرة فرفع عنهم السيف ، ولم يكشف ما غطوه بخرقه الفقر بلم ولا كيف . وأما الإشارة الى

أن باتفاق الكلمة تنجلي ظلم الاختلاف وتدر بها من الخيرات الأخلاق
ويكون بها صلاح العالم وانتظام شمل بني آدم ، فلا راد لمن فتح
أبواب الاتحاد وجنح الى السلم وما حاد وما حاد . ومن ثنى عنائه عن
المكافحة كان كمن مد يد المصالحة للمصافحة . والصلح ، وإن كان سيد
الأحكام ، فلا بد من أمور تبنى عليه قواعده ، ويعلم من مدلوله فوائده .
فالأمر المستورة في كتابه هي كليات لازمة يعمر بها كل مفنى ومعلم ،
إن تها صلح أو لم . وثم أمور لابد أن تحكم ، وفي سلكها عقود
المعود تنظم ، قد تحملها بلسان المشافهة التي إذا أوردت أقبلت ، إن شاء
الله ، عليها النفوس ، وأحرزتها صدور الرسائل كأحسن ماتحوزه سطور
الطروس . وأما الإشارة الى الاستشهاد بقوله تعالى : وما كنا معذبين
حتى نبعث رسولا (١) ، فما على هذا النسق من الود ينسج ولا على هذا
السبيل ينهج ، بل لفضل المتقدم في الدين ونصره عهداً ترعى وافادات
تستدعى . وما برج الفضل للأولية وإن تنهى العدد للواحد الأول .
ولو تأمل مورد هذه الآية في غير مكانها لتدوى وتأمل .

وعندما اذتهنا الى جواب ماله يجب عنه الجواب من فصول
الكتاب سمعنا المشافهة التي على لسان أقصى القضاة قطب الدين فكان
منها ما يناسب ما في هذا الكتاب : من دخوله في الدين وانتظام عقده
بسلوك المؤمنين وما بسطه من معدلة واحسان ، مشكورة بلسان كل
إنسان . فالمنة لله عليه في ذلك فلا يشبهها منه بامتنان ، وقد أنزل الله على
رسوله في حق من امتن بإسلامه : قل لا تمنوا علي إسلامكم . بل الله يمن
عليكم أن هداكم للإيمان (٢) .

(١) سورة الإسراء : الآية ١٥ .

(٢) سورة الحجرات : الآية ١٧ .

ومن المشافهة أن الله قد أعطاه من العطاء ما أغناه عن امتداد الطرف إلى ما في يد غيره من أرض وماء ، فإن حصلت الرغبة في الاتفاق على ذلك فهو حاصل . فالجواب أن ثم أموراً متى حصلت عليها الموافقة ، ابتنى على ذلك حكم المصاحبة والمصادقة ، ورأى الله والناس كيف يكون تصافينا وإذلال عدونا وإعزاز مصافينا . فكم من صاحب وُجد حيث لا يوجد الأب والأخ والقرابة . ماتم أمر هذا الدين واستحكم في صدر الإسلام إلا بمضافرة الصحابة . فإن كانت له رغبة مصروفة إلى الاتحاد وحسن الوداد وجميل الاعتقاد وكبت الأعداء والأضداد ، والاستناد إلى من يشتد الأمر به عند الاستناد ، فالرأي إليه في ذلك .

ومن المشافهة أنه إن كانت الرغبة ممتدة الأمل إلى ما في يده من أرض وماء فلا حاجة إلى إنفاذ المغيرين الذين يؤذون المسلمين بغير فائدة تعود ، فالجواب عن ذلك أنه إذا كف كف العدوان ، وترك المسلمين وما لهم من ممالك سكنت الدماء وحقنت الدماء ، وما أحقه بالا ينهى عن "خلق" ويأتي مثله ، ولا يأمر بغير وينسى فعله . وقنفر طاي^(١) بالروم ، وهي بلاد في أيديكم وخارجها يجبي إليكم ، وقد سفك فيها وفتك وسبي وهتك وباع الأحرار وأبى إلا التماذي على الإضرار والإصرار .

ومن المشافهة أنه إن حصل التصميم على ألا تبطل هذه الغارات ولا تفتر عن هذه الإثارات فيعين مكاناً يكون فيه اللقاء ويعطي الله النصر لمن يشاء . فالجواب عن ذلك أن الأماكن التي اتفق فيها ملتقى الجمع مرة ومرة ومرة قد عاف مواردها من سلم من أولئك القوم

(١) Kongortaï كونفوراداي .

وخاف أن يعاودها فيعاوده مصرع ذلك اليوم . فوقت اللقاء علمه .
عند الله فلا يقدر . وما النصر إلا من عند الله لمن أقدر لا لمن قدر
ولا نحن ممن ينتظر فلتة ، ولا بمن له إلى غير ذلك لفنة ، وما أمر
ساعة النصر إلا كالساعة لا تأتي إلا بفنة . والله الموفق لما فيه صلاح
هذه الأمة والقادر على إتمام كل خير ونعمة (١) .

تشريف الأنام والعصور لابن عبد الظاهر ٦ - ١٦

٣٢٢ - رسالة ثانية أرسلها السلطان أحمد المغولي إلى السلطان منصور
قلاوون المملوكي مع وفد برئاسة الشيخ عبيد الرحمن ولكن الرسالة لم
تصل إلا وكان السلطان أحمد قد قتل وقد وصل الوفد وقدم الرسالة
وهذا نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم . بقوة الله تعالى بإقبال :
قا آن فرمان أحمد . إلى سلطان مصر . أما بعد : فالذي يجب
على العاقل بذل الجهد وترك الإهمال والتواني واستنفاد الوسع في اقتناء
الذكر الباقي الذي هو العمر الثاني . وقد انحصر الثناء الجميل والثواب
الجزيل في التعظيم لأمر الله ، والشفقة على خلق الله ، واستعمال العدل
والنصفة المندوب إليها . وأي عدل ونصفة أعظم قدراً وأعلى ذكراً
في سائر الأصقاع والممالك من إنقاذ الأنفس بحريّة الذن من المهالك

(١) ورد نص هذين الخطابين في عدد من المصادر « كصحيح الأعشى » للعلقشندي ج ٧
٢٣٧-٢٤٢ و ج ٨ ، ٦٥-٦٨ و « كتاب السلوك » للمقرئ ج ١ ، ق ٣ ، ٩٧٧-٩٨٤
و « تاريخ مختصر الدول » لابن العبري ٢٨٩-٢٩٦ . وهناك خلافاً يسيرة بين نصورها
لاتمس المعنى ، إلا نص ابن العبري ففيه خلافاً كبيرة وكثيرة .

وإطفاء نائرة أكباد حرى وقلوب جرحى . ومن أحيائها فكأننا أحياء .
ولما لم يكن لنا بفضل الله العظيم وإحسانه الجسم افتقار ولا بغية ، ولم
يبق في ضميرنا إرادة ولا أمنية ، سوى رفاهية العالم وطعامينة بني آدم
خصوصاً الطائفة الإسلامية وأهل المسلة الحنيفية ، أنفدنا الألبجية إلى
أخواننا نوقاي أفا وتودامنكو وغيرهما ، ونهيناهم على أن الملك المعقيم
الذي ادخره لنا جدنا جنكيز خان وآباؤنا الكرام بمسد الصبر على
المشقة في تحصيله والمقاساة ، وتحمل أعباء الشدائد والمعاناة ، بمجرد
النزاع والخصام وخلاف الوفاق واختلاف الكلام ، قد أشرف على
شحوب بهجته وبهائه . وتكدير رونق صفاء مساله . والآن آن أن
نستبدل وحشة النزاع بأنس الصلح ، ونتموهن عن غيب ليللة النفار
والنقار تباشير الصبح ، وتغمد السيوف البواتر التي استملت من الأغمداء ،
ويعفى أثر الهرج والمرج ، ونعرض عن الأغراض والأحقاد ، ويتفق
الجميع على القيام بواجب كوج قان وخدمته . والالتزام بواجب طاعته
والاشتغال على ما ينوط بتصلحته ، وحيث تأملوا ذلك بعين البصيرة ،
ورأى من حنكة دوران الفلك والتجربة تبين لهم أن هذا الرأي محض
شور لا يشوبه غش ولا مدهانة ، وخالص تنبيه لا يغادره سوى زبدة
المناصحة فقالوا : إن الذي وقع من الخلاف كان بين من قضى نجبه
من الآباء والأسلاف ولم تجر بيننا غاشنة ولا وقع خلف ولا مشاحنة
فعدنا إلى ما كان عليه آباؤنا القدماء الكرام من الاتفاق والائتلاف وحفظ
العهد والذمام . والتزمنا ألا ينحل عقد هذا النظام . والله الموفق
للرشاد والهادي إلى السداد . ولما يفرغ البسال من إصلاح ذات البين
وامتحنمت مرائر الائتلاف بين الجهتين ، أنفدنا الألبجية (١) بعد النية

(١) الألبجية كلمة أعجمية معناها السفراء .

الخاصة لله وللرسول تسكيناً للفتن الشائرة وإطفاء للهب تلك النائرة ،
 وحققاً لدماء المسلمين وسداً لثمة الدين ، فكانت خلاصة جوابه وزبدة
 خطابه عند وقوفه على ما كتب به إليه أنه : لو أنفذ أبونا شيخ
 الإسلام قدوة العارفين كمال الدين عبد الرحمن لكنت أسكن إلى أمانته
 وأخلد إلى ديانتك ، وأسمع منه ما لم يحتمل إيداعه الكتب ، وأشافه بما
 عندي من المصالح وأخاطبه بما ينطوي عليه ضميري للمسلمين من
 النصائح . هذا وغير خاف أنه يميز علينا بعاده ويوحشنا بينه وقرانه
 وربما اتصل به ما نستفيد من حسن معاشرته وجميل مصاحبته ،
 وحيث كان التماسه موجباً لإشاعة الخير العام وإذاعة شعار الإسلام ،
 رضيماً بتوجهه إلى جهته ، إسعافاً لمقترحه ، وجعلناه في اتخاذ العهد
 واليمين بدلاً عن شمالنا واليمين . ولم يكن بين كلامنا وكلامه بون ،
 إذ هو لنا في أمور الدين نعم العون ، والتزمنا بكل ما عساه يسنده
 إلينا وبما يرى ، ثقة بأنه الناصح الذي لا ينطق عن الهوى . وربما
 شردمة من الجهال (من الجهتين) من أهل الشقاق والنفاق لا تجتمع
 كلمتهم على الوفاق ، تنافي طباعهم الصلح والاتفاق ، يريدون ليطفئوا
 نور الله بأفواههم والله متم نوره ، لاختلاف ملتهم ، وطمعاً في إدراك
 بغيته . فالواجب ألا تسمع أقوالهم وتترك أفعالهم . أولئك الذين
 حبببت أعمالهم . ومن المعلوم أن كل أمر يمكن اعتاده على الوجه
 الجليل بحيث تنحسم فيه مواد القساة والقياس ، لا ينبغي أن تكون
 الحال فيه بالضد ، خصوصاً في الخطب الإلهي والأمر الجدي .

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .
 وكتب في أوائل ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة بمقام تبريز .

والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

تشریف الأنام والعصور لابن عبد الظاهر ٦٩ - ٧١

٢٢٤ - رسالة قلاوون إلى منكودمر أحد سلاطين المغول من

إنشاء فتح الدين بن عبد الظاهر :

أرسل السلطان قلاوون رسولين إلى السلطان منكودمر ومها
شمس الدين سنقر وسيف الدين بلبان لخاص تركي ومعها رسالة فيما
يلي نصها :

أعز الله نصره الجناب الكريم العالي السلطاني الملكي السعودي
العالي المعالي الذخري المظفري المنصوري الغياثي ركن الإسلام والمسلمين . (١)
شرف الملوك والسلاطين ، وأعلى قدره وقدرته وحقق ظفرو ونصرته
وكبت أعداءه وحسدته ، وحتم على الأيام أن تنجز من التأييد عدته ،
ولا برحت الأقدار قدمه بكل عون ، وتكؤه بكل صون ، وتخصه
من حسن العناية بما يستخدم لإسعافه الكون ، أصدرناها عن سلام
يتضمن نفسها يطيبه ، وحمد تكتشف الأسماع بترقيته ومرتبه . وولاء
يجمع بين الحسنين في نسبه ونسبه ، واستطلاع لأخباره التي هي للعيون
قرة وللقلوب مسرة ، وتشكر من آثاره التي لها في قلوب الأولياء
أثر جميل ، وفي قلوب الأعداء أثره ، وتفهمه أنه لما جهزنا الأميرين
شمس الدين سنقر القمني وسيف الدين بلبان لخاص تركي رسلا إلى خدمة
القان الأعظم منكودمر - زبدت عظمته ، وكان لهم على جنبه مرور
وبخدمة اقترابه سرور حملناهم من المشافهة والسلام ما يعيدانه عليه ،
وسيرنا على يدهما من الهدية ما يمرض لديه حتى لا يكون السلام خالياً
من إتحاف المسلم ، ولا الحمد فارغاً من حلاوة منطق المشافهة والتكلم .
والله لا يخلي من بقايه ويزيد من علايه وارثايه .

تاريخ ان الفرات ح ٧ - ١٧٩

(١) ماس بالاصل .

٢٢٥ - رسالة جوابية من السلطان الملك الأشرف خليل بن قلاوون
إلى ملك المغول كيختوا :

أرسل ملك المغول كيختوا إلى الملك الأشرف خليل رسالة يطلب
فيها منه أن يعيد له حلب لأنها مما فتحه أبوه هولاكو وهو يريد الإقامة
فيها ، وإن رفض السلطان ذلك أخذ منه الشام كله ، فأجابه السلطان
بما يلي :

قد وافق القان ما كان في نفسي ، فإني كنت على عزم من أخذ
بغداد وقتل رجاله ، فإني أرجو أن أردّها دار إسلام كما كنت ،
وسينظر أينما يسبق إلى بلاد صاحبه .

كتاب السلوك للمقريزي ج ١ ، ق ٣ - ٧٨٦

ب - القان قازان . أو غازان كما يسمى أحياناً

٦٩٤ - ٥٧٠٣ / ١٢٩٤ - ١٣٠٣ م

٢٢٦ - رسالة القان قازان إلى السلطان المملوكي الناصر محمد بن
قلاوون سنة ٦٩٨ هـ وذلك قبل هجومه على بلاد الشام :

بسم الله الرحمن الرحيم . وننهي بعد السلام إليه أن الله عز وجل
جعلنا وإياكم أهل ملة واحدة وشرقنا بسدين الإسلام وأيدنا ، وندبنا
لإقامة مناره وسددنا ، وكان بيننا وبينكم ما كان بقضاء الله وقدره ،
وما كان ذلك إلا بما كسبت أيديكم ، وما الله بظلام للعبيد . وسبب
ذلك أن بعض عساكركم أغاروا على ماردن وبلادها في شهر رمضان
المعظم قدره ، الذي لم تزل الأمم يعظمونه في سائر الأقطار ، وفيه
تغل الشياطين ، وتغلق أبواب النيران ، فطرقوا البلاد على حين غفلة من

أهلها ، وقتلوا وسبوا وفسقوا وهتكوا محارم الله بصراحة من غير مهلة وأكلوا الحرام وارتكبوا الآثام وفعلوا ما لم تفعله عباد الأصنام . فأتونا أهل ماردن صارخين مسارعين ، ملهوفين مستغيثين بالأطفال والحريم ، وقد استولى عليهم الشقاء بعد النعم ؛ فلاذوا ينجنا وتعلقوا بأسبابنا ، ووقفوا موقف المستجير الخائف ببابنا ، فهزتنا نخوة الكرام ، وحركتنا حمية الإسلام ، فركبنا على الفور بمن كان معنا . ولم يسعنا بعد هذا المقام ، ودخلنا البلاد وقدمنا النية ، وعاهدنا الله تعالى على ما يرضيه عند بلوغ الأمنية . وعلمنا أن الله تعالى لا يرضى لعباده الكفر بأن يسعوا في الأرض فساداً ، والله لا يحب الفساد ، وإنه يفضب لهتك الحريم وسي الأولاد . فما كان إلا أن لقيناكم بنية صادقة وقلوب على الحمية للدين موافقة ، فزقناكم كل ممزق . والذي ساقنا إليكم هو الذي نصرنا عليكم ، وما كان مثلكم إلا كمثل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون^(١) . قوليتم الأدبار ، واعتصمت من سيوفنا بالفرار ، فعفونا عنكم بعد اقتدار ، ورفعنا عنكم حكم السيف البتار ، وتقدمنا إلى جيوشنا ألا يسعوا في الأرض كما سعيت ، وأن ينشروا من العفو والعفاف ما طويتم . ولو قدرتم ما عفوتم ولا عففت ، ولم نغلكم منة بذلك ، بل حكم الإسلام في قتال البغاة كذلك وكان جميع ما جرى في سالف القدم ، ومن قبل كونه جرى به في اللوح القلم . ثم لما رأينا الرعية تضرروا بقامنا في الشام ، لمشاركنا لهم في الشراب والطعام ، وما حصل في قلوب الرعية من الرعب عند-

(١) سورة النحل : الآية ١١٢ لم يكمل المؤلف الآية وإنما وصل بها إلى عند «مطمئنة» فأكملناها نحن إلى آخرها .

مشاهدة جيوشنا التي هي كطبقات السحب ، فأردنا أن نسكن تخوفهم
بعودتنا من أرضهم بالنصر والتأييد والعلو والمزيد ، فتركنا عندهم
بعض جيوشنا بحيث تتونس بهم وتعود في أمرها إلهم ، وبحرسونهم
من تعدي بعضهم على بعض ، بحيث أنكم ضاقت بكم الأرض إلى
أن يستقر جاشكم وتبصروا رشدكم وتسيروا إلى الشام من يحفظه من
أعدائكم المتقدمين وأكرادكم المتمردين ، وتقدمنا إلى مقدمي طوامين^(١)
جيوشنا انهم متى سمعوا بقدوم أحد منكم إلى الشام أن يعودوا إلينا
بسلام . فعداوا إلينا بالنصر المبين . والحمد لله رب العالمين .

والآن فإننا وإياكم لم نزل على كلمة الإسلام مجتمعين ، وما بيننا
ما يفرق كلمتنا ، إلا ما كان من فعلكم بأهل ماردن . وقد أخذنا
منكم القصاص ، وهو جزاء كل عاص . فنرجع الآن في إصلاح الرعايا
ونجتهد نحن وإياكم على العدل في سائر القضايا ، فقد انضرت بيننا
وبينكم حال البلاد وسكانها ، ومنعها الخوف من القرار في أوطانها ،
وتعذر سفر التجار وتوقف حال المعاش لانقطاع البضائع والأسفار .
ونحن نعلم أننا نُسأل عن ذلك ونحاسب عليه . وإن الله عز وجل
لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، وإن جميع ما كان
وما يكون في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . وأنت
تعلم ، أيها الملك الجليل ، أنني وأنت مطالبون بالحقير والجليل ، وأنتا
مسؤولون عما جناه أقل من ولينا ، وأن مصيرنا إلى الله ، وأنا
معتقدون بالإسلام قولاً وعملاً ونية ، عاملون بفروضة في كل وصية ،
وقد حملنا قاضي القضاة علامة الوقت حجة الإسلام بقية السلف كالدين

(١) طوامين جمع طومان ار تومان وهي الفرقة العسكرية المؤلفة من عشرة آلاف جندي.

موسى بن محمد أبا عبد الله ، أعزه الله تعالى ، مشافهة يعيدها على سمع
الملك ، والعمدة عليها . فإذا عاد من الملك الجواب فليسير لنا
هدية الديار المصرية لنعلم بإرسالها أن قد حصل منكم في إجابتنا للصلح
صدق النية ، ونهدي إليكم من بلادنا ما يليق أن نهديه إليكم .
والسلام الطيب منا عليكم ، إن شاء الله تعالى (١) .

النجوم الزاهرة لابن قنري بردي ٨ - ١٣٦ - ١٣٩

٢٢٧ - رسالة السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون الجوابية
إلى قازان (اوغازان) سنة ٦٩٨ هـ :

بسم الله الرحمن الرحيم . علمنا ما أشار الملك إليهم ، وعول في
قوله وفعله عليه . فأما قول الملك : فقد جمعنا وإياكم كلمة الإسلام ،
وأنه لم يطرق بلادنا ولا قصدنا إلا لما سبق به القضاء المحكوم ، فهذا
الأمر غير مجهول بل هو عندنا معلوم ، وإن السبب في ذلك غارة
بعض جيوشنا على ماردين ، وأنهم قتلوا وسبوا وهدموا الحريم وفعلوا
فعل من لا له دين . فالملك يعلم أن غارتنا ما برحت في بلادكم مستمرة
من عهد آبائكم وأجدادكم ، وأن من فعل ما فعل من الفساد لم يكن
برأينا ولا من أمرائنا والأجناد ، بعل من الأطراف الطامعة ممن
لا يؤبه له ، ولا يعول في فعل ولا قول عليه . وإن معظم جيشنا
كان في تلك الغارة ، إذا لم يجدوا ما يشترونه للقوت صاموا لئلا يأكلوا
ما فيه شبهة أو حرام ، وإنهم أكثر ليلهم سجد ونهارهم صيام .

(١) ورد نص هذه الرسالة الشهيرة في عدد من المصادر كالقلقشندي في «صبح الاعشى»
ج ٨ ، ٦٩ - ٧١ والدراداري في «كنز الدرر» ٥٣ - ٦٥ والمغريزي في كتاب «السلوك»
ج ١ ، ق ٣ ، ١٠١٨ - ١٠٢٣ ، وهي تختلف عن النص الذي أثبتناه أعلاه اختلافاً كبيراً .

وأما قول الملك ابن الملك الذي هو من أعظم القان ، فيقول قولاً يقع عليه الرد من قريب ، ويَزعم أن جميع ما هو عليه من علمنا ساعة واحدة يغيب ، ولا يعلم أنه لو تقلب في مضجعه من جانب إلى جانب أو خرج من منزله راجلاً أو راكباً ، كان عندنا علم من ذلك في الوقت القريب ، ويتحقق أن أقرب بطائفه إليه ، هو العين لنا عليه ، وإن كثر ذلك لديه . ونحن نتحققنا أن الملك بقي عامين يجمع الجموع وينتصر بالتابع والمتبوع ، وحشد وجمع من كل بلد واعتضد بالنصارى والكُرج والأرمن ، واستنجد بكل من ركب فرساً من فصيح والكن ، وطلب من المسوحات خيولاً وركاب ، وكثر سواداً وعدد أطلاب . ثم أنه لما رأى أنه ليس له يبيشنا قبل في المجال وعاد إلى قول الزور والمحال ، والخديعة والاحتيال ، وتظاهر بدين الإسلام ، واشتهر به في الخاص والعام ، والباطن بخلاف ذلك ، حتى ظن جيوشنا وأبطالنا أن الأمر كذلك . فلما التقينا معه كان معظم جيشنا يمتنع من قتاله ويبعد عن نزاله ويقول : لا يحوز قتال المسلمين ، ولا يحل قتل من يتظاهر بهذا الدين ، فلهذا حصل منهم الفشل ، وبتأخرهم عن قتالكم حصل ما حصل . وأنت تعلم أن الدائرة كانت عليك ، وليس يرى من أصحابك إلا من هو نادم أو باكي ، أو فاقـد عزيز عنده أو شاكـي . والحرب سجال يوم لك ويوم عليك . وليس ذلك بما تعاب به الجيوش ولا تقهر ، وهذا بقضاء الله وقدره المقدر .

وأما قول الملك أنه لما التقى يبيشنا مزقهم كل ممزق ، فمثل هذا القول ما كان يليق بالملك أن يقوله أو يتكلم به ، وهو يعلم ، وإن كان ما رأى ، بل يسأل كبراء دولته وأمرأه عساكره عن وقائع جيوشنا ومراتع سيوفنا من رقاب آبائهم وأجدادهم . وهي إلى الآن

تقطر من دمائهم . وإن كنت نصرت مرة فقد كسرت آباؤك مراراً .
وإن كان جيشك قد داس أرضنا مرة فبلادكم لغارتنا مقام ولجيوشنا
قرار . وكما تدين تدان .

وأما قول الملك : إنه ومن معه اعتقدوا الإسلام قولاً وفعلًا وعملاً
ونية ، فهذا الذي فعلته ما فعله من هو متوجه إلى هذه البنية ، أعني
الكعبة المضية . فإن الذي جرى بظاهر دمشق وجبل الصالحية ليس
بخفي عنك ولا مكتوم . وليس هذا هو فعل المسلمين ولا من هو متمسك
بهذا الدين . فأين وكيف وما الحجة ؟ وحرّم البيت المقدس تشرب فيه
الخمر ، وتهتك الستور ، وتفتض البكور ، ويقتل فيه المجاورون ويستأسر
خطباؤه والمؤذنون ، ثم على رأس خليل الرحمن تعلق الصليبان وتهتك
النسوان ، ويدخل فيه الكافر سكران ، فإن كان هذا عن علمك ورضاك ،
فواخيبتك في دنياك وأخراك ، وبأويلك في مبدئك ومعاذك ، وعن
قريب يؤذن بخراب عرك وبلادك وهلاك جيشك وأجنادك ، وإن كنت
لم تعلم بذلك فقد أعلمناك ، فاستدرك ما فات فليس مطلوباً به سواك ،
وإن كنت كما زعمت أنك على دين الإسلام ، وأنت في قولك صادق في
الكلام ، وفي عقدك صحيح النظام فاقتل الطوامين الذين فعلوا هذه الفعل
وأوقع بهم عظيم النكال ، ليُعلم أنك على بيضاء الحجة ، وكان قولك
وفعلك أبلغ حجة . ولما وصلت جيوشنا إلى القاهرة المحروسة وتحققوا
أنكم تظاهرتكم بكلمة الإخلاص ، وخدعتم باليمين والأيمان ، وانتصرتكم على
قتالهم بمعبدة الصليبان ، اجتمعوا وتأهبوا وخرجوا بمزومات محمدية وقلوب
بدرية وهم عليه ، عند الله مرضية ، وحدوا في البلاد ، ليتشفوا منكم غليل
الصدور والآكباد ، فما وسع جيشكم إلا الفرار ، وما كان لهم على اللقاء
صبر ولا قرار . فاندفعت عساكرنا المنصورة مثل أمواج البحر الزخار

إلى الشام يقصدون دخول بلادكم ليظفروا بنيل المرام فحشينا على رعيتم
تهلك، وأنتم تهربون ولا تجدون إلى النجاة مسلكت فأمراهم بالقام ولزوم
الآهبة والاهتمام، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً .

وأما ما تحمله قاضي القضاة من المشافهة فإننا سمعناه ووعيناه وتحققنا
تضمنته مشافهة . ونحن نعلم علمه ونسكه ودينه وفضله المشهور وزهده
في دار القرور . ولكن قاضي القضاة غريب عنكم بعيد منكم ، لم يطلع
على بواطن قضايكم وأموركم ولا يكاد يظهر له خفي مستوركم . فإن كنتم
تريدون الصلح والإصلاح ، وبواطنكم كظواهركم متتابعة في الصلاح . وأنت
أيها الملك طالب الصلح على التحقيق ، وليس في قولك مين ولا يشوبه
تتميق ، فنحن نقلدك سيف البغي ومن سل سيف البغي قتل به ولا يحمق
المكر السيئ إلا بأهله ، فيرسل إلينا من خواص دولتك رجل يكون
منكم من إذا قطع بأمر وقفتم عنده ، أو فصل حكماً انتهيتم إليه ، أو
جزم أمراً عوائم عليه ، ويكون له في أول دولتكم حكم وتمكين ، وهو
فيما يعمل عليه ثقة أمين ، لتتكلم معه فيما فيه الصلاح لذات البين ، وإن
لم يكن كذلك عاد بخفي حنين .

وأما ما طلبه الملك من الهدية من الديار المصرية فليس نبخل عليه ،
ومقداره عندنا أجل مقدار ، وجميع ما يهدي إليه دون قدره ، وإنما الواجب
أن يهدي أولاً من استهدى ، لتقابل هديته بأضعافها ، ونتحقق صدق
نيته وإخلاص سريره ، ونفعل ما يكون فيه رضا الله عز وجل ورضا
رسوله في الدنيا والآخرة ، لعل صفقتنا رابحة في معادنا غير خاسرة ، والله تعالى
الموفق للصواب^(١) . انتهى . النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج ٨ ١٤٢-١٤٦

(١) ورد نص هذه الرسالة الجوابية الشهيرة في عدد من المصادر منها « صبح الأعشي »
للقلقشندي ج ٧ ، ٢٤٣-٢٥٠ و « السلوك » للمقريزي ج ١ ، ق ١٠١٨ ، ١٠٢٣-
و « كنز الدرر » للدواداري ٦٦-٧٠ وهي تختلف عن النص المثبت أهلاً اختلافاً كبيراً .
ولما كان هاتين الرسالتين أمية خاصة فقد أثبتناهما كما وردتا في القلقشندي ليطلع القارئ
العزیز على النصين معاً .

٢٢٨ -- نص ثان لرسالة غازان إلى السلطان الملك الناصر محمد ابن قلاوون :

بسم الله الرحمن الرحيم . بقوة الله تعالى وميامين الملة المحمدية :
فرمان السلطان محمود غازان :

ليعلم السلطان الملك الناصر ، أنه في العام الماضي ، بعض عساكرهم
المفسدة دخلوا أطراف بلادنا وأفسدوا فيها لعناد الله وعنادنا ،
كأردين ونواحيها ، وجأهروا الله بالمعاصي فيمن ظفروا به من أهلها ،
وأقدموا على أمور بديمة ، وارتكبوا آثاماً شنيعة ، من محاربة الله
وخرق تاموس الشريعة . فأنفسنا من تهجمهم ، وغرنا من تقحمهم ،
وأخذتنا الحمية الإسلامية فجذبنا إلى دخول بلادهم ، ومقاتلتهم على
فسادهم . فركبنا بين كان لدينا من العساكر ، وتوجهنا بين اتفق منهم
أنه حاضر . وقبل وقوع الفعل منا ، واشتار الفتك عنا ، سلمنا
سنن سيد المرسلين ، واقتفينا آثار المتقدمين ، واقتدينا بقول الله :
لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل (١) . والفتنا صحبة
يعقوب السكرجي جماعة من القضاة والأئمة الثقات ، وقلنا : هذا
نذير من النذر الأولى . ازفت الآزفة ، ليس لها من دون الله كاشفة ،
فقابلتم ذلك بالاصرار ، وحكتم عليكم وعلى المسلمين بالاضرار ،
وخالفتم سنن الملوك في حسن السلوك . وصبرنا على تماديكم في غيكم ،
وخلودكم إلى بغيكم ، إلى أن نصرنا الله ، وأراكم في أنفسكم قضاء ،
أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله . وظننا أنهم حيث تحققوا كنه
الحال ، وآل بهم الأمر إلى ما آل ، أنهم تداركوا الفارط من أمرهم ،

(١) سورة النساء : الآية ١٦٥ .

ورثقوا ما فتقوا بفدركهم ، ووجه إلينا وجه عذرهم ، فإنهم ربما سيروا إلينا حال دخولهم إلى الديار المصرية رسلاً لإصلاح تلك القضية ، فبقينا بدمشق غير مشححين ، وتشبطنا تشبُّط المتمكنين ، فصددم عن السعي في صلاح حالهم التواني ، وعلقوا نفوسهم عن اليقين بالأمان . ثم بلغنا بعد عودنا إلى بلادنا أنهم ألقوا في قلوب العساكر والعوام ، وراموا جبر ما أوهنوا من الإسلام : أنهم فيما بعد يلقوننا على حلب والفراء ، وإن عزمهم مصر على ذلك لا سواء . فجمعنا العساكر وتوجهنا للقاه ، ووصلنا الفرات مرتقبين ثبوت دعواهم ، وقلنا لعل وعسام . فما لم لهم بارق ولا ذر شارق . فقدمنا إلى أطراف حلب ، وعجبنا من تبطُّبهم غاية العجب . وفكرنا في أنه متى تقدمنا بمساكرنا الباهرة وجوعنا العظيمة القاهرة ، ربما أخرب البلاد مرورها ، وباقامتهم فيها فسدت أمورها ، وعم الضرر العباد ، والحزاب البلاد ، فعدنا بقيام عليها ، ونظرة لطف من الله إليها ، وهما نحن الآن مهتمون بجمع العساكر المنصورة ، ومشحذون غرار عزائنا المشهورة ، ومشتغلون بصنع المجانيق وآلات الحصار ، وعازمون بعد الإنذار ، وما كنا معذبين حق نبعث رسولاً . وقد سيرنا حاملتي هذا الكتاب الأمير الكبير ناصر الدين علي خواجا ، والإمام العالم ملك القضاة جمال الدين موسى بن يوسف ، وقد حملناهما كلاماً شافهما به ، فلتنقوا بما تقدمنا به إليهما فإنهما من الأعيان ، المعتمد عليهما في الديوان ، كما قال الله تعالى : فله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين^(١) . فلتعدوا لنا الهدايا والتحف ، فما بعد الإنذار من عاذر . وإن لم تتداركوا الأرض

(١) سورة الانعام : الآية ١٤٩ .

فدماء المسلمين وأموالهم مطلوله بتدبيرهم ومطلوبة عند الله في طول
تقصيرهم ، فليمنع السلطان لرعيته النظر في أمره . فقد قال ﷺ :
من ولاه الله أمراً من أمور هذه الأمة فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم ،
احتجب دون حاجته وخلته وفقره . وقد أعذر من أنذر وأنصف
من حذر . والسلام على من اتبع الهدى . في العشر الأوسط من
شهر رمضان سنة سبعمئة يجبال الأكراد . والحمد لله رب العالمين .
والصلاة والسلام على سيدنا محمد المصطفى وآله وصحبه وعترته الطاهرين .
صبح الأعشى للقلقشندي ٨٠ ٦٩ - ٧١

٢٢٩ - جواب السلطان الملك الناصر محمد على الرسالة السابقة
للسلطان غازان :

بسم الله الرحمن الرحيم . بقوة الله تعالى وميامين الملة المحمدية .
أما بعد حمد الله الذي جعلنا من السابقين الأولين الهاميين المهتدين ،
التابعين لسنة سيد المرسلين ، بإحسان إلى يوم الدين ، والصلاة والسلام على
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الذين فضل الله من سبق منهم إلى الإيمان
في كتابه المكنون ، فقال سبحانه وتعالى : والسابقون السابقون
أولئك المقربون (١) .

بإقبال دولة السلطان الملك

الناصر : كلام محمد بن قلاوون

فليعلم السلطان المعظم محمود غازان أن كتابه ورد ، فقابلناه بما
يليق بمثلنا لمثله من الإكرام ، ورعينا له حق القصد فتلقيناه منا
بسلام ، وتاملناه تأمل المتفهم لدقائقه ، المستكشف عن حقائقه ،

(١) سورة الواقعة : الآية ١٠ .

فألفيناه قد تضمن مؤاخذات بأمورهم بالمؤاخذة عليها أخرى ، معتذراً في التعمدي بما جعله ذنباً لبعض طالبها ، والله تعالى يقول : ولا تزر وازرة وزر أخرى (١) .

أما حديث من أغار على ماردن من رجالة بلادنا المتطرفة وما نسبوه إليهم من الأمور البديعة والآثام الشنيعة ، وقولهم أنهم أنفوا من تهجمهم وغاروا من تقحمهم ، واقتضت الحمية ركوهم في مقابلة ذلك ، فقد تلحنا هذه الصورة السيئة أقاموها عذراً في المدوان ، وجعلوها سبباً إلى ما ارتكبه من طغيان . والجواب عن ذلك أن الغارات من الطرفين ، ولم يحصل من المهادنة والمواصلة ما يكف يدنا الممتدة ، ولا يفتقر ممها المستعدة . وقد كان آباؤكم وأجدادكم على ما علمتم من الكفر والشقاق ، وعدم المصافاة للإسلام والوفاق . ولم يزل ملك ماردن ورعيته منفذين ما يصدر من الأذى للبلاد والعباد عنهم متولين كبر نكرهم . والله تعالى يقول : ومن يتولهم منكم فإنه منهم (٢) . وحيث جعلتم هذا ذنباً للحمية الجاهلية وحاملاً على الانتصار الذي زعمتم أن همكم به ملية ، فقد كان هذا القصد الذي ادعينموه يتم بالانتقام من أهل تلك الأطراف التي أوجبت ذلك فعلها والافتصار على أخذ الثأر من ثار ، اتباعاً لقوله تعالى : وجزاء سيئة سيئة مثلها (٣) . لا أن تقصدوا الإسلام بالجموع الملفقة على اختلاف الأديان ، وتطنوا البقاع الطاهرة بعبدة الصلبان ، وتنتهكوا حرمة البيت المقدس الذي هو ثاني بيت الله الحرام ، وشقيق مسجد

(١) سورة الانعام : الآية ١٦٤ .

(٢) سورة المائدة الآية ٥١ .

(٣) سورة الشورى الآية ٤٠ .

رسول الله عليه الصلاة والسلام . وان احتججتكم بأن زمام تلك الغارة بيدنا ، وسبب تعديلهم من سلتنا ، فقد أوضحنا الجواب عن ذلك ، وأن عدم الصلح والمواذعة أرجب سلوك هذه المسالك .

وأما ما ادعوه من سلوك سنن المرسلين واقتفاء آثار المتقدمين ، في انفاذ الرسل أولاً ، فقد قلحنا هذه الصورة ، وفهمنا ما أوردوه من الآيات المسطورة ، والجواب على ذلك أن هؤلاء الرسل ما وصلوا إلينا إلا وقد دنت الخيام من الخيام ، وناضلت السهام السهام ، وشارف القوم القوم ، ولم يبق للقاء إلا يوم أو بعض يوم ، وأشرعت الأسنة من الجانبين ، ورأى كل خصمه رأي العين . وما نحن بمن لاحت له رغبة راغب فتشاغل عنها ، ولا بمن يُسالم فيقابل ذلك يحفوة النفار ، والله تعالى يقول : وان جنحوا للسلم فاجنح لها (١) . وكيف والكتاب بعنوانه . وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول : ما اضمر إنسان شيئاً إلا ظهر في صفحات وجهه وقلبات لسانه ، ولو كان حضور هؤلاء الرسل والسيوف وادعة في أعماقها ، والأسنة مستكنة في أعوادها ، والسهام غير مفوقة ، والأعنة غير مطلقة ، لسمعنا خطايهم وأعدنا جوابهم .

وأما ما أطلقوا به لسان قلمهم ، وأبدوه من غليظ كلمهم ، في قولهم : فصبرنا على تماديكم في غيكم ، وإخلاذك إلى بغيكم . فأبي صبر ممن أرسل عنانه إلى المكافعة ، قبل إرسال رسل المصالحة ، وجاس خلال الديار قبل ما زعمه من الإعذار والإنذار ؟ وإذا فكروا في هذه الأسباب ! ونظروا ما صدر عنهم من خطاب ، علموا العذر

(١) سورة الأنفال الآية ٦١ .

في تأخير الجواب ، وما يتذكر إلا أولو الألباب .
وأما ما تبجحوا به بما اعتقدوا من نُصْرَةٍ ، وظنوه من أن الله
جعل لهم على حزيه الغالب في كل كرة الكرة ، فلو تأملوا مآظنوه
ربحاً لوجدوه هو الخسران المبين . ولو انعموا النظر في ذلك لما كانوا
به مفتخرين ، ولتحققوا أن الذي اتفق لهم كان غرماً لا غنماً ،
وتدبروا معنى قوله تعالى : إنما نلي لهم ليزدادوا إثماً^(١) . فلم يخف
عنهم ما نالته السيوف الإسلامية منهم ، وقد رأوا عزم من حضر من
عساكرنا التي لو كانت مجتمعة عند اللقاء ما ظهر خبر عنهم ، فانا كنا
في مفتتح ملكتنا ومبتدأ أمرنا ، حللنا بالشام للنظر في أمور البلاد
والعباد . فلما تحققنا خبركم ، وقفونا أثركم ، بادرنّا نقد أديم الأرض
سيراً ، وأسرعنا لندفع عن المسلمين ضرراً وضيراً ، ونؤدي من الجهاد
السنة والفرس ، ونعمل بقوله تعالى : وسارعوا إلى مغفرة من ربكم
وجنة عرضها السموات والأرض^(٢) . فاتفق اللقاء بمن حضر من
عساكرنا المنصورة وثوقاً بقوله تعالى : كم من فئة قليلة غلبت فئة
كثيرة^(٣) . وإلا فأكبركم يعدون وقائع الجيوش الإسلامية التي كم وطئت
موطئاً يغيظ الكفار فكتب لها عمل صالح . وسارت في سبيل الله
ففتحت عليها أبواب المناجح . وتعددت أيام نصرتها التي لو دققت الفكر
فيها لأزالت ما حصل عندكم من لبس ، ولما قدرتم أن تتكروها ،
وفي تعب من ينكر ضوء الشمس . وما زال الله نعم المولى ونعم
النصير ، وإذا راجعتموم قصوا عليكم نبأ الاستظهار ، ولا ينبك مثل

(١) سورة آل عمران الآية ١٧٨ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٣٣ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٤٩ .

خبير . وما زالت تتفق الوقائع بين الملوك والحروب ، وتجري المواقف التي هي بتقدير الله فلا فخر فيها للغالب ولا عار على المغلوب . وممّن ملك استظهر عليه ثم نصر ، وعأوده التأييد فجبر بعدما كُسر ، خصوصاً ملوك هذا الدين . فإن الله تعالى تكفل لهم بحسن العقبى فقال تعالى : والعاقبة للمتقين (١) .

وأما إقامتهم الحجة علينا ، ونسبتهم التفريط إلينا ، في كوننا لم نسير إليهم رسولاً عندما حلوا بدمشق ، فنحن عندما وصلنا إلى الديار المصرية ، لم نزد على أن اعتدينا وجمعنا جيوشنا من كل مكان ، وبذلنا في الاستعداد غاية الجهد والإمكان ، وأنفقنا جزيل الأموال في العساكر والجحافل ، ووثقنا بحسن الخلف لقوله تعالى : مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل (٢) . ولما خرجنا من الديار المصرية بلغنا خروج الملك من البلاد ، لأمر حال بينه وبين المراد . فتوقفنا عن المسير توقف من أغشى رعبه عن حث الركاب ، وثبتنا تثبت الراسيات ، وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب . وبعثنا طائفة من العساكر لمقاتلة من أقام بالبلاد ، فما لاح لنا منهم بارق ولا ظهر ، وتقدمت فتخطفت من حملة على التأخر الفرر ، ووصلت إلى الفرات فما وقفت للقوم على أثر .

وأما قولهم : إننا ألقينا في قلوب العساكر والعوام أنهم فيما بعد يتلقوننا على حلب أو الفرات ، وأنهم جمعوا العساكر ورحلوا إلى الفرات وإلى حلب مرتقبين ، فالجواب عن ذلك أنهم من حين بلغنا حركتهم

(١) سورة القصص الآية ٨٣ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٦١ .

جزمنا وعلى لقائهم عزمنا . وخرجنا وخرج أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله ابن عم سيدنا رسول الله ﷺ الواجب الطاعة على كل مسلم . المفترض المباينة والمتابعة على كل منازع ومسلّم ، طائعين لله ولرسوله في أداء مفترض الجهاد ، باذلين في القيام بما أمرنا الله تعالى غاية الاجتهاد ، عاملين بأنه لا يتم أمر دين ولا دنيا إلا بشايعته ، ومن والاه فقد حفظه الله تعالى وتولاه ، ومن عانده أو عاند من أقامه فقد أذله الله ، فحين وصلنا إلى البلاد الشامية تقدمت عساكرنا تملأ السهل والجبل ، وتبلغ بقوة الله تعالى في النصر الرجاء والأمل ، ووصلت أوائلها إلى أطراف حماة وتلك النواحي فلم يقدم أحد منهم عليها ، ولا جسر أن يد حق ولا الطرف إليها . فلم نزل مقيمين حق بلغنا رجوع الملك إلى البلاد ، واخلافه موعد اللقاء ، والله لا يخلف الميعاد ، فعدنا لاستعداد جيوشنا التي لم نزل تندفع في طاعتنا اندفاع السيل ، عاملين بقوله تعالى : واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل (١) .

وأما ما جعلوه عذراً في الإقامة بأطراف البلاد وعدم الاقدام عليها ، وانهم لو فعلوا ذلك ودخلوا يبيوشهم ربما اخرب البلاد مرورها ، وبإقامتهم فسدت أمورها ، فقد فهم هذا المقصود ، ومضى آلفت العباد والبلاد منهم هذا الاشفاق ؟ ومضى اتصفت جيوشهم بهذه الأخلاق ؟ وهما آثارهم موجودة على ملك آل سلجوق وما تعرضوا لدار ولا جار ، ولا عفتوا أثراً من الآثار ، ولا حصل لمسلم منهم ضرر ولا أذى في ورد ولا صدر . وكان أحدهم يشتري قوته بدرمه وديناره ، ويأبى أن تمتد إلى أحد من المسلمين يد اضراره . هذه سنة

(١) سورة الأنفال الآية ٦٠ .

أهل الإسلام وفعل من يريد للكله الدوام .

وأما ما أوعدو به وأبرقوا ، وأرسلوا به عنان قلمهم وأطلقوا ، وما أبدوا من الاهتمام بجمع عساكرهم وتهيئة الجاهليين إلى غير ذلك مما ذكره في التهويل ، فالحمد لله تعالى يقول : الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل (١) .

وأما قولهم : وإلا فدماء المسلمين مطلولة ، فما كان أغنامهم عن هذا الخطاب ، وأولام بأن لا يصدر إليهم عن ذلك جواب . ومن قصد الصلح والإصلاح ، كيف يقول هذا القول الذي عليه فيه من جهة الله تعالى ومن جهة رسوله أي جناح ١؟ وكيف يفسر هذه النية ويتبجح بهذه الطوية ؟ ولم يخف مواقع زلل هذا القول وخلله ؟ والنبى ﷺ يقول : نية المرء أبلى من عمله ، وبأي طريق تهدر دماء المسلمين التي من تعرض إليها يكون الله له في الدنيا والآخرة مطالباً وغريباً ومؤاخذاً ، بقوله تعالى : ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً (٢) وإذا كان الأمر كذلك فالبشرى لأهل الإسلام بما نحن عليه من الهمم المصروفة إلى الاستعداد ، وجمع العساكر التي تكون لها الملائكة الكرام ، إن شاء الله تعالى ، من الأنجاد ، والاستكثار من الجيوش الإسلامية المتوفرة العدد ، المتكاثرة العدد ، الموعودة بالنصر الذي يحققها في الظعن والإقامة ، الواقعة [به] من قوله ﷺ : لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على عدوم إلى يوم القيامة ، المبلفة في نصر دين الله آمالاً ،

(١) سورة آل عمران الآية ١٧٣ .

(٢) سورة النساء الآية ٩٣ .

المستعدة لإجابة داعي الله إذ قال : انفروا خفافاً وثقالاً^(١) .

وأما رسلهم فلان وفلان فقد وصلوا إلينا ووفدوا علينا ، وأكرمنا وفادتهم ، وغزّزنا لأجل مرسلهم من الإقبال مادتهم ، وسمعنا خطابهم رأعدنا عليهم جوابهم . هذا مع كوننا لم يخف علينا الخطاط قدروهم ، ولا ضفف أمرهم ، وانهم ما دفعوا لأفواه الخطوب ، إلا لما ارتكبوه من ذنوب ، وما كان ينبغي أن يرسل مثل هؤلاء لمثلنا من مثله ، ولا يلتدب لمثل هذا الأمر المهم إلا من يجمع على فصل خطابه وقضله .

وأما ما التمسوه من الهدايا والتحف ، فسلو قدموا من هداياهم حسنة لموضناهم بأحسن منها ، ولو اتحفونا بتحفة لقابلناها بأجل عوض عنها . وقد كان عمهم الملك أحمد راسل والدنا الشهيد ، وناجى بالهدايا والتحف من مكان بعيد ، وتقرب إلى قلبه بحسن الخطاب ، فأحسن له الجواب . وأتى البيوت من أبوابها بحسن الأدب ، وتمسك من الملاطفة بأقوى سبب .

والآن فحيث انتهت الأجوبة إلى حدها ، وأدركت الأنفة من مقابلة ذلك الخطاب غاية مقصدها فنقول : إذا جنح الملك للسلم جنحنا لها ، وإذا دخل في الملة الحمديّة ممثلاً ما أمر الله تعالى به بمجتنباً ما عنه نهى ، وانتظم في سلك الإيمان ، وتمسك بموجباته تمسك المتشرف بدخوله فيه لا المنئان ، وتجنب التشبه بمن قال الله تعالى في حقهم : قل لا تمثوا عليّ إسلامكم ، بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان^(٢) ؛ وطابق فعله قوله ، ورفض الكفار الذين لا يحل له أن يتخذهم حوله ، وأرسل إلينا

(١) سورة التوبة الآية ٤١ .

(٢) سورة الحجرات الآية ١٧ .

رسولاً من جهته يرتل آيات الصلح ترتيلاً ، ويروق خطابه وجوابه حتى يتلو كل أحد عند عوده : ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً ^(١) ، صارت حجتنا وحجته مركبة على من خالف ذلك ، وكلمتنا وكلمته قامعة أهل الشرك في سائر الممالك ومظافرتنا له تكسب الكافرين هواناً . والشاهد لمصافاتنا مفاد قوله تعالى : واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ^(٢) . وينتظم إن شاء الله تعالى شمل المصالح أحسن انتظام ، ويحصل التمسك من المواعدة والمظاهرة بعروة لا انفصال لها ولا انفصام ، وتستقر قواعد الصلح على ما يرضي الله تعالى ورسوله عليه أفضل الصلاة والسلام .

صبح الاعشى للقلقشندي ج ٢٤٣٧ - ٢٥٠

٢٣٠ - نص الموسوم الذي أصدره غازان لما احتل دمشق سنة ٦٩٩ هـ وفيه يؤمن أهل دمشق . وقد قرئ في دمشق نفسها :

بقوة الله تعالى وإقبال دولة السلطان محمود غازان .

ليعلم أمراء التوامين ^(٣) والآلاف والمئين من عموم العساكر المنصورة من الفل والأرمن والكرج وغيرهم من داخل تحت ربة طاعتنا : ان الله لما نور قلوبنا بنور الإسلام ، وهدانا إلى ملة النبي عليه السلام : دأمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ، فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين ^(٤) ، ولما أن سمعنا أن حكام مصر والشام خارجون عن طريق الدين ، غير متمكين بأحكام الإسلام ، فاقضون

(١) سورة الفرقان الآية ٢٢ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٠٣ .

(٣) كلمة تومان أو طرمان تعني فرقة من الجيش عددها عشرة آلاف جندي .

(٤) سورة الزمر الايتان ٢٢ و ٢٣ .

لمهودهم ، حالفون بالآيمان الفاجرة . ليس لهم وفا ولا زمام ، ولا أمورهم التيام ولا انتظام ، وكان أحسدهم إذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد^(١) . وشاع شعارهم بالحيف على الرعية وأضاعوا الحقوق المرعية ، ومدوا أيديهم العادية إلى حرِيمهم وأموالهم وأولادهم وعيالهم ، والتخطي عن جادة العدل والإنصاف ، وارتكبا الجور والاعتساف ، حملتنا الحمية الدينية والحفيظة الإسلامية على أن توجهنا إلى هذه البلاد لإزالة هذا المدوان وإمادة هذا العصيان ، مستصحين الجهم الغفير من العساكر التي ضاق بهم الفضاء ، ونسلطهم على العصاة لله من الله قضاء ، ونذرنا على أنفسنا إن وفقنا الله تعالى لفتح البلاد أزلنا الفساد عن العباد ، ممثلين للأمر الإلهي : إن الله يأمر بالعدل والإحسان^(٢) . قلله علينا بذلك الامتنان ، وإجابة لما ندب إليه الرسول صلى الله عليه وسلم أن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون في حكمهم .

وحيث كانت طويتنا مشتملة على هذه المقاصد الحميدة والنذور الأكيدة ، من الله علينا يتبلج تبشير النصر المبين والفتح المستبين ، وأتم علينا نعمه وأزل علينا سكينته ، قهرنا العدو الطاغية والجيوش الباغية وفرقناهم أيدي سباً ومزقناهم كل ممزق حتى : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً^(٣) . فازدادت صدورنا انشراحاً للإسلام وقويت نفوسنا بحقيقة الأحكام ، منخرطين في زمرة من حُبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم ، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان وأولئك هم الراشدون ،

(١) سورة البقرة الآية ٢٠٥ .

(٢) سورة النحل الآية ٩٠ .

(٣) سورة الاسراء الآية ٨١ .

فضلاً من الله ونعمه . فوجب علينا رعاية تلك العهود الموثقة والندور المؤكدة .

فصدرت مراسلتنا العالية ألا يتعرض أحد من العساكر المذكورة على اختلاف طبقاتها وقباين أجناسها واختلاف لغاتها لدمشق وأعمالها وسائر البلاد الشامية الإسلامية وإن يكفوا أظفار التعدي عن أنفسهم وأموالهم وحريتهم ، ولا يجهلوا حول حماه بوجه من الوجوه حتى يشتغلوا بصدور مشروحة وآمال مفتوحة لمهارة البلاد وتطهير الفساد وتطمين العباد بما هو كل واحد بمصداقه من تجارة وزراعة وغير ذلك من كل صناعة .

وكان هذا الموجع العظيم ، وكثرة هذه العساكر ، وتواحم هذه الدساكر قد عرض بعض نفر يسير إلى نهب الرعايا وأسرهم فأمرنا بقتلهم كيف رموم بشرم ، ليعتبر الباقون ويقتطعوا أطعاهم عن النهب والأمر وغير ذلك من جميع الفساد ، ولينظروا أننا لا نسامح بعد هذا الأمر البليغ البتة في أذية أحد من العباد ، ولا يتعرضوا لأحد من أهل الأديان على اختلاف أديانهم من اليهود والنصارى والصائبة ، فكل منهم قد عاد منا في أمان ، فانهم إنما يؤدون الجزية ليكون لهم أمان في أموالهم ودمامهم . والسلطين موصون على أهل الذمة كما هم موصون على المسلمين من أهل الأمة ، فانهم من جملة الرعايا . قال عليه السلام : كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته .

فسبيل القضاة والخطباء والمشايع والعلماء والأكابر والشرفاء والمشاهير وعامة الرعايا الاستبشار بهذا النصر الهني والفتح السني ، وأخذ الحظ الوافر من السرور ، والنصيب الأكبر من النعمة والحبور .

مقبلين على الدعاء لهذه الدولة القاهرة والمملكة الظاهرة آتاء الليل وأطراف النهار .

وكتب خامس ربيع الأول سنة تسع وتسعين وست مائة (١).
 كنز الدرر للدواداري ٢٠ - ٢٢
 ٢٣١ - نصيب النعمان الذي دعي به للسلطان غازان لما احتل دمشق
 سنة ٦٩٩ هـ
 مولانا السلطان الأعظم سلطان الإسلام والمسلمين مظفر الدنيا والدين
 محمود غازان .
 النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج ٨ - ١٢٥
 ٢٣٣ - رسالة غازان لأهل دمشق لما احتلها ولم يتمكن من
 احتلال قلعته ؛
 احتل غازان دمشق ولكن القلعة ظلت بمنته عليه وصامدة في
 وجهه ، فتضايق من المكوث في دمشق فتركها ورجع إلى بلاده ، وقبل
 رحيله عن دمشق وجه إلى أهلها الرسالة التالية يقول فيها :
 إنا قد تركنا نوابنا بالشام في ستين ألف مقاتل ، وفي عزمنا العود
 في زمن الخريف ، والدخول إلى البلاد المصرية وفتحها .
 البداية والنهاية لابن كثير ج ١٤ - ٩

٢٣٣ - مرسوم أصدره غازان بتقليد الأمير قبجق بلاد الشام
 كلها وقد قرىء على منابر دمشق سنة ٦٩٩ هـ :
 الحمد لله الذي جرد لنصر هذه الدولة القاهرة سيفاً ماضياً ،
 وانتضى لتأييدها من أوليائها قاضياً قاضياً ، وارتضى لها من أصفائها

(١) اورد المقرئ في كتاب « السلوك » ج ١ ، ق ٣ ، ١٠١١ - ١٠١٢ نصاً قريباً
 من النص أعلاه مع وجود بعض الخلافات اليسيرة .

من أصبح الملك عنه راضياً . نحمده ونشكره على نعمته التي أورتنا الممالك ، وجمعت لنا ما بين النصر والفتح وما أشبه ذلك . ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة تنيل النجاة وترفع الدرجات ، ونشهد أن محمداً نبيه المرسل بالهدى والصدق ، والمبعوث بدين الحق ، صلى الله عليه صلاة تنيله الوسيلة والفضيلة ، وعلى آله خير آل وأشرف قبيلة .

وبعد : فإن الله تعالى من علينا بالإيمان ، وهدايتنا إلى أشرف الأديان ، حمدناه وشكرناه على أنه أضاف إلى ملكتنا للدنيا ملكتنا الآخرة ، وجلل علينا حلل الدين الفاخرة ، ونذرنا أن نعسم الرعاية بعدلنا ونشمل البرية بفضلنا ، وألا نسمع بمظلوم إلا نصرناه ، ولا نطلع على مقهور إلا انقذناه .

فلما اتصل بنا ما بمصر من المظالم ، ومن فيها من غاصب وظالم ، هاجرتنا لنصر الله تعالى ونصرة الدين ، وبادرنا لإنقاذ من فيها من المسلمين ، وراسلناهم واندثرناهم ، وكاتبناهم وزجرناهم ووعظناهم ، فلم تنفع فيهم العظة ، وأيقظناهم فلم تكن عندهم يقظة ، فلقيناهم بقوة الله تعالى فكسرتهم وقلعنا آثارهم ، وملكنا الله تعالى أرضهم وديارهم ، وتبعناهم إلى الرمل وحطمتهم كما حطم سليمان وجنوده وادى النمل . فلم ينج منهم إلا الفريد ، ولا سلم إلا البريد .

فلما استقر بملكنا البلاد ، وجب علينا حسن النظر في أمور العباد ، فأحصرتنا الفكر فيمن نقلده الأمور ، وأنعمنا النظر فيمن نفوض إليه مصالح الجمهور ، فاخترنا لها من يحفظ نظامها المستقيم ، ويقيم ما أتاد من قوامها القويم ، يقول فيسمع مقالها ، ويفعل فتقتفى أفعالها ، يكون أمره من أمرنا ، وحكمه من حكمنا ، وطاعته من طاعتنا ، ومحبتنا هي الطريق إلى محبتنا ، فرأينا أن الجناب العالي الأوحدي المؤيدي العضدي النصيري العمالي العادلي الذخري الكفيلي

السيد المهدي المجاهدي الأميري ، الهامي النظامي السيفي الدين ملك الأمراء في العالمين ، ظهير الملوك والسلاطين قفجق هو المخصوص بهذه الصفات الجليلة ، والمحتوي على هذه المناقب الجليلة ، وإن له حرمة المهاجرة إلى أبوابنا ، ووسيلة القصد إلى ركابنا ، فمرفنا له هذه الحرمة وقابلناه بهذه النعمة ، ورأينا أنه لهذا المنصب حفيظ قمين ، وعلى ما استحفظ قوي أمين ، وأنه يبلغنا الغرض من حفظ الرعايا ، فأقنناه مقامنا في العدل والقضايا .

فلذلك رسمنا أن نفوض إليه نيابة السلطنة الشريفة بالممالك الشامية والبلعبكية والمحسية والساحلية والجليلية والعجلانية والرحبية ، ومن العريش إلى سلمية ، نيابة عامة كاملة شاملة ، يؤتمرها بأمره . ويزدجر فيها بزجره ، ويطاع في أوامره ونواهيه ، ولا يخرج أحد عن حكمه ولا يعصيه . له الأمر التام ، والنظر العام ، وحسن التدبير ، وجميل التأثير ، والإحسان الشامل لأهل البلاد ، واستجلاب الفزاة والقواد ، وتأمين من يطلب الأمان والطاعة والامتنان ، متفقاً في الاستخدام والتأمين مع ملك الأمراء ناصر الدين ، فإن اجتماع الآراء بركة ، والهمم تؤثر إذا كانت مشتركة ، وكل من أمناء ، فإنه أماننا أجريناه على قلمها ولسانها .

وقد أذعن عليه بالسيف والسنجق الشريف والكوس والبايزة (١) الذهب برأس السبع ، رسمنا له بألف رجل من المقل يركبون لركوبه وينزلون لنزوله ، ليكونوا تحت حكمه ، رفعة لقدمه ، وتنوياً باسمه ، وسبيل الأمراء والمقدمين وأمراء العربان والتركمان والأكراد والدواوين ،

(١) البايظة : لفظ مغولي يطلق على لوح صغير من ذهب رسم على أحد وجهيه رأس أسد ، وكانت تمنح لكبار رجال الدولة عند المغول .

والصدور والأعيان والجمهور أن يتحققوا أنه نافذنا في السلطنة الشريفة ،
وأن له هذه المنزلة المنيفة وليطيعوه طاعة تزلهم لديه وتقرهم إليه ،
ويحصل لهم بها رضا عنهم وإقبال عليهم وقربهم منه . وليلزموا عنده
الأدب في الخدمة كما يجب ، وليكونوا معه في الطاعة والموافقة على
ما يجب .

وعلى ملك الأمراء سيف الدين بتقوى الله في أحكامه ، وخشيته
في نقضه وإبرامه ، وتعظيم الشرع وحكامه ، وتنفيذ أقضية كل قاض
على قول إمامه . وليعتمد الجلوس للعدل والإنصاف ، وأخذ حق
المشروف من الأشراف ، وليقم الحدود والقصاص على كل من وجبت
عليه . وليكف الكف العادية عن كل من يتعدى عليه ، وقد تقدم
من الأمر بالآثار الجميلة في الشام المحروس ما تشوقت إليه الأعين وثاقت
إليه النفوس . وقد رده الله سبحانه إليهم رداً جميلاً ، فليكن بمصالح
الدولة ومصالح الرعية كفيلاً ، والله تعالى يجعل له إلى الخير سبيلاً ،
ويوضح له إلى مرضي الله ومراضينا دليلاً بمنه وفضله إن شاء الله تعالى .
وكتب في جمادى الأولى سنة قسح وتسعين وسبعمائة (١) .

٢٣٤ - رسالة غازان إلى عز الدين أيبك الأفرم نائب الشام يرغبه
في الدخول بطاعته سنة ٧٠٢ هـ :

بسم الله الرحمن الرحيم :

فرمان السلطان محمود غازان .

ليعلم الأمير أفرم وأكابر الأمراء ورعاء العساكر والأجناد والقضاة

(١) ورد نص هذه الرسالة في كل من كتاب « السلوك » للمقرئ ج ١ ، ق ٣
١٠١٣-١٠١٥ في « كنز الدرر » للدواداري ٢٥-٢٧ . ولكن نص المقرئ الذي أثبتناه
أعلاه أكمل من نص الدرر الذي يختلف في بعض ألفاظه عن نصنا وإن يكن المعنى واحداً.

والسادات والأئمة والصدور والأكابر والمشاهير والرؤساء وجوام الرعايا من أهل دمشق ، أنه حيث خصنا الله تعالى بالعناية الأزلية والسعادة الأبدية ، وشرح صدورنا للإسلام ، ونور قلوبنا للإيمان ، وأورثنا سلطنة الآباء والأجداد ؛ وأمدنا بالنصرة المتوافرة الإمداد ، قصدنا لإثابة الشكر على نعمائه بحسب الإمكان . فعاهدنا الله تعالى على ملازمة البر والإحسان ، ودفع الرزايا عن الرعايا ، وإيصال البر إلى البرايا ، سيما طوائف المسلمين وطبقات المؤمنين ، وألا نرخص في القتل ما لم يبدأنا به الجاهل ، فكل ليبب يعلم أن البادي أظلم . والذي يحقق ذلك ما عرفه الداني والقاصي ، من طريقتنا السلوكية مع المطيع والمعاصي . وما ترتب بيننا وبين أنسابنا الأصاغر والأكابر ، وتركنا المقاتلة إلا مع بادر مكابر . وحيث كان أهل مصر والشام يحبون ويودون قوة الإسلام : كان الواجب عليهم إظهار السرور وإبداء الحبور بإسلام ذراري جنكز خان وعساكرهم التي لا غاية لأواخرهم ، وتؤمن غلبة المسلمين في تلك البلاد ، وانفاذ الرسل إلينا عن الوداد ؛ وإرسال التحف والهدايا . والشكر لله ولنا على تلك المزايا . فما أبصرنا منهم في عموم الأوقات إلا ما لا يحسن من الحركات ، حق إنهم عموما على ماردن وديار بكر طغيانا ، وأقدموا على القتل والنهب فيها عداونا . فدعنا الحمية على الإسلام إلى الفساد والانتقام ، وهمنا بأن نجر العساكر ونبيد البادي منهم والحاضر ، فصادفتهم المراحم المميعة التي لم تزل لنا خلقاً شبيعة ، فوقفنا مقتدين بقوله تعالى : وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا (١) . فانفذنا الإيلجية مع قضاة ثقات ، لعلهم في أمرم يتفكرون ، وإلى الانابة يهتدون ، فأثوم بصرائح النصائح ، وهودوم

(١) سورة الاسراء الآية ١٥ .

إلى جدد المصالح ، فعصى سلطان مصر عتواً ونفوراً ، وأودعهم السجن تجبراً وغروراً . فافضت حركاتهم الذميمة إلى أن مال عليهم الجنود ، وحل بهم ما حل بعادوثود . ولولا رفقنا المحبول بنا . لأضحت الشام خالية الديار .

ولما ثنينا عنان العزيمية ، ترجأ على البرآء من الجريمة ، ثنينا للتركيب الحجة الرسالة . لعلمهم ينتهون عن التادي في الجهالة . فما سمعوا من الرسول قتيلاً وحبسوه زماناً طويلاً . وأما في الإعادة ، فقد خالفوا الذاهبين في العادة ، لأنهم لم يصحبوه واحداً من رسلهم ، ليتداركوا ما فرط من زللهم . وبأيت ما حملوه من الجواب كان متضمناً لوجه من الصواب . فإن كتابهم دل على فساد آرائهم ، وتعمقهم في متابعة أهوائهم ، فقد ضمنوا متهمين المقال مطواه^(١) . وكتبوا اسم سلطانهم بالألقاب البليغة بالذهب أعلاه ، واسم الله تعالى واسم رسوله عليه الصلاة والسلام بالمداد ، واحمنا بعد عدة أسطر للعناد . فحملنا ذلك على عدم معرفتهم بالرسوم والآداب ، وقلة ممارستهم الخطاب والجواب .

وحيث أردنا ألا يتأذى بذلك المسلمون تلونا : فاصنع عنهم وقل سلام فسوف يعلمون^(٢) . وعادونا إيفاد الإيلجية مع أكابر القضاة ، وحملنا إليهم الخلع والموهبات ، ليسلكوا مسالك الموافقات ، ويتجنبوا جوانب المخالفات . فوصل الخبر عقيب توجه الإيلجية أن القوم قصدوا ديار بكر ، وحلوا حل الكيد والمكر . فأمرنا بركوب العساكر وإهلاك الباغين بالسيوف البواتر . فأنتهى خبر ذلك إليهم ، وفزعوا من سطوتنا عليهم ، فأخذوا عن ديار بكر جانباً ، وأصبح صحيح أملهم كاذباً ،

(١) كذا بالأصل والمعنى غير واضح .

(٢) سورة الزخرف الآية ٨٩ .

لكنهم هـوا على خرقـت ومـطية وسيس ، وخربوا أطرافها وحوالها بالحيلة والتلبيس . ولا شبهة لأحد أن خرتبرت ومطية من ولايتنا ، وصاحب سيس من الداخلين في شريعة طاعتنا . وقد كانوا أظهروا للإيليجية الألية (١) ، واستلزم إقدامهم على ذلك كذب القضية . وأيضاً كتبوا الأكراد والروم بخطاب الأخ مراراً ، ودعوم إلى إفارة الشر والفتن صراً وجهاراً ، وما علموا أن صحارى بلادنا بملاءة من أمثال أولئك . ولا التفات لأحد إلى ذلك . وكتبوا أيضاً إلى ملك الكرج تارين داود ، وأثبتوا البر والعبودية مع أنه سبى أزواجهم وبناتهم ، وقطع أشجارهم (٢) ، وقتل صغارهم وكبارهم ونحرق مساكنهم وأماكنهم ، ونتبع غنائمهم ومكائهم ، ونجعل أطلالهم ممحوة بالطمس ، وأجسادهم كأن لم تفن بالأمس .

وإن لاح لهم الاحتراز فليستدركوا فارطهم ، وليرحموا أنفسهم وأزواجهم وأولادهم وأموالهم ، وليبادروا إلى ما هو السبب للخلاص ويدخلوا في طاعتنا عن صدق وإخلاص . وليتحققوا أننا لا نريد منهم خزائن ولا أموالاً ، فإن الله تعالى قد آتانا من المال ما إن مفاتيحه لتتوء بالعصبة أولي القوة . وأغنانا بما أعطانا عما هو في أيدي سوانا . وفيما منحنا من المملكة المريضة والسلطنة المستفيضة ، والعساكر والجيش غير المحصورة ، والألوية والأعلام المنصورة متسع وكفاية ، بل يخطبون باسمنا ، ويضربون الدينار بسكتنا حق فقر الجمهور على أمورهم ، من أميرهم ومأمورهم زائدين في الإقطاعات والمشاكرات والمرتبات والإقارات . ولا يخفى عليهم أن الشام كان في الأعوام الماضية والأيام الخالية ،

(١) كذا بالأصل والألية جمع الألى بمعنى النعمة .
(٢) كذا بالأصل .

تارة مع الروم وأخرى مع العراق ، وعن مصر لازال منقطع العلاق ، إلى زمان تغلب طائفة من أهل الخروج والفتن . فكما كانوا يتصورون أن الثغر هو العراق وديار بكر ، فليتصوروا بعد اليوم أنه غزة وحدود الرمل . وكما كانوا يستمدون منهم علينا ، ويستمدون منها عليهم ولا يعتمدون على القلاع ، فإنهم بالمحاصرة يمجزون ، ومن الاضطراب يسلمون ، ومهما تركوا الوسوس والخيالات ، وأطاعونا بصدق النيات قلناهم في أمان الله الملك العلام ، وأمان الرسول عليه السلام ، وأماننا في النفس والأهل والمال ، ولا نصيبهم من عساكرنا أذية في عموم الأحوال . كتاب السلوك للمقريزي ج ١ ، ق ٣ ١٠٢٤-١٠٢٧

٢٣٥- رمالة سيف الدين سلار نائب السلطان الملك الناصر بن قلاوون إلى نائب السلطان بقلعة الجبل يبشره بكسر التتار في معركة مرج الصفر سنة ٧٠٢ هـ ، وهي من إنشاء شهاب الدين محمود الحلبي . وكان ذلك في رمضان من تلك السنة .

... ونبشره بالفتح الذي أعاد الله به الأمة خلقاً جديداً ، والنصر الذي أنزل الله فيه من الملائكة أنصاراً للملة وجنوداً ، والظفر الذي أطفأ الله به من نار الكفر ما لم يكن يهرب خوفاً ، والغزوة التي زلزل الله بها جبال أهل الشرك ، وقد تدفقت على الأرض أمثال البحار عدداً وعديداً . المملوك يقبل اليد العالية التي لها من هذه النصرة وإن لم تبلغها ، أجر الرامي المسدد سهمه ، المعجل في التاني غنمه ، الموقر من المحامد الجزيلة قسمه ، ويهيئ المولى بهذا الفتح الذي مد الله به على الأمة جناح رحمته وفضله ، ومن على أيماننا الزاهرة فيه بالشام وأهله ، وبرز فيه الإسلام كله للشرك كله ، والله الحمد الذي أعز دينه

ونصره ، وحصد بسيوف الإسلام عدو دينه بعد أن حصره ، وأباد جيوش الشرك ومم مائة ألف أو يزيدون ، وأفنى أحزاب أهل الكفر وكانوا أمثال الرمال لا يعدون . ويُنى أن علمه الكريم قد أحاط بما كان من أمر هذا العدو المخدول ودخوله إلى البلاد المحروسة يجيوشه وكتائبه ، وجوعه وجنوده من أشياح أهل الكفر وأحزاب الشرك . ولما تواصلت الأخبار بقرية ، واستعداده بحزبه ، ومهاجمته البلاد ، وإيقاع الرعب في قلوب أهلها بالتنوع في الفساد ، ساق الركاب الشريف في طلبه يطوي المراحل ويقطع في كل يوم منزلتين بل منازل . ولما حل الركاب الشريف بمرج الصفر على مرحلة من دمشق المحروسة في يوم السبت مستهل شهر رمضان المعظم زينت العساكر المنصورة للقاء حال وصولها ، واستعدت للحرب دون تشاغل بأسباب نزولها . فوافى العدو المخدول في مائة ألف من جيوش تسيل كالرمال وتعلو الجبال بأشد من الجبال . وحين وصلوا حملوا على الميمنة يجملتهم ، وقصدوا إزاحتها عن موقعها بجملتهم فتلفتهم الجيوش المنصورة بنفوس قد بايعت الله على لقاء عدو الله وعدوها ووثقت بما أعد الله لها من الجزاء في رواحها في سبيله وغدوها . وصدمتهم صدمة كسرت حدم وأوهنت شدتهم وشدحم ، وأزالت طمعهم وأبانت ظلمهم . وسالت عليهم الجيوش المنصورة من كل جانب . وحميت الحرب بين الكتائب الإسلامية وبين تلك الكتائب . ودخل الليل ونار الحرب تشتعل ، والجياد من المهاجر تحفى وبالجماجم تنتعل . فآووا إلى جبال اعتصموا بها ، واحتتموا بتوعر مسالكها وضيق عقابها ، وأحاطت بهم الجيوش المنصورة لحوسهم ^(١) لالحفظهم ، وتضم أطرافهم لأحلبهم

(١) الحوس : القتل .

بل لبغضهم . فكانوا - بعد كثرة من قتل منهم في المعركة الأولى أوفر من أول الليل - جمعاً يناهز الأربعين ألف فارس . فأصبحوا يعاودون القتال وينزلون إلى أطراف الجبال للنزال . والجيش المنصورة تلزم من كل جانب ، وتحكم في أبطالهم القنا والقواضب . ومرت في أثناء ذلك حملات ظهر في كل منها خسارهم ، وشهد عندهم بما يكابدون قتلهم وإسارهم . وبعد ذلك نزلوا من جانب واحد يطلبون الفرار ، ويتوقعون القتل ان تعذر الإسار . فسأقت خلفهم الجيوش المنصورة تتخطفهم رماحها وتنلقفهم صفاحها . وتقاذفت بمن نجا القلوات وغرقتهم أحواب الصراب قبل أمواج الفرات . فأخذوا قبضاً باليد من بطون الأودية ورؤوس الشعاب ولم يحصل أحد منهم على الغنيمة بالإياب . وقتل أكثر مقدمي التمانات وفر كبيرهم ، وأنتى له الفرار وبين يديه مفاوز ان سلك منها تناولته بأرماع من العطش القفار . فليأخذ المولى حظه من هذه البشرية التي تنبئ عن الفتح العظيم والفضل العميم ، والنصرة التي حفظ الله بها على الإسلام البلاد والثغور والأموال والحريم ، ويكتب إلى البلاد بضمونها ويسر قلوب أهل الثغر بكنونها ، ويستنهض المولى الأمة تشكر الله عليها ، ومن ذا الذي يقوم بشكر ذلك ؟ ! ويعرفهم مواقع هذه النصر التي أنجد الله فيها الإسلام بالملائك ، ويتقدم أمره بضرب البشائر في كل مكان ، ويشهر في جميع الثغور أن عدو الله وعدو الإسلام دخل في خبر كان ، وأن الله تعالى كسر جيوش التتار كسراً لا يجبر صدعه ، ولا يتأتى ، إن شاء الله تعالى ، جمعه . والله تعالى يسمعه من التهاني كل ما يسر الإسلام وأهله ، ويشكر قوله في مصالح الإسلام وفعله ، إن شاء الله تعالى .

نهاية الأرب للنويري ج ٥ ١٦١ - ١٦٤

٢٣٦ - رسالة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية إلى غازان وذلك بعد وقعة شقحب الثانية وانتصاره العظيم على جيوش غازان وهزيمته إياه هزيمة مريعة وذلك سنة ٨٧٠٣ .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على ما جدد لنا من النعمة التامة ، وسمح به من الكرامة العامة حين أعاد البدر إلى كماله ، والسرور إلى أتم أحواله ، فاشتاقت النفوس إلى عرايدها ، وارتاحت القلوب إلى ملاييدها ، وأضاءت شمس الممالي ، وطلعت بدورها بالسعد المتوالي ، وارتاحت القلوب إلى معجز برهانها التالي . وكانت غلطة من الدهر فاستدركها ، وسقطة خطب عظمتها فما ملكها . فقرت تلك العيون ، وتحققت من بلوغ الآمال الظنون فله الحمد الجزيل ما لاح في الجو بارق ، وعرا في الليل طارق .

وبعد : فليعلم الملك محمود غازان جامع الوفود وحاشد الجنود أنه قد كان ما جرى وقدّر في القدم ؛ فلا راد لما قضى وأبرم وحكم . فحملنا ذلك أنه كان من ربنا تقدير ، وأن ليس لأحد فيما أراد الله تعالى تدبير . فما لبثت إلا اليسير من المدة حتى أرسلت رسلك إلينا مجدّة تطلب الصلح وتحث عليه ، وتذكر العلم وتندب إليه ، بعدما اعتمدت الفساد في الأرضين . وكان من الواجب علينا وعليك إصلاح ذات البين ؛ فأكرمنا رسلك إكراماً يليق بجمال فعالنا ، وجاوبناهم بمقتضى حالهم لا حالنا ، وأعدناهم إليك ، وقلدناك من البغي ما عاهد وباله عليك . فعدت وأرسلت تطلب منا رسلاً تسمع كلامك ، وقد

فهمنا مقصدك ومرامك فأرسلنا إليك ما طلبت ، وركبناك فرس
البغي فيابئس ما ركبت .

فما كان إلا عند وصول رسلنا جهزت عساكرك ، وأظهرت الغدر
لنا وحرضتهم بما عهد وباله عليهم ، وما وأوه حاضراً لديهم . ثم شجعهم
من هناك ، ورجعت طالباً للسلامة من الهلاك ، فما كان إلا أن دخلوا
البلاد ، وفعلوا ما أمرتهم به من الفساد ، ونزلوا بالقرب من حلب ، وشنوا
الغارة وجدوا في الطلب ، وسيرت من جيشك جماعة إلى القزيتين ،
فشاهدتم يزكنا المنصور مرأى العين ؛ فوجدوم وقد أخذوا أغنائهم
التركان ، فتلقوم يزكنا بأخيق مكان . فلم يلبث الباغون إلا ساعة من
نهار ، وطلبوا الهزيمة والفرار ، فلم يمهرا حتى عجل الله بأرواحهم إلى
النار وبقي أجسادهم ملقاة بأرض معرض إلى يوم العرض . ثم سارت
عساكرك طالبين القوطة ، ولم يعلموا أن بها أسوداً مربوطة ، وعساكرنا
تأخر عنهم قليلاً قليلاً ، واعيننا ترقبها بكرة وأصيلا . فلما عاينوا
دمشق ظنوا أنهم يدخلونها ولأهلها بأسرون . وما علموا أنهم في تجارتهم
يخسرون ؛ فإن سجية الغدر الهلاك ، ومصرع البغي ليس منه فسكك ،
فلم تقرب الشمس حتى فرقناهم على أديم الأرض ، وشتتنا بمضهم عن
بعض .

والنجا من بقي منهم إلى الجبل ، وباتوا وهم من سيفنا على وجل ،
واقاموا عليه ليلة الأحد ، وظنوا أن ليس مقابلهم أحد . فلما دقت نصف
الليل كوساتنا المنصورة ، تحققوا أنهم الفية الباغية المكسورة . فعندما
أصبحوا نظروا إلى الأرض وقد سالت عليهم خيلاً ورجلاً حتى ضاقت
بهم عن المجال ؛ فعندما ندموا حيث لا ينفعهم الندم ، وأيقنوا بعد السلامة

بالعدم . فنأدى لسلن حالهم - وقد قصرُوا في أعمالهم - اعتقنا أيها الملك
الرحيم ، واعف عنا فإنك حلیم ، فأمرنا جيوشنا أن تفتح لهم طريقاً منها
يخرجون ، وتركناهم من أمرنا يعجبون . ففروا فرار الشاة من الأسد ،
ولم يلتفت منهم الوالد على الولد .

فلو رأيت ، أيها الملك ، عساكرك : إما ذليلاً أسيراً ، أو جريحاً عقيراً ،
وكان يوماً على الكافرين عسيراً^(١) . يوم تضاعف فيه المقتول والمأسور ،
وتصاحب فيه الذباب والنسور ، وعادوا أصحابك طعاماً للذباب ، لعضيت
على يدك وقلت : ياليتني كنت تراباً^(٢) . فبادر ، أيها الملك ، إلى حمد الله
العادل الذي لم ير عينك هذه الخفايا ، ومرورها على سمعك أهون من
العيان . ونظرك إلى عورات أصحابك يفتيك عن البیان ، فانه كان يوماً
مشهوداً ، وكان الملايكة فيه شهوداً . ولقد نصحتك فما اروعيت ، وبذلت
لك القول فما وعيت ، وركبت فرس البغي احمر كمت . فمن أجل ذلك عاد
كل حي من جيشك ميت ، وقلنا لك : من جرد سيف البغي فهو به مقتول ،
فلا تبعاً بالقول ولا تفهم ما نقول . فاستهيجت الكفر على الإيمان ، فبئس
ما سول لك الشيطان . ماشيت ان تقف معنا على الكتاب المبين ، ولا تمسوا
في الأرض مفسدين^(٣) ، فنخرج أنا وأنت عن بغداد والعراق ، ونتركها
لخليفة رسول الله إلى يوم التلاق . وإن سولت لك نفسك بخلاف ذلك ،
فأنت لامحالة هالك وعما قليل يخلو منك العراق والعجم ، وتندم حيث
لا ينفعك الندم . وقد أوضحنا لك الحق فلا تميل ، وهديناك إلى أقوم
سبيل . وتقدم بإرسال رسلنا المرسلين إليك ، ولا تعوقهم يكون وبالاً

(١) سورة الفرقان الآية ٢٦ .

(٢) سورة النبا الآية ٤٠ .

(٣) سورة البقرة الآية ٦٠ .

عليك . وكان خيلت لك نفسك أن جيوشك تعبر الديار المصرية ، صدقت ولكن على غير حالة مرضية ، أما الخيول فعلى أيدي عساكرنا مجنوبة ، والطبول في أعناقهم مقلوبة وأما الرجال ففي أعناقهم الحبال والسلاسل والأغلال ، فعادت مُثْلُكَ كالكلاب في أيدي أسود الغاب . فاختر لنفسك إما الدخول الى خراسان سريعاً ، وإما الخروج عن الروم وخراسان سريعاً .

وفي آخر هذه الرسالة هذان البيتان :

وإن كان أعجبكم عامكم فعودوا إلى الشام في قابل
فإن السيوف ألتى ورخت مواقعها في يد القتال

كنز الدرر للدوادري ١١٩ - ١٢٢

٢٣٨ - رسالة السلطان الملك الناصر بن قلاوون إلى السلطان أبي سعيد بهادر خان آخر ملوك بني هولاكو في إيران مسن إنشاء المقر الشهابي ابن فضل الله :

الحمد لله الذي جعلنا بنعمته إخواناً ، وجمعنا على طاعته أصولاً لا تتفرق أغصاناً ، لحمده على ما أولانا ونشكره على ما ولانا . ونرغب إليه في مزيد ألطافه التي شملت أقصانا وأدقانا . ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة كالشمس لا تدرج في الأرض مكاناً ، ونشهد أن سيدنا محمد آ عبده ورسوله الذي شيد بنا لشريعته أركاناً ، وشد بعضنا ببعض لنكون كما شئنا به بنائاً أو بنياناً ، صلى الله عليه وعلى آله صلاة لا تتواني ، ورضي الله عن أصحابه والتابعين لهم بإحسان ، وزادهم إحساناً ، وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد : فإن من أعظم المبهجات لدينا ، المنهجات لطريق السرور إلينا ،

الملهمات بوصف أكرم وارد علينا ، هو الكتاب الشريف ، بل السحاب
 المطيف ، بل البحر الذي يقذف درراً ، ويقص عن السحاب أثراً ،
 ويرفع سرراً ويطلع قرراً ، ويطول أوضاحاً وغرراً ، ويحدث عن
 المعجائب خبراً ، بل ينشر الروض خبراً ، ويب الرياح سحراً ، ويبرق
 ذهبه الموه آصالاً وبكراً ؛ الصادر عن الحضرة الشريفة العالية السلطانية
 الأعظمية العالمية العادلة الشاهنشاهية الأخوية القانية ، زادها الله شرفاً ،
 وأدام بها تحفاً ، وصاغ بها لكل سمع شفاً ، وأيدها بزائد مزيده
 حتى تقول : حسبي وكفى . فإنه وصل صحبة المجلس السامي الأمير
 الكبير المقرب المجتبي المرتضى المختار شرف الدين مجد الإسلام ، زين
 الأنام جمال المقربين ، مرتضى الملوك والسلطين ، الحاج أحمد الأشقر ،
 والشوق إليه شديد ، والتطلع إليه كمثل العيد . فقربناه إلينا نجياً ،
 وتلقينا منه مهدياً . وكأن السماء ألقت منه حلياً ، أو أقلت كوكباً
 درياً ، أو مدت من المجرة درجاً ، وعطفت من مهندات البروق خطباً ،
 وقدت من سواد القلوب شطر كل سطر فيها ، وأغارت مقلة كل ريم قام
 بسواد ناظره يفديها . وسرحتنا منه الحدق في حدائق ، ونفحننا به
 للحقائب حقائق ، واستطلعننا به شمس الافتقاد ، واطلعنا منه على
 نفوس نفائس الوداد . وصادف منا قلباً صادياً إلى ما يروق من أخباره ،
 وشوقاً إلى ما يهب من نسيم دياره ، وتطلعننا إلى من يرد من رسله الكرام
 ويقص علينا ما لا يستقصى من مواقع الفهام . وعلمنا منه ، وبما ذكره
 المقرب الحاج شرف الدين أحمد ما للحضرة الشريفة عليه من نعمة يلتحف
 بلباسها ، ويقتطف من مفارسها ، وتجري في السيف رونقاً ، وتزين
 بالكواكب أفقاً ، وتجري على الكشبان من الشمس رداءً مخلقاً . واحضرنا
 الحاج شرف الدين أحمد بين أيدينا الشريفة ، وشملناه بحسن ملاحظتنا

التي زادت تشريفه . وكانت حضوره وركابنا الشريف يهيجان الصيد
المحمود ، ونحن نلهج بذكره عند انتهاز كل فرصة في الصيد . وما
حصلنا فيه على لذة ظفر إلا وتمنيينا أن يكون له فيها مشاركة شهود ،
أو أن يكون حاضراً يرى كيف يسهل الله لنا بلوغ كل مقصود ، وخرج
معنا إلى المصايد ، وتفرج على الصائد ، ورأى ما حف بموكبنا المنصور
من ذوات الوبر والجناح ، وما سخر لنا من جياذ الخيول من الرياح ،
فشاهد ما أوتينا من الملك السلياني في سرعة السير ، واختلاف ما جمع
لنا من الأنس والوحش والطير . واستغرقت أوقانتنا الشريفة
في السؤال عن مزاجه الكريم ؛ وما هو عليه من السرور المستديم ،
والتأييد الذي انقلب به أولياؤه بنعمة من الله وفضل لم يسسهم سوء
واتبعوا وضوان الله . والله ذو فضل عظيم . وتجددت المسرات بهذه
البشائر المسرات ، واضفنا هذه النعمة إلى ما نحمد الله عليه مما أيدنا
به من النصر والظفر والتأييد ، والنعم التي تواتت إلينا ونحن نرجو
المزيد . ويضاعف الحمد والشكر لله على هذه المواهب التي أطافت بنا
بطاقتها الثمينة ، وأثارت في آفاقنا أقدارها المينة ، وشملت ملوك
الإسلام نعمتها من كل جانب ، وأشرق شمسها حتى ملأت بأنوارها
المشارق والمغارب .

وأما ما تحفت به من البلكات الشريفة فقد وصلت وتقبلت وقبلت ،
وأكرمت لأن مهديها كريم ، وأعظمت لأنها تحفة من عظيم ، واثنيينا
عليه بما طاب ، وشكر بجرنا الزاخر جود أخيه السحاب .
وأما الإشارة العالية إلى تقاضي تجهيزه من الملاكين والسوقات فقد
رسمنا بالانتهاء إليه ، لأنه لا فرق بيننا وبين أخينا فيما يخص مراسمنا
جميعاً عليه . وقد جهز من الملاكين والطين الختوم ما أمكن الآن .
ومنه ما كنا رسمنا باستعماله من البلكات باسمه الشريف وتأخر . فلما

فرغ جهاز معه . وبعد هذا نجهز من يتوجه إلى حضرته العالية ليجدد عهداً ، ويؤدي إليه ودّاً ، وما يتأخر إلا ريثما تتجلى السحب المتوالية ويمكن التوصل سالماً إلى حضرته العالية .

وأما غير هذا ، فهو أن الحاج أحمد أحضر إلينا ورقة كريمة ، بل درة يتيمة بخط يد الحضرة الشريفة ، فأعجبنا بها ، ووجدناها في غاية الحسن التي لا يعد زهر الرياض لها شياً . وما رأينا مثل ما كتب فيها ، كأن السماء قد نظمت في سطورها النجوم الزهرة في دراريها . فأكرم بيد كتبت سطوراً اعترف بها الرمح للقلم ، واستمد السحاب من طروسها الكرم ، وجرت يحامد ذهب وسائل دم ، وتنافست على إثباتها صحائفه وأقلامه ودويه والجو والبروق والديم ، وطلعت منها تباشير النجاح ، وتحاسد عليها مسك الليل وكافور الصباح ، واتفقت على معنى واحد ، وقد تنوعت قسماً ، وأشرقت فتمنت السماء أن تكون لها صحيفة والبرق قلماً ، فأرحضت قدر ياقوت في التقليل ، وحسنت بمحاسنها هجران حبيب ، لقد أوتيت من الخط غاية الكمال ، وبسطت يد ابن هلال فيه عن فم ابن هلال . فأما الولي فإنه من أوليائها ، وانواؤه بما فاض من إفاها ، طالما حلق إليه أبو علي فاخطف برقه أباه مقلة ، وفطن ابن أسد أنه لو أدركه أبوه لنسي شبله ، فسبحان من صرف في يمينه القلم بل الأقاليم ، ووهبه من أفضل كل شيء . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وقد أهدى المقرب شرف الدين أحمد ، وحمل من المشافهات الشريفة ما تفيض على أخينا عقود ، وتفاض بروده ، والحضرة الشريفة لا تقطع أخبارها عنا التي تسر بانبائه ، وتسير بنجوم سمائه . لا زالت مناقبه مسموعة ، والقلوب على ما يجمع كلمة الإيمان مجموعة ، إن شاء الله تعالى .

صبح الأعشي للقلشندي ج ٧ ٢٥٣ - ٢٥٦

تيمورلنك ٧٧١-٨٠٧هـ / ١٣٦٩-١٤٠٤ م

٢٣٨- رسالة أرسلها تيمورلنك إلى الملك الظاهر برقوق ، وذلك قبل أن يبدأ غزوه لبلاد الشام سنة ٨٧٢هـ أو سنة ٨٧٩هـ :

قل اللهم مالك الملك ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون (١) .

اعلموا أننا جند الله ، مخلوقون من سخطه ، ومسلطون على من حل عليه غضبه ، لا نرق لشاك ولا نرحم عبدة بالك . قد نزع الله الرحمة من قلوبنا . فالويل ثم الويل لمن لم يكن من حزبنا ومن جهتنا قد خربنا البلاد ، وأيتنا الأولاد ، وأظهرنا في الأرض الفساد ، وذلت لنا أعزتها وملكننا بالشوكة أزمته . فإن خيل ذلك على السامع وأشكل وقال : إن فيه عليه مشكلا ، فقل : إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة (٢) . وذلك لكثرة عددنا وشدة بأسنا . فخيولنا سوابق ، ورماحنا خوارق ، وأسنتها بوارق ، وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال ، وجيوشنا كعدد الرمال ، ونحن أبطال وأقيال . وملكننا لا يرام ، وجارنا لا يضام ، وعزنا لسؤدد منقام ، فمن سألنا سلم ، ومن حاربنا ندم ، ومن تكلم فينا بما لا يعلم جهل . وانتم ، إن أطعتم أمرنا وقبلتم شرطنا ، فلكم ما لنا وعليكم ما علينا ، وإن خالقم وعلى بغيكم تماديتم فلا تلوموا إلا أنفسكم . فالخصون منا ، مع تشييدها لا تمنع ، والمدائن ، بشدتها ، لقتالنا لا ترد ولا تنفع .

(١) سورة الزمر الآية ٤٦ .

(٢) سورة النمل الآية ٣٤

ودعائكم علينا لا يستجاب فينا فلا يسمع ، فكيف يسمع الله دعاءكم وقد أكلتم الحرام وظلمتم جميع الأنام ، وأخذتم أموال الأيتام وقبلتم الرشوة من الحكام ، وأعددتكم لكم النار وبئس المصير ، إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنغياً يكونون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً^(١) . فبما فعلتم ذلك أوردتم أنفسكم موارد المهالك . وقد قتلتم العلماء وعصيتهم رب الأرض والسماء ، وأرقتم دم الأشراف . وهذا والله هو البغي والإسراف ، فأنتم بذلك في النار خالدون ، وفي غد ينادى عليكم : فالיום تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون^(٢) . فأبشروا بالمثل والمهوان يا أهل البغي والعدوان . وقد غلب عندكم أننا كفرة ، وثبت عندنا والله أنكم الكفرة الفجرة ، وقد سلطنا عليكم الإله ، له أمور مقدرة وأحكام محررة ، فعزيزكم عندنا ذليل ، وكثيركم لدينا قليل ، لأننا ملكنا الأرض شرقاً وغرباً ، وأخذنا منكم كل سفينة غصباً . وقد أوضحنا لكم الخطأ فأمروا برد الجواب ، قبل أن ينكشف الغطاء وتضرم الحرب نارها ، وتضع أوزارها وتصير كل عين عليكم باكية ، وينادي منادي الفراق : فهل ترى لهم من باقية^(٣) . وقد انصفناكم إذ راسلناكم ، فلا تقتلوا المسلمين كما فعلتم بالأولين ، فتخالفوا كما دتكم سنن الماضين وتمصوا رب العالمين ، فاعلى الرسول إلا البلاغ المبين . وقد أوضحنا لكم ، فأرسلوا برد الجواب ، والسلام^(٤) .

النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج ١٢ ٤٩ - ٥٠

(١) سورة النساء الآية ١٠ .

(٢) سورة الأحقاف الآية ٢٠ ،

(٣) سورة الحاقة الآية ٨ .

(٤) ورد نص هذه الرسالة في كل من « نزهة النفوس » الصبري ج ١ ، ٣٧٩-٣٨١

و « الدرة المضية في الدولة الظاهرية » لابن صصري ١٤٧ و « تاريخ ابن الفرات » ج ٩

٣٧١-٣٧٣ و « السلوك » للمقريزي ج ٣ ، ٨٠٣-٨٠٧ مع وجود خلافاً طفيفاً فيها .

٢٣٩ - رسالة برقوق الجوابية لتيه ورلثك :

بسم الله الرحمن الرحيم

قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء
وتعز من تشاء وتذل من تشاء^(١) . وحصل الوقوف على ألفاظكم
الكفرية ، ونزغاتكم الشيطانية ، وكتابتكم يخبرنا عن الحضرة الخاتمية
وسيرة الكفرة الملائكية ، وانكم مخلوقون من سخط الله ، ومسلطون
على من حـل عليه غضب الله ، وانكم لا ترقون لشاك ولا ترحمون
عبدة باله ، وقد نزع الله الرحمة من قلوبكم ، فذاك أكبر عيوبكم
وهذه من صفات الشياطين لا من شيم السلاطين . وتكفيكم هذه
الشهادة الكافية ، وبما وصفتم به أنفسكم فاهية ، قل يا أيها الكافرون
لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم
ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولي دين^(٢) . ففي كل كتاب
لنتم ، وعلى لسان كل مرسل نعم وبكل قبيح وصفتم . وعندنا خبركم
وحين خرجتم . إنكم كفرة ألا لعنة الله على الكافرين . من تمسك بالأصول
فلا يبالي بالفروع . ونحن المؤمنون حقاً ، لا يدخل علينا عيب ولا يضرنا
ريب . القرآن علينا نزل ، وهو سببنا رحيم لم يزل ، فتحققنا نزوله ،
وعلمنا ببركته تأويله ، فالنار لكم خلقت ولجلودكم أضمرت . إذا السماء
انفطرت^(٣) . ومن أعجب العجب تهديد الرقوت^(٤) بالتوت ، والسباع

(١) سورة آل عمران الآية ٢٦ .

(٢) سورة الكافرون الآيات ١-٦ .

(٣) سورة الانفطار الآية ١ .

(٤) الرقوت جمع رت وهم عليه القوم وسادتهم :

بالضلع ، والكاة بالكراع . نحن خيولنا برقية ، وسهامنا عربية ،
وسيوفنا يمانية ، ولبوسنا معرية ، وأكفنا شديدة المضارب ، وصفقنا
مذكورة في المشارق والمغارب . إن قتلناكم فنعم البضاعة ، وإن قتل
منا أحد فبينه وبين الجنة ساعة : ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله
أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله ويستبشرون
بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ،
يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ^(١) . وأما
قولكم : قلوبنا كالجبال وعدونا كالرمال فالقصاب لا يبالي بكثرة الغنم ،
وكثير الحطب يفنيه الضرر ، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن
الله ، والله مع الصابرين ^(٢) .

الفار الفار من الرزايا وطول البلايا . واعلموا أن هجوم المنية عندنا
غاية الأمنية ، إن عشنا عشنا معداء ، وإن قتلنا قتلنا شهداء . ألا إن
حزب الله هم المفلحون ^(٣) . أبعد أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين تطلبون
منا طاعة . لاسمع لكم ولا طاعة . وطلبتم أن نوضح لكم أمرنا قبل
أن ينكشف الغطاء ، ففي نظمه تركيك ، وفي سلكته تلييك . لو كشف
الغطاء لبان القصد بعد بيان أكفرتهم بعد إيمان ، أم اتخذتم إلهاً ثان .
وطلبتم من معلوم . رأيكم أن تتبع دينكم : لقد جئتم شيئاً إداً تكاد
السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً ^(٤) . قل لكاتبك
الذي وضع رسالته ووصف مقالته : وصل كتابك كضرب رباب أو كطنين

(١) سورة آل عمران الآية ١٦٩ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٤٩ .

(٣) سورة المجادلة الآية ٢٢ ،

(٤) سورة مريم الآية ٢٠ .

ذباب . كلا سنكتب ما يقول ونغد له من العذاب مدأ ونرثه مايقول^(١) .
 إن شاء الله لقد لبكتم^(٢) في الذي أرسلتم والسلام^(٣) .
 النجوم الزاهرة لابن تغري بردى ج ١٢ ٥١ - ٥٢

٢٤٠ - رسالة ثانية من المملطان الملك الظاهر برقوق جواباً لرسالة
 أرسلها له تيمورلنك .

طويل حياة المرء كالיום في العد فخيرته أن لا يزيد عن الحد
 فلا بد من نقص لكل زيادة لأن شديد البطش يقتص للعبد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العلي الشأن العظيم السلطان العميم الإحسان ، العليم بما كان
 وما يكون في كل زمان ومكان ، تاهت في ميادين فلوات معرفته
 سوابق جياذ الأفهام ، وتدكدكت لهية جلاله جبال العقول والأوهام .
 وصلى الله على سيدنا محمد حبيب الرحمن وسيد الأكوان وصاحب المعجزات
 والبرهان ، المبعوث إلى الخلق أجمعين من الأنس والجان ، والمنعوت
 بالفضل العميم والخلق العظيم ، في التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ،
 وعلى آله وصحبه الغر الكرام الحسان ، وعلى التابعين لهم بإحسان وسلم
 تسليماً كثيراً ما تعاقب الأحداث .

وبعد : فقد وصل إلى أبوابنا الشريفة العاليه كل ما جهزته أولاً

(١) سورة مريم الآية ٧٩ .

(٢) خلطتم .

(٣) وردت نصوص مشابهة في كل من « نزهة النفوس والأبدان » لابن الصيرفي ج ١

٣٨١-٣٨٢ و « كتاب العدة الماضية في الدولة الظاهرية » لابن مصري ١٤٧-١٤٨

و « تاريخ ابن الفرات » ج ٩ ٣٧٣-٣٧٤ .

وآخرأ يا أمير تيمور من كتاب ؛ وأحاطت علومنا الشريفة بما فيها من كلام وخطاب ، وقصد وعتاب ، وإرعاد وإرغاب وإرهاب ، فأما ما ذكرته في أول كتبك من ألقابنا الشريفة بالتعظيم والتبجيل والتفضيم فقد علمناه وعرفناه ، ولكن وجدنا الكلمتين اللتين في الطمغات آخر الكتب وهما راسق راسق منافيتين لذلك التعظيم ، وهذا غير مستقيم لأنه متناقض غير متناسب ، فمجبنا من هذا التناقض الواضح والتخالف الفاضح وفي المثل السائر : أصلح وقابل وأفسد وقابل .

وأما إرسالك السيف والتركاكش لنا فقد تعجبنا منه إلى الغاية ، وإنكرناه إلى النهاية ، لأنك لم تول في كتبك كلها تستشهد بتاريخ جنكيزخان وأخباره وأحواله ، وتقتدي به في أقواله وأفعاله . وما سمعنا في التواريخ ولا اتفق قط من جنكيزخان ، ولا من تقدمه وتأخره من ملوك مملكته في زمن من الأزمان أنه أهدى إلى خادم الحرمين الشريفين سيفاً ولا تركاشاً ، ما اختلف في ذلك اثنان . فأرسالها منك إلينا هل هو من باب المحبة أولاً ، وإن كان تخويفاً فنحن ما نخاف من سيفك وتركاكشك بعناية الله العظيم الأعلى .

السيف والرمح والشاب قد علمت منا الحروب فسلها فهي تنبيها
إذا التقينا تجد هذا مشاهدة في الحرب فاثبت فأمر الله آتينا
بخدمه الحرمين الله شرفنا فضلا وملكننا الأمصار تليكا
وبالجمل وحلب النصر هودنا خذ التواريخ واقراها تليكا
والأنبياء لنا الركن الشديد فكم يجاههم من عدو راح مفلوكا
ومن يكن ربه الفتاح فاصره ممن يخاف ؟ وهذا القول يكفيكا
وقد أجبناك عن السيف والتركاكش فيما مضى قبل هذا الوقت وتقدم فاعرف ذلك واعلم .

وأما ما ذكرته من قولك : إنك فتحت معنا باب المحبة والوداد والصحبة والاتحاد ، لأباب الخاصة والمشاورة والعناد ، فقد علمنا ذلك وفهمناه . والذي نفرك به ان الذي وقع منك بخلاف ما قلت ، لأنك لو كنت صادقاً في قولك ، كنت لما حضر إليك شكر أحمد وأرغون السلامي اللذان هما من بعض ممالكنا ومن جملة رعايانا أمسكتها وجهزتها إلينا بعد أن قيدتها ، فما فعلت ذلك بل عملت بالصد منه لأنك آويتها وحييتها وعظمتها وأكرمها وجعلتها من خواصك وأحبائك وأوليائك وأصحابك . وأيضاً توجه إليك صولة بن حيار الذي هو قطعة هجان من هجاننا فأكرمه وألبسته التاج وعظّمته وبعثت معه خلعة إلى نعيمير المذكور وإلى غيره من عربانه ، ووعدته بالتقدمة والإمارة ، بالتصريح العظيم لا بالتلويح والإشارة ، وكتبته إليه كتاباً ما تركت فيه ولا خليت وأظهرت كل ما كان عندك وما أبقيت فججزه إلينا وقرى على مسامعنا الشريفة كلمة كلمة ، وعرفنا واضح قصده ومبهمه . وها نحن نشرحه لك لتعلم وتتحقق أنه وصل إلينا واطلعنا عليه وما خفي أمره علينا . وهذا نصه .

دام دولته :

الأمير الكبير المعظم أمير نعيمير : أدام الله دولته شمساً . نعرض لعلو علومه المحروسة أنه قد اتصل بنا طردك عن الشام ومعاملتهم معك غير الواجب . حال وقوفك على هذا المثال تسرع في الوصول إلينا بحيث نعطيك ما أعطى المرحوم عمك أمير سليمان طاب ثراه ، ونجملك مقدم العساكر المنصورة . وبهذا برز الحكم المطاع من الحضرة العالية . ففي عزم العساكر والجيش المعظمة الوصول إلى أطراف البلاد شرقاً

وغرباً ورومياً من سائر النواحي والأمصار والبلاد والاقطار . وإث
أبطأ ركابك عن الوصول فنحن واصلون إليكم في طريقنا إلى مصر وغيره
ولا يبقى لطاعتك مزية ولأمانة ، فيكون ذلك على الخاطر المبارك .
فينبغي أن لا يكون جواب الكتاب إلا قدوم الركاب ، ففيه لكم الفوائد
العظيمة والعطايا الجسيمة ، مع ذلك إصابة الرأي منكم تقني عن تأكيد
الوصية إليكم . ومهما تعرض من المهام يُقضى حسب المراد ومنهج السداد
والله الموفق .

وبحاشية الكتاب المذكور نفسه :

وقد كتبنا إلى السلطان أحمد أن يصل إلينا ، فانظر كيف كان
عاقبة أمره فينبغي أن تتوجه أو يتوجه بعض أولادك إلينا لأجل مصالحك
كافة .

فيا أمير تيمور لو كنت صادقاً ، وكلامك بالحق ناطقاً ، ما وقع
منك مثل هذا ولا صدر ولا اتفق بل ولا ببالك خطر ، ولكن كل
ما يكون في خاطر الإنسان يظهر من الكلام الذي يخرج من فيه ،
وكل وعاء لا ينضج إلا بما فيه .

بإفعلاً بالضد من قوله فعل الفقى دال على باطنه
والمرء مجزي بأعماله إذ أظهرت ما كان في مكنه

وأما طلبك منا السلطان أحمد الخلايري غير مرة ، فقد علمناه ، ولكن
عرفنا يا أمير تيمور أيش عمل بك ؟ حق حلفت له عدة مرار بآمان
الله تعالى العظيمة ، وأعطيته العهود والمواثيق بأنك ما تقعرض إليه ولا
إلى مملكته ولا توافيه ولا تشوش عليه ، حتى اطمان بآمانك وركن إليك
وأحسن ظنه فيك ووثق بك ، واعتمد عليك فحنثته وغدرته ، وأتيتته

بفئة على حين غفلة وبدرته ، وأخذت مملكته وبلاده وأمواله وأولاده ، وأعظم من ذلك أنك اخذت أيضاً حريمه وهن في عقد نكاحه وعصمته وأعطيتهن لغيره . وقد نطق الكتاب والسنة بتحريم ذلك وعظم ذنب فاعله وقبح جرمه ، ففي أي مذهب من المذاهب يحل لك أخذ حريم المسلمين وإعطاؤهم لغير أزواجهم من المفسدين الظالمين ، وهن في عصمة أزواجهن وعقد نكاحهن ؟ إن هذا هو البلاء المبين ، وكيف تدعي أنك مسلم وتعمل هذه الفعال ؟ عرفنا في أي مذهب لك هذا حلال ؟ فأعمالك هذه كلها منافية لدعواك ، بل منافية لدين الإسلام وشرع سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام . قال الله تعالى : ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ^(١) . وقال : ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ^(٢) . وقال : ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ^(٣) . وقال عز وجل : ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ^(٤) . وقد بين لنا الخير والشر والحلال والحرام وأهلها فقال : إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ^(٥) ، وقال تعالى : ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً ^(٦) . وقال تعالى : قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم

(١) سورة المائدة الآية ٤٤ .

(٢) سورة المائدة الآية ٤٥ .

(٣) سورة المائدة الآية ٤٧ .

(٤) سورة الطلاق الآية ١٠ .

(٥) سورة النحل الآية ٩٠ .

(٦) سورة النساء الآية ٢٢ .

أو ما ملكت إيمانهم فإيمانهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون^(١) . وقال رسول الله ﷺ . كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه . وقال عليه السلام : المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه ، ففي أي مذهب من دين الإسلام تستحل هذه المحرمات العظيمة ، والمنكرات القبيحة الشنيعة الجسيمة التي يهتز لها العرش وينضب الله عز وجل لها ورسله والملائكة والناس أجمعون ؟ وما كفى ما فعلت من القان أحمد المشار إليه حتى تطلبه منا ؟ ! أعلم أن القان أحمد المشار إليه قد استجار بنا وقصدنا وصار ضيفنا ، وقد ورد : من قصدنا وجب حقه علينا . وقال تعالى لسيد الخلق أجمعين في حق الكفار الذين هم أنجس الناس : وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه^(٢) . فكيف بالمسلمين إذا استجاروا بالمسلمين ، وكيف بالملوك أبناء ملوك المسلمين ، الذين لأسلافهم الكرام معنا ومع ملوك الإسلام خدام الحرمين الشريفين صحبة ومحبة وأخوة في الله تعالى ؟ ولو لم يكن ذلك كيف يجوز في شرع المروءة والنخوة والوفاء أن نسلم ضيفنا ونزيلنا والمستجير بنا ؟ خصوصاً وجنسنا جركس جنس ملوك الإسلام السالفين خدام الحرمين الشريفين الذين اتفق لهم مع التتار ما تشهد به التواريخ ، ومن عادتنا وشأننا وطباع جنسنا أننا لأنسلم ضيفنا ولا نزيلنا ولا من استجار بنا لأحد ، وإن كنت لاتصدق ذلك فعندك من هم من جنسنا سلمهم يعرفوك ، فنحن لا يضام لنا نزيل ، نقري الضيف ونعامله بالجميل ، وهذه جبلتنا الغريزية وعادة أصلنا الأصيل ، فأرسال القان أحمد إليك أمر مستحيل :

(١) سورة المؤمن ن الآيات ١ - ٧ .

(٢) سورة التوبة الآية ٦ .

إننا ذور الفضل العزيز الوارف أيوبنا هي ملجأ للخائف
نُقرّي الضيوف ولا يضاوم نزيلنا شيمٌ ورثنا فضلها عن سالف
وكليمة تكفي الذي هو عاقل والرمز تصرّيحاً غدا للعارف

وقولك : إن العادة كانت جارية بين من سلف من ملوك الإسلام وملوك التتار ، أنه من هرب من جهة إلى جهة أخرى يسكه الملك الذي يهرب إليه ويقيده ويجهزه إلى الملك الذي هرب من عنده ، وأن دمرداش بن جوبان لما هرب في الزمن الماضي من ملكه وجاء إلى سلطان مملكتنا المعظمة المشرفة أمسكه وقيده وأرسله إليه فقد علمناه . وليس هذا الذي قلته وحكيته بصحيح ، لأن الذي وقع واتفق بخلافه . وهو أن أميراً من أمراء السلطان الملك الناصر كان يسمى قراسنقر هرب من عنده وراح إلى أبي سعيد فقطع رأسه وجهره إلى الملك الناصر . وأما دمرداش المذكور ، فالملك الناصر ما أرسله إلى أبي سعيد مثل ما قلت ، ومات دمرداش المذكور إلا في مصر المحروسة ، فليكن ذلك في علمك ثابتاً . وعلى كل حال فكلامك حجة عليك لالك ، لأنك آويت شكر أحمد وأرغون السلامي وأكرمتها وقربتهما ، وكذلك كل من حضر إليك من ممالكنا ورعاياها وخدمنا من أهل مملكتنا ، فلو أمسكتهم وقيدتهم وجهرتهم إلينا كنت تكون صادقاً في دعواك ، وكنت إذا طلبت منا أحداً ما تلام على طلبه ، فكيف وأنت البادي والممتدي ؟ ! فهذا كلام كله شاهد عليك لالك .

وأما قولك : إن صاحب ثكريت كان حرامياً قاطع طريق ففعلت معه ما فعلت مقابلة له على نجسه وحرامه وقطعه الطرقات ، فقد علمناه وسلمنا لك هذا الأمر بيض الله وجهك وما قصرت فيه ، فحبذا

ما عملت ونعم ما فعلت في حق من إعطائه جزاءه . أفأهل بفداد كانوا حرامية قطاع طرق حتى فعلت بهم ما فعلت ؟! وقتلت منهم من التجار خاصة ثمانمائة نفس في المصادرة بالعقوبة والعذاب . ففي أي مذهب يجوز هذا ؟ وهل يحل لمن يدعي الإسلام أن يعمل بخلق الله تعالى الذين أمر بالشفقة عليهم والإحسان إليهم ونشر العدل فيهم هذه الفعال ؟ وقد تعجبنا منك ، يا أمير تيمور إلى الغاية : كيف تدعي أنك عادل وتعمل بأهل بفداد المسلمين الموحدين وبغيرهم من المسلمين هذه المعامل ؟ أما تعلم أن الشفقة على خلق الله تعظيم لأمر الله ، وأن الله رحيم يحب من عباده الرحماء ، وأن الظلم حرام في جميع الملل ؟ قال رسول الله ﷺ : إن الله تعالى يقول : يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا . وقال عليه السلام : لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن .

وورد : إن فاتني ظلم ظالم . فانا الظالم . وحسب الظالمين رب العالمين الذي قال في حقهم : ألا لعنة الله على الظالمين^(١) . وقال : إنه لا يفلح الظالمون^(٢) . والباغي له مصرع . ولما جاء هولاء ومنكوترا وغازان وقصدوا ملوك الإسلام خدام الحرمين الشريفين . الذين هم من جنسنا كما ذكرنا لك أعلاه ، اتفق لهم ما اتفق بما هو مشروح في التواريخ ومعلوم عند الناس . فهما أخذه أو لئلك تأخذه إذا جئت .

وأما قولك في كتبك : إنه إن لم نجهز إليك السلطان أحمد الحلایري مقيداً ، تجيء في أول فصل الربيع إذا زالت الشمس برج الحمل ، أو لما تنزل الميزان ، وإن جهزناه إليك مقيداً تتأكد المحبة والصحبة بيننا

(١) سورة هود الآية ١٨ .

(٢) سورة الأنعام الآية ٢١ .

وبينك ، فقد علمناه ، والذي نعرفك به هو أننا كنا نتوقع أنك
تجيء قبل هذا الوقت ، فقد أبطأت كثيراً ، وملوك الإسلام خدام
الحرمين الشريفين الذين كانوا قبلنا ما تصالحوا مع مثل هولاكو وغيره
إلا حتى تزاوروا وتقابلوا واجتمعوا . ونحن أيضاً كذلك ما فصطلمح
إلا بعد أن فتاوروا وتتقابل وتتجمع . وأنت طلبت أحمد الحلایري ،
وها نحن واصلون إليك به ، نطلب منك أن تشفعنا به ، وتهبنا ذنبه
الذي صدر عنه ، وندخل عليك بسببه ، ونسأل إحسانك أن تعين
لنا موضعاً نلتقي معك فيه ، حتى نأتيك بأحمد الحلایري المذكور فيه ،
ونشفع فيه عندك . فعين لنا الوضع المذكور على حسب ما تختار ، إما
من ذاك الجانب من الفرات أو من هذا الجانب ، وأي موضع عينته
وسميته لنا جيشاك بالشار إليه فيه . وندخل عليك في أمره ونستوهب
ذنبه منك .

وأما ما ذكرته من أمر الرسول فقد علمناه . والذي نعرفك به
هو أن الرسول المذكور كان يكتب المنازل منزلة منزلة إلى بلادنا
المهروسة ، واطلع عليه في ذلك جماعة من جهتنا . ولما وصل إلى الرحبة
المهروسة قال للنائب بها : بس الأرض للأمير نيمور وأقرأ الخطبة
باسمه ، فلو كان رسولاً مصلحاً ما كان كتب المنازل ولا أكثر فضوله ،
وتحدث بما لا ينبغي له ، وتكلم فيما لا يعنيه ، وتعدى طوره ، لأنه
لا ينبغي للرسول أن يكون إلا أعمى أخرس غزير العقل ، ثقیل
الرأس ، كما قال بعضهم :

إذا قصدت الملوك فالبس من التقى والمفاه ملبس
ادخل إذا ما دخلت أعمى واخرج إذا ما خرجت أخرس
وكيف يمكن ثابتنا الذي هو من جملة ممالئنا ، وجبل لجه ودمه

على انعمنا وصدقائنا ، وغذي وربي بلبان فضلنا وجودنا [أن] بيوس
الأرض لغيرنا ، أو يخطب باسم غيرنا ؟ وكيف يترك اسم خادم
الحرمين الشريفين أستاذه ، ويذكر اسم غيره ؟ فقد تكررت منك
الفعال القبيحة ، الموجبة لما يقدره الله تعالى . ونحن نعزم بالله تعالى
لولا قلتَ لِنُصَيِّرَ : فعال حتى أعملك مقدم العساكر ، ونمشي على الشام
ومصر ، وقربت ممالكنا وآويتهم ، وبدأت بهذا كله وحصل منك
التعدي ، ما كان يتفق لرسلك ما اتفق . ولكن الجزاء من جنس العمل .
والخير بالخير والبادي أكرم . والشر بالشر والبادي أظلم .

وأيضاً كل وقت تسأل عن ممالكنا المصونة وكثرة عساكرنا المنصورة
من قلتها . فلو كنت طالباً المحبة والصحبة والمصادقة ما وقع منك هذا .
وأما قولك : إن هولاء أخذ من كل مائة رجل رجلين وجاء
بهم ، وأنت قد جئت بالرجلين وبالمائة . واعتمادك على كثرة عسكرك
على قولك فقد علمناه . وإن كان اعتمادك على كثرة عساكرك فاعتمادنا
نحن على الله تعالى ، واستمدادنا من الحرمين الشريفين ، ومددنا من
بها من الانبياء - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - والصحاب
والصالحين ، رضي الله عنهم . فإذا تلاقينا يكون ما قدره الله تعالى
ويعطي الله النصر لمن يشاء ، وتعلم ذلك الوقت لمن العاقبة ، ويظهر
فعل الله الرب القادر تعالى ، وعوائده الجميلة بنا التي لاشك عندنا فيها
ولاريب . وقطع ملوك التتار ما انتصروا على ملوك الإسلام ، بل
ملوك الإسلام خدام الحرمين الشريفين هم المؤيدون المنصورون المظفرون
بعون الله تعالى ، وببركة سيدنا محمد ﷺ ، معبودون من الله الكريم
بالفضل والإحسان والفنائم والفتوحات ؛ لأنهم أهل الكتاب والسنة والعدل

والخير والخوف من الله تعالى ، لا يقيمون في محارمه ، ولا يقدمون على ارتكاب ما ينهى عنه . فهم المؤمنون المتقون . وقال الله تعالى : وكان حقاً علينا نصر المؤمنين^(١) . وقال تعالى : إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا^(٢) . وقال : والعاقبة للمتقوى^(٣) . وقال تعالى : ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون^(٤) . وسوف ينجز الله تعالى وعده ، لأنه لا يخلف الميعاد .

وأما ما ذكرته من أمر قرا يوسف وبيرحسن وغيرهم ، وإن في معاشهم زغلاً ، وأنهم مفسدون ، وجعلك لكل واحد منهم ذنباً ، وأنت العادل الخير المفلح ، والناس كلهم مناحيس وأنت الصالح ، والله يعلم المفسد من المصلح ، فقد علمناه . والذي نعرفك به هو أن النور لا يجتمع مع الظلام ، ولا اليقظة والنم ، ولا الخير والشر في حيز واحد ، لأنها متضادة - ليس بينها اتفاق ولا التئام . وفعل المراء دال على نيته وطويته . قال الله تعالى : قل كل يعمل على شاكلته^(٥) . وقال : وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور ، وما يستوي الأحياء والأموات^(٦) . وقال : إن أكرمكم عند الله أتقاكم^(٧) . وشتان ما بين أهل الخير والفساد ، وأهل العدل وأهل البغي والعناد . فالخير هو المتقي . ومن يرتكب ما حرم الله ويعتقد

-
- (١) سورة الروم الآية ٤٧ .
 - (٢) سورة غافر الآية ٥٤ .
 - (٣) سورة طه الآية ١٣٢ .
 - (٤) سورة الأنبياء الآية ١٠٥ .
 - (٥) سورة الاسراء الآية ٨٤ .
 - (٦) سورة فاطر الآية ٢١-٢٢ .
 - (٧) سورة الحجرات الآية ١٣ .

أنه على الحق فهو الشقي .

إذا المرء يعرف قبيح خطيته ولا الذنب منه مع عظيم بليته
فذلك عين الجهل منه مع الخطا وسوف يرى عقابه عند منيته
وليس يحازي المرء إلا بفعاله ولا يرجع الصياد إلا بنيتيه

وأما قولك : نعيّر العرب أرسل بالحفية يطلب السلطان أحمد ، وإننا
نرسم لنوابنا أن يحترزوا من توجهه إليه ولا يكتنوه من ذلك ، فإنه
إن اتفق توجهه إليه يكون ذلك سبباً لخراب الديار ، فقد علمناه .
والذي نعرفك به هو أننا نتحقق أن ما يحصل خراب الديار والدمار
ومحو الآثار إلا لمن يسعى ويتكلم بخراب الديار ، ولا يحمي المكر السيء
إلا بأهله (١) . وستعلم ديار من تحرب ، وعمر من يذهب ؛ وعلى من
تكون دائرة السوء دائرة ، وسلطات المنايا قاهرة : وسيعلم الذين ظلموا
أي منقلب ينقلبون (٢) . وهانحن واصلون بجيوش وجنود وعساكر
مؤيدة . من السباع أسمع . لاتروى أسلحتهم من دماء البغاة ولا تشعب . والجواب
ما ترى لا ما تسمع .

قل للذي في الوري أضحي يماديننا احذر فأمرك رب العرش يكفيننا
مازال يمنحنا فضلا ويكفونا وفي العدا بمظيم النصر يشفيننا
أقامنا رحمة للناس أجمعهم ولم يزل من جزيل الجود يعطيننا
بالعز والنصر والتأييد عودنا وزادنا في مديد الأرض تمكيننا
وللجميل وفعل الخير وفقنا شكراً له ستره الأعلى ينطيننا
قد أسكن الرحمة الحسنى التي أمنت بها الأنام بأقصى ملكنا فينا

(١) سورة فاطر الآية ٤٣ .

(٢) سورة الشعراء الآية ٢٢٧ .

فكلما بالدعاء المرتضى نطقنا لنا الرعايا أجاب الكون آميننا
الله حافظنا ، الله ناصرنا من ذا يماندنا ؟ من ذا يقاويننا ؟
والله الموفق بفضل العيم ، والهادي إلى الصراط المستقيم ، بمنه وكرمه
وجوده ونعمه ، إن شاء الله تعالى .

كتب في ٠٠٠٠٠٠^(١) من جمادى الأولى سنة ست وتسعين وسبعمائة .
صبح الأعشى للفلقشندي ٧ - ٣٠٨ - ٣١٩

٢٤١ - رسالة من برقوق إلى تيمورلنك سنة ٨٧٩٩ حول طلب
تيمورلنك من برقوق أن يعيد إليه أحد أقربائه وأسمه أطمش الذي
التجأ إلى مصر هرباً من تيمور .
إنك إذا أطلقت الذين عندك من جهتي أطلقت من عندي من
جهتك ، والسلام .

شذرات الذهب لابن العماد ج ٦ - ٣٥٦

٢٤٢ - رسالة ابن خلدون إلى صاحب المغرب^(٢) يخبره بما دار
بينه وبين تيمورلنك عندما قابله أثناء حصاره لدمشق واجتياحه إياها .
فصل :

وإن تفضلتم بالسؤال عن حال المملوك فهي بخير والحمد لله . وكنت
في العام الفارط توجهت صعبة الركاب السلطاني إلى الشام عندما زحف

(١) يباى بالأصل . ذكر ناشر ومحرر صبح الأعشى ج ٧ - ٣٠٧ أن هذه الرسالة
التي ابتدأت ص ٣٠٧ وانتهت ص ٣١٩ من الجزء السابع إنما أضيفت إلى الأصل وكتبت بخط
مغاير لخط المخطوط الأصلي الذي اعتمده الناشر لتحقيق المخطوط .

(٢) هو السلطان الدريفي أبو سعيد عثمان الثاني ابن أحمد الذي ملك بين سنتي

٨٠٩ و ٨٨٣

الططر إليه من بلاد الروم ، مع ملكهم تَمْرُ ، واستولى على حلب وحمّة وحص وبلبك ؛ وخرّبها جميعاً . وعانت عساكره فيها بما لم يسمع أشنع منه . ونهض السلطان في عساكره لاستنقاذها وسبق إلى دمشق ، وأقام في مقابلته نحواً من شهر . ثم قفل راجعاً إلى مصر ، وتخلّف الكثير من أمرائه وقضاة . وكنت في الخلفين . وسمعت أن سلطانهم تَمْرُ سأل عني فلم يسع إلا لقاءه ، فخرجت إليه من دمشق وحضرت مجلسه وقابلني بخير ، واقنضيت منه الأمان لأهل دمشق ، وأقمت عنده خمساً وثلاثين يوماً ، أبأكره وأراوحيه ، ثم صرفني وودعني على أحسن حال ، ورجعت إلى مصر . وكان طلب مني بغلة كنت أركبها فأعطيته إياها ، وسألني البيع فتأففت منه ، لما كان يعامل به من الجليل . فبعد انصرافي إلى مصر . بعث إليّ بثمنها مع رسول كان من جهة السلطان هنالك ، وحدث الله تعالى على الخلاص من ورطات الدنيا .

وهؤلاء الططرم الذين خرجوا من المفازة وراء النهر ، بينه وبين الصين ، أعوام عشرين وسمّاه مع ملكهم الشهير جنكيزخان ، وملك المشرق كله من أيدي السلجوقية ومواليهم إلى عراق العرب . وقسم الملك بين ثلاثة من بنيهم وهم جقطاي ، وطولي ، ودوشي خان .

فجقطاي كبيرهم وكان في قسمته تركستان وكاشغر والصاغون والشاش وفرغانة وسائر ما وراء النهر من بلاد .

وطولي كان في قسمته أعمال خراسان وعراق المعجم والري إلى عراق العرب وبلاد فارس وسجستان والسند ، وكان أبناؤه قبلاي وهولاكو . ودوشي خان كان في قسمته بلاد قبيق ، ومنها صراي ، وبلاد الترك إلى خوارزم . وكان لهم أخ رابع يسمى أوكداي كبيرهم ويسمونه

الحان ، ومضاه صاحب التخت ؛ وهو بثابة الخليفة في ملك الإسلام وانقرض عقبه ، وانتقلت الحانية إلى قبلاي ، ثم إلى بني دوشي خان أصعاب صراي .

واستمر ملك الططر في هذه الدول الثلاث . وملك هولاكو بغداد وعراق العرب إلى ديار بكر ونهر الفرات . ثم زحف إلى الشام وملكها ، ورجع عنها . وزحف إليها بنوه مراراً . وملك مصر من الشرق يدافعونهم عنها ، إلى أن انقرض ملك بني هولاكو أعوام أربعين وسبعمائة . وملك بعدهم الشيخ حسن النوين وبنوه ، وافتقر ملكهم في طوائف من أهل دولتهم ، وارتفعت نفقتهم عن ملوك الشام ومصر . ثم في أعوام السبعين أو الثمانين وسبعمائة ، ظهر في بني جقطاي وراء النهر أمير اسمه تيمور وشهرته عند الناس بقر . وهو كافل لصبي متصل النسب معه إلى جقطاي في آباء كلهم ملوك . وهذا بقر بن طرغاي هو ابن عمهم ، كفل صاحب التخت منهم اسمه محمود وتزوج أمه صرغتمش ، ومد يده إلى مالك التتر كلها ، فاستولى عليها إلى ديار بكر ، ثم جال في بلاد الروم والهند ، وعاشت عساكره في نواحيها وخرّب حصونها ومدنها ، في أخبار يطول شرحها . ثم زحف بعد ذلك على الشام ففعل بها ما فعل . والله غالب على أمره . ثم رجع آخرأ إلى بلاده . والأخبار متصل بأنه قصد سمرقند وهي كرسية .

والقوم في عدد لا يسمه الإحصاء ، إن قدرت ألف ألف فقير كثير ، ولا تقول انقص ، وإن خيموا في الأرض مألوا الساح . وإن سارت كتائبهم في الأرض المريضة ضاق بهم الفضاء . وهم في الفارة والنهب والفتك بأهل العمران ، وابتلاهم بأنواع العذاب ، على ما يحصلونه من

فثاتهم آية عجب ، وعلى عادة بوادي الأعراب .
 وهذا الملك تقرأ من زعماء المارك وفراعنتهم ، والناس ينسبون له إلى
 العلم ، وآخرون إلى اعتقاد الرفض ، لما يرونه من تفضيله لأهل البيت ،
 وآخرون إلى انتحال السحر . وليس من ذلك كله في شيء : وإنما هو
 شديد الفطنة والذكاء ، كثير البحث واللجاج بما يعلم وبما لا يعلم . عمره بين
 الستين والسبعين . وركبته اليمنى عاطلة من سهم أصابه في الغارة أيام
 صباه على ما أخبرني ، فيجرها في قريب المشي . ويتناول الرجال على
 الأيدي عند طول المسافة ، وهو مصنوع له . والملك لله يؤتيه من
 يشاء من عباده .

كتاب العبر لابن خلدون ج ١٢١٩٧ - ١٢٢٢

٢٤٣ - رساله أرسلها فرج بن برقوق سلطان مصر وبلاد الشام
 إلى تيمورلنك جواب رساله كان تيمورلنك أرسلها له بعد غزوه
 بلاد الشام وتخريبه دمشق يطلب منه فيها أن يعيد له أحد قواده
 واسمه اطمش الذي كان لجأ إلى والده السلطان برقوق سابقاً .

المقام الشريف العالي الكبير العالي العادي المؤيدي المظفري المجتبي
 الملاذي الوالدي القطبي ، نصرته الدين ، ملجأ القاصدين ، ملاد العائدين ،
 قطب الإسلام ، المسلمين ، دامت مملكته تيمور كوركان .

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد حمد الله الذي جعل الأرواح أجناداً مجنده ، ووصل أسباب
 الرشد والفلاح بمن افتتح باب الإصلاح ولم يخلف موعده ، وكفل لمن
 توكل عليه في أمور النجاح يومه وغده ، والشهادة له بأنه الله القاهر
 فوق عباده بقدرته المؤيدة . والصلاة والسلام على أشرف نبي طيب الله
 عنصره ومحتده ، وأصلح بيض نسله الشريف بين فئتين عظيمتين

بلغ كل منهما من الخير مقصده ، وعلى آله الطاهرين وذريته الظاهرين بالمصالح المرشدة ، وأصحابه الذين كانت غالب قضايهم صلحاً بين الناس ، ورسلم بالاتفاق مرددة ، ومن عدم الشقاق غير مترددة ، صلاة وسلاماً نصل بهما حبل البنية بالأبوة المتجددة ، ونُحمد بها نار الحرب المتوقدة .

فقد أصدرنا هذه المفاوضة إلى المقام الشريف العالي الكبير العالمي العادلي المؤيدي المظفري الملجئي الملاذي الوالدي القطبي نصرة الدين ملجأ القاصدين ملاذ العالمين ، قطب الإسلام والمسلمين ، تيموركوركان دامت معدته ، تهدي إليه سلاماً تتلى سورة وآياته ، وثناء تتوالى غدراته وروحاته ولا تتناهى غاياته ، وتبدي لشريف علمه أن مفاوضاته العالمية التي أوردت أولاً وآخرها تضمنت رموزها باطناً وظاهراً تجهيز الأمير اطلش لزم المقام الشريف إلى حضرته العلية ، لتمسك مادة الحركات وتسكن القلوب والخواطر في سائر الجهات ، وتمتع المملكتان في الصداقة والوفاء والمحبة والصفاء على الصورة التي شرحها وبثين مناهجها ووضحها . خصوصاً ما اشار اليه من أن لجواب الكتاب حقاً لا يضيع . فوقفنا عليه وقوف إجلال ، وفهمنا ما تضمنته على التفصيل والإجمال .

والذي نبديه إلى علومه الشريفة أن سبب تأخير اطلش أنه لما قدم المقام الشريف إلى حدود الممالك الشامية ، وتوجهنا من الديار المصرية ، عرض لنا ما أوجب العود اليها سريعاً ، وكان الحزم فيما فعلناه بمشيئة الله تعالى ، ثم تحققنا من المفاوضة الواردة على يد سودون (؟) والناصر ، والحاج بيسق أحد أمراء أخورية ، قَسَمَهُ بِاللّهِ الطالب الغالب المدرك المهلك المحي الذي لا ينام ولا يموت ، إنه ان جهز إليه اطلش المشار إليه ، رجوع المقام الشريف إلى بلاده ، وأنه متوقع حضوره إليه بقارة أو سمية أو حص أو حماة ، فأخذنا في تجهيزه إلى حضرته الشريفة على أجل ما يكون .

فبينما نحن على ذلك اذ وردت علينا الأخبار بما اتفق لدمشق وأهلها من أنواع العذاب وتخريب قلعتها وديارها ، واحراق جامعتها الذي هو الجامع الفرد في الممالك الإسلامية ، وغيره من المساجد والمدارس والمعاهد والمعابد ، فلما تواترت هذه الأخبار ، وتحققت هذه المصائر ، لحنا من عدم تحرككم عن دمشق وهي عامرة نقض ما تقرر ، وعدم التفاتكم إلى الأمير اطمش المذكور وتجهيزه . فلما وردت مفارضااته الشريفة المجهزة إلى صاحب ماردين أرسلها إلينا [وهي] الواصلة على يد المجلس السامي الشيعي ، الكبير العالبي التاسكي ، الحسيني النسيبي الشرفي ، عبد المؤمن شيخ الجبال ، ابن ولي الله إمام العارفين عبد القادر الكيلاني ، أعاد الله تعالى من بركاته ، والصدر الأجل فخر الدين التاجر السفار ، المؤرخة بثاني عشر ذي القعدة الحرام من سنة أربع وثمانائة ، المتضمنة وصول المقام الشريف إلى أرزنشكان وكاخ قاصداً للبلاد الرومية . والقصد فيها تجهيز الأمير اطمش وان يفتح باب المصالحة ، ويسلك طريق المصادقة ، رعاية لصالح المملكتين ، ونظراً إلى لصالح ذات البين . وأنه لا مطمع إلا في صحبة المودة ، وإرسال اطمش صحبة شخص من مقربي حضرتنا الشريفة ، لينظر ما يصدر بمد وصولها من تهديد قواعد الجاملة ، وتشديد مباني المحبة . وان المقام الشريف - زيدت عظمته - أقسم بالله الذي هو في السماء إله وفي الأرض إله ، أن يكون في هذه الحياة محباً لمن يحبنا ومبغضاً لمن يبغضنا ، وانا نتلفظ بحضور الأمير اطمش كما تلفظتم . فعند ذلك اجتمعنا مع مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله - أدام الله تعالى أيامه ، والشيخ الإمام الفرد شيخ الإسلام سراج الملة والدين عمر البلقيني - أعاد الله تعالى من بركاته - وقضاة القضاة ومشايخ العلم والصلاح ، وأركان الدولة الشريفة ، وقرئت المفاوضة بحضورهم . فلما

سمعوا ما تضمنته من عظم القسم والحلف ببارئ النسم ، علموا أن
 جل القصد فيها تطلع المقام الشريف إلى تجهيز الأمير اطمش المذكور .
 فاجتمعت الآراء على إرساله إلى حضرته الشريفة صحبة من اقتضته
 الآراء الشريفة . ثم وردت بعد ذلك المفاوضة من المقام الشريف
 - زیدت عظمتہ - على يد شخص من أهل إزمير ، مؤرخة بشاني
 عشر شهر صفر المبارك سنة تاريخه ، متضمنة ما حصل من النصر على
 ابن عثمان ، والظفر به والاسملاء على غالب قلاعه ، وزبدة الكلام فيها
 الإسراع بتجهيز اطمش المذكور ، ليجتمع شمله بأولاده بالحضرة الشريفة .
 ثم بعد ذلك وردت علينا مفاوضة شريفة على يد المجلس السامي الشيخي
 الكبير الأوحدي العارفي السالك المبرني مسعود الكبججاني ، رسول
 المقام الشريف ، وصحبته المجلس السامي الشيخ الكبير العالمي العاملي
 الامامي القدوي الشمسي ، شيخ القراء إمام أئمة الكبراء محمد بن
 الجزري ، أدام الله النفع به ، مؤرخة بقررة ربيع الأول سنة تاريخه
 متضمنة معنى الكتابين المجهزين من ماردين وازمير ، وجل القصد فيها
 تجهيز الأمير اطمش لتحصل طمأنينة قلوب العالمين ، وإخماد نار الفتن ،
 وإن العمدة على المشافهة التي تحملها الخواجا نظام الدين مسعود المشار
 إليه ، وإن قوله قول المقام الشريف . ومهما عقد الصلح عليه والتزم
 به ، كان من رأي المقام الشريف وشوره ، لا يخرج عنه ولا يميل إلى
 غيره بقول ولا فعل . فلما احضرناه وأصقينا إلى ماتحملة من المشافهة ،
 فإذا هي مشتملة على خالص المحبة ، وأن يكون المقام الشريف والدنا
 عوضاً عن قدس الله تربه ، وأن نجيز الأمير اطمش إليه ، وتكون
 عهدتنا بعد الله عز وجل عليه . فقابلنا ذلك بالقبول والاستبشار ،
 ومحونا آية ليل الجفاء ، وأثبتنا آية نهار الوفاء ، في الإعلان والإسرار .

وقبلنا أبوته الكريمة على مدى الأزمان وتوالي الاعصار ، وشاهد الحواجا مسعود حال اطمش وعلم اهتمامنا بتجهيزه قبل وصوله بمدةٍ اعتماداً على أليته السابقة ، ووثوقاً بما صرح به من الاتحاد والمصادقة . وعقدنا الصلح مع الشيخ نظام الدين مسعود المذكور بطريق الوكالة الشرعية عن المقام الشريف ، وحلفنا نظير ما حلف عليه بموافقة مولانا أمير المؤمنين - أدام الله أيامه - على ذلك بمحضر من شيخ الاسلام وقضاة القضاة ومشايخ العلم والصلاح ، وأركان الدولة الكبار ، مع حضور الأمير اطمش لزم المقام الشريف وشهادة من يضع خطه على نسخ الصلح التي كتبت . وجهزنا منها نسختين مثبتتين إلى حضرته الشريفة قرين هذا الجواب الشريف ، لتحيط العلوم الشريفة بضمونها ، وبأحدهما خطنا الشريف لتخلد بخزائنه الشريفة ، والأخرى يشملها بخطه الشريف ، وتعاد إلينا صحبة رسولنا المجلس العالي الأميري الكبير المجاهدي المؤيدي المقربي الأعزى الأخصي الأصيلي الشهابي أحمد بن أغلبك الناصري مقربنا ومقرب والدنا الشهيد - أدام الله تعالى نعمته - وجهزنا صحبته المجلس السامي الأمير الأجل الكبير المقرب المرتضى الأخص الأكل سيف الدين قاني بابي الخاصكي الناصري ، أدام الله سعادته ، المتوجهين بهذا الجواب الشريف ، المجهزين صحبة الأمير اطمش وبقية قصاص المقام الشريف ورسله . وبما نبديه لعلومه الشريفة أنه مما تتضمنه الملخص الشريف ، المجهز عطف الكتاب الواصل على يد الشيخ مسعود الكجيجاني مضاعفة الوصية بأولاد الشيخ شمس الدين الجزري ورعاية أحوالهم وتعلقاتهم ، وقد قابلنا ذلك بالإقبال والقبول وقررنا لهم بالأبواب الشريفة . ونحن بشهادة الله - وكفى به شهيداً - قد أخلصنا النية للمقام الشريف ، وعاهدنا الله عز وجل على التعاضد والتناصر والاجتهاد ، في عمل المصالح للعباد

والبلاد ، وعدم التفاصر والعمل بما فيه بياض الوجه عند الله في الدنيا
والآخرة . وإجراء الأمور على السداد ، بتوفيق الله عز وجل وطلباً
لرحمته الباطنة والظاهرة .

ثم استقبل لسان الحال ينشدنا :

يا أول الصفو هذا آخر الكدر

فيكون ذلك في علومه الشريفة . والله تعالى يديم عوارفه الوريفة
بمنه وكرمه والمستند « حسب المرسوم الشريف » .

صباح الأعشى للقلقشندي ج ٧ ٣١٩ - ٣٢٤

٢٤٤ - نص الصلح الذي تم عقده بين السلطان الملك الناصر فرج
ابن برقوق وبين تيمورلنك سنة ٨٠٥ هـ من إنشاء الشيخ زين
الدين طاهر :

في طرته ماصورته :

مرقوم شريف جليل عظيم مبجل مكرم جميل نظم ، مشتمل على
عقد صلح افتتحه المقام الشريف العالي القطبي نصرة الدين تيمور كوركان -
زيدت عظمته - يكون بينه وبين المقام الشريف السلطان المالك الملك
الناصر أبي السعادات فرج بن السلطان الشهيد الملك الظاهر أبي سعيد
برقوق خادم الحرمين الشريفين - خلد الله تعالى ملكه - انعقد بمباشرة
السفير عن المقام الشريف القطبي المشار إليه ووكيله في ذلك الخواجا
نظام الدين مسعود الكجيجاني ، بشهادة من حضر صحبته من العدول
بالتوكيل المذكور على حكم إشارة مرسله إليه ومضمون مكاتبتة . وقصده
تجهيز الأمير اطلش لزمه ، وحلف المقام القطبي على الموافاة والمصافاة
واتحاد المملكتين وإجراء الأمور على السداد وعمل مصالح العباد والبلاد .
الله أمّلي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل الصلح خيراً ما انعقدت عليه المصالح ، والإصلاح بين الناس أولى ما اتصلت به أسباب المناجح ، وأحق ما نطق به ألسن المحامد ، وأثنت عليه أفواه المدائح . نحمده على نعمه التي جمعت أشتات القلوب الطوائع ، وأضافت إلى ضياء الشمس نور القمر فاهتدى بهما كل غادر ورائح . ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة تبليغ قائلها أهق المنائح ، وتنعطر مجالس الذكر بمعرف روائعها الروائح ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله أفضل من آخى بين المتحامين فنصح الله ورأى الصلح من أعظم النصائح ، وأكمل رسول انقادات لآخلاقه الرضية وصفاته المرضية جوانح النفوس الجوانح ، وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد : فإن أولى ما اجتمعت عليه آراء أولي الأبواب ، وركنت إليه قلوب ذوي المعرفة من أهل المودة والأحباب ، ائتلاف القلوب بعد اختلافها ، واتصافها باللبس بأحسن أوصافها ، والعمل على الصلح الذي هو أصلح للناس ، وأربح متاجر الدنيا والآخرة وأدفع للبأس والبأس ، إذ هو مفتاح أبواب الخيرات الشاملة ، ومصباح مناهج الفكر الصحيحة الكاملة ، والداعي إلى كل فعل جميل ، والساعي بكل قول هو شفاء صدى الغليل ، ونجاة من داء العليل .

ولما كان المقام الشريف العالي الكبيرى العالمى العاملى المؤيدى المظفرى الملجئى الملاذى الوالدى القطبى نصرة الدين ملجأ القاصدين ملاذ العابدين ، قطب الإسلام والمسلمين تيمور كوركاز - زبدت عظمته - هو البادى بإحياء هذه السنة الحسنة ، والحادى إلى العمل بمقتضى مفاوضته الشريفة التي هي لذلك متضمنة ، الواردة إلى حضرة عبد الله ووليه

السلطان المالك الملك الناصر زين الدنيا والدين أبي السعادات فرج بن
السلطان الشهيد الملك الظاهر أبي سعيد برقوق خادم الحرمين الشريفين
- خلد الله تعالى ملكه - على يد سفير حضرته المجلس السامي الشيعي
النظامي مسعود الكججاني المؤرخة بمستهل شهر ربيع الأول سنة تاريخه .
وجل مضمونها وسر مكنونها قصد إيقاع الصلح الشريف بين المشار
إليها ، ونسج المودة والمحبة والمصادقة بينهما ، وإسبال رداء محاسنها
عليها ، بمقتضى تفويض المقام الشريف القطبي المشار إليه الأمر في
الصلح المذكور إلى الشيخ نظام الدين مسعود المذكور ، وتوكيله إياه فيه ،
وإقامته مقام نفسه الشريفة وجعل قوله من قوله . وإنه - عظم الله
تعالى شأنه - أشهد الله العظيم عليه بذلك ، وأشهد عليه من يضع خطه
من جماعته المهيزين صعبة الشيخ نظام الدين مسعود المذكور ، وهما
الشيخ بدر الدين أحمد بن الشيخ الإمام العالم شمس الدين محمد بن الجزري
الشافعي ، والصدر الأجل كمال الدين كمال آغا ، وإن ذلك صدر عن
المقام الشريف القطبي المشار إليه لموافقته على الصلح الشريف ، وإجابة
القصد فيه بإطلاق الأمير اطلش لزم المقام القطبي المشار إليه ، وتجهيزه إلى
حضرته العالية ، وإنه عاهد الله عز وجل بحضور جم غفير من أمراء
دولته وأكابرها ، ومن حضر مجلسه باليمين الشرعية الجامعة لأشتات
الحلف : بالله الذي لا إله إلا هو رب البرية باري السم على ذلك جميعه
وعلى أنه لا يدخل إلى البلاد الداخلة في مملكة مولانا السلطان الملك
الناصر المشار إليه ، وإنه مهبا عاهد وصالح وعاهد عليه الشيخ نظام
الدين مسعود الركيل المذكور يقضي به المقام القطبي المشار إليه ويمضيه
ويرتضيه . وانفصل الأمر على ذلك .

فعمدما وقف مولانا السلطان الملك الناصر المشار إليه - خلد الله

تعالى ملكه - على المكاتبة الشريفة المشار إليها وتفهم مضمونها، ورأى أن المصلحة في الصلح تبركاً بما ورد في كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ ، استخار الله عز وجل ، وأمر بتجهيز الأمير اطلش المذكور وتسليمه للشيخ نظام الدين مسعود المذكور . وأذن لهما في التوجه إلى حضرة المقام الشريف القطبي المشار إليه ، بموافقة مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله - أدام الله تعالى أيامه - على ذلك ، وحضور الشيخ الإمام الفرد الأوحى شيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقيني - أعاد الله تعالى على المسلمين من بركاته - وقضاة القضاة الحكام - أعز الله تعالى أحكامهم - ومشايخ العلم الشريف والصلاح وأركان الدولة الشريفة ، ومن يضع خطه في هذا الصلح الشريف بالشهادة المضمونة .

وعقيد الصلح الشريف بين مولانا السلطان الملك الناصر المشار إليه - خلد الله تعالى ملكه - وبين الشيخ نظام الدين مسعود الوكيل المذكور عن المقام القطبي المشار إليه - زيدت عظمته - على حكم مضمون مفاوضته الشريفة المقدم ذكرها ، وما قامت به البيئة الشرعية ، بشهادة العدلين المذكورين الواصلين صحبة الوكيل المذكور بالتوكيل المشروح فيه ؛ فكان صلحاً صحيحاً شرعياً تاماً كاملاً معتبراً مرضياً ، على أحسن الأمور وأجلها ، وأفضل الأحوال وأكملها .

وحلف مولانا السلطان الملك الناصر إلى المشار إليه - خلد الله ملكه - وعاهد الله عز وجل نظير ما حلف وعاهد عليه المقام الشريف القطبي المشار إليه من القول والعمل . واستقرت بمشيئة الله تعالى الخواطر ، وسرت القلوب وقرت النواظر ، لما في ذلك من حفظ ذمام العهود الشريفة ، وإقامة منار الشرع الشريف وامتداد ظلال أعلامه الوريثة ، واجراء كلمة الصدق على لسان أهل الحق ، وصون أمانة الله تعالى وشعار

دينه بين الخلق . فلا يتغير عقد هذا الصلح الشريف على مدى الليالي والأيام ، ولا ينقضى حكمه ولا ينحل ابرامه على توالي السنين والأعوام . هذا : على أن لا يدخل أحد من عساكرهما وجندهما وماليكهما الى حدود مملكة الآخر ، ولا يتعرض الى ما يتعلق به من ممالك وقلاع ، وحصون وسواحل وموان وغير ذلك من سائر الأنواع ، ورعاياهما من جميع الطوائف والاجناس ، وما هو مختص ببلاد كل منها ومعروف به بين الناس ، حاضرها وباديا وقاصيا ودانها وعامرها وباطنها وظاهرها ولا إلى من فيها من الرعية والتجار والمسافرين وسائر الفسادين والرائحين في السبل والطرق متفرقين ومجتمعين .

هذا على أن يكون كل من المقامين الشريفين المشار إليهما مع الآخر على أكمل ما يكون في السراء والضراء من حسن الوفاء وجميل المسودة والصفاء ، ويكونا في الاتحاد كالوالد والولد ، وعلى المبالغة في الامتزاج والاختلاط كروحين في جسد ، مع ما يضاف إلى ذلك من مصادقة الأصدقاء ، ومعاداة الأعداء ، ومسالمة المسلمين ، ومحاربة المحاربين ، في السر والإعلان والظهور والكتان . وبالله التوفيق ، وهو العالم بما تبدي الأعين وما تخفي الصدور . وعليه التكلان في كل الأمور في الغيبة والحضور والورود والصدور .

صبح الأعشى لقلقشندي ج ١٤ ١٠٣ - ١٠٧

٢٤٥ - رسالة أرسلها السلطان الناصر فرج بن برقوق رداً على رسالة أرسلها له تيمورلنك بعد وصول اطمش عند تيمور .

المقام الشريف العالي الكبير العالي المادي العامدي المؤيدي المظفري الملجني الملاذي الوالدي القطبي ، نصره الدين ملجاً القاصدين ملاذ المساندين ،

قطب الإسلام والمسلمين تيمور كوركان - زيدت عظمته .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي شيد قواعد الإصلاح ، ومهد مواطن الرشد والنجاح ، وجعل أذان المؤمن يحيب داعي الفلاح ، نحمده على أن ألف بين القلوب بلطيف الارتياح ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إله زم نفوس المؤمنين بحبل التقوى من حمية الجراح ، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي وضع من نور رسالته فجر الإيمان ولاح ، ونفح من نور معجزة زهر الدين الحنيفي وفاح ، وصلى الله عليه وعلى آله الذين شدوا ظهور كلمهم من الصدق بأقن وشاح ، وعلى صحابته الذين بينوا من عهودهم بفقهم في الدين الواجب والمحظور والمباح ، وسلم تسليمًا كثيرًا .

أما بعد : فقد صدرت هذه المفاوضة إلى المقام الشريف العالي الكبير العالمي العادلي المؤيدي المظفري الملجئي الملاذي الوالدي القطبي ، نصرته الدين ملجأ القاصدين ملاذ العائدين ، قطب الإسلام والمسلمين .

ملك يفوق الخلق طراً هيبه فيه نهاية غاية التأميل

تيمور كوركان - زيدت عظمته ودامت معدلته ولا زالت رايات نصره خافقة البنود ، وآيات فضله متلوة في الثنائم والنجود ، وسحب فضائله هامية بالكرم والجود ، ومهابة سطوته تملأ الوجود - نهدي إليه من السلام ما حلل في حالي الصدر والورود - ومن الإخلاص ما صفا وضفت منه البرود .

ونبدي لعله الشريف أن مفاوضته الشريفة وردت علينا جواباً مما كتبناه إلى حضرته الشريفة على يد المجلس العالي الاميري الشهابي

احمد بن غلبك وسيف الدين فاني بيه الناصري المجهزين صحبة المجلس العالي الأميري الجلالي اطمش لزم المقام الشريف بوصول الأمير جلال الدين اطمش إلى حضرته الشريفة طيباً مبدياً بين يديه ما حملناه من رسائل الأشواق ، مبيناً ما هو اللائق بخلاله الحسنة عن حضرتنا ما دُبِّج به الأوراق ، شاكراً لإنعاماتنا التي هي في الحقيقة من شيم فضلكم الحقائق ، مثبتاً منه ومن فحوى الخطاب في نظم الكتاب صدق المقال وصحة العهد ورسوخ الميثاق . وانه قد ثبت بما بث من غرائب المعاني حصول الأمان ، وسرى بعد ما يكون من هدايا التهاني ، وان الذي اتفق الآن هو المطلوب ، والمكتوب به إلى والدنا الشهيد الطاهر أولاً هو المرغوب ، وخلافه كان موجباً لنقل الحركات الشريفة إلى جهة البلاد وما اتفق فيه للبلاد ، ولكن كل بقضاء وقدر .

ولما حصل قبول الإشارة بتجهيز الرسل والأمير اطمش ، صارت القلوب متفقة ، والعيون قارة ، وصفت موارد الصفاء ، وضفت برود الوفاء ، وقطعت حبال المنافاة والجفاء . وان المقام الشريف كان أقسم في كتبه قسماً وأعادته ، ثم فصل بحمله وأفاده : وهو - والله الطالب الغالب ، المدرك المهلك الحي الذي لا ينام ولا يموت - من يومه هذا لا يخالف ما صدر من عقد الصلح المسطور ، ولا يرجع عن حكه للعهد المزبور ، ويجب من يحبنا ، ويبغض من يبغضنا ، ويكون سلباً لمسلمينا وحرباً لمحاربينا ، ومق استنصرنا به على أحد من مخالفينا أمدنا بما شئنا من العساكر ، وانه امر ما ناله أحد من الناس غيرنا وانه لو كان القسم على الوجه الذي ذكره مصرحاً مذكوراً في لفظ الكتاب وعبارة الخطاب لكان أوضح ، والتبيين أملح . وانه حيث كان بأطراف بمالكه المجاورة لمالكنا أحد من المفسدين يجهزه إلينا مقيداً ، وحيث كان أحد من

المفسدين بمالكنا المجاورة لمالكه يعرفنا به لنجمره إليه : لا تفارق الكلمتين ،
 واتحاد الملكتين ، وطمانينة لقلوب الرعايا والسالكين من الجهتين ، وما
 تفضل به من سؤال المقام الشريف لله عز وجل زيادة أسباب دولتنا
 ونمو إياالتنا ، وإن الهلال اذا رأيت نموه أيقنت أن سيصير بدرآ كاملاً ،
 وإن سئرى ما يصنعه المقام الشريف من الفضل المنيف ومن تلافى الأمور
 ما يظهر للخاصة والجمهور ، بما يزيد بدرنا نمواً ، وقدرنا بين الملوك
 سمواً ، لأنه لنا أكفى كفى واشفق من الوالد والصاحب والخليل ،
 وإن من علامة الصفا إظهار ما خفى ، وهو أن في أطراف بمالكنا الآن
 بلاداً كانت داخلية في بمالكه وهي : ابلستين وملطية وكركر وكختا
 وقلعة الروم والبيرة ، وأنه كان حُمل معناها على لسان المجلس السامي النظامي
 مسمود الكججاني أولاً ، المجهز الآن صحبة الأمير شهاب الدين بن
 غلبك وسيف الدين قاني بيه ، فإن القصد أن نأمر من بها من النواب
 أن تسلمها لنوابه ، والمعمول في انتظام الأمور على ماتحمسه المشار إليه
 وعول عليه ، وأنه شاكر لمرافقنا ، موافق لمواقفنا ، وأنه يصفي إلى
 مانبديه ، ونتمحف به ونهديه على الصورة التي أبداه ، والتحية التي بكرم
 الشيم أهداها ، فقد علمنا ذلك جملة وتفصيلاً ، وشكرنا حسن صليبه إقامة
 ورحيل ، وتضاعف سرورنا بوصول الأمير أطمش إلى الحضرة الشريفة .
 ووصل إلينا الأمير شهاب الدين بن غلبك وسيف الدين قاني بيه مرتلين من
 ذكر محاسنكم توتيلاً . وعرضنا ماتفضلتم به في حقنا إكراماً وتوقيراً وتبجيلاً
 وأنها بين أيدينا ما عوملا به من الفضل الذي ماعليه من مزيد ، والبر الذي
 تمجيز الفصحاء أن قبدىء بعض محاسنه أو تميد ؛ وإنها كانا كل يوم من توفر
 الفضل في يوم عيد ، وحصل لهما من الإقبال ما لا يحصى بالحصص والتحديد ؛
 فحمدنا المقام الشريف الوالدي حسن هذا الفضل المام ، وشكرنا جميل تفضله

الذي أخجل الغمام ، وتزايد شوقنا وحبنا حيث زُمِرِمَت ألفاظ للفاوضة الشريفة إلى ذلك المقام

وليس على الله بستنكر أن يجمع العالم في واحد . وهذا هو الائق بالخلال الشريفة ، والمؤمل في جلال صفاته المنيفة . ووصل الخواجا نظام الدين صاحبها مبدياً عن جنابكم من رسائل المحبة والصفاء والمودة والوفاء ، ما يعجز عن وصفه الناظم والنائر ، مظمـراً من حسن المودة وغزير المعرفة ما يفخر به الموالي والمؤثر . سالكاً من تأكيد أسباب الصلح ما تتجمل به مفارق المفاخر ، معتذراً عما تقدم فما قدّر بما يكون سبباً لإصلاح الآخر ، متكفلاً عن صفاء طويبتكم لنا بما يسر السرائر ، فضاعفنا لإكرامه ورادفنا لإنعامه ، ووفرنا من العز أقسامه ، وأزلناه منزلاً يليق به ، ووصلنا كل خير بسببه . وما هو إلا مستحق لكل ما يراد به من فيض فضل وفضل .

وأما ما أشار إليه من إعادة القسم تأكيداً للصلح وتوضيحاً للنجاح . ولو كان القسم الذي أقسمنا به مصرحاً لكان أولى . فقد علمنا ذلك . وكتبنا ألفاظ القسم في كتاب الصلح مصرحة ، وأعدناه إلى حضرته ليقرأ على مسامعه الشريفة ، ويشمله الخط الشريف ويعاد إلينا . ونحن نكرر القسم بباريء النسم الذي لا إله إلا هو الطالب الغالب ، المدرك المهلك ، الحبي الذي لا ينام ولا يموت ، أننا من يومنا هذا لا نخالف ما انتظم من عقد الصلح المسطور إلى يوم البعث والنشور ، ولا نحمل عراه الوثيقة المشار إليها ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ونكون حرباً لمن حاربه وسلماً لمن سالمه ، ومبغضين لمبغضيه ومحبين لمحبيه ، ومن أشار بإشاره ، أو شن على أحد من رعاياه غارة ، رادفنا إسعافه ، وضاعفنا استظهاره ، وأخلصنا القول والعمل في مصافاة المقام الشريف

لأن الصلح بحمد الله قد تم وكمل فيكون ذلك في شريف علمه .
وأما ما أشار إليه من أمر القرى التي قصد تسليمها لنوابه ، وأنها
داخلة في حدود مملكته كأبلستين وملطية وكركر وكختا وقلعة الروم
والبيرة فقد علمنا ذلك . ونحن نبدي إلى علومه الشريفة أن هذه البلاد
لا يحصل لنا منها خراج ، ولإينال ملكتنا ونوابنا منها في كل وقت
إلا الانزعاج ، وإذا جهزنا إليها أحداً من النواب نتكفل له غالباً بالخيول
والرجل والركاب ، وبضواحيها من سراق التركان وقطاع الطرق من
العربان ما لا يخفى عن مقامه ، ولو كانت دمشق أو حلب أو أكبر من
ذلك بماله (؟) عن الطلب ما توقعنا فيها عن قبول إشارته لتأكيد المحبة
 واتحاد الكلمتين من الجانبين في أعلى رتبة . غير أن لتسليمها من الوهن
لمملكتنا منافاة لما تفضل به المقام الشريف من سؤال الله تعالى في زيادة
سلطنتنا ، خصوصاً وقد وعد المقام الشريف الوالدي بما سنرى ، وسوف
تظهر نتيجته مما يتفضل به بين الوري . ولأن الذي سمح لنا به من
الاستظهار ماناله أحد من الناس . وما حصل لنا بما أبداه الخواجا
مسمود بين أمراء دولتنا من المشاقفة عن مقامه الشريف من قوة الجأش
والإيناس . ونحن نترقب بيمين حركاته وسديد إشاراته ، زيادة الخير
في النفس والملك والمال ، وتوقع من جميل كفالاته السعادة الأبدية في
الحال والمآل ، فيكون ذلك في شريف علمه .

وقد جهزنا بهذه المفاوضة المجلس العالي الأميري الكبير الأعرزي
الأخصي المغربي المؤتمني الأوسدي النصيري مجدد الإسلام والمسلمين ،
شرف الأمراء الخواص في العالمين ، منتخب الملوك والسلطين ، منكلي
بقا النصيري أمير حاجب ، أدام الله تعالى سعده وأنجح قصده ، وعلى
يده من الهدية المصرية ماتياً تجهيزه بمقتضى القائمة الملصقة بذيلها . واعدنا

المجلس العالي النظامي مسعوداً ، ومن معه إلى المقام الشريف متحملين من رسائل الاشواق والاتحاد ما لا يقع عليه الحصر والتعداد . وما اخبرنا الخواجا نظام الدين مسعوداً هذه المدة بالباب الشريف إلا لأمر عرض من قضية السلطان أحمد بن أويس وهربه من بغداد إلى حلب . وجهزنا من الباب الشريف من يحضره إلى دمشق ليحصل منه الأرب . ثم بعد ذلك بأيام ورد الخبر من كافل الشام المحروس بوصول قرا يوسف بن قرا محمد إلى دمشق في نفر قليل ، فجهزنا أحد الأمراء إلى كافل الشام بمثال شريف يتضمن القبض على السلطان أحمد بن أويس وقرأ يوسف المذكورين وإيداعهما الاعتقال بقلعة دمشق المحروسة ، وفاء للعهد وتأكيداً ، وحملنا الأمير سيف الدين منكلي بغا المذكور مشافهة في معنهما . والقصد من جميل محبته وجزيل أبوته قبول الجهاز من ذلك وبسط العذر فيه إذا وصل إلى حضرته هنالك : لأن الديار المصرية وأعمالها حل بها من المحل لعدم طلوع النيل في هذه السنة مالا يحصر ولا يخص ولا يسمع بثله . وشمل نسخة الصلح المعادة بالخط الشريف ومضاعفة إكرام حاملها الأمير منكلي بغا بالبر الوريث والاصفاء إلى ما تحمله من المشافهة في معنى أحمد بن أويس وقرأ يوسف . والله تعالى يشيد بتمهيد قواعده الدين الحنيف بمنه وكرمه إن شاء الله تعالى .

صبح الاعشى للقلقشندي ج ٧ ٣٢٥ - ٣٣١

٢٤٦ - رسالة إلى السلطان فرج بن برقوق من صاحب فاس السلطان أبي سعيد عثمان المريني ابن أبي عباس يتعرض لفزوة قيمورلدك لبلاد الشام سنة ٨٠٤ هـ .

من عبد الله ووليه عثمان أمير المسلمين الجاهد في سبيل رب العالمين

سلطان الإسلام والمسلمين ، ناشر بساط العدل في العالمين ، المقتدي بآثار آبائه الكرام ، المقتفي سننهم الحميدة في نصره الإسلام ، المعتمِل نفسه العزيزة في التهمم بما قلده الله من أمور عباده وحياطة نفوره وبلاده ، سيف الله المسلول على أعدائه ، المنتشر عدله على أقطاره المعمور وأنحائه ، ظل الله تعالى في أرضه ، القائم بسنته وفرضه ، عماد الدنيا والدين ، علم الأئمة المهتدين ، ابن مولانا السلطان المظفر القان الخليفة الإمام ، ملك ملوك الأعلام ، فاتح البلدان والأقطار ، ممد الأقاليم والأمصار جامع أشتات المحامد ، ملجأ الصادر والوارد ، الملك الجواد ، الذي حلت محبته في الصدور محل الأرواح في الأجساد ، أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبي العباس ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبي سالم ، ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين ، أبي الحسن ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبي سعيد ، ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق ، وصل الله تعالى أسباب تأييده وعضده ، وقضى باتصال عرف تجديد سعده ، وأثاله من جميل صنعته ما يتكفل بتيسير أمره وبلوغ قصده .

إلى أخينا الذي نؤثر حق إخائه الكريم ، ونثني على سلطانه السعيد ثناء المولى الحليم ، ونشكر ماله فينا من الحب السليم والود الثابت المقيم ، السلطان الجليل الماجد الأصيل الأعز الخطير المثيل ، الشهيد الأجد الأرفع ، المهام الأمنع ، السري ، الأرضي ، المجاهد الأمضى الأوحده الأسنى المكين الأحمى ، خديم الحرمين الشريفين ، حائز الفخرين المنيفين ، ناصر الدنيا والدين ، محيي العدل في العالمين ، الأجد الاود المكين الأخلص الأفضل الأكمل أبي السعادات فرج ابن السلطان الجليل الأعز المثيل الخطير الأصيل الأرفع الأجد ، الشهيد المهام الأوحده ،

الأسمى الأسمى الارضى المجاهد الامضى خديم الحرمين الشريفين حائز
الفخرين المثنيين ، الافضل الاكمل المبرور المقدم ، المرحوم أبي سعيد
برقوق بن أنص ، وصل الله تعالى لسلطانه المؤيد جداً لايعجز عوده
وعزاً لايميل عموه ، ونصراً يملأ قطره بما ينقص به حسوده ، وعضداً
ياخذ بزمام أمه السني فيسوقه ويقوده .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله على سبوغ نعمائه وترادف لطفه وآلائه ، الذي
عرفنا من ولائكم الكريم ماسرنا من اطراد اعتنائه ، وأببح النفوس
والأسماع من صفاء ولائه ومواصلة صفائه . والصلاة والسلام الأكملين
على سيدنا ومولانا محمد خاتم رسله وأنبيائه ، ومبلغ رسالاته وأنبيائه ،
صاحب المقام الحمود والحوض المورد واللواء المعقود ، فأكرم بمقامه
وحوضه ولوائه ، والرضا عن آله وصحبه وأوليائه ، الذين هم لـدين
بدور اعتدائه ونجوم اقتدائه ، وصلة الدعاء لمقامكم الكريم بدوام عزه
واعتلائه ، واقتبال النصر المبالغ في احتفاله واحتفائه ، وحياطة أنحائه
وأرجائه ، وتأيد عزماته وآرائه .

فلما كتبنا إليكم - كتب الله لكم سعداً سافراً وعزماً ظافراً -
من حضرتنا العلية بالمدينة البيضاء - كلاًها الله تعالى وحرسها -
ونعم الله سبحانه لدينا واكفة السجال ، وولاؤه ، جل جلاله ، سابغ
الأذيال ، وخلافتكم السقي نرعى بعين البر جوانبها ، ونقتفي في كل
منقبة كريمة سيرها الحميدة ومذاهبها . وإلى هذا وصل الله سعدكم وإلى
عضدكم ، وكتابنا هذا يقرر لكم من ودادنا ما شاع وذاع . ويؤكد
من إخلاصنا إليكم ما تتحدث به السماء فتوعيه جميع الأسماع . وقد
كان انتهى إلينا حركة عدو الله وعدو الإسلام ، الباغي بالاجترأ على

عباده وسبحانه بالبؤس والانتقام ، الآخذ فيهم بالغيث والفساد ،
 الساهي جهده في تهديم الحصون وتخريب البلاد ، وتمرقنا أنه كان يعلق
 أمله الخائب بالوصول إلى أطراف بلادكم المصرية ، وانتهاز الفرصة على
 حين غفلة من خلافتكم العلية . والحمد لله الذي كفى بفضلته شره ودفع
 نقمته وضره ، وانصرف ناكصاً على عقبه ، خائباً من نيل أربه ،
 وقد كنا حين سمعنا بسوء رأيه الذي غلبه الله عليه ، وما أضمر
 لخلق الله من الشر الذي يحمده في أخراه ظله الذي يسمى بين يديه ،
 عزمنا على أن نغدكم من عساكرنا المظفرة بما يضيق عنه الفضاء ، ونجهز
 لجهتكم من أساطيلنا المنصورة ما يحمد في امداد المناصرة ويرتضى ،
 فالحمد لله الذي كفى المؤمنين القتال وأذهب عنهم الأوجال ويسر لهم
 الأعمال ، وهباً لخلافتكم السنية والمسلمين هناء يتضمن السلامة لكم
 ولهم على تعاقب الأعوام والسنين . وبحسب ما لنا فيكم من الود
 الذي أمتست المصافاة بنيانه ، والحب الذي أوضع الإخلاص برهانه ،
 وقع تخيرنا فيمن يتوجه من بابنا الكريم لتفصيل بحمله ، وتقرير
 ما لدينا فيه على أتم وجه الاعتقاد وأكمل ، على الشيخ الأجل الشريف
 المبارك الأصيل الأسنى الأحظي الأعز الحاج المبرور الأمين الأحفل
 الأفضل الأكمل أبي عبد الله محمد ابن الشيخ الأجل الأعز الأسنى
 الأوجه الأفوه الأرفع الأجل الأتم الأثر ، الأزهى الشريف الأصيل المعظم
 المشيل ، الأشهر الأخطر الأمثل الأجل الأفضل الأكمل المرضي المقدس
 المرحوم أبي عبد الله محمد بن أبي القاسم بن نفيس الحنفى العراقى -
 وصل الله سعادته وأحمد على حضرتكم السنية وفادته - حسب ما يفي
 بشرح ما حملناه نقله ، ويكمل بإيضاحه لديكم يقظته ونبله ، إن

شاء الله تعالى ، وهو سبحانه وتعالى يديم سمادتكم ويحفظ
محادثكم ، ويسنى من كل خير إرادتكم . والسلام عليكم ورحمة
الله وبركاته .

صبح الأعشي للقلقشندي ج ٨ ١٠٣ - ١٠٦

٢٤٧- رسالة السلطان فرج بن برقوق الجوابية إلى السلطان
أبي سعيد المريني سلطان مراكش يشرح له فيها واقعة تيمورلنك من
إنشاء القلقشندي نفسه :

عن عبد الله ووليه السلطان الأعظم - إلى آخر ألقاب سلطانتنا -
أجرى الله تعالى الأقدار برفعة قدره ، وأدار الأفلاك بتأييده ونصره
وأذل رقاب الأعداء بسطوته وقهره ، وشحن الأقطار بسمعته وملا
الآفاق بذكره ، يخلص المقام العالي - إلى آخر الألقاب - رفع الله له
في ملكه الشامخ مناراً ، وجعل النعم والظفر له شعاراً ، وأحسن
بحسن موافقه إلا لأهل الكفر جواراً ، بسلام يفوق العير عبيقه ،
ويزري بفتيق المسك الدراري فتيقه ، ويخجل الروض المنمنم إذا تزين
بالبحار خلوقه ، وثناء تكل الألسنة البليغة عن وصفه ، ويعجز بنسابة
المجد الأثيل عن حسن رصفه ، وتعترف الأزاهر بالقصور عن طيب
أرجه ومسك عرفه ، وشكر يوالي الورد فيه الصدر ، ويحقق الخبر
فيه الخبر ، ويشيع في الآفاق ذكره فتتخذ السمار حديث سمر .

أما بعد حمد الله وأصل أسباب المودة وحافظ نظامها ، ومؤكد
علائق المحبة بشدة التثامها ، ورابط جأش المعاضدة باتحاد كلمتها وتناسب
مرامها ، ومجدد مسرات القلوب بتوالي أخبارها المبهجة عن عالي
مقامها ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفضل نبي رعى الذمام على

البعاد ، واكرم رسول قرن صدق الإخاء منه بصحة الوداد ، صلاة
تبلغ من رتبة الشرف منتهاها ، وتنطوي الشقة البعيدة دون بلوغ مداها ،
فانه ورد علينا على يد رسولكم فلان كتاب كريم طاب وروده
وتهلت بالبشر سعوده ، وشهد بصدق المحبة الصادقة شهوده ، وطلع
م-ن الجانِب الغربي هلاله ، فلاحَت بالشرق بحسن التلقي سعوده ،
فقرء منه برؤيته الناظر ، واِبتهج بموافاته الخاطر ، ولاحت من جوانبه
لوائح البشر ، فأحسن تلقيه سلطاننا الناصر .

وقابلناه من القبول بما كاد باطنه لكالم الموافاة يكون عنواناً
للظاهر ، وفضضنا ختامه المصون عن بديع كلام مخترع ، وبنات فكر
قبله لم تفتتح ، وفصاحة من أحسن اللسن مبانها ، وبلاغة تناسبت
ألفاظها فكانت قوالب لمعانها ، وبراعة قد أحسنت البديهة ترتيبها
فجاءت وقوالها تتبع هوائها . وفهمنا ما أظهره من كوامن المحبة التي
بلغت من القلب الشفاف ، ويوارح الشوق الذي عندنا من مثله أضعاف
وانتهينا إلى ما أشار المقام العالي من التلويع إلى ما طرق أطراف ممالكنا
الشريفة من طارق الاعتداء ، وما كان من الواقعة التي كاد خبرها لفظاعته يكون
كالمبتدا . ونحن نبدي لعلم المقام العالي ما يوضح له أن ما وقع من هذه
القصة لم يكن من سوء تدبير ، ونورد عليه من بيان السبب ما يحقق
عنده أن ذلك لم يكن لعجز ولا تقصير ، بل لأمر قدر في الأزل ،
ومقدور الله تعالى لا يدفع بالحيل .

وذلك أنه لما اتصل بمسامعنا الشريفة قصد العدو إلى جهتنا ، وتجاوز
حد بلاده إلى أطراف مملكتنا ، بادرت الحركة إليه في عسكر لجب ،
وجيوش بضيق عن وسعها الفضاء الرحب ، من كل بطل عركته الحروب ،
وثغفته الخطوب ، وحنكته التجارب ، وعجم عوده بكثرة المنازلات

قراع الكتائب ، قد امتطى طرفاً عربي الأصل كريم الحسب خالص
العنق صريح النسب ، يفوت الطرف مدى باعه المديد ، ويسبق
حافره موقنص بصره الحديد . ولبس درعاً قد أحكم سردها وأبرم
شدها ، وبالغت في السبوغ فاتصفت بصفات الكرام ، وضاعت عينها
فمنعت شبحاً حتى ذباب السهام . ووضع على رأسه بيضة يخطف الأبصار
وميض برقها ، وتزلق السهام الراشقة صلابة طرقها ، وترفعه الأبطال
على الرؤوس فلا ترى أنها قامت ببعض حقها ، تقلد سيفاً يمضي على
الرقاب نافذ حكمه ، ويقضي بانقضاء الأجل انقضاء نجمه ، لا ينبو
عن ضريبة فيرد ، ولا يقف حده في القطع عند حد . واعتقل رحماً
يجري الدماء سنانه بأنايبه ، ويمد إلى الفارس باعه الطويل فيأخذ
بتلابيه ، وتمسك المنايا بأسبابه فتتعلق منه بالأذيال ، وتضرس الحرب
بزرقي أنيابه كأنها أنياب أغوال . وتكسب قوساً موعز الأجل هلال
هلالها ، ومورد المنون لإرسال نبأها ، ومدرك الثأر رنة وترها ،
وموقد نار الحرب قدح شررها ، قد اقترن بها سهام تسابق الريح
في سرعتها وتعاجل الموت بصرعتها ، وتختطف العيون في ممرها ،
وتختلس النفوس من مقرها ، تدخل هجماً كل محتجب ، وتأتي الحذر
من حيث لا يحتسب . وتناول عموداً يهجم على الأضالع بأضلاعه فيفدها ،
ويصافح الرؤوس بكفه الملتحمة الأصابع فيدمنها ، يقرب من الأجل كل
بعيد ، ويخلق من العمر كل جديد ، ولا يقاومه في الدفاع بيضة ، وأنى
تقاوم البيضة زبرة من حديد .

وتحركنا من الديار المصرية في جيوش لا يأخذها حصر ، ولا يلحقها
حصر ، ولا يظن بها على كثرة الأعداد كسر ، ولم نزل نحت السير ونسرع
الحركة للقاء العدو لإسراع الطير ، حتى وافينا دمشق المحروسة فنزلنا

بظاهرها ، مستمطرين النصر في أوائل حركتنا وأواخرها . وانضم
إلينا من عساكر الشام وعربانها وتركناها الزائدة على العدد وعشرانها ،
ما لم ينقطع له مدد ولا يدخل تحت حصر ولا عدد . وأقبل القوم
في لفيف كالجراد المنتشر وأمواج البحر التي لا تنحصر من أجناس
مختلفة وجـوع على تباين الأنواع مؤتلفة ، وتراعى الجمعان في أفصح
مكان ، ورأى كل قبيل الآخر رأي العين وليس الخبر كالعيان . واعتد
الفريقان للنزال ، واحتفروا خنادق للاحتراس ، وتبوأنا مقاعد للقتال ،
ولم يبق إلا المبارزة والتقاء الصفوف والمناجزة ، إذ ورد ورد مسن
جهتهم يطلب الصلح والموادعة والجنوح إلى السلم وقطع المنازعة ،
فأجبناهم بالإجابة ، ورأينا أن حقن الدماء من الجانبين من أتم مواقع
الرأي إصابة ، وكتبنا إليهم في ضمن الجواب :

لما أفتانا منكم قاصد يسأل في الصلح وكف القتال
قلنا له نعم الذي قلته والصلح خير وأجبنا السؤال

فبينما نحن على ذلك واقفون من المواعدة على الموادعة على ما هنالك ،
إذ بلغنا أن طائفة من الخوذة الذين ضل سعيهم ، وعاد عليهم بأوبال ،
ولله الحمد ، بغهم ، توجهوا إلى الديار المصرية للاستيلاء على تحت ملكنا
الشريف في الغيبة ، آملين ما لم يحصلوا منه إلا على الخيبة . فلم يسع
إلا الإسراع في طلبهم ، للقبض عليهم وإيقاع النكال بهم ، وجاهزيناهم بما
يحازي به الملوك من رام مرامهم . وظن العدو أن قصدها الديار المصرية
إنما كان لخوف أو فشل ، فأخذ في خداع أهل البلد حتى سلموه إليه
وفعل فعلته التي فعل ، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً .

ثم لم نزل ندأب في تحصين البلاد وترويج أعمالها وترتيب أمورها
وتعديل أحوالها ، حائطين أقطارها المتسمة ببيوش لا يكل حدها ،

ولا يعقب بالجزر مدها ، ليكونوا للبلاد أسواراً ، والدولة القاهرة إن شاء الله تعالى أعواناً وأنصاراً . وأعاد الله تعالى المملكة إلى حالها المعروف وترتيبها المألوف ، فاستقرت بعد الاضطراب وتوطنت بعد الاغتراب .

وفي خلال ذلك ترددت الرسل إلينا في عقد الصلح وإمضائه ، ودفن ما كان بين الفريقين من المباينة وإخفائه ، فلم يسعنا التلکؤ عن المصالحة ، بل سمعنا سعيها ، والله تعالى يقول : وإن جنحوا للسلم فاجنح لها (١) ، فعمدنا لهم عقد الصلح وأمضيناه ، وأحكنا قواعده توكلاً على الله تعالى وأبرمناه ، وجهزنا إليهم نسخة منه طمعت بطغمة قانهم عليها ، وأعيدت إلينا بعد ذلك ليكون المرجع عند الاختلاف ، والعياذ بالله تعالى ، إلهنا : فمن نكث فلنأينا ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً (٢) .

والله تعالى يحب لإخاءكم الكريم مواقف الغير ، ويقرن مودته الصادقة بصفاء لا يشوبه على مر الزمان كدر ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

صبح الأعشي للقلقشندي ٧ - ٤٠٧ - ٤١١

(١) سورة الأنفال الآية ٦١ .

(٢) سورة الفتح الآية ١٠ .

فهرس الوثائق^(١)

- ١ - رسالة الكسيس كومنين إلى روبرت أمير الأراضي الواطئة .
- ٢ - خطاب البابا أوربان الثاني داعياً إلى الحروب الصليبية .
- ٣ - مقتطفات من رساله أرسلها الكونت إيتين إلى زوجته .
- ٤ - رسالة الزراد إلى بيمند ،
- ٥ - » طفتكين إلى الملك الأفضل .
- ٦ - » ملك الفرنج إلى طفتكين لما قتل مودود .
- ٧ - » عيسى صاحب منبج إلى جوسلين صاحب الرها .
- ٨ - » الصليبيين إلى ايلغازي ملك حلب .
- ٩ - » والي حلب من قبل غازي بن أرتق إلى ملك الصليبيين .
- ١٠ - جواب ملك الصليبيين لوالي حلب .
- ١١ - رسالة بفدوين ملك القدس إلى تمرناش الأرققي .
- ١٢ - » والي شيزر إلى أهل دمشق حول نصر حازه التركمان على الفرنج .
- ١٣ - رسالة زنكي لملك الروم لما حاصر شيزر .
- ١٤ - » سيف الدين بن عز الدين زنكي إلى أنر صاحب دمشق .
- ١٥ - » أنر إلى الفرنج الغرباء .
- ١٦ - » » » » المقيمين .
- ١٧ - » العاضد الفاطمي مستنجداً إلى نور الدين الشهيد .
- ١٨ - » شاور إلى ملك القدس الصليبي .

(١) يدل الرقم الموضوع أمام اسم الوثيقة على رقم الوثيقة لا رقم الصفحة .

- ١٩ - رسالة شاور إلى شيركوه أثناء حصاره له في بلبس .
- ٢٠ - د شيركوه إلى شاور لما قدم مصر ثاني مرة .
- ٢١ - د شاور إلى ملك القدس مري .
- ٢٢ - د مري إلى شاور .
- ٢٣ - جواب شاور إلى مري .
- ٢٤ - د مري إلى شاور .
- ٢٥ - رسالة مري إلى شاور لما احتل بلبس .
- ٢٦ - د حاكم حارم الصليبي إلى الصليبيين .
- ٢٧ - د القاضي الفاضل إلى أهل مدينة قوص يصف إحدى غزوات صلاح الدين .
- ٢٨ - رسالة من صلاح الدين إلى نور الدين حول غزوة الكرك والشوبك .
- ٢٩ - د شمس الدين بن المقدم إلى الفرنج .
- ٣٠ - د صلاح الدين إلى ابن أبي عصرون حول اتفاق أهل دمشق مع الفرنج .
- ٣١ - نص آخر لكتاب صلاح الدين إلى ابن أبي عصرون حول نفس الموضوع .
- ٣٢ - رسالة صلاح الدين إلى بعض أنصاره عن وفاة ملك القدس مري .
- ٣٣ - د د د د ملك القدس الجديد بردويل .
- ٣٤ - د د د د الملك العادل عن تحالف الحلبيين مع الفرنج ضده .
- ٣٥ - رسالة صلاح الدين إلى خليفة بغداد عن قدوم نجدة إلى الفرنج .
- ٣٦ - د د د د أخيه تورانشاه عن معركة الرملة .
- ٣٧ - فصول من رسالة القاضي الفاضل إلى صلاح الدين بعد معركة الرملة .

- ٥٥- رسالة القاضي الفاضل الى صلاح الدين مهناً بفتح حصن برزية .
٥٦- بشارة صلاح الدين لبعضهم بفتح حصن برزية .
٥٧- رسالة صلاح الدين للخليفة بفتح حصون الكرك والشوبك .
٥٨- د د د لأخيه في اليمن بفتح كوكب وصفد .
٥٩- د امبراطور الروم الى صلاح الدين حول عبور ملك الألمان بلادهم .
٦٠- رسالة ملك الأرمن الى صلاح الدين عن عبور ملك الألمان آسيا الصغرى .
٦١- رسالة ثانية من ملك الأرمن إلى صلاح الدين عن نفس الموضوع ،
٦٢- د صلاح الدين للديوان العزيز عن قرب وصول ملك الألمان .
٦٣- د د د د د يخبره بحركة صاحب القسطنطينية وصقلية ضده .
٦٤- رسالة القاضي الفاضل إلى الملك العادل لما بلغه تجديد حركة العدو إلى بيروت .
٦٥- رسالة القاضي الفاضل إلى الأمير عز الدين لما أخذ العدو بيروت .
٦٦- مخاطبة صلاح الدين لقواده لما حاصر الصليبيون عكا .
٦٧- رسالة صلاح الدين للخليفة حول القتال حول عكا .
٦٨- د القاضي الفاضل الى صلاح الدين وهو حول عكا .
٦٩- د ثانية من القاضي الفاضل الى صلاح الدين وهو حول عكا .
٧٠- د جوابية د د د د د د د
٧١- مقتطفات من رسالة أرسلها القاضي الفاضل الى صلاح الدين وهو حول عكا .
٧٢- رسالة استفسارية من القاضي الفاضل لصلاح الدين عن صحة اشاعة مصرع ملك الانكليز .
٧٣- رسالة صلاح الدين للخليفة بشرح الموقف الصعب حول عكا .

- 27A -

- ١١٠ - جواب صلاح الدين .
- ١١١ - رسالة ملك الانكليز لصلاح الدين عن الصلح والقدس .
- ١١٢ - جواب صلاح الدين لملك الانكليز عن الرسالة السابقة .
- ١١٣ - رسالة أخرى من ملك الانكليز الى صلاح الدين عن الصلح .
- ١١٤ - جواب صلاح الدين .
- ١١٥ - جواب ملك الانكليز .
- ١١٦ - رسالة أخرى من ملك الانكليز لصلاح الدين عن الصلح .
- ١١٧ - جواب صلاح الدين .
- ١١٨ - د ملك الانكليز .
- ١١٩ - جواب صلاح الدين .
- ١٢٠ - د ملك الانكليز .
- ١٢١ - د صلاح الدين .
- ١٢٢ - د ملك الانكليز .
- ١٢٣ - رسالة ملك الانكليز للعادل عن الصلح .
- ١٢٤ - رسالة صلاح الدين للعادل حول عرض ملك الانكليز الأخير
- ١٢٥ - د حاكم صور الصليبي لملك لانكليز .
- ١٢٦ - د كندهري لصلاح الدين .
- ١٢٧ - د صلاح الدين للخليفة يشرح أحواله بعد استرجاعه إفا .
- ١٢٨ - د د د د د ثانية يشرح الهدنة العامة .
- ١٢٩ - د الملك العادل إلى الملك المنصور صاحب حماة .
- ١٣٠ - د د د د د د د ثانية .
- ١٣١ - د د د د د د د لما تحارب مع
- الفرنج وكسرم .
- ١٣٢ - رسالة الملك العادل إلى الملك المنصور صاحب حماة ثانية .

- ١٥٧ - نص الهدنة المعقودة بين بيبرس وملكة بيروت .
- ١٥٨ - رسالة بيبرس إلى بوهيموند السادس لما فتح أنطاكية .
- ١٥٩ - نص الهدنة بين بيبرس واستتارية قلعة لد .
- ١٦٠ - رسالة بيبرس إلى ابن خلكان بفتح حصن الأكراد .
- ١٦١ - » » » » » » عكار .
- ١٦٢ - » » بوهيموند السادس لما فتح حصن عكار .
- ١٦٣ - » قلاون إلى صاحب اليمن بأخذ صافيتا .
- ١٦٤ - نص الهدنة بين قلاون وصاحب طرابلس .
- ١٦٥ - رسالة باسم قلاون إلى صاحب اليمن بفتح طرابلس .
- ١٦٦ - رسالة بيدرا إلى طرنطاي مبشراً بفتح طرابلس .
- ١٦٧ - نص الهدنة بين قلاون وملكة عكا .
- ١٦٨ - نص بين قلاون على الوفاء .
- ١٦٩ - » » حكام عكا على الوفاء .
- ١٧٠ - نص هدنة قلاون وملكة صور .
- ١٧١ - رسالة قلاون إلى ولده بفتح حصن المرقب .
- ١٧٢ - » » إلى الأمير الشجاعى بفتح حصن المرقب .
- ١٧٣ - » حسام الدين لاجين إلى ولد قلاون مهناً بفتح حصن المرقب .
- ١٧٤ - » » » » إلى الشجاعى » » » »
- ١٧٥ - رسالة سلطان سمرقند إلى خوارزمشاه .
- ١٧٦ - رسالة خوارزمشاه إلى سلطان سمرقند .
- ١٧٧ - » ملك الخطا إلى خوارزمشاه .
- ١٧٨ - » كشلي ملك التتار إلى خوارزمشاه .
- ١٧٩ - جواب خوارزمشاه لكلا الملكين .

- ١٨٠ - رسالة كشلي ملك التتار لحوارزمشاه .
- ١٨١ - جواب حوارزمشاه .
- ١٨٢ - رسالة ثانية من ملك التتار إلى حوارزمشاه .
- ١٨٣ - د حوارزمشاه إلى غياث الدين .
- ١٨٤ - د جنكيزخان إلى حوارزمشاه .
- ١٨٥ - د د د د د لما بلغه ما فعل بالرسل .
- ١٨٦ - مفتتح رسائل ابن جنكيزخان .
- ١٨٧ - رسالة تاجر مجهول من الري إلى أصحابه في الموصل عن
المقول وهجومهم .
- ١٨٨ - كتاب بدر الدين لؤلؤ بفرض ضريبة التتر على أهل دمشق .
- ١٨٩ - وصية منكوقاآن لأخيه هولاکو لما سلمه قيادة الجيش المرسل
للعالم الاسلامي .
- ١٩٠ - بيان هولاکو إلى حكام إيران بطلب المساعدة لاختصاع
قلاع الملاحدة .
- ١٩١ - رسالة هولاکو للمستعصم بالله .
- ١٩٢ - رسالة الخليفة لهولاکو .
- ١٩٣ - جواب هولاکو للخليفة .
- ١٩٤ - جواب الخليفة لهولاکو .
- ١٩٥ - رسالة قائد طلائع الجيش المغولي الزاحف على بغداد الى قائد
طلائع جيش الخليفة .
- ١٩٦ - جواب قائد طلائع جيش الخليفة .
- ١٩٧ - رسالة هولاکو للخليفة قبل الهجوم مباشرة على بغداد .
- ١٩٨ - رسالة الخليفة الأخيرة لهولاکو .

- ١٩٩ - جواب هولاكو للخليفة .
- ٢٠٠ - رسالة هولاكو الى الناصر الايوبي صاحب حلب .
- ٢٠١ - » » » » » » » » الثانية .
- ٢٠٢ - رسالة أخرى من هولاكو الى الناصر صاحب حلب .
- ٢٠٣ - » » » » » » » » » »
- ٢٠٤ - رسالة هولاكو الى أهل حلب لما اقترب منها .
- ٢٠٥ - جواب أهل حلب له .
- ٢٠٦ - رسالة هولاكو لسلطان مصر قطز .
- ٢٠٧ - محاورة قطز مع قواده من أجل الحرب مع المغول والصلح .
- ٢٠٨ - رسالة كيتويوقا الى هولاكو قبل أن يقتل في معركة عين جالوت
- ٢٠٩ - » الملك قطز الى ملك اليمن عن معركة عين جالوت .
- ٢١٠ - رسالة قواد هولاكو للملك السعيد ملك ماردین .
- ٢١١ - جواب الملك السعيد .
- ٢١٢ - رسالة جوابية من ملك ميافارقين الملك الكامل لقائد جيش المغول المحاصر له .
- ٢١٣ - رسالة بركة خان الى بيبرس يطلب مساعدته ضد أخيه هولاكو
- ٢١٤ - رسالة آباقا خان لبيبرس .
- ٢١٥ - » ابغا ملك المغول لبيبرس .
- ٢١٦ - جواب بيبرس .
- ٢١٧ - رسالة قائد الجيش المصري في حماة الى سنقر الأشقر .
- ٢١٨ - رسالة قلاون الى نائبه في دمشق بظفريه على المغول .
- ٢١٩ - رسالة جوابية من قلاون وباسمه لملك اليمن على تهنيئته بانتصاره على المغول .

- بيان أذاعه السلطان أحمد المغولي في بغداد يعلن اسلامه .
- ٢٢١ - رسالة أحمد المغولي الى قلاون .
- ٢٢٢ - جواب قلاون .
- ٢٢٣ - رسالة أخرى أرسلها أحمد المغولي لقلاون .
- ٢٢٤ - رسالة قلاون الى منكودمر المغولي .
- ٢٢٥ - رسالة جوابية من الملك الأشرف الى كيخسرو ملك المغول .
- ٢٢٦ - « القان قازان الى الناصر محمد المملوكي .
- ٢٢٧ - جواب الناصر محمد عن الرسالة السابقة .
- ٢٢٨ - نص ثان لرسالة غازان للناصر محمد .
- ٢٢٩ - جواب الناصر محمد عن الرسالة السابقة .
- ٢٣٠ - نص مرسوم غازان لما احتل دمشق سنة ٦٩٩ هـ .
- ٢٣١ - نص الدعاء الذي دعي به في دمشق لغازان .
- ٢٣٢ - رسالة غازان لأهل دمشق لما احتلها .
- ٢٣٣ - مرسوم غازان بتقليد قبچق ولاية الشام .
- ٢٣٤ - رسالة غازان إلى الأفرم المملوكي يعرض عليه الدخول في خدمته
- ٢٣٥ - رسالة نائب السلطان محمد له يبشره بكسر المغول في مرج الصفر .
- ٢٣٦ - رسالة محمد إلى غازان بعد كسره جيوشه في معركة شقحب .
- ٢٣٧ - « « إلى أبي سعيد بهادر آخر ملوك المغول من نسل هولاكو .
- ٢٣٨ - رسالة تيمورلنك إلى برقوق .
- ٢٣٩ - « « برقوق الجوابية إلى تيمورلنك .
- ٢٤٠ - رسالة جوابية من برقوق إلى تيمورلنك .
- ٢٤١ - رسالة برقوق الجوابية إلى تيمورلنك حول طلب الأخير تسليمه أحد اللاجئين .

- ٢٤٢ - رسالة ابن خلدون إلى ملك المغرب حول مقابلته لتيمورلنك .
- ٢٤٣ - د جوابية من فرج بن برقوق إلى تيمورلنك .
- ٢٤٤ - نص الصلح الذي عقد بين تيمورلنك وفرج .
- ٢٤٥ - رسالة جوابية من فرج إلى تيمورلنك بعد عقد الصلح بينهما .
- ٢٤٦ - رسالة صاحب فاس أبي عثمان سعيد إلى فرج حول غزوة تيمورلنك بلاد الشام .
- ٢٤٧ - رسالة فرج الجوابية لصاحب فاس أبي عثمان سعيد .



مصادر الكتب

- ١ - ابن الاثير ، ابو الحسن عز الدين علي . التاريخ الباهر في تاريخ أتابكة الموصل .
- ٢ - ابن الاثير ، ابو الحسن عز الدين علي . الكامل في التاريخ . القاهرة ، دار الطباعة المنيرية ، ١٣٥٦ هـ
- ٣ - ابن قفري بردي . النجوم الزاهرة في اخبار ملوك مصر والقاهرة . القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٢٩ م .
- ٤ - ابن خلدون ، عبد الرحمن . كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر . . بيروت ، مؤسسة الأعظمي للطبعوعات ، ١٩٧١ .
- ٥ - ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين احمد بن محمد . وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٨ م .
- ٦ - ابن شاكر الكنتي ، محمد بن أحمد . فوات الوفيات . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥١ م .
- ٨ - ابن شداد ، بهاء الدين . الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة . تحقيق سامي الدمان . دمشق ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، ١٩٥٦ م .
- ٨ - ابن شداد ، بهاء الدين . كتاب سيرة صلاح الايوبي المسماة بالنواهر السلطانية والحاسن اليوسفيه . تحقيق جمال الدين الشيال . القاهرة .

- ٩ - ابن مصري ، محمد بن محمد . كتاب الدرة المضية في الدولة الظاهرية .
تحقيق وليم . م . م . برين . بركلي ، كاليفورنيا ، ١٩٦٣ م .
- ١٠ - ابن عهد الظاهر ، محيي الدين . تشريف الانام والمصور في سيرة
الملك المنصور . تحقيق مراد كامل . القاهرة ، وزارة الثقافة والارشاد
القومي ، ١٩٦٩ م .
- ١١ - ابن العبري ، أبو الفرج . تاريخ مختصر الدول . تحقيق أنطون صالحاني اليسوعي .
بيروت ، المطبعة السكاثوليكية ، ١٨٩٠ م .
- ١٢ - ابن العديم ، كال الدين عمر بن أحمد . زبدة الحلب من تاريخ حلب . تحقيق سامي
الدهان . دمشق ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، ١٩٥١-١٩٦٨ م .
- ١٤ - ابن العماد الحنبلي ، أبو الفلاح عبد الحمي . شذرات الذهب في أخبار
من ذهب . القاهرة ، مكتبة القدسي ، ١٣٥١ هـ .
- ١٤ - ابن الفرات ، ناصر الدين محمد . تاريخ ابن الفرات . تحقيق الشباع .
البصرة .
- ١٥ - ابن الفرات ، ناصر الدين محمد . تاريخ ابن الفرات . تحقيق اسدرستم
وقسطنطين زريق ونجلاء عز الدين . بيروت ، المطبعة الامريكية ،
١٩٤٢ م .
- ١٦ - ابن القلانسي ، أبو يعلى حمزة . ذيل تاريخ دمشق يتلوه نخب من
تواريخ ابن الازرق الفارقي وسبط ابن الجوزي والحافظ الذهبي .
تحقيق امدروز . بيروت ، مطبعة الالباء اليسوعيين ، ١٩٠٨ م .
- ١٧ - ابن كثير ، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل . البداية والنهاية . القاهرة ،
مطبعة السعادة ، ١٣٥١ هـ .
- ١٨ - ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم . مفرج الكروب في أخبار
بني إيوب . تحقيق جمال الدين الشيال . القاهرة ، وزارة الثقافة
والارشاد القومي .

- ١٩ - أبو شامة ، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل . كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية . تحقيق محمد حلمي محمد أحمد . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٦ .
- ٢٠ - أبو شامة ، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل ، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية . القاهرة ، بولاق .
- ٢١ - للدواداري ، أبو بكر بن عبد الله بن أبيك . كنز الدرر وجامع الفرر وهو الدرر الفاخر في سيرة الملك الظاهر . تحقيق هانس روبرت روير . القاهرة ، ١٩٦٠ م .
- ٢٢ - ديورانت ، ول . قصة الحضارة . تعريب محمد بدران . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٠ .
- ٢٣ - أبو الفداء ، عماد الدين إسماعيل ، المختصر في أخبار البشر . القاهرة .
- ٢٤ - الذهبي ، محمد بن أحمد . كتاب المبر في خبر من عبر . تحقيق صلاح الدين المنجد وفؤاد السيد . الكويت ، دائرة المطبوعات والنشر ، ١٩٦٠ .
- ٢٥ - السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن . تاريخ الخلفاء . الطبعة الثانية . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ، ١٩٦٩ م .
- ٢٦ - السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن . حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . القاهرة .
- ٢٧ - الصيرفي ، الخطيب الجوهري علي بن داود . نزهة النفوس والأبدان . تحقيق حسن حبشي . القاهرة . مركز تحقيق التراث ، ١٩٧٠ م .
- ٢٨ - الهامد الاصفهاني ، محمد بن محمد . الفتح القسي في الفتح القدسي . تحقيق محمد محمود صبيح . القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر .

- ٢٩ - القلقشندي ، أبو العباس أحمد . كتاب صبح الأعشي في صناعة الإنشا . القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩١٤ - ١٩١٩ م .
- ٣٠ - محمد بن تقي الدين عمر شاهنشاه الأيوبي . مضمار الحقائق وسر الخلائق . تحقيق حسن حبشي . القاهرة ، دار الكتب ، ١٩٦٨ م .
- ٣١ - المقرئزي ، تقي الدين أحمد بن علي . الخطط المقرئزية . الشياح ، لبنان ، مكتبة إحياء العلوم .
- ٣٢ - المقرئزي ، تقي الدين أحمد بن علي . كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٤ م .
- ٣٣ - النويري ، شهاب الدين أحمد . نهاية الأرب في فنون الأدب . الطبعة الثانية . القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٢٩ م .
- ٣٤ - الهمذاني ، رشيد الدين بن فضل الله . جامع التواريخ في تاريخ المغول . تمريب محمد صادق نشأت ومحمد موسى هندراوي وفؤاد عبد المعطي الصياد . القاهرة ، الادارة العامة للثقافة ، ١٩٦٠ م .
- ٣٥ - يوسف ، جوزيف نسيم . العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الاولى . الطبعة الثانية . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٧ م .
- ٣٦ - اليونيني ، قطب الدين ، أبو الفتح موسى بن محمد . ذيل مرآة الزمان . حيدر آباد الدكن ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ١٩٥٤ م .



القهرس العام

- ١ -

ابن الأثير ١٠

ابن قنري بردي ١١

ابن خلدون ٤٣٦

ابن خلكان ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧٥ ، ٢٩١ ، ٢٩٣

ابن شداد ١٠ ، ١١ ، ١٢

ابن الفرات ١١

ابن كثير ١١

ابن المشطوب ٤٩ ، ٢٢٦

ابن واصل ١١

ابو سعيد عثمان المريني ٩٤ ، ٤٣٦ ، ٤٥٤ - ٤٦٢

أبو شامة ١٠ ، ١١

أحمد [ملك مغولي] ٨٠ - ٧٢ ، ٣٦٨ - ٣٨٣

أرناط ٤٠

الأسبتارية ٥٩ ، ٢٥٥ ، ٢٦١ ، ٢٨٣

اسد الدين شيركوه ٣١ ، ١٠٨ - ١١١

الأشرف خليل ٦٢ ، ٨٣ ، ٣٠١ ، ٣٢٤ ، ٣٨٣

أطلس ٤٤٤ - ٤٤٥

أماريك : افطر : مري

أفر ٢٩ ، ١٠٦ ، ١٠٧

إنطاكية ٢٧ ، ٦٠ ، ١٠٢ ، ٢٧٥

أوربان الثاني ٢٦ ، ٩٩

- ب -

بانياس [جنوبي دمشق] ٣٣ ، ٣٢

بردويل [ملك صليبي] ١١٨ ، ٣٤

برقوق : انظر : الظاهر برقوق

بركة بن بيبرس ٢٨٣ ، ٥٨

بغداد ٦٥ ، ٦٧ ، ٨٠ ، ١٢٠ ، ٢٣٩ ، ٣٦٨

بغديون [ملك صليبي] ١٠٣ ، ١٠٥

بلاد الشام . انظر : سورية

بلدوين [ملك صليبي] انظر : بغديون

بوهيموند ٦٠ ، ١٠٢ ، ٢٧٩ ، ٢٩٤

بيبرس : انظر : الظاهر بيبرس

البيت المقدس : انظر : القدس

بيموند : انظر : بوهيموند

- ت -

تيمورلنك ١٤ ، ٦٦ ، ٧٩ ، ٨٧ - ٩٤ ، ٢٠٤ - ٤٦٢

- ج -

جنگيز خان ٦٦ ، ٧٩ ، ٣٤٢

- ح -

حطين ٣٨ - ٤١ ، ١٣٠ - ١٣٦

حلب ٣٢ ، ٧٢ ، ٨٣

حصص ٨٠ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٣٦٤

- خ -

خوارزمشاه ٦٦ ، ٣٣٩ - ٣٤٢

- د -

الداوية ١٢٧

دمشق ٢٨ ، ٢٩ ، ١٠٣

دمياط ٥٥ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩

- ٤٨٢ -

- ر -

الرها ٣٢، ٢٧

ريشارد قلب الاسد ٤١، ٥٠، ٢٢٨ - ٢٣٧

- س -

السلاجقة ٢٠ ٢١، ٨٠

سلاجقة الروم ٤٢، ٤٣

سورية ١٧، ٢٠، ٥٥، ٨٨، ٢٤٧

السيوطي ١١

- ش -

شاوور ٣٠، ٣١، ١٠٨ - ١١١

الشوبك ١٧٧

شيركوه : انظر : اسد الدين شيركوه

- ص -

الصالح نجم الدين الايوبي ٥٦، ٢٥٠

صلاح الدين الايوبي ١١، ١٢، ٢٢، ٣٤ - ١١٨، ٥٣ - ٢٤٣

صفد ١٣٤، ١٧٧، ٢٥٧

صور ٦٢، ١٠٣، ٣١٦

- ط -

طرايلس ٢٧، ٣٤، ٦٠، ٢٥٢، ٢٩٩، ٣٠٦

طفتكين ٢٨، ٢٩، ١٠٣

- ظ -

الظاهر برقوق ٨٨ - ٩٢، ٤٢٠، ٤٢٢، ٤٢٤ - ٤٣٦

الظاهر بيبرس ٢٢، ٥٧، ٥٨ - ٦٢، ٢٥٢ - ٢٩٥، ٣٦٢

- ع -

العادل ٣٨، ٤٧، ٥٤، ١١٩، ٢١١، ٢١٢، ٢٢٨ - ٢٣٧، ٢٤٤ - ٢٤٦

العاقد ١٠٨

- ٤٨٣ -

عسقلان ٢٢٤ ، ٢٣٧ -

حكا ٤٤ ، ٤٥ - ١٩٠ ، ١٧٧ ، ٤٩ ٣١٣ ، ٢٢٥

المعاد الاصفهاني ١١ ، ١٢

عماد الدين زنكي ٢٢ ، ٣٢ ، ٣٧ ، ١٠٦

عيسى المعظم ٥٥ ، ٢٤٩

عين جالوت ٧٣ ، ٣٥٨ - ٣٦٠

- غ -

غازان ٧٩ ، ٨٣ - ٨٧ ، ٣٨٣ - ٤١٩

غزة ١١٣ ، ١٢٧

- ف -

فرج بن برقوق : انظر : الناصر فرج بن برقوق

فريدريك الثاني ٢٤ ، ٥٤ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨

فريدريك بربروسا ٤١

- ق -

قازان : انظر : غازان

القاضي الفاضل ٣٦ - ٣٧ ، ١١٢ ، ١٢٩ ، ٢٤٤ - ٢٤٦

القدس ٢٧ ، ٣٤ ، ٣٩ ، ٥٤ ، ١٣٧ - ١٧٣ ، ٢٢٦ ، ٢٤٧

قطز ٧٢ ، ٣٥٤ - ٣٦٠

قلاون : انظر : المنصور قلاون

القلقشندي ١٠ ، ٣٤

- ك -

كاغيكوس ٤٣ ، ١٨٣ - ١٨٦

الكامل ٥٤ ، ٢٤٧ - ٢٤٩

الكرك ١٧٧

- ل -

لريس التاسع ٥٦ ، ٢٥٠

- م -

محمد بن قلاون : انظر : الناصر محمد بن قلاون

محي الدين بن عبد الظاهر ٥٩ ، ٧٧ ، ٢٧٥ ، ٢٩١ ، ٣٠٦

مري [ملك صليبي] ٣٥ ، ١٠٨ - ١١١

المستعصم بالله [خليفة عباسي] ٦٨ - ٧١ ، ٣٤٥ - ٣٥١

المستنصر بالله [خليفة فاطمي] ٧١

مصر ١٧ ، ٢٠ ، ٥٥

المظفر ٣٨ ، ١٢٢

المقريزي ١١

الملك الأفضل [وزير فاطمي] ١٠٣

المنصور قلاون ١٤ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ٢٩٥ - ٣٣٦ ، ٣٦٤

٣٦٩ - ٣٧٣

المنصورة ٥٧ ، ٢٥١

مودود ٢٩ ، ١٠٣

- ن -

الناصر فرج بن برقوق ٨٨ - ٩٤ ، ٤٣٩ - ٤٥٤ - ٤٦٢

الناصر لدين الله [خليفه عباسي] ٤٤ ، ٥٣ ، ١٤٥

الناصر محمد بن قلاون ٦٤ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٣٨٣ ، ٤١٠ ، ٤١٣ ، ٤١٦

نور الدين الشهيد ١٠ ، ١٢ ، ٢٢ ، ٣١ ، ٣٢ - ٣٢ ، ١١١ - ١١٨

- ه -

الهمذاني ، رشيد الدين ١١ ، ١٤

هولاكو ٦٧ ، ٦٨ - ٧٥ ، ٧٩ ، ٣٤٣ ، ٣٤٥ - ٣٦٢

- ي -

يافا ١٦٣ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠

يوسف بن أيوب : انظر : صلاح الدين الأيوبي

- ٤٨٥ -

قائمة المحتويات

صفحة	
٥	١ - الاستهلال
٧	٢ - فصل تمهيدي
٩	-- مصادر المعلومات عن الغزوين الصليبي والمغولي
١٦	-- خطة الكتاب
١٧	-- الحروب الصليبية ومفهومها
٢٥	-- مراحل الحروب الصليبية
٢٥	دور التفوق الصليبي
٢١	دور توازن القوى
٣٢	عصر نور الدين الشهيد
٣٤	عصر صلاح الدين الايوبي
٣٨	معركة حطين وما سبقها وما تبعها
٤١	الحرب الصليبية الثالثة
٥٣	دور الانهيار الصليبي
٥٤	بقايا الايوبيين
٥٧	عهد المماليك
٦٥	-- الغزو المغولي
٦٦	الدور الاول من ادوار الغزو المغولي
٧١	في العصر المملوكي بعد سقوط بغداد
٧٩	المغول المسلمون
٨٣	غازان
٨٧	تيمورلنك

صفحة	
٩٥	٣ - القسم الاول : وناثق الحروب الصليبية
٩٧	أ - الدور التمهيدي
١٠٢	ب - دور التفوق الصليبي
١١١	ج - دور توازن القوى
١١١	١ - نور الدين الشهيد
١١٨	٢ - صلاح الدين الأيوبي
١١٨	أ - أيامه الاولى
١٢٩	ب - فترة تحرير الساحل السوري والقدس
	حجرد الفعل الصليبي والمعارك التي تجددت في بلاد الشام حق
١٨٢	انتهت بالهدنة بين الطرفين
	لمح موقف صلاح الدين من قدوم النجيدات الالمانية وغيرها
١٨٢	إلى بلاد الشام
١٩٠	ب - الموقف في عكا وحولها
٢٤٤	د - دور الانبياء الصليبي
٢٤٤	١ - بقايا الأيوبيين
٢٥٢	٢ - المماليك
٢٥٢	أ - الملك الظاهر بيبرس
٢٩٥	ب - الملك المنصور قلاون
٣٣٧	٤ - القسم الثاني : وناثق الفوز المغولي
٣٣٩	١ - الفترة المنتهية بسقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ
٣٥١	٢ - في العصر المملوكي بعد سقوط بغداد
٣٦٨	٣ - المغول المسلمون

صفحة	
٣٦٨	أ - السلطان احمد المغولي
٣٨٣	ب - القان قازان
٤٢٠	ج - تيمور لنك
٤٦٢	٥ - فهرس الوثائق
٤٧٧	٦ - مصادر الكتاب
٤٨١	٧ - الفهرس العام



تطلب جميع منشوراتنا من
الشركة المتحدة للتوزيع
ب. ج. د. شارع سوريا - بداية صناديق بعلبك
هاتف: ٢٩٥٥٠١ - مريب: ٧٤٦٠ - بريد: بعلبك